الفائز بجائزة مان بوكر الدولية لسنة 2015

لاسلو كراسناهوركاي

كآبة المقاومة

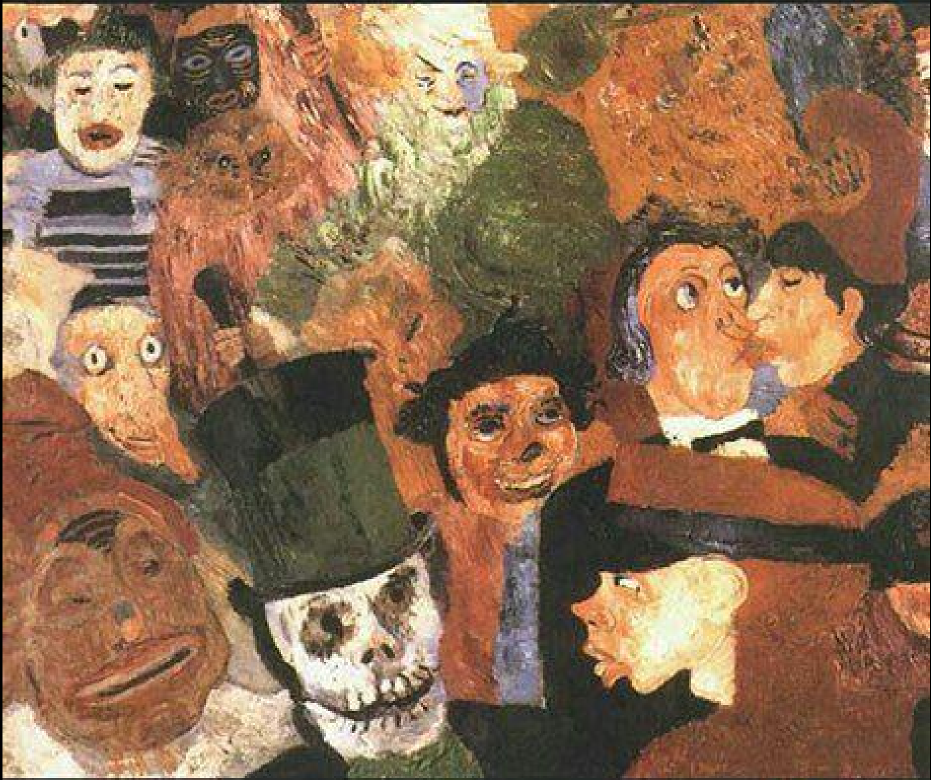

ترجمة: الحارث النبهان

رواية

التنوير

لاسلوكراسناهوركاي

كآبة المقاومة

ترجمة الحارث النبهان

دار التنوير 2020

مكتبة t.me/t_pdf

كلمة الغلاف

رواية سوريالية لها مكانة فاصلة في عالم الأدب، تصوّر سلسلة حوادث غامضة في مدينة صغيرة في هنغاريا. يصل إلى المدينة سيرك يعرض حوتًا محنطًا هو الأكبر في العالم فيثير وصوله شائعات عجيبة. تسري أقاويل تزعم أن للعاملين في السيرك غاية سرية خفية فيتشبث السكان المذعورون بأى شكل للنظام يستطيعون العثور عليه.

في الرواية شخصيات يصعب نسيانها: السيدة إيزتر الشريرة التي تهدف إلى الاستيلاء على مقاليد الأمور في المدينة، وزوجها الضعيف؛ وفالوسكا، بطلنا ذو الحظ العاثر صاحب الرأس السابح بين الغيوم، المركز الهش المؤلم في الرواية كلها، الشخص النقي الوحيد ذو الروح النبيلة.

رواية محكمة، قوية، متوترة، إنها بحسب الشاعر جورج سيرتس" حمم بطيئة من السرد المتدفق، نهر جبار أسود لا نظير له"، ولكنها بأعجوبة "تعلو بالقارئ في قفزات ووثبات فلكية" بحسب قول هاري كونزرو بالجارديان.

حالَةٌ طارِئَةٌ
مُقَدِّمَة

لما كان قطارُ الرُّكَّابِ الذي يَربطُ القُرى والمزارعَ في أرضِ الجنوبِ الواطئةِ التي كسَاها الجليدُ، تلكَ الأرضِ الممتدَّةِ من ضِفافِ نَهرِ تِيْزا حتَّى سفُوحِ جِبالِ كارَباتْ تقريبًا، لم يتمكَّنْ مِنَ الوُصُولِ على الرَّغْمِ من الشُّروحات المشوّشة التي قدَّمها حرسُ المحطَّةِ السائِرينَ بخُطواتٍ متعثِّرةٍ مشوَّشةٍ بدورِها، وعلى الرغَّمِ منْ وُعودِ مديرِ المحطَّةِ الذي يندفِعُ خارجًا إلى رصيفِ المحطَّةِ بعصبيَّةٍ ثم يندفِعُ مرةً أخرَى عائِدًا مِنْهُ (كانَ الحارسُ يقولُ وقدْ بدتْ على وجهِهِ معالمُ النَّكدِ، «حسنًا، يا سادَة! الظاهِرُ أنَّه اختفَى من غيرِ أيِّ أثرٍ...»)، فقد جرَى ربطُ العربتَينِ الوحيدَتَيْنِ الصالِحَتَيْنِ للاستخدامِ المزوَّدَتَينِ بمقاعِدَ خشبيَّةٍ واللتين جرَى استصلاحُهُمَا من أجْلِ هذهِ الحالاتِ «الطارِئَةِ» إلى قاطرةٍ عتيقةٍ غيرِ موثُوقَةٍ من طِرازٍ 424 لا يجري استخدامُها إلاَ باعتبارِها حلًا أخيرًا في حالاتِ الضَّرورةِ القُصوَى، لكنَّهم قرَّروا تشغيلَها آخرَ الأمرِ على الرَّغمِ منْ أنَ ذلك جاء متأخِّرًا ساعةً ونصفَ الساعةِ بالقياسِ إلى لائحةِ

مواعيدَ القطاراتِ الذي لم تكنْ مواعيدَ مُلزَمَة بأيَّة حالٍ من الأحوالِ، فضلًا عن أنَّها مواعيدُ تقريبيَّة أصْلًا.
وهكذا، صارَ المسافِرون من أهالي المنطَقَةِ، مِمَنْ كانوا ينتظرونَ القطارَ المتَجِهَ إلى الجنوبِ من غيرِ جدوَى وتقَبَّلوا تأخُّرَه بما بدا كأنّه مزيجُ من اللامبالاةِ والاستياءِ العاجزِ قادِرينَ، آخرَ الأمْرِ، على الوصول إلى وُجْهَتِهِم التي لا تبْعُدُ أكثرَ من خمسينَ كيلومترًا على هذا الخطِّ الفرعِيِّ. وإذا شئْنا قولَ الحقيقةِ، فإنَّ أحدًا لم يعد يفاجئه شيءٌ من هذا كلِّه منذُ أن صارَ السَّفرُ بالقِطار خاضِعًا للظُّروفِ السَّائِدَةِ، مثْله مثْل كلِّ شيءٍ آخرَ: صارَتِ التَّوقُّعاتُ الطبيعيَّةُ العادِيَّةُ كُلُّها موضِعَ تَجاهُلٍ، وتعطَّلَتْ عاداتُ المرءِ اليوميَّةِ في ظل مناخ من الفوضى المضنية المنتشرة في كل حدب وصوب، تلك الفوضى التي جعلت المستقبل أمرًا يصعبُ توقُّعُه، وجعلتِ الماضي أمرًا يصعبُ تذكُّرُه، وجعلتِ الحياةَ العاديَّةَ منْعَدِمَةَ النِّظام على نحوٍ جعلَ الناسَ يفترضون أن من المحْتمَلِ حدوثَ أيّ شيءٍ غيرِ متوقَع... لن يُفتحُ البابُ حتّى لو لم يكنْ في البناء بابٌ غيرُه، وسينمو القَمْحُ إلى الأسفلِ متغلغِلًا في الأرضِ لا خارجًا مِنها! وبما أنَّ المرءَ ما عادَ قادِرًا على عدَم ملاحظةِ أعراضِ التفسُّخِ والخرابِ، فما منْ سبيلٍ إلى سبرِ أغوارِ ذلك ولا إلى فهْمِه، وما من شيءٍ يستطيعُ أيُّ شخصٍ فعلَه عدا

التمسُّك بقوَّةٍ وإصرارٍ بأيِّ شيءٍ لا يزالُ ملْموسًا. وهذا بالضَّبطِ ما واصل أهلُ تلكَ القريةِ المحيطةِ بمحطَّةِ القطارِ فعلَه عندما اجتاحوا أبوابَ العربتَين آملِين في الحصولِ على المقاعِدِ المحدودةِ العددِ التي من حقِّهم أن يحصلوا عليها، لكنَّ فتحَ الأبوابِ المتجمِّدة كان صعبًا أولَ الأمر. ساهمَتِ السيِّدة بلوفْ في هذا الصِّراعِ العقيمِ مساهمةً كاملةً (كان صِراعًا عقيمًا، في الحقيقةِ، لأنَّ أحدًا لم يبقَ واقِفًا في آخرَ الأمْرِ... هذا ما اكْتشَفَه المسافرون سريعًا)؛ وقد اتَّفقَ أَنْ كانتْ مسافرةً في طريقِ عودتِها إلى منزلِها بعد زيارتِها الشتويَّة لأقارِبها. بعد أنْ أزاحتْ جانبًا من كانوا يعترِضون طريقَها، واستخدمتْ هيكَلَها الضئيلَ لصدِّ الحشدِ الذي يضغطُ عليها ويدفَعُها من الخلفِ إلى أنْ ضمَنَتْ لنفسِها مقْعَدًا عكسيَّ الاتِّجاه عندَ النَّافِذَةِ، ما عادتْ قادرةً على التَّمييزِ بينَ شعورِها بالسَّخْطِ والغضبِ إزاءَ ما تعرَّضتْ له من دفْعٍ ولكْزٍ غيرِ مُحْتَملَيْنِ، وشعورٍ آخر يتذبذبُ بينَ الحَنَقِ والكَرْبِ الناتجَين عن إدراكِها أن تذكرةَ الدَّرجةِ الأولى التي معها صارتْ من غيرِ أيِّ قيمةٍ تحتَ وطأَةِ رائِحَةِ مقانِقَ الثُّومِ الخانقةِ ممتزجةً بأبخرةِ البرانْدي المصْنوعِ من خَلِيْطٍ من أنواعِ الفاكهةِ وروائحَ التَّبْغِ الرخيصِ اللاذعَة. فعلى الرَّغْم من تذْكَرَتِها تلكَ، كانتِ الآنَ محاطةً بحَلَقَةٍ تكاد تكون خطيرةً مكوَّنَةٍ من «عامَّة

الفلّاحين الذين يتجشّأون ويتكلّمون بأصواتٍ مرتفعة». لكنّها كانت مدركة، من قبْل، أنها ستجدُ نفسها في مواجهة حالةٍ حادةٍ من عدم اليقين، تلك الحالة التي يواجهها كلٌّ من يضع نفسَه بين من يقومون بهذا العمل المحفوف بالمخاطر، ألا وهو السفر هذه الأيام... بكلماتٍ أخرى، لم تكنْ تعرف إن كانت ستصل منزلها أصلًا. لكنَّ شقيقاتها، اللواتي يعشن في عزلة كاملة منذ أن جعلهنَّ التقدّم في السنِّ عاجزاتٍ عن الحركة، ما كنَّ ليغفرن لها أبدًا لو أنها أهملت القيام بزيارتها المعتادة لهنَّ في أوائل الشتاء. من أجلهنَّ وحدهنَّ، رفضت التخلّي عن هذا المشروع الخطير على الرَّغم من كونها واثقة، ككلِّ شخصٍ غيرها، من أن شيئًا من حولها قد تغيَّر تغيُّرًا جذريًا، بحيث صار المسلك الأكثر حكمةً في ظلِّ هذه الظروف أن يبتعد المرء عن هذا المخاطر كلِّها. على أن مهمَّة أن يكون المرء حكيمًا صاحيًا بحيث يتوقَّع ما قد يكون في انتظاره كانت مهمَّةً بعيدةً عن السّهولة كلّ البعد، وذلك أن تحولًا كبير الأثر (وإن يكن غير محسوسٍ) قد حدث في تركيبة الهواء المستقرَّة منذ الأزل، بل في تلك الآليّة التي كانت تسير من غير شائبة حتى ذلك الوقت، أو في ذلك المبدأ الذي لا يحمل اسمًا ـ المبدأ الذي يُشار إليه دائمًا بأنه ما يجعل العالم يسير، والذي يبرهن على وجوده دليلٌ بالغ القوة ألا وهو

ظاهرة وجود العالم نفسها -لكنه فقد بعض قوَّته على حين غرّة؛ وهذا ما جعل تلك المعرفة المثيرة للقلق بإمكانيّة وجود الخطر أمرًا أكثر قابليّة للاحتمال مما ينذرُ به الحسُّ السَّليم من أن أيَّ شيءٍ على الإطلاق يمكن أن يحدث فجأة، وبأن هذا «الأيَّ شيء» ـ لقد صار القانون الحاكم لاحتمال حدوث «الأي شيء» واضحًا في عملية التفسُّخ الجارية ـ يقود إلى قلقٍ أكبر من التفكير في أيَّة مصيبة شخصيّة فيجرِّد الناسَ تجريدًا متزايدًا من إمكانيّة تقييم الحقائق بعقول باردة. لقد صار من المستحيل تمامًا أن يعرف المرء رأسه من قدميه في زحمة الحوادث التي جرت خلال الشهرين الماضيين، تلك الحوادث التي غدت غريبة أكثر فأكثر. ولم يكن ذلك لمجرَّد أن قلَّة الانسجام في ذلك الخليط من الأنباء والإشاعات والتجارب الشخصيَّة التي يصعب العثور على أيّة صلة منطقيّة تربطها معها (قد تشتمل أمثلة ذلك على موجة البرد الحادّة المبكرة في أوائل شهر نوفمبر، والكوارث العائلية الغامضة، والتزايد السريع في حوادث القطارات، وتلك الإشاعات المفزعة عن عصابات من الأطفال المجرمين تقوم بتشويه النُّصُب العامة في العاصمة البعيدة...)، ولكن أيضًا لأن أيّ خبر من هذه الأخبار كلِّها لا يعني شيئًا في حدِّ ذاته، فقد بدت كلُّها نذُر شؤم لما كان يشير إليه عدد متزايد من الناس

باعتباره «الكارثة المقتربة الوشيكة». وقد سمعت السيدة بلوف أيضًا أن من الناس من بدأ يتحدَّث عن تغيُّرات غريبة في سلوك الحيوانات! صحيح أن أحاديث من هذا النوع يمكن إغفالها واعتبارها ثرثرةً ضارةً غير مسؤولة (في الوقت الحاضر على الأقل، رغم أن أحدًا لا يعرف شيئًا مما قد يحدث في ما بعد)، فإن هنالك أمرًا يظلُّ مؤكَّدًا، ألا وهو أن السيدة بلوف كانت مقتنعة، خلافًا لآراء الذين كان هذا كلِّه في نظرهم حالة فوضى تامة، بأن الأمر على العكس من ذلك تمامًا لأنه آتٍ في وقته الصحيح على اعتبار أنَّ أية سيدة محترمة ما عادت تجرؤ على الخروج من بيتها، وكذلك على اعتبار أن قطارًا يمكن أن يختفي «على هذا النحو»، فما من «معنى لأي شيء بعد الآن»... أو أن تفكيرها لم يجد أي معنى في ذلك. هكذا أعدَّت نفسها ذهنيًا للسفر عائدة إلى المنزل... سَفْرة ستكون أقلّ سلاسة بكثير من سَفرة القدوم لأنها تنعَّمت فيها بتلك المكانة الاسمية -»مسافرة في الدرجة الأولى»-؛ وقد راحت الآن تتأمّل ما حولها متوتِّرة وتقول في نفسها إنَّ «أي شيء يمكن أن يحدث على هذه الخطوط الفرعية المخيفة»، ومن الأفضل أن يُعِدَّ المرءِ نفسه للأسوأ. هذا ما جعلها تجلس مثلما قد يجلس شخص يسعده أن يجعل نفسه خفيًّا عن الأنظار... جلست منصوبة الظهر وقد شدَّت ركبتيها

معًا كأنها تلميذة مدرسة، واكتسى وجهها تعبيرًا باردًا فيه شيء من الازدراء. هكذا كانت جالسة بين ذلك الجمع المتضائل ببطء ممن كانوا لا يزالون يبحثون عن أماكن لجلوسهم. صحيحٌ أن عينيها المرتابتين ظلَّتا مستمرَّتين في مراقبة تلك الجمهرة المخيفة من وجوه غير محدَّدة منعكسة على زجاج النافذة، إلا أن مشاعرها كانت متأرجحة بين القلق والحنين، إذ راحت تفكِّر الآن في المسافاتِ اللعينة التي لا تزال أمامها، وتفكِّر في دفء البيت الذي تركته وراءها. كانت تتذكَّر العصريات اللطيفة مع السيدة ماداي والسيدة نوزبيك، وتتذكَّر نزهات أيام الأحد في الجادة التي تحفً بها الأشجار في «درب فرايرز»، وتلك السجَّادات الناعمة وقطع الأثاث الأنيقة في البيت، والانتظام المشعِّ بالهدوء لأزهار معتنى بها جيدًا، فضلًا عن ممتلكاتها الصغيرة كلِّها التي كانت تعرف جيدًا أنها ليست مجرد جزيرة في عالم لا يمكن فيه التنبؤ بأيِّ شيء، عالم صارت عصرياته وآحاده ذكرى فقط؛ إلا أن ذلك البيت كان ملجأً وعزاءً لامرأة وحيدة تعيش حياة منظَّمة محسوبة بحيث تنتج لها سلامًا وهدوءًا. من غير وعي منها، لكن مع درجة أكيدة من الازدراء الحسود، أدركت أن زملاءها المسافرين الصخّابين -يغلب الظن أنهم فلاحون أجلاف من أعمق زوايا القرى البعيدة- كانوا يكيِّفون أنفسهم سريعًا حتى

مع هذه الأحوال غير المواتية. فقد كان الوضع، بالنسبة إليهم، وكأنَّ شيئًا غير معتاد لم يحدث أبدًا. علت في كل مكان أصوات قرقعة الأغلفة الورقية التي تنفتح، وبدأ الطعام يوزَّع هنا وهناك، وسدادات زجاجات الشَّراب تفرقع، وأغطية علب البيرة تتساقَط على الأرض الملوَّثة بالشحوم. منذ الآن، صارت تسمع هنا وهناك ذلك الضجيج «المحسوب بحيث يكون مسيئًا إلى أعمق مشاعر المرء». لكن، في رأيها، كان ذلك القضم والبلع كلّه «أمرًا عاديًا تمامًا لدى العوام»؛ ثم زاد عليه أن الأربعة الجالسين قبالتها (من أكثر الناس صخبًا) قد بدأوا بلعب الورق. ظلَّت متروكة وحدها، جالسة جلسة أكثر تصلبًا من ذي قبل وسط تلك الجلبة البشريَّة التي لا تنفك تزداد ارتفاعًا... ظلَّت جالسةً وقد أدارت وجهها إلى النافذة بكلِّ تصميم؛ وكانت صحيفة تحمي معطفها الفرائي من المقعد المتسخ، بينما أمسكت يداها حقيبتها المقفلة ذات المشبك بذلك الارتياب المصمّم المذعور، فلم تكد تلاحظ القاطرة التي انطلقت وراح مصباحاها الأحمران يجوسان الظلمة المتجمِّدة متقدِّمين تقدُّمًا غير واثقٍ في ذلك المساء الشتائي. كانت زفرتها الخفيَّة مساهمتها الوحيدة في ضجيج الارتياح العام (صيحات حبور، ونخير رضا لأن شيئًا قد بدأ يحدث أخيرًا بعد فترة الانتظار الصقيعية الطويلة). إلا أن هذا لم يستمر

طويلًا لأن القطار توقَّف -بعد أن ابتعد نحو مئة متر عن رصيف محطة القرية الذي صار الآن صامتًا، وبعد بضع اهتزازات خرقاء-... توقَّف القطار مترجرجًا وكأن الأمر الذي سمح لهم بالانطلاق قد ألغي على غير توقُّع. إلا أن صيحات القنوط سرعان ما أخلت المكان لضحكات حانقة حائرة بعد أن أدرك الناس أن من المرجَّح لهذا الوضع أن يستمر، وأنهم مرغَمون على قبول حقيقة أن رحلتهم ستكون محكومة بهذا التأرجح الحزين بين التوقُّف والاندفاع إلى الأمام... ربما كان سبب ذلك هو ازدياد حالة الفوضى نتيجة استخدام قطار من خارج جداول الرِّحلات المقرَّرة... فلم يلبث الناس أن ارتدُّوا إلى لا مبالاة مازحة وانعدام فهمٍ بليدٍ من ذلك النوع الذي يظهر عندما يضطر المرء إلىً قبول حقائق بعينها؛ وهذا ما يفيد في بيانٍ كيف يتصرَّف الناس عندما يحاولون -بعد أن يفشلوا فشلًا شنيعًا في فهم شيء من الأشياء- أن يكبتوا الخوف الناجم عن صدمتهم الحقيقية بنظام يبدو أن الفوضى قد استولت عليه، إذ إن من غير الممكن ملاقاة تلك الحالات المتكرِّرة من غير كلل إلا بهذا النوع من السخرية الجافَّة. وعلى الرغم من أن المزاح الخشن المستمرَّ من غير انقطاع («لا بدَّ من الحذر الكثير عندما أكون مع الزوجة في السرير») قد كان مؤذيًا لحسِّها المرهف في الأحوال المعتادة، فإن

ذلك التيار المتواصل من نكات لا تنفك تزداد جلافة... نكات كان صاحب كلِّ واحدة منها يأمل في التفوُّق على من سبقه، نكات بدأت وتيرتها تتراجع على أية حال... كان له أثر مرخٍ للأعصاب، حتى على السيِّدة بلوف.

ومن حين لآخرٍ، مرات كثيرة، كانت تجد نفسها عاجزةً عن كبت ابتسامة صغيرة خجولٍ كلما سمعت نكتة جيّدة (ما من مهرب حقيقي من سماع الضحك الخشن الذي ينفجر بعد كل نكتة). بل إنها غامرت، خفية وبكل حذر، ببضع التفاتات سريعة، لا إلى جيرانها القريبين بل إلى من كانوا جالسين في أماكن أكثر بعدًا. وفي ذلك الجو الغريب من الروح المرحة المجنونة -ظلَّ شاغلو العربة (أولئك الرجال الذين يضربون بأيديهم على أفخاذهم، والنساء اللواتي تقوقئن بأفواه ممتلئة طعامًا) مخيفين بعض الشيء، لكنّهم بدو الآن أقلّ خطرًا مما كانوا قبل ذلك- حاولت إبقاء مخيِّلتها القلقة في حالة تأهب، وراحت تقول في نفسها إنها قد لا تضطر فعلًا إلى مواجهة ما يترصَّدها من أهوال هذا الحشد الغوغائي البشع المعادي الذي كانت غريزتها تنبئها بأنها محاطة به، وإن قلقها ذلك قد لا يكون ناتجًا إلا عن شدّة حساسيتها تجاه نذر سوء الطالع وشعورها المبالغ فيه بالعزلة في بيئة باردة أجنبية من هذا النوع، وإنها قد تصل بيتها من غير أن يصيبها أذى، لكنها ستكون

مرهَقة مستنفدة القوى نتيجة حالة اليقظة المتأهِّبة الدائمة التي هي فيها الآن. إذا أردنا قول الحقيقة، فإن ما من أساسٍ حقيقيٍّ للأمل بهذه الخاتمة السعيدة؛ لكن السيدة بلوفً لم تكن قادرة على مقاومة إغراء التفاؤل: على الرغم من توقُّف القطار مرّة أخرى في مجاهل الليل، وبقائه منتظرًا دقائق طويلة لا تنتهي، فقد استنتجت أنهم يحقِّقون بعض التقدُّم، وتمكَّنت من ضبط نفاد صبرها المتوتِّر الناتج عن زعيق المكابح المنتظم -المتكرر كثيرًا- وفقرات التوقّف التي لا مهرب منها. أرغمها الدفء المريح الناتج عن تشغيل التدفئة عندما انطلق القطار على التجرُّد من معطفها حتى لا تظل لديها خشية من الإصابة بالرشح عندما تخرج من العربة لتسير في الريح الصقيعية عند وصولها. نسّقت طيَّات الشال الذي وضعته من خلفها، وبسطت دثار الفرو الصناعي على ساقيها، وشبكت أصابعها فوق حقيبة يدها المنتفخة بوشاح رقبتها الذي وضعته فيها، وجلست -بظهرها المنتصب دائمًا- تنظر مجدَّدًا عبر النافذة، فوجدت نفسها وجهًا لوجه، هناك، في الزجاج القذر، مع رجل غير حليقٍ «صامت على نحو غريب»، يعبّ البراندي ذا الرائحة الواخزة من زجاجة في يده. لم تكن الآن مرتدية شيئًا غير قميصها والسترة الصغيرة من فوقه؛ وكان الرجل يحدِّق (بشهوة) في ثدييها الكبيرين اللذين لعلهما

كانا بارزين كثيرًا. «كنت أعرف هذا!» ـ وبسرعة البرق، على الرغم من موجة التورُّد الحارّ التي اجتاحتها، أدارت رأسها بعيدًا متظاهرةً بأنها لم تلاحظ شيئًا. ظلَّت بضع دقائق لم تحرِّك فيها عضلة واحدة، بل واصلت التحديق الأعمى في الظلمة خارج النافذة، عبثًا، محاولة أن تتذكَّر مظهر الرجل (لم تفلح إلا في استعادة «وجهه غير الحليق ومعطف الجوخ القذر كثيرًا، على نحو ما» وتحديقه الفظِّ، المخاتل على الرغم من انعدام حيائه، ذلك التحديق الذي وجدته شديد الإزعاج...).

ثم، ببطءٍ شديدٍ، واثقة من أنها لا تغامر بشيء إن فعلت ذلك، سمحت لعينيها بالانزلاق عبر الزجاج، لكنها انسحبت على الفور بعد اكتشافها أن «المخلوق المعنيّ» كان مصرًّا على مواصلة «وقاحته»، وأن عيونهما قد تلاقت. كانت كتفاها ورقبتها وأعلى ظهرها تؤلمها كلّها بسبب الوضعية المتيبسة لظهرها، لكنها صارت غير قادرة على تحويل عينيها حتى إن أرادت هي ذلك لأنها أحسَّت بأن نظرته الثابتة المخيفة سوف تغزو كلَّ زاوية من زوايا العربة و«تصطادها» كيفما حوَّلت نظرها بعيدًا عن النافذة المظلمة. «منذ متى ينظر إليَّ؟». جرح هذا السؤال السيِّدة بلوف كأنه سكين؛ وكان احتمال أن عيني الرجل القذرتين كانتا «عليها» منذ بداية الرحلة، قد جعل من تحديقه الذي فهمت معناه بلمح البصر،

لحظة التقاء عيونهما، يبدو أكثر إثارة للذعر أكثر من ذي قبل. فبعد كلِّ حساب، كانت هاتان العينان ناطقتين ب»رغبات قذرة» على نحو يثير الغثيان ـ بل «أسوأ من ذلك!»، ارتعدت، وبدا لها كأن نوعًا من الازدراء الجافّ كان مشتعلًا في تلك العينين. صحيح أنها لم تكن قادرة على اعتبار نفسها امرأة عجوزًا (ليست كذلك بالضبط)، لكنّها كانت تعرف أنها تجاوزت السن التي لا يزال عندها هذا النوع من الاهتمام أمرًا طبيعيًا» - ليس أمرًا غير مألوف أن تراه متَّجهًا إلى غيرها- لذا، وإضافة إلى ذعرها منه (أي نوع من البشر هو حتى يكون قادرًا على اشتهاء نساء متقدِّمات في السنِّ؟)، فقد أصابها ذعر آخر لإدراكها أن هذا الشخص الذي تفوح منه رائحة البراندي الرخيص قد لا يريد شيئًا، إلا أن يحقِّرها ويسخر منها ويهينها ثم يرميها ضاحكًا «مثل خرقة عتيقة». بدأت سرعة القطار تتزايد بعد بضع اهتزازات عنيفة، وراحت عجلاته تقعقع غاضبة على السكة، فاستولى عليها شعور منسي منذ زمن بعيد، شعور بالحيرة والحرج الشديد لأن ثدييها الممتلئين راحا ينبضان ويشتعلان تحت عيني الرجل الخطيرتين المثبتين عليهما. وأما ذراعاها اللتان كانتا، على الأقل، قادرتين على تغطية ثدييها، فقد رفضتا أن تطيعانها. ونتيجة ذلك، ازداد إحساسها بالانكشاف والهشاشة،

وبأنها أكثر عريًا، وصارت أكثر إدراكًا لحقيقة أنها ستجذب مزيدًا من الأنظار إليها كلما ازداد توقها إلى ستر أنوثتها الجامحة المترجرجة. فرغ لاعبو الورق من جولة أخرى، وانفجرت بينهم مشاحنات خشنة طغت على ضجيج العربة العادي، الذي جعلها تحسُّ بالشلل وقطع الأربطة التي كانت تثبتها وتحول بينها وبين الفرار. كان شبه مؤكَّد أنها أوشكت على النجاح في التغلب على خَدَرها المشؤوم لولا أن شيئًا أسوأ مما سبق قد حدث فجأة... شيئًا كانت غايته الوحيدة (أدركت هذا فزعة) تتويج معاناتها. لقد كانت تحاول إخفاء ثدييها (مدفوعة بإحراجها الغريزي وبمحاولتها غير الواعية للدفاع عن النفس) عن طريق إمالة رأسها وإحناء ظهرها بطريقة غريبة ودفع كتفيها إلى الأمام... فأدركت في لحظة ذعر أن حمَّالة ثدييها -لعل ذلك حدث نتيجة الجهد الجسدي الذي بذلته- قد انحل رباطها من خلف ظهرها. رفعت رأسها مذعورة فلم تفاجئها أبدًا رؤية عيني الرجل لا تزالان مثبتتين عليها... عينانِ غمزتا لها غمزة تواطؤ كأنهما انتبهتا إلى سوء حظِّها السخيف. أدركت السيدة بلوف -إدراكًا جيِّدًا جدًّا- ما سيحدث بعد ذلك؛ إلا أن هذا الحدث القاتل أزعجها كثيرًا، فلم تستطع شيئًا غير أن تظلَّ جالسة متيبِّسة أكثر من ذي قبل في ذلك القطار الذي راحت حركته تزداد

سرعةً. أحسَّت بالعجز أيضًا، وتوهَّج خدّاها حرَجًا، لأنها وجدت نفسها مضطرَّة إلى معاناة نظرة الفرح الخبيث في تلك العينين الواثقتين الناطقتين بالازدراء، اللتين صارتا الآن معلَّقتين بثدييها الطليقين، المتواثبين فرحًا بعد أن تحررا من قيديهما، فصارا يعلوان ويهبطان مع اهتزاز العربة. لم تجرؤ على رفع عينيها مرة أخرى لكي تتحقَّق من الأمر؛ لكنها كانت واثقة من أنه هكذا: لم يعد ينظر إليها ذلك الرجل وحده، بل إن أولئك «الفلاحين الكريهين» كلهم كانوا ينظرون إلى ورطتها؛ وكانت تستطيع -عمليًا- رؤية وجوههم الباسمة، الجشعة، القبيحة تحيط بها من كل ناحية. كان من الممكن أن يستمرَّ هذا التعذيب من غير نهاية لولا وصول مفتِّش التذاكر (شاب مراهق مصاب بحالة حادة من حبّ الشباب).

دخل المفتّش العربة من جهة المقصورة الأخيرة، فحرَّرها صوتُه الذي صار خشنًا متكسِّرًا منذ وقت وجيز («تذاكر، من فضلكم!») من ورطتها المخجلة، اختطفت تذكرتها من حقيبتها وطوت ذراعيها تحت ثدييها. توقف القطار من جديد، لكنه توقَّف حيث كان يجب أن يتوقَّف. ما كان لديها ما تفعله -حتى لمجرَّد تفادي الاضطرار إلى رؤية تعابير الوجوه المخيفة

المحيطة بها- إلا أن تقرأ، على نحو تلقائي، اسم القرية المكتوب على لوحة واهية الإنارة على رصيف المحطّة، فكادت تطلق صيحة انفراج لأنها عرفت ذلك الاسم، الذي كان مألوفًا لديها نتيجة مراجعتها جداول حركة القطارات مراجعة شاملة قبل كل سَفرة من سَفراتها. عرفت الآن أنه لم يبق إلا بضع دقائق قبل الوصول إلى البلدة الريفية حيث ستصير -بالتأكيد- حرّةً من هذا الضغط المؤذي الواقع عليها («سوف ينزل من القطار! لا بد أن ينزل من القطار!»). جلست متوتِّرة لشدَّة إثارتها، وراحت تراقب التقدُّم البطيء لمفتش التذاكر على الرغم من الصخب الفظيع الصادر عن أولئك، الذين أرادوا أن يعرفوا منه سبب تأخُّر القطار إلى هذا الحدِّ.

كانت قد اعتزمت أن تطلب مساعدته فور وصوله إليها، لكنَّها رأت وجهه الطفولي وقد اكتسى تعبير عجز شديد في خضم ذلك الهرج والمرج المحيطَيْن به... تعبيرًا يصير من المستبعد معه أن يستطيع صاحبه تقديم ضمانة بتوفير أيّة حماية رسميّة لها. كان اضطرابها قد بلغ حدًّا جعلها تسأله عن موضع الحمّام. أجابها الصبي متوتِّرًا وهو يثقب تذكرتها: «وأين يمكن أن يكون؟ إنه حيث يكون دائمًا. واحد في أول العربة وواحد في آخرها». غمغمت السيدة بلوف: «آه، نعم، بالطبع».

أومأت إيماءة اعتذار، ثم وثبت من مقعدها ضامة حقيبة يدها إليها، وسارت في الممرِّ صوب آخر العربة متمايلة يمينًا ويسارًا مع انطلاق القطار من جديد. وما إن وصلت مكان العزلة المتنكر على هيئة «WC»، حتى استندت لاهثة إلى الباب المقفل فلم تلبث أن أدركت أنها تركت معطفها الفرائي معلَّقًا على الخطَّاف عند النافذة. كانت تعرف أن عليها أن تتحرَّك بأسرع ما تستطيع، لكنها -على الرغم من تخلِّيها عن أيِّ تفكير في الاندفاع عائدة من أجل معطفها الثمين- ظلَّت دقيقة كاملة قبل أن تتمالك نفسها وتخلع سترتها وهي تتمايل أمامًا وخلفًا بفعل اهتزاز القطار، ثم تنزع قميصها من فوق رأسها وتمسك بالسترة والقميص وحقيبة اليد تحت ذراعها، وترفع قميصها الداخلي الوردي حتى كتفيها. كانت يداها ترتجفان لاستعجالها وتوتُّرها عندما أدارت حمالة الثديين فرأت («الشكر للرب!») أن مشبكها لم ينكسر. تنفَّست الصعداء، وعادت ترتدي ثيابها على عجل عندما سمعت من خلفها صوتًا خفيضًا، لكنه مسموع بوضوح، لشخص ينقر على الباب من الخارج. كانت لتلك النقرات على الباب مسحة أُلفة غريبة نجحت في إخافتها -أمر طبيعي تمامًا في ضوء ما جرى حتى تلك اللحظة- لكنَّها قالت في نفسها إن خوفها قد لا يكون أكثر من نتاج خبيث لمخيلتها ذاتها، فاستاءت لأن هناك من يستعجلها

هكذا، وتابعت حركتها التي توقَّفت في منتصفها، ثم ألقت على المرآة نظرة أخيرة وكانت موشكة على مدِّ يدها على مقبض الباب عندما سمعت دفعة جديدة من نقرات نافدة الصبر سرعان ما أعقبها صوت يقول: «هذا أنا!». سحبت يدها مذعورة، ولم تكد تتشكَّل في رأسها فكرة عمن قد يكونه هذا الشخص حتى داهمها إحساس بأنها واقعة في مصيدة، إحساس لم يفُقْهُ قوةً إلا إحساسها بعجزها عن فهم ما يجعل هذا الصوت الذكوري المتحشرج المخنوق خاليًا من أي أثر من آثار العدوانية أو التهديد، بل بدا لها -على نحو غائم- صوتًا ضجرًا، مستغربًا كون السيدة بلوف لم تفتح له الباب. جمدت كلّها ومرَّت بضع دقائق لم تتحرَّك خلالها أيّة عضلة فيها. كان كلٌّ منهما ينتظر كلمة توضيح من الآخر! أدركت السيدة بلوف الآن سوء الفهم الفظيع الذي وقعت ضحيته عندما فقد من يلاحقها صبره وجذب قبضة الباب وهو يصيح: «حسنًا، ما الأمر إذًا؟ أهذا كله إغراء من غير نتيجة؟!». نظرت إلى الباب مذعورة. لم ترد تصديق ذلك. هزَّت رأسها بمرارة وشعرت بتشنُّج في حلقها. فوجئت، مثلما يفاجأ كلّ من يتعرَّض لهجوم من زاوية غير متوقّعة - بأن تجد نفسها قد «وقعت في فخ جهنَّمي». عذَّبتها فكرة الظلم الفادح والفحش العاري للوضع الذي وجدت نفسها فيه. كان لا بدَّ لها من مرور

بعض الوقت حتى تستوعب -مهما كان ذلك غير معقول لأنها، في حقيقة الأمر، كانت تقاوم هذه الفكرة- حقيقة أن الرجل غير الحليق ظنَّ منذ بداية الأمر أنها كانت تستدرجه.

صار واضحًا لها كيف فسّر ذلك «الحيوان المنحطّ»، خطوةً بخطوةٍ، كل تصرُّف من تصرّفاتها: خلعها معطفها الفرائي... ذلك الفعل المشؤوم... ثم سؤالها عن الحمام - اعتبر ذلك دعوة له، بل اعتبره دليلًا قويًّا على تواطؤها معه. باختصار، كان ذلك الأمر أشبه بصفقة وضيعة تحمرُّ لها الوجنتان خجلًا، فلم يعد عليها الآن أن تتقبَّل ذلك الهجوم الفاضح على عفَّتها واحترامها فحسب، بل أيضًا حقيقة أن هذا الرجل القذر البغيض الذي تفوح منه رائحة البراندي قد وجد من حقِّه أن يكلِّمها كأنها «امرأة شوارع». تبيَّن لها أن الغضب الجريح الذي أخذ منها كل مأخذ قد كان أكثر إيلامًا لها حتى من إحساسها بانعدام الحول. وبما أنها -بصرف النظر عن أي شيء آخر - ما عادت قادرة على أن تطيق حبسها في المرحاض على هذا النحو، فقد صاحت به -يدفعها قنوطها- بصوتٍ يخنقه التوتر: «اذهب من هنا!... وإلا سوف أصرخ طالبةً النجدة!»، فظلَّ الرجلُ صامتًا لحظة عندما سمع هذا، ثم ضرب الباب بقبضة يده وقال لها بنبرة جعلها الازدراء باردة إلى حدٍّ أحسَّت

السيدة بلوف معه بالقشعريرة تسري في ظهرها... قال لها بصوت كالفحيح: «اللعنة عليك، أيتها العاهرة العجوز. أنت لا تستحقين أن أكسر الباب عليك. لن أجد متعة حتى في إغراقك في المرحاض». بدأت أنوار البلدة الريفية تومض عبر زجاج النافذة؛ وراحت عجلات القطار تقعقع على السكة؛ فكان عليها أن تتمسَّك بقضيب الاستناد المعدني حتى تقي نفسها من السقوط. سمعت صوت أقدامه مبتعدة عن الباب، ثم جاءها صوتٌ حادٌّ لصفق باب الممر المفضي إلى داخل العربة. وبما أنها فهمت من هذه الأصوات أنه تركها أخيرًا -تركها بالوقاحة الجسيمة نفسها التي كان يلاحقها بها- فقد غمرتها مشاعر جديدة جعلت جسمها كلّه يرتعش، ثم انفجرت دموعها.

صحيح أن الأمر لم يستغرق إلا لحظات قليلة، لكن تلك اللحظات بدت لها زمنًا أبديًا. ففي نشيجها الهستيري وإحساسها بالمهانة، رأت، من عُلوٍّ، وللحظة ساطعة قصيرة في الظلمة الكثيفة الهائلة، وجهًا صغيرًا يطلُّ عليها من نافذة القطار المتوقِّف المنارة: إنه وجهها... وجه ضائع، مشوَّه، عاثر حظ، ينظر إلى الخارج. وبما أنها كانت واثقة من أن ما من شيء جديد يحملها على الخوف من تلك الكلمات البشعة، القذرة، المرّة، وبأنها لن تتلقَّى إهانات جديدة، فقد ملأها فرارها قلقًا كبيرًا مثل

ذلك القلق الناجم من فكرة الاعتداء عليها. وذلك لأنها لم تكن لديها أيّة فكرة على الإطلاق عمّا جعلها تظفر بحريتها ذلك الظفر الذي لم يكن متوقِّعًا (كان أثر كل فعل من أفعالها -حتى الآن- ـ عكس ما أملته منه؛ كان عكسه تمامًا!). لم تستطع جعل نفسها تصدِّق أن صرختها اليائسة المختنقة قد أخافته وجعلته يذهب عنها، فقد كان إحساسها بأنها ضحية مسكينة لرغبات الرجل التي لا تعرف رحمةً، جزءًا من اعتبارها نفسها ضحيّة غافلة، بريئة للكون العدواني كلِّه، الذي لا سبيل مجديًا إلى الدفاع عن النفس في مواجهة صقيعه المطلق. كانت تلك هي الفكرة التي عبرت ذهنها. وكان ذلك كأن الرجل غير الحليق قد اغتصبها حقًّا. راحت تتمايل في دورة المياه معدومة التهوية الفائحة برائحة البول، وأحسّت بنفسها محطّمة، معذَّبة نتيجة شكِّها في أنها تعرف كل ما عليها معرفته، ونتيجة وقوعها في قبضة ذلك الذعر المتغيِّر دائمًا، الذي لا شكل له ولا سبيل إلى فهمه -ذعرُ اضطرارها إلى التماس حماية ما في وجه هذا الخطر الكوني. ما كانت منتبهة إلى شيء غير إحساسها بالمرارة التي تعذِّبها. ومع إحساسها بأن من الظلم كثيرًا أن تعتبر نفسها ضحيةً بريئةً، لا ناجية منتصرة، هي التي كانت «توّاقة إلى السلم طيلة حياتها، ولم تؤذِ روحًا حيَّة»، فقد رأت نفسها مرغمة على

الإقرار بأن ما من شيء يمكن أن ينتج عن الأمر كلّه: ما من سلطة تستطيع أن تشكو إليها أمرها، وما من أحد تستطيع أن تذهب إليه باحتجاجها، وما من أملٍ في أن قوى الفوضى التي انفلتت من عقالها قابلة للسيطرة عليها بعد الآن. فبعد هذا القدر كلِّه من القيل والقال، وهذا القدر كلِّه من ترويج الإشاعات المخيفة، صارت الآن قادرة على رؤية أن «كلَّ شيءٍ سائرٍ في سبيله إلى الخراب»؛ وذلك لإدراكها أن التهاوي في حالة من الفوضى العارمة لن يلبث أن يأتي في «عالم تحدث فيه هذه الأشياء»، على الرغم من أن ذلك الخطر المباشر الذي كان يتهدَّدها قد زال. أتتها من الخارج جلبة المسافرين نافدي الصبر الذي يستعدون لمغادرة القطار بعد أن تناقصت سرعته تناقصًا محسوسًا. تذكَّرت، وقد أصابها الذعر من جديد، أنها تركت معطف الفراء وحده من غير حراسة، ففتحت الباب مسرعة وخرجت إلى زحمة الناس (الذين راحوا يحتشدون عند الأبواب المغلقة نفسها التي احتشدوا أمامها عند دخولهم متجاهلين حقيقة أن لا معنى لذلك أبدًا). مضت متعثِّرة بين الحقائب وأكياس التسوُّق تشقُّ طريقها في اتجاه مقعدها. كان المعطف في مكانه، لكنها لم ترَ على الفور وشاحها المصنوع من الفراء الاصطناعي، فراحت تبحث عنه متوتِّرة وتحاول يائسة تذكُّر إن كانت قد

أخذته معها إلى المرحاض أم لم تأخذه. ثم لم تلبث أن داهمتها حماسة متوتِّرة لإدراكها أنها لم تر «مهاجمها» في أي مكان من حولها: قالت في نفسها وقد اطمأنت كثيرًا إن من الواضح أنه يجب أن يكون واحدًا من أول من غادروا العربة. توقَّف القطار تمامًا في هذه اللحظة؛ إلا أن العربة التي صارت أقل ازدحامًا -فرغت قليلًا- اجتاحتها الآن (على الفور تقريبًا) جمهرة أجساد أكبر من الجمهرة السابقة، وأكثر إثارة للذعر، إن كان هذا ممكنًا... أكثر إثارة للذعر لأنها صامتة! صحيح أنه كان سهلًا إدراك أن هذا الزحام القاتم سوف يثير لديها قلقًا مماثلًا خلال مسافة عشرين كيلومترًا بقيت من سفرتها، لكن صدمة أكبر من ذلك كانت لا تزال تنتظرها: إن كانت قد أملت في التخلُّص من الرجل غير الحليق، فإن خيبةً مُرةً لا تزال أمامها. بعد أن التقطت معطفها وتم أخيرًا العثور على الوشاح تحت المقعد اللامع الدافئ، فوضعته على كتفيها وخرجت -طلبًا للسلامة- باحثة عن عربة أخرى تكمل فيها رحلتها، لم تكد تستطيع تصديق عينيها عندما رأت معطف الجوخ نفسه ملقى كيفما اتفق على ظهر واحد من المقاعد البعيدة («وكأنه تركه واضحًا هنا حتى أراه»).

توقَّفت جامدة في مكانها، ثم مضت مسرعة فخرجت من باب العربة الخلفي إلى العربة التالية حيث راحت

تشقُّ طريقها بين جمهرة صامتة أخرى باحثة في وسطها عن مقعدٍ مواجه للخلف لم تلبث أن احتلَّته على الفور عندما عثرت عليه. ولبعض الوقت، ظلت عيناها متعلِّقتين بالباب. ظلَّت مستعدّةً للنهوض والفرار على الرغم من كونها ما عادت تعرف ممن ينبغي لها أن تخاف، لأن الخطر الكامن في ذلك الاتجاه قد صار مستبعدًا، ولأن ما من شيء سيئ قد حدث (لا يزال القطار متوقِّفًا في المحطة). حاولت استجماع ما بقي لها من قوة حتى تستطيع أن تكون -على الأقل- مستعدة إن حاقت بها أزمة جديدة. وفجأة، أحسَّت بتعب لا نهاية له، لكنها ما كانت قادرة على الاسترخاء -ولو قليلًا- على الرغم من أن ساقيها الضعيفتين كانتا تحترقان تحت بطانة حذائها الطويل الدافئة، وعلى الرغم من شعورها بأن كتفيها «على وشك الانهيار». لم تجرؤ حتى على إدارة رأسها ببطء لتخفيف ألم رقبتها، ولا على إخراج علبة الزينة الصغيرة من حقيبة يدها حتى تعالج وجهها المحمرِّ خوفًا. «لقد انتهى الأمر... انتهى! لا شيء يدعو إلى الخوف الآن». ظلّت تردِّد هذه الكلمات لنفسها من دون اقتناع: لا لانعدام هذه الثقة لديها فحسب، بل أيضًا لأنها كانت غير قادرة حتى على الاستناد إلى الخلف في مقعد التماسًا لقدر أكبر من الراحة من غير أن تزيد -هكذا كانت تفكر- مخاطر ترك نفسها غير

متأهبة. هذا لأن عربة القطار كانت تمتلئ بجمعٍ من الناس «القبيحين من كل ناحية مثلهم مثل الذين كانوا من قبلهم»، ممن لا يقلُّون إثارة للذعر عن الذين كانوا معها عند بداية رحلتها. لذا، كان أقصى أملها أن تظلَّ المقاعد الثلاثة الفارغة من حولها -آخر المقاعد الخالية- فارغة كما هي فتكون نوعًا من خطٍّ دفاعي لها. حقيقة الأمر هي أنه كانت هناك فرصة حقيقية لذلك، لوهلة على الأقل، لأن دقيقة كاملة انقضت (انطلقت صافرة القطار مرتين خلال تلك الدقيقة) من غير أن يدخل العربة أي مسافر. لكنْ، وعلى حين غرَّة، ظهرت امرأة تتقدَّم موجةً بشرية جديدة.

كانت تلهث بصوت مرتفع وهي حاملةٌ سلةً وحقيبةَ ظهرٍ هائلةٍ وعددًا من أكياس التسوُّق الممتلئة تمامًا. كانتْ امرأة ريفية ذات غطاء رأس ظهرت بباب العربة وأدارت رأسها يمنة ويسرة («مثل دجاجة...»)، هذا ما خطر

في ذهن السيدة بلوف، ثم خطت خطوة حاسمة في اتجاهها وهي تنخر وتلهث بطريقة عدوانية لم تترك مجالًا لأيَّة مناقشة. احتلت المرأة المقاعد الثلاثة بمتاعها الذي لا نهاية له، فشكَّل ذلك حاجزًا دفاعيًا من حولها (ومن حول السيدة بلوف أيضًا)، في مواجهة المسافرين الساخطين الذين كانوا من ورائها (أو... بدا من تعابير

وجوههم أنهم ساخطون). وبطبيعة الحال، كان أمرًا عديم الجدوى تمامًا أن تنطق السيِّدة بلوف نفسها بكلمة اعتراض؛ فكتمت غضبها وبدأت تقول في نفسها إن هذا قد يكون ضربة حظ جيِّدة: صحيح أنها خسرت الفراغ المريح من حولها، لكن ذلك الفراغ ما كان ليقيها اعتداءات الحشد البشري الصامت! إلا أن هذا الإحساس الذي واساها لم يكن ليعيش طويلًا لأن زميلتها المسافرة غير المرحَّب بها (ما كانت السيدة بلوف تريد شيئًا غير أن تُترك وشأنها). فكَّت عقدة غطاء رأسها من تحت ذقنها، واندفعت متحدثةً من غير لحظة تردُّد واحدة: «المكان دافئ، على الأقل، أليس كذلك؟». كان صوتها الذي يشبه نعيب الغراب، ومظهر عينيها الثاقبتين الخبيثتين اللتين كانتا كأنهما تثبان على السيدة بلوف من تحت غطاء رأسها... كل ذلك جعلها تقرِّر على الفور أن التصرُّف المناسب الوحيد -وإن كانت غير قادرة على ردعها ولا على الهروب منها- سيكون تجاهلها تجاهلًا تامًّا. أراحت رأسها جانبًا وراحت تنظر من النافذة احتجاجًا. بيد أن هذا لم يكن مزعجًا للمرأة التي ألقت بضع نظرات غاضبة في أرجاء العربة. «أنت لا يزعجك أن أكلِّمك؟ ما من أن أحد هنا سوانا. وهذا يعني أننا يمكن أن نثرثر معًا. هل سفرتك طويلة؟ أنا مسافرة حتى آخر الخط. سأزور ابني». التفتت السيدة بلوف

إليها التفاتة متردِّدة، لكنَّها رأت أن الأمر سيزداد سوءًا إن هي تجاهلتها، فأومأت برأسها مقِرَّة كلامها. استقبلت المرأة هذا التشجيع على الفور: «أنا ذاهبة لأن اليوم عيد ميلاد حفيدي. قال لي في عيد الفصح؛ قال لي ذلك الولد الحلو، لأنني كنت عندهم آنذاك: ستأتين إلى عيد ميلادي، يا ماما، أليس كذلك؟ هكذا يدعوني، ماما، هذا اسمي عنده... ذلك الشاب الصغير! ولهذا السبب، فإنني ذاهبة إليه الآن». وجدت السيدة بلوف نفسها مضطرَّة إلى الابتسام في هذا الموضع، لكنها ندمت من فورها لأن ابتسامتها فتحت بوابة السيل: الآن، ما عاد يمكن إيقاف تلك المرأة... «لكن ذلك الفتى الصغير لا يعرف أن الحياة هذه الأيام قد صارت صعبة علينا، نحن المتقدِّمين في السنِّ...! تقفين طيلة اليوم على قدميك المسكينتين في السوق، فماذا يحدث لعروق الدوالي وتلك الأشياء كلِّها؟ لا عجب إن صار الجسم متعبًا في آخر النهار! هذا لأن -أنت تعرفين- أقول لك الحقيقة... إن لدينا حديقة صغيرة، لكن المعاش التقاعدي لا يكاد يكفينا. لست أدري من أين تأتي سيارات المرسيدس البرَّاقة كلّها، ومن أين يأتي ذلك المال الذي يبدو أنه وافرٌ عند بعض الناس. حقًا، لست أدري. لكن، إصغي إليّ هنا، سوف أقول لك شيئًا. إنها السرقة... هذا هو الأمر... السرقة والغش! هذا عالم أعوج لا يعرف

الربَّ. لم يعد للربِّ كلمة فيه! في هذا الطقس الفظيع، أف! هل تستطيعين أن تقولي لي إلى أين يذهب هذا كلّه؟ أنت ترين هذا كلّه من حولك، ألا ترينه؟ يقول الراديو إن الحرارة ستبلغ سبع عشرة درجة، أو شيء من هذا القبيل... تحت الصفر! هكذا هو الأمر! ونحن لا نزال في نهاية تشرين الثاني! أتريدين معرفة ماذا يحدث؟ سأقول لك. سوف نتجمَّد ونظلُّ متجمِدين حتى الربيع. هذا صحيح. ‘لأنه لا فحم لدينا’... ليتني أعرف لماذا لدينا كلُّ عمال المناجم هؤلاء في الجبال! هل تعرفين؟ الآن أنت ترين الأمر». كان رأس السيدة بلوف يسبح في هذا التدفُّق الكلامي؛ لكن مقاطعة تلك المرأة كانت مستحيلةً على الرَّغم من صعوبة تحمُّل كلامها. كان مستحيلًا أن تجعلها تطبق فمها. لكنها أدركت آخر الأمر أن المرأة لم تكن تنتظر منها أن تصغي إليها؛ وأدركت أنها قادرة على تخليص نفسها إن هي اكتفت بأن تومئ برأسها من حين لآخر. فصارت تمضي مزيدًا من الوقت في النظر من النافذة ومتابعة الأضواء المندفعة اندفاعًا بطيئًا إلى الخلف. بدأت تحاول استعادة شيء من النظام لأفكارها المضطربة بينما كان القطار يخرج من البلدة الريفية. لكنها لم تستطع -على الرغم مما بذلته من محاولات مضنية- أن تمحو ذكرى معطف الجوخ الملقى بإهمالٍ، ذلك المعطف الذي أقلقها أكثر من حشد

الوجوه الصامتة المخيف المنبئ بالشؤم، الذي كان في مواجهتها الآن. كانت تقول لنفسها: «هل كان شخصًا مضطربًا؟ وهل استولى عليه السكر؟ أم إنه تعمَّد أن...». حزمت أمرها على ألا تعذِّب نفسها بهذا التفكير العقيم. لكنها أرادت، مهما تكن المحاولة محفوفةً بالمخاطر، التأكد مما إذا كان المعطف ما زال هناك، فتجاهلت المرأة أكثر مما تجاهلتها من قبل، وقامت فمضت في اتجاه من كانوا يتسكَّعون عند نهاية العربة، وعبرت الفاصل إلى العربة الأخرى فألقت نظرة حذرة إلى أقصى حد استطاعته عبر فرجة الباب الذي كان متروكًا نصف مفتوح. سرعان ما تلقَّت مكافأة حدسها الذي قال لها إن عليها أن تتحرّى الاختفاء، الذي لم يكن متوقَّعًا، للرجل غير الحليق. أصابها الذعر عندما رأت أنه في العربة. كان ظهره في اتجاهها؛ وكان رأسه مائلًا إلى الخلف حتى يأخذ جرعة من زجاجة البراندي. وحتى لا يلاحظها الرجل، أو أي شخص آخر من تلك الجمهرة الغبيّة (في تلك الحالة، سوف يكون على الربِّ نفسه أن يخلِّصها من المصيبة التي ستجلبها لنفسها).

عادت السيّدة بلوف إلى العربة الخلفيّة حابسةً أنفاسها، ففوجئت مفاجأة كبيرة عندما رأت أن شخصًا في قبعة من الفراء قد استغل غيابها القصير، فاحتل مقعدها من

غير أن يعوقه عائق. وهكذا كان عليها -هي السيِّدة الراقية الوحيدة هنا-أن تتابع سفرها واقفة، مضغوطة إلى جدار العربة. أدركت أنها كانت حمقاء بعض الشيء عندما ضللت نفسها وظنَّت أنها تخلَّصت من الرجل ذي معطف الجوخ لمجرَّد أن بضع دقائق مرَّت من غير أن تراه. سواء كان قد ذهب إلى المرحاض أو نزل إلى رصيف المحطة («هل يُعقل أن يكون قد نزل إلى الرصيف من غير معطفه؟»)، ليشتري لنفسه زجاجة أخرى من ذلك الشراب الكريه، فقد صار هذا السؤال الآن نافلًا لأنها لم تعد قلقة قلقًا حقيقيًا من أن يحاول ملاحقتها في القطار من جديد؛ وذلك لأن زحام الناس - شريطة ألا ينقلبوا عليها- («... معطف الفراء، أو جلد الأفعى، أو حقيبة يدي، يمكن أن تكون أمورًا كافية لهؤلاء الناس...») - وصعوبة أن يشقَّ المرء طريقه فيه، كانت عوامل تمنحها نوعًا من الحماية. وفي الوقت نفسه، أرغمتها غلطتها السابقة على الإقرار بأنه، في حال حدوث أمر سيئ، فسوف تجد نفسها عالقةً في فخ محكمٍ لن تستطيع منه فرارًا هذه المرة، وستواجه أسوأ ما يمكن أن يحدث لها («... قدرٌ غامضٌ لا سبيل إلى فهمه»). بعد إحساسها بالعجز، كان هذا أكثر ما أخافها لأن انجلاء الخطر المباشر ترك الخطر الأكبر كما هو... فليس الخطر الأكبر هو أنه أراد اغتصابها (على

الرغم من أن «نطق هذه الكلمة أمرٌ مخيفٌ في حدِّ ذاته...»)، بل في أنه بدا لها نوعًا من المخلوقات «لا يعرف ربًا ولا بشرًا»؛ أي إنه -بكلمات أخرى- شخص لا يخشى نار الجحيم، مما يعني أنه يمكن أن يفعل أيَّ شيء، («أيَّ شيء»!). ومن جديد، تخيلت أنها ترى تلك العينين الباردتين كالجليد، وذلك الوجه البهيمي غير الحليق... ومن جديد رأت غمزته الحميمة الخبيثة وسمعت صوته المسطَّح الساخر يقول لها: «هذا أنا»، فصارت واثقة كلَّ الثِّقة من أنها لم تكن تتعامل مع مهووس جنسي من النوع البسيط، بل إنها نجت -في حقيقة الأمر- من غضبٍ قاتلٍ من طبيعته أن يدوس بنعله كل ما بقي سليمًا فيحطمه، لأن مفاهيم النظام والسلم والمستقبَل نفسها لا تعني شيئًا لدى وحش من هذا النوع. «ومن ناحية أخرى»، ظلَّت تسمع الصوت الخشن للعجوز صاحبة المتاع الكثير التي كانت الآن توجِّه سيل كلامها الذي لا ينتهي إلى جارها الجديد... «إنك تبدو في حالة سيِّئة، إن لم يزعجك قولي هذا. ليس لدي ما أشتكي منه، كما ترى. لا شيء أكثر من المشكلات المعتادة الناتجة عن التقدُّم في السنِّ. والأسنان أيضًا. انظر...». دفعت رأسها إلى الأمام وفتحت فمها على اتساعه حتى يراه جارها ذو القبعة الفراء. شدت شفتيها المتشقِّقتين بأصابعها... «إنه فعل الزمان. لقد

ذهبت أسناني كلُّها. لكني لا أسمح لهم بأن يعبثوا بي هناك... يستطيع الطبيب أن يثرثر قدر ما يحب! فهذا المبلغ سيجعلني أذهب إلى قبري! لن أسمح لهم بالاغتناء على حسابي، أولئك الأوغاد. ليت أحشاءهم كلّها تخرج منهم! لأن... انظر هنا...».

أخرجت من واحدة من حقائب التسوّق التي معها جنديًا بلاستيكيًا صغيرًا... «كم تظن أن هذا الشيء كلفني؟... قطعة القمامة الصغيرة هذه! صدِّق أو لا تصدِّق، إنهم طلبوا واحدًا وثلاثين فورنتًا ثمنًا له!... من أجل هذه القمامة! وما الذي تحصل عليه مقابل هذا السعر؟ جندي له بندقية ونجمة حمراء! وقاحة حقيقية أن يطلبوا واحدًا وثلاثين فورنتًا ثمنًا لهذا! آه، لكن»... أعادت الجندي إلى حقيبتها... «هذا كل ما يريده الأطفال هذه الأيام. فما الذي تستطيعه فتاةٌ عجوزٌ مثلي. لقد اشتريته. تعضّ على أسنانك غضبًا، لكنك تشتريه. هذا صحيح، أليس كذلك؟». أدارت السيدة بلوف رأسها كارهةً هذا الحديث، وألقت نظرةً سريعةً عبر النافذة، لكنَّها سمعت صوت صدمة مكتومًا فالتفتت إليهما من جديد لتجد نفسها عاجزة عن إبعاد نظرها أو عن التحرُّك إنشًا واحدًا. لم تدر إن كانت لكمة واحدة بيد عارية قد فعلت ذلك لأن الصمت الذي حل لم يكشف لها عمَّا حدث، أو عن سببه. كان كل ما رأته في التفاتة عينها السريعة

العفوية صورة المرأة تسقط إلى الخلف. رأسها مائل جانبًا... وجسدها باقٍ في مكانه -مسنودًا بحوائجها- بينما كان الرجل صاحب قبعة الفراء الجالس قبالتها (الذي اغتصب مقعدها) يرجع إلى الخلف بعد أن كان مائلًا إلى الأمام، ويستند ببطء إلى ظهر مقعده بوجه خالٍ من أي تعبير. حتى عندما يهرس شخصٌ ذبابةً تزعجه، فمن المتوقَّع أن يُسمع شيء من اللغط. إلا أن أحدًا لم يحرِّك ساكنًا استجابة لما حدث، ولم تقل كلمة واحدة، بل ظلَّ الجميع واقفين أو جالسين في حالة عدم اكتراثٍ تامٍّ. «هل هذه موافقة صامتة؟ أم إنني أتخيَّل الأشياء من جديد؟». نظرت السيِّدة بلوف أمامها، لكنها سرعان ما أبعدت احتمال أنها تحلم؛ فبالحكم انطلاقًا من كل ما رأته وسمعته، لم تكن قادرة على تفادي تصديق أن الرجل قد ضرب تلك المرأة. لا بد أن ضاق ذرعًا بثرثرتها، فما كان منه -ببساطة، ومن غير أيَّة كلمة- إلا أن سدَّد لكمةً إلى وجهها. ثم لا... اضطرب قلبها، لا... لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا! إلا أن هذا كله مفاجئ جدًّا، بطبيعة الحال، صادم. لم تعد قادرة على البقاء مزروعة في تلك النقطة. تفصَّد العرق من حاجبيها خوفًا مما حدث. تلك المرأة مرمية هناك، فاقدة الوعي، عرقُها يتصبَّب على وجهها، والرجل صاحب قبعة الفراء جالس من غير حركة، وهي واقفة في مكانها

عاجزة عن فعل شيء... لا ترى شيئًا غير النافذة التي أمامها، وإطار النافذة، وانعكاس صورتها في الزجاج القذر. وعند ذلك، تحرَّك القطار من جديد بعد أن ظلَّ مجبرًا على التوقُّف بضع دقائق. كان الإرهاق قد نال منها بفعل تعاقب تلك الصور، وصار دماغها يطنُّ طنينًا، فوقفت ترقب المشهد الفارغ المظلم السابح في الخارج تحت السماء الثقيلة التي كان ضوء القمر لا يكاد يمكن تمييزه فيها، ومثله كتل الغيوم الكبيرة من حوله. لكن السَّماء والمشهد كلّه لم تكن تعني شيئًا لديها. ولم تدرك أنها وصلت وجهتها إلا عندما بدأت عجلات القطار تقعقع على تقاطع السكة مع الشارع الرئيسي الداخل إلى المدينة، فتحرَّكت خطواتها ودخلت الممر ووقفت أمام الباب منحنية لتنظر عبر الظل الذي ألقته يدها على زجاجه، فرأت المستودعات الصناعية في المدينة، وخزان المياه ذا الهيئة الثقيلة الخرقاء يلوح في الأعلى. منذ أيام طفولتها، كانت هذه الأشياء -تقاطع الطريق مع السكة الحديدية، والمباني الطويلة المسطحة التي تشعُّ حرارةً غير محتملة- أولى الإشارات التي تطمئنها إلى وصولها سالمة (قطعة واحدة). ثم إن هذه الأشياء كانت -هذه المرّة- سببًا خاصًا يدعو إلى الرَّاحة والانفراج لأنها إشارةٌ إلى انتهاء ظروف شاقّة مشقَّةً غير عادية أبدًا. كادت تحسّ نبض قلبها الجامح في

صدرها، ذلك النبض الذي كان يبدأ كلما عادت من واحدة من زياراتها القليلة إلى أقاربها، أو عند عودتها من عاصمة الإقليم التي تذهب إليها في السنة مرّةً أو مرَّتين لحضور تقديم أوبريت تحبها مع بعض أفراد عائلتها المشتتة. عندها، يكون دفء المدينة الودود كأنه حصن طبيعي يحمي بيتها. والآن، بل في الشهرين الأخيرين أو في الشهور الثلاثة الأخيرة في حقيقة الأمر. لكن، الآن خاصّة، بعد الكشف المخزي لحقيقة أن العالم مليء بأشخاص ذوي وجوه غير حليقة ومعاطف من الجوخ، لم يبق شيءٌ من ذلك الإحساس بالألفة، وما عادت ترى في المدينة إلا متاهةً باردةً من شوارع خالية حيث تحدِّق فيها وجوه الناس من خلف النوافذ، وتحدِّق النوافذ نفسها، بنظرة عمياء وصمت «لا يقطعه إلا نباحٌ حادٌّ لكلاب تتشاجر في ما بينها». كانت تراقب اقتراب أضواء المدينة. وما إن مرَّ القطار بالمنطقة الصناعية وموقف السيارات الخاص بها، وراح يشقُّ طريقه على امتداد أشجار الحور المحيطة بسكَّته -تلك الأشجار التي كانت لا تكاد تبين في الظلمة- حتى بدأت عيناها القلقتان تفتشان في ألق مصابيح الشوارع، التي لا تزال بعيدةً شاحبةً، وفي ضوء المباني المنارة، حتى تعثر على البناية ذات الطوابق الثلاثة التي فيها شقتها. كانت عيناها قلقتين لأن إحساسها الحادّ بالانفراج الكبير نتيجة

إدراكها أنها وصلت أخيرًا، سرعان ما أعقبته موجةٌ من الذعر لمعرفتها التامَّة بأن وصول القطار متأخِّرًا قرابة ساعتين يجعلها غير قادرة على الاعتماد على خدمة الباصات المسائية المعتادة. يعني هذا أن عليها أن تمشي («وأن تمشي وحيدة أيضًا...»)، طيلة المسافة من المحطَّة إلى البيت. وقبل الوصول إلى مواجهة هذه المشكلة، ستكون أمامها مشكلة أخرى، ألا وهي النزول الفعلي من القطار.

مرّت مسرعةً تحت النافذة بيوتٌ صغيرةُ لها حدائق خلفية فيها سقائف مغلقة، ثم لم يلبث القطار أن عبر الجسر فوق القناة المتجمِّدة ومن خلفه المطحنة القديمة. إلا أن هذه المعالم لم تبعث في نفسها أيَّ إحساسٍ بالخلاص لأنها رأت فيها محطَّات مخيفة على طريق سيرها إلى البيت، وذلك لأن السيِّدة بلوف شعرت بأنها تكاد تكون مسحوقةً، بسبب واقع أن من خلفها شيئًا غير مفهوم على الإطلاق يمكن أن يثب في أيّة لحظة ويهاجمها. الآن، بعد أن صارت على مسافة خطوات معدودة من الحرية! كان جسدها كله سابحًا في العرق. وقفت تنظر قانطةً إلى ساحة مَنشرة الأخشاب الكبيرة، وإلى أكوام جذوع الأشجار فيها، ثم إلى كوخ حارس السكَّة الحديدية المتهاوي، والقاطرة البخارية العتيقة الغافية على خط جانبي، وإلى الضياء الخافت الراشح

عبر زجاج نوافذ ورشات الإصلاح المدعَّمة بالقضبان الحديدية. ما من حركة خلفها، حتى الآن! كانت لا تزال واقفةً وحدها في الممر. أمسكت بمقبض الباب البارد كالجليد، لكنها لم تستطع اتخاذ قرارها: إذا فتحت الباب أبكر مما يجب، فقد يأتي أحد ويدفعها إلى الخارج. وإذا تأخَّرت في فتحه، فمن الممكن أن تجد نفسها غارقة في زحام «عصبة القتلة تلك... العصبة اللابشرية».

تباطأت حركة القطار على امتداد صفٍ لا نهاية له من عربات متوقِّفة، ثم راحت مكابحه تزعق إلى أن توقَّف تمامًا. عمليًا، قفزت السيِّدة بلوف مع انفتاح الباب، ورأت الحجارة الحادة بين العربات، وسمعت أصوات مُلاحقيها من خلفها؛ وسرعان ما وجدت نفسها قد خرجت إلى ساحة المحطَّة الأمامية. لم يهاجمها أحد، لكنَّ حظًّا عاثرًا صادف لحظة وصولها، فانطفأت الأنوار في الجوار على حين غرّة، ثم لم يلبث أن انطفأ كلُّ ضوء آخر في المدينة. ظلَّت عيناها مثبتتين على قدميها من غير أن تنظر يمينًا ولا يسارًا حتى لا تتعثر وتسقط في الظلام. مضت مسرعةً إلى موقف الباص آملة -عكس أي أمل- أن يكون الباص قد انتظر وصول القطار، أو أن تتمكَّن من اللحاق بالباص الليلي، إن كان هناك باص ليلي! لكنها لم تجد باصًا هناك، ولا كان في مقدورها أن تعتمد على الباص الليلي، لأن جدول

مواعيد الباصات إلى جانب مدخل المحطَّة الرئيسي قال إن آخر باص قد انطلق -بالضبط- بُعيد الموعد الذي كان محددًا لوصول القطار. ثم لوحة مواعيد الباصات تلك كانت مشطوبة كلها بخطين ثخينين. إلا أن محاولاتها لتحقيق سبق على الآخرين ذهبت كلّها أدراج الرياح. ففي اللحظات التي وقفت فيها متمعّنة في
جدول مواعيد الباصات، كانت ساحة المحطة الأمامية قد صارت غابةً من قبعات من الفراء ومن قبّعات قروية ملوثة بالشحوم لها واقيات للآذان.

كانت تستجمع شجاعتها حتى تنطلق سائرة وحدها، فداهمها سؤال مخيف عما سيفعله أولئك الناس جميعًا الذين احتشدوا في هذا المكان. داهمها أيضًا إحساس كادت تنساه، ذكرى مريعة أزاحتها إلى أعماق ذهنها مشاعر أخرى أتت بعدها؛ لكنها نتأت من جديد عندما رأت السيدة بلوف، بين جموع الناس الواقفين إلى يسارها... رأت في الناحية البعيدة من الساحة الرجل صاحب معطف الجوخ. بدا لها كأنه ينظر من حوله باحثًا عن شيء ما، ثم لم يلبث أن استدار على عقبيه وانصرف. حدث هذا كلّه بسرعة كبيرة؛ وكان الرجل شديد البعد عنها (هذا إذا لم نقل شيئًا عن حقيقة أن المكان كان مظلمًا وأن التمييز بين الحقائق والوحوش

التي تخلقها المخيلة قد صار شبه مستحيل)، فلم تكن واثقة تمامًا من أنه كان هو نفسه. لكن إمكانية ذلك أثارت في نفسها فزعًا شديدًا جعلها تخترق كتلة الأجساد المشؤومة بخطوات تكاد تكون راكضة، ثم بدأت السير في الشارع الرئيسي العريض المؤدِّي إلى بيتها. لم يفاجئها حدوث ذلك مفاجأة تامة مهما بدا الأمر غير حقيقي (ألم تكن رحلتها كلّها شيئًا غير حقيقي على الإطلاق؟!). فحتى في القطار، عندما جزعت جزعًا شديدًا لرؤيته مرة ثانية، كان شيء في داخلها قد همس لها قائلًا إن ورطتها مع الرجل غير الحليق -وعذاب محنة محاولة الاغتصاب!- لم تزل بعيدة عن نهايتها، وإنها الآن، عندما صار ما يدفعها إلى الأمام غير مقتصرٍ على خوفها من «قطّاع طرق يهاجمونها من الخلف»، بل على خوفها منه أيضًا («إن كان هذا هو حقًّا، ولم يكن الأمر كلّه تخيُّلًا»)، خوفها من أن يهاجمها واثبًا إليها من أحد المداخل. تعثرت قدماها في سيرهما كأنهما غير قادرتين على تقرير ما إذا كان من المستحسن في هذه البقعة الخطرة أن يتراجع المرء أو أن يمضي إلى الأمام.

كانت ساحة المحطّة الأمامية الغامضة قد صارت خلفها الآن، فقد تجاوزت تقاطع شارع المحطة مع طريق زولداغ المؤدِّي إلى مستشفى الأطفال، لكنها لم تصادف

روحًا حيَّةً (قد يكون التقاؤها شخصًا تعرفه خلاصًا لها)، عدا أشجار الكستناء البرية العارية في الشارع الماضي باستقامة من غير أي انحراف، وغير صوت أنفاسها والصرير الخافت المنبعث من حذائها، وهمهمة الريح في وجهها. لم تكن تسمع شيئًا غير ذلك إلا لهاثًا خفيضًا متواصلًا لما قد يكون آلة بعيدة لم تستطع تمييزها، مع أن ذلك الصوت ذكّرها، على نحو غامض، بصوت منشرة الخشب العتيقة. كانت خائفة على الرغم من استمرارها في مقاومة قوة الظروف التي بدت كأنها مخلوقة خصيصًا لتحدِّي تصميمها في ظل غيابٍ كاملٍ لمصابيح الشوارع، وفي ظل استمرار الصمت المؤذي الذي جعلها تشعر -أكثر من أيِّ وقت مضى- بأنَّ لها قدر الضحية. فأينما نظرتْ باحثةً عن ضوء متسرِّب من الشّقق السكنية، كان المكان يبدو لها مثلما تبدو أيّة مدينة تحت الحصار، حيث صار السكّان يرون كلَّ جهدٍ إضافيٍّ جهدًا عقيمًا لا فائدة منه، فتخلوا حتى عن آخر آثار حضورهم البشري المهدَّد بالخطر لظنهم بأن جدران بيوتهم الثخينة قادرة على أن توفِّر لهم حماية من أي أذى جدّي بعد أن خسروا الشوارع والساحات.

سارت مسرعةً على الرصيف الذي جعله ما عليه من قمامة سطحًا غير مستوٍ تحت خطواتها. كادت تعبر اللافتة الصغيرة لعيادة الأقدام التي كانت، يومًا ما،

متجرًا محلّيًا لتعاونية صنع الأحذية، عندما التفتت قبل أن تعبر التقاطع التالي (التفتت بفعل العادة أكثر من أي شيء آخر -بسبب نقص الوقود-، لم تكن في الشارع سيارات كثيرة حتى قبل أن تسافر لزيارة أقاربها) ونظرت عبر ظلمة طريق إيرديلي ساندور الذي كان الناس يسمُّونه «شارع القضاء» لأن فيه مبنى المحكمة المغلق الآن، وكذلك مبنى السجن بجدرانه التي تعلوها أسلاك شائكة على امتداده كله. بعيدًا، في أعماق ذلك الشارع، بالقرب من البئر الارتوازية، لمحت كتلة ظلالٍ متداخلة، جماعة غير واضحة المعالم بدا لها فجأة أنها منهالة ضربًا -بصمت- على شخص ما. فزعت، فاتسعت خطواتها. وصارت تتلفَّت من حين لآخر وتلقي نظرة من خلفها، ثم لم تبطئ من سيرها إلا بعد أن صارت على يقين من أنها خلّفت المحكمة وراءها بمسافة بعيدة ومن أن ما من أحد يلاحقها. لم يظهر لها أحد؛ ولم يلاحقها أحد؛ وما كان من شيء يعكِّر هدوء الموت في المقبرة الكبيرة إلا صوت اللهاث الذي صار يزداد ارتفاعًا في بحر الصمت المخيف الذي ملأ الأماكن كلِّها. كان ذلك الصوت يمزِّق الهدوء من حول البئر الارتوازية حيث يجري الآن ارتكاب جريمة ما (فأي شيء غير ذلك يمكن أن تكون؟). ظنَت أن ذلك اللهاث ليس إلا صدًى لما يحدث (لم تسمع صرخة

واحدة تطلب النجدة، ولا حتى صوت صفعة أو ضربة). لم تعد تبدو لها غريبة قلّة المتشردين هنا وهناك، فعلى الرغم من العزلة التي تكاد تشبه عزلة الحَجْر لدى جميع الأشخاص في الظروف العادية، كان متوقّعًا -بحلول هذا الوقت- أن تصادف واحدًا أو اثنين ممن يسيرون ليلًا مثلها في جادة «البارون بلاوينكهيم» الطويلة العريضة خاصّة وأنها شديدة القرب من مركز المدينة. زادت سرعتها مدفوعة بما لديها من تطيّر، وأحسَّت بأنها صارت أكثر اقتناعًا بأنها تعبر أرضًا كابوسية يسكنها الشر. لكنها لم تلبث أن اقتربت من مصدر صوت اللهاث الذي صار الآن مسموعًا تمامًا، فصارت قادرة على أن ترى عبر أغصان الأشجار البرّية الآلةَ التي تصدر ذلك الصوت. شعرت بأنها شبه مقتنعة (بعد أن استنفدها صراعها مع قوى الرعب) بأنها تتخيَّل فحسب... تتخيَل كلَّ شيء... لأن ما رأته في تلك النظرة الأولى لم يبدُ لها محيِّرًا فحسب، بل بدا شيئًا مستحيلًا كل الاستحالة. في مكان بعيد عنها، كان جسم ضخم يتحرَّك بخطى كئيبة في الليل الشتائي سائرًا في وسط الطريق - هذا إذا جاز القول إن كانت حركة هذا الشيء الشيطاني الذي ذكَّرها زحفه بالغ البطء بقاطرة بخارية تجاهد في اجتياز كل سنتمتر من الأرض يمكن اعتباره حركةً أصلًا: لم يكن هذا العناء المرّ ناتجًا عن

مواجهة مقاومة الريح الشديدة على سطح الطريق، بل كان أشبه بشيء يحرث عميقًا في صلصال كثيف.
ذكّرتها تلك الشاحنة المغلَّفة من كلِّ الجهات بألواح حديد مموّج أزرق بعربة قطار ضخمة. كانت تغطِّيها كتابة بلون أصفر فاقع (في وسط الكتابة شكل بني قاتم غير واضح المعالم).
لاحظت غير مصدِّقة أن تلك الشاحنة كانت أكثر ارتفاعًا وطولًا من الشاحنات التركية الضخمة التي اعتادت عبور البلدة؛ وكان يجر هذا الهيكل الضخم عديم الشكل، الذي تفوح منه رائحة غامضة تشبه رائحة الأسماك، جرارٌ متَّسخٌ بالشحوم، عتيق كلّه حتى لكأنه من قبل الطوفان، يطلق دخانًا كثيفًا ويبذل جهدًا مضنيًا مخيفًا في تلك العملية. لم تلبث أن لحقت به وصارت في محاذاته، فغلب فضولها خوفها وسارت إلى جانب تلك المركبة حينًا من الوقت وهي تلقي نظرات إلى الكتابة الغريبة الخرقاء -من الواضح أنها كانت نتاج يد غير خبيرة- لكنَّ معنى تلك الكتابة ظلَّ غير مفهوم، حتى عند النظر إليها من مسافة قريبة (لعلَّها باللغة السلوفينية! أو لعلها بالتركية!)؛ وكان من المستحيل أيضًا تحديد الغاية التي يؤدِّيها هذا الشيء، أو ما يفعله هنا أصلًا، في قلب البلدة المهجورة المتجمِّدة التي تكتسحها الريح... أو حتى كيف أفلح في الوصول إلى هذا المكان لأنه -إن

كانت هذه سرعته العادية- لا بد من سيره عدة سنين حتى يصل قادمًا من أقرب قرية. وقد كان من الصعب أيضًا (على الرغم من عدم وجود بديل آخر، على ما يبدو) أن يكون قد أتى إلى البلدة بالقطار. وسّعت خطواتها من جديد؛ وما إن تجاوزت ذلك الوحش المخيف، حتى التفتت إلى الخلف فرأت رجلًا ضخم الجسم له شاربٌ وقد علا وجهه تعبير من اللامبالاة. كان مرتديًا قميصًا داخليًّا فقط. وقد تدلَّت سيجارة من زاوية فمه. لاحظ الرجل وجودها على الرصيف، فكشَّر قليلًا ورفع يده اليمنى ببطء عن عجلة القيادة كأنه يحيي ذلك الشخص الذي ينظر إليه. كان هذا أمرًا غير معتادٍ إلى حدٍّ كبيرٍ (وفوق هذا كلِّه، لا بدَّ أن التدفئة كانت زائدة في مقصورة ذلك الجرار حتى يشعر ذلك الجبل من اللحم الجالس خلف المقود بالدفء فيظل بالقميص الداخلي). كلما التفتت خلفها ونظرت إلى تلك المركبة وهي سائرة في طريقها، كلما بدت لها أشبه بوحشٍ غريبٍ يجسِّد مظهره كلَّ ما رمتها به الحياة في الآونة الأخيرة: أحسَّت كأن هذا يقول لها إن الماضي لم يعد ما كانه من قبل، بل صار يزحف قُدمًا غير آبهٍ بشيءٍ ويتقدَّم تحت نوافذ الناس الغافلين. اقتنعت، منذ هذه اللحظة، أنها واقعة في قبضة كابوس مخيف، لكنه كابوس لا يقظة منه: لا، كانت واثقةً تمامًا من أن ما

تراه واقع حقيقي، بل واقع حقيقي جدًا. ثم أدركت أن الحوادث المخيفة التي كانت طرفًا فيها، أو التي كانت شاهدًا عليها، (ظهور هذه المركبة العجائبية، والعنف في شارع إيرديلي ساندور، وانطفاء الأضواء كلِّها في وقت واحد بدقَّة عبوة متفجِّرة، والازدحام غير البشري في الساحة أمام المحطَّة، وفوق هذا كلِّه -بل مهيمنًا على هذا كله- النظرة الثابتة الباردة لذلك الشخص صاحب معطف الجوخ)... لم تكن هذه الأشياء كلّها مجرّد اختراعٍ مؤذٍ من اختراعات مخيلتها المضطربة دائمًا، بل كانت جزءًا من خطة خبيثة، منسَّقة تمامًا، دقيقة كل الدقة، لا مجال أبدًا للشكِّ في غايتها. وفي الوقت نفسه، كانت مضطرَّة إلى بذل كلِّ جهدٍ ممكنٍ لرفض هذه الفانتازيا الاستثنائية. ظلَّت تأمل أن يكون هناك تفسيرٌ واضح -وإن يكن محبطًا- لذلك الحشد الغوغائي، والشاحنة الغريبة، ونشوب العراك، أو -إن لم يكن لها غير ذلك- تفسير انقطاع الكهرباء العجيب الذي أصاب كلَّ شيء. كانت تأمل في هذا كلِّه لأنها لم تستطع ترك نفسها تسقط في حالة من القبول الإجمالي بحالة غير عقلانيّة إلى هذا الحد، بحيث تسمح بأن يضيع الأمن العام في المدينة وتضيع معه كلُّ علامة أخرى تشير إلى النظام. المحزن هو أنها كانت مضطرة إلى التخلّي حتى عن هذا الأمل الواهي: في حين ظلَّت مسألة مصابيح

الشوارع المطفأة من غير حلٍّ، فإن وجهة الشاحنة ذات الحمولة العجيبة (وطبيعة تلك الحمولة أيضًا)، لم تبقَ غامضة زمنًا طويلًا. لقد مرَّت ببيت الشخصية المحلية المعروفة جورجي إيزتر، وخلَّفت وراءها أصوات الليل الآتية من الحديقة المحيطة بالمسرح الخشبي العتيق، فبلغت الكنيسة الإنجيلية الضئيلة عندما شاءت المصادفة أن تقع عينها على لوحةٍ إعلانيةٍ مدوَّرة: توقَّفت عن سيرها، واقتربت من تلك اللوحة، ثم وقفت أمامها فقرأت ذلك النصَّ وأعادت القراءة (تحسبًا لأن تكون قد أخطأت). بدا ذلك النصُّ شيئًا أشبه بكتابة خربشتها يد متسكِعٍ من قرية بعيدة على الرغم من أن قراءته مرّة واحدةً كانت كافية تمامًا لأن ذلك الملصق قدَّم لها تفسيرًا من نوع ما -كان من الواضح أنه قد وضع هنا فوق الإعلانات كلِّها منذ فترة وجيزة جدًّا لأن آثار المادة اللاصقة لا تزال واضحة على حوافّه. ظنّت أنها إذا تمكَّنت آخر الأمر من عزل عنصر واضح من عناصر تلك الفوضى، فسوف يصير من الأسهل عليها أن تسيطر على تفكيرها بحيث («عسى ألا يجعل الرب من ذلك أمرًا ضروريًا...!» بالطبع) تدافع عن نفسها «في حالة حدوث انهيار شامل». لكن الضوء الخافت الذي ألقاه ذلك النص على الأمر كلِّه لم يفعل إلا أن زاد من قلقها، إذ إن المشكلة كانت على الدوام كامنةً في حقيقة

عدم وجود شيء يقدِّم بعض التفسير لدورة الحوادث كلّها التي وجدت نفسها مرغمة على أن تكون شاهدةً عليها، أو ضحية لها، أو مراقبة -وكأن ذلك «الضوء الخافت» («أكبر حوت في العالم، وأسرار الطبيعة الأساسية الأخرى»)، كان أكثر مما ينبغي له أن يكون- وذلك عندما صارت مدفوعةً إلى تخمين أن من الممكن أن يكون لتلك الأمور كلِّها سبب قوي، وإن لم يكن سببًا مفهومًا. وهذا لأن... حسنًا، سِيرك!؟ هنا!؟ حيث يصير آخر العالم قريبًا جدًّا!؟ أخيالٌ هو الذي يصنع هذا الكابوس؟... هذا إذا لم نقل شيئًا عن ذلك الحيوان ذي الرائحة البشعة... في بلدتها! أليس في هذا المكان، كما هو، قدرٌ كافٍ من الخطر؟ فمن عساه يكون لديه الآن وقتٌ للتسلية... عندما نكون جميعًا في حالة فوضى؟ سيرك! ما هذا المزاح الغبي؟ وما هذه الفكرة السخيفة الفظَّة؟ ابتعدت مسرعة عن اللوحة الإعلانية، ثم عبرت الشارع إلى الناحية الأخرى. كان في الناحية الأخرى صفٌّ من بيوت ذات طابقين يتسرَّب نورٌ خافتٌ عبر نوافذ قسم منها. شدَّت قبضتها على حقيبة يدها ومالت إلى الأمام في مواجهة الريح. بلغت المدخل الأخير فألقت من حولها نظرة تفقُّد أخيرة سريعة، ثم فتحت الباب فدخلت وأقفلته من خلفها. كان درابزين الدرج صقيعي البرودة. رأت شجرة النخيل التي كانت فيما

مضى بقعة لون في البيت تحظى برعاية غيور. بات من المؤكد الآن أن هذه الشجرة قد تجاوزت أيّة إمكانية لإعادة إحيائها بعد أن تجمَّدت حتى الموت في برد الشتاء - كان من الواضح، حتى قبل سفرها، أن ما من إمكانية لإنقاذها! صمت خانق من حولها. لقد وصلت. وجدت خلف مقبض الباب ورقةً عليها رسالة لها. ألقت عليها نظرة سريعة جدًّا، فكشرت قليلًا ثم دخلت البيت فأغلقت القفلين، ثم علَّقت سلسلة الأمان على الفور. استندت إلى الباب وأغمضت عينيها. «الشكر للرب! لقد عدت إلى بيتي». كانت شقتها -كما يقول الناس- ثمرةً مستحقةً لسنين كثيرة من العمل الدؤوب. عندما مات زوجها الثاني (لتكن ذكراه مباركة) موتًا مفاجئًا مأساويًا نتيجة نوبة دماغية أصابته منذ خمس سنين، وفوق ذلك كان عليها أن تدفنه أيضًا، لم تلبث علاقتها بابنها من زوجها الأول أن تدهورت بعد وقت قصير -ذلك الابن الذي كان «متحرِّكًا دائمًا، طائرًا دائمًا، من غير ظهور أيّة علامة تحسُّن على ما هو متوقَّع منه»؛ فكان مثل أبيه الذي ورث عنه ذلك العبء الثقيل من الميل إلى الفساد- فصارت تلك العلاقة شيئًا غير محتملٍ وانتقل الشاب إلى غرفة استأجرها في بيت آخر. لم تجد السيِّدة بلوف نفسها قادرة فحسب على القبول بهذا الانتقال الذي كان مما لا يمكن تفاديه، بل إن ذهنها أحسَّ شيئًا من

الراحة أيضًا. فمهما يكنْ انزعاجها من تلك الخسائر (خسرت زوجين اثنين، وخسرت ابنها أيضًا - لأنه لم يعد موجودًا عندها)، فقد كانت قادرة على أن ترى بكل وضوح أنه، بعد أن بلغت الثانية والخمسين من العمر، لم يعد لديها أيُّ سبب يجعلها «موضع استغفال هذا الرجل أو ذاك»، وقرَّرت أن عليها أن تعيش لنفسها فقط. هذا ما جعلها تستبدل ببيت الأسرة الذي صار الآن كبيرًا جدًّا عليها شقة صغيرة «لطيفة» في مركز المدينة (لها جهاز إنترفون عند المدخل).

حقَّقت لها هذه العملية ربحًا محترمًا. وللمرة الأولى في حياتها، بعد أن عبّر لها معارفها عن قدر غير معتاد من الاحترام نتيجة فقدها زوجين اثنين، ولم يتطرقوا إلى ذكر ابنها إلا بحذرٍ شديدٍ لأنه كان معروفًا بأنه ليس شخصًا جيِّدًا، انطلَقت صوب التمتّع الكامل بممتلكاتها الخاصة... هي التي لم يكن لديها قبل ذلك الحين أكثر من ملابسها وبضعة مفارش للسرير. اشترت لأرض شقتها سجادات فارسية مقلَّدة ناعمة، وستائر من التول، وواقيات للنوافذ ذات «ألوان بهيجة»؛ ثم تخلَّصت من الخزانة الجدارية القديمة المربِكة، واشترت واحدة جديدة بدلًا منها. استفادت من نصيحة ذكيَّة استقتها من مجلة «التصميم الداخلي» التي تتمتّع بشعبية كبيرة على المستوى المحلّي، فأعادت تجهيز مطبخها بطريقة

عصرية، وطلَت الجدران كلَّها، ورمت مدفأة الغاز القديمة الخرقاء، وجدَّدت تجهيزات الحمام كلّها. لم تكن تعرف تعبًا، بل صارت تتفجر طاقة، هذا ما أقرّت به جارتها السيدة فيراغ. لكن إحساسها بأنها صارت على طبيعتها حقًّا لم يبدأ إلا بعد انتهاء الأعمال الأساسية، أي عندما صارت قادرةً على بدء تجميل «عشِّها الصغير». كانت كلُّها أفكارًا، ولم تعرف مخيِّلتها حدودًا. صارت الآن تعود من رحلات التسوق بمرآة ذات إطار من الحديد المصبوب من أجل صالة بيتها حينًا، وبأداة «عملية جدًّا» لتقطيع البصل حينًا آخر، أو بفرشاة ملابس تخطف الأبصار -فرشاة عجيبة- على مقبضها صورة بانورامية للمدينة. على الرغم من هذا، وبعد نحو سنتين، من الذكرى الحزينة لرحيل ابنها -غادرها باكيًا، ولم تكد تستطع جعله يخرج من الباب، ثم ظلت «أيامًا بأسرها!» غير قادرة على نفض ضباب الحزن عن نفسها- وعلى الرغم من حقيقة أنها أنفقت سنتين من النشاط المحموم بحيث لم يبق إنشٌ مربعٌ واحدٌ خاليًا في شقتها، فقد ظلت تحس نوعًا من التشوش الغريب نتيجة شعورها بأن حياتها ينقصها شيء لا تعرفه. اشترت آخر قطع مجموعة من تماثيل الخزف الصيني الصغيرة الحلوة حتى تكمل التشكيلة التي وضعتها في فيترينة العرض، لكنها أدركت سريعًا أن هذا غير قادر على

ملء الفراغ. وبعدها، في عصر أحد الأيام (كان ذلك خلال عملها على آخر قطعة من مطرزات «إيرما» وهي جالسة في كرسيِّها
المريح ذي الذراعين)، عندما كانت عيناها تنظران إلى البجعات الخزفية وعازفات الغيتار الغجريات، ثم انتقلتا إلى صف من أولاد صغار باكين وبنات صغيرات، تماثيل شديدة الفائدة من أجل أحلام اليقظة ومن أجل الإحساس بالسعادة، خطر في ذهنها فجأة «الشيء المهم» الذي كان ينقصها: الأزهار! كانت لديها نبتتان بلاستيكيتان ونبتة أسبرج دبقة جلبتها معها من بيتها القديم؛ لكن هذا أقل مما يلزم لإرضاء ما كانت تشير إليه باسم «غريزة الأمومة» التي انبعثت لديها من جديد. ونظرًا لأن من بين معارفها الكثير ممن «يحبّون الأشياء الحلوة»، فسرعان ما حصلت على مجموعة من الأبصال والبذور والغرسات الجميلة، ولم يعد يلزمها بعد ذلك إلا بضع سنين برفقة أصدقاء من ذوي «الأصابع الخضراء» من أمثال د. بروفاجنيك، والسيدة ماداي، وكذلك بالطبع السيّدة ماهو، فامتلأت نوافذها نخلات صغيرة معتنى بها جيدًا، ونباتات الفيلودندرا المتسلِّقة، ونبتات لسان الحمام؛ إلا أنها طلبت حاملًا لأصص الأزهار، ثم طلبت من ورشة الحدادة في الحي الروماني ثلاثة حوامل غيره، دفعة واحدة، وذلك لأنه لم

يبق لديها مكان لوضع ذلك العدد الكبير من أصص نباتات الفوشيا، والألمينيوم، وجيوش الصبّار، في شقتَّها الصغيرة التي كانت أحاسيسها تقول لها إنها صارت «أليفة تدفئ القلب». أيمكن أن يكون هذا كلّه، السجادات الناعمة، والستائر ذات الألوان البهيجة، والأثاث المريح، والمرآة، وأداة تقطيع البصل، وخزانة الملابس، والأزهار المقدَّرة كثيرًا، وما يوفِّره ذلك من إحساسٍ بالهدوء والأمان والسعادة والرضا، أشبه بحطب يُلقَى به إلى النار فيحترق بعد حين وينتهي أمره؟ أحسَّت بأنها مستنفدة تمامًا. انزلقت من بين أصابعها الورقة التي كانت في يدها اليسرى، وسقطت إلى الأرض. فتحت عينيها ونظرت إلى الساعة على الجدار فوق باب المطبخ.

راحت ترقب عقرب الثواني يقفز مرحًا من رقم إلى آخر. لقد ظلّ في نفسها ذلك التوق إلى السلام على الرغم من إحساسها باستحالة أن يكون هناك مزيد من الأخطار التي تتهدَّدها، وكذلك استمرّ إحساسها بقلَّة الأمان. كان عقلها يجري سريعًا فيحتلُّ هذا الحدث أو ذاك موضع أهميّة كبرى فيه، فما كان منها إلا أن ألقت عبر نافذتها أول الأمر نظرة فاحصة صوب الشارع، في الاتجاهين، بعد أن خلعت معطفها وحذاءها مرتفع

الساق ودلَّكت قدميها المنتفختين كثيرًا، ووضعتهما في شبشبها المنزلي المريح الدافئ. (لكن الشارع كان خاليًا من «أية روح تستطيع رؤيتها. ما من أحد يتلطّى في الظلال... وحدها عربة السيرك الضخمة... وذلك الصوت اللاهث الذي لا يحتمل...). ثم، حتى تتأكَّد من أن كلَّ شيء في موضعه الصحيح، تفقَّدت خزائنها وأدراجها كلّها، ثم توقّفت لتغسل يديها، قائلة في نفسها إن من الأفضل أن تتفقَّد الأقفال مرة أخرى، فمن المحتمل أن تكون قد نسيت أهم واحد من بينها. وبحلول هذا الوقت، كانت قد هدأت بعض الشيء، واستعادت شيئًا من قواها، فقرأت الورقة ثم ألقت بها غاضبة في سلَّة المهملات التي في المطبخ (أربعة سطور، واحد تحت الآخر تقول: «مرحبًا يا ماما، لقد اتصلت بك». هذه هي الرسالة كلّها لأن ثلاثة سطور منها كانت مشطوبة). ثم عادت إلى غرفة المعيشة وشغَّلت جهاز التدفئة فوضعت حدًّا لقلقها كلّه، إذ إنها تفحصت مزروعاتها كلّها نبتة نبتة بعد أن قرَّرت أنَّ كلَّ شيء سيستقر في مكانه إذا لم تجد مشكلة هنا. ما كان لديها أي سبب يدعوها إلى السخط على جارتها الوفية التي لم تكتفِ بتهوية الشقَّة كلَّ يوم، بل كانت حريصة أيضًا على الانتباه إلى الأزهار الَّتي تعتني بها صاحبة البيت كل عناية: كانت تربة الأصص رطبة رطوبةً لطيفةً، بل

إن جارتها «التي هي امرأة ثرثارة بسيطة بعض الشيء، لكنَّها صديقة طيِّبة القلب صاحية الضمير» قد مسحت أوراق النباتات الأكثر حساسية لتنظيفها من الغبار. «روزي العزيزة! يا لها من جارة لا تقدَّر بثمن أبدًا!». تنهَّدت السيدة بلوف بمزيد من اضطرام العاطفة، وصارت الآن قادرةً على أن ترى بعين عقلها -وإن لوهلة وجيزة- شخص جارتها الضخمة التي تثرثر دائمًا. صارت الآن قادرة على الجلوس والاسترخاء في كرسيها الأخضر التفاحي ذي الذراعين حتى تستعرض عيناها ممتلكاتها مرة أخرى، فبدا لها كل شيء في أحسن حال: الأرض والسَّقف والأشجار برسوم الأزهار التي عليها، كلّها محيطة بها تعطيها إحساسًا راسخًا بالأمان، بحيث بدت لها معاناتها السابقة حلمًا سيِّئًا فحسب، أو نتيجة بشعة لأعصاب متوتِّرة ومخيِّلة مريضة. صحيح، قد يكون ذلك كلّه حلمًا بالفعل لأنها -هي التي ظلَّت أربع سنين تنجز حملة التنظيف الربيعية في بيتها، وحملة إعداد المربَّيات والمحفوظات في الخريف، وتشتغل الكروشيه بعد الظهر، وتقوم بجولتها المعتادة من العناية العاطفية المفرحة بحديقتها المنزلية- قد اعتادت النظر إلى الزوابع الجامحة، وإلى المجيء المجنون للعالم الخارجي وذهابه، وذلك من مسافة كافية تسمح لها بأن تظلَّ محتمية بعالمها الداخلي عارفة أن

كل ما قد يحدث خارج إطاره يظلُّ ضبابيًا، عديم الشكل، غير مؤكَّد... والآن، بعد أن صارت قادرةً على الجلوس بهدوء وسلام من خلف أمان أبوابها الذي لم يعكِّره شيء بعد، كان ذلك كأنها أقفلت بابًا على العالم كله - بدأت تجاربها التعيسة في رحلتها تبدو لها أقلَّ واقعية كأن ستارة شبه شفافة قد انسدلت وفصلتها عنها، فصارت غير قادرة على ما يتجاوز تمييز أشكال المسافرين الفظة على ذلك الخط الفرعي، ونظرة ذلك الرجل صاحب معطف الجوخ التي جمّدتها في مكانها، والمرأة البدينة التي تميل جانبًا، والظلمة التي كانت فيها جمهرة من ظلال تضرب -بصمت- شخصًا مسكينًا. وما عادت تميِّز، إلا على نحو ضبابي، ذلك السيرك العجيب، وجدول مواعيد الباصات المشطوب بخطَّين ثخينين على ورقته المصفرَّة. بل إنها لم تعد تتذكَّر نفسها إلا تذكرًا واهيًا، كأنها روح ضالة تحاول يائسة تلمّس طريق العودة إلى بيتها. لكن الخطوط العامَّة لمحيطها المباشر بدأت تصير أكثر تميّزًا ووضوحًا مع فقدان معاناتها خلال الساعات الماضية نكهتها الواقعية، مع أن الصُّور المفزعة للمرحاض الفائح برائحة البول، والحجارة الصغيرة المتَّسخة بين قضبان السكة، وسائق شاحنة السيرك الذي لوَّح لها بيده من خلف المقود، ظلت تحوم وتدور في ذهنها دورانًا سريعًا غير محتمل. لقد

صارت الآن هنا، محاطة بزهورها وأثاثها، في إدراكها المتزايد لحقيقة أنه ما من خطر محدق بها، فما عادت تخشى اعتداءً عليها. أحسّت بالتوتّر الذي خلّفه انتباهها وتأهّبها المستمرّين يتحلّل ويذوب شيئًا فشيئًا، مع أن هذا لم يُزِل عنها حالة القلق الدائم التي استقرّت في داخلها مثلما تستقرّ عصيدة ثقيلة في المعدة فتخللت وجودها كله. ثم إن ما شعرت به من إرهاق صار الآن أشد من أي وقت مضى، فقرّرت أن تذهب إلى فراشها من غير تأخير. لم تُمض إلا بضع دقائق تحت ماء الدوش المنهمر، ثم غسلت ملابسها الداخلية وارتدت ثوبًا بيتيًا دافئًا فوق قميص النوم الثقيل، وألقت نظرةً إلى خزانة المؤونة لأنها، مع كونها «غير قادرة على الجلوس لتناول عشاء حقيقي»، من الممكن أن تأكل قبل نومها شيئًا سريعًا مما لديها من أطعمة محفوظة. بالنّظر إلى ذلك الزمان، كانت خزانة المؤونة (هي مركز الشقّة كلّها) عامرة بمخزون من الطعام غنيٍّ إلى حد مدهش: قطع كبيرة من اللحم، وخيوط من الفلفل الأحمر المعلّقة من حولها كأنها عقود، وحبال المقانق والبيكون المدخّن معلَّقة من خطّافات مرتفعة؛ ومن تحت ذلك، على الأرض، كدس منخفض من أكياس السكر والطحين والأرز؛ وإلى الناحية الأخرى من الخزانة مزيد من الأكياس المصفوفة بأناقة، أكياسٌ من حبوب القهوة،

وبذور الخشخاش، والبندق... هذا فضلًا عن التوابل والبصل والبطاطس... ذخيرة كاملة من مؤن تشهد وفرتُها على بعد نظر من جمعتْها، مثلما تشهد عليه الغابة الجميلة من النباتات المدهشة خارج الخزانة.
وفوق ذلك كلّه، كانت هناك صفوف من آنية المحفوظات ذات المظهر السخي مرتّبة بدقَّة عسكرية على رفوف مصطفّة على الجدار الأوسط. هنا كان كل ما تسنَّى لها وقت لتعليبه وحفظه منذ بداية الصيف... من الفاكهة المحفوظة في ماء سكري، إلى طيبات متنوعة، إلى عصير الطماطم، إلى البندق المحفوظ في العسل. مرَّت عيناها على الآنية الزجاجيَّة اللامعة، كما تفعلان عادة، من غير أن تعرف ما تختاره منها. لكنها عادت إلى غرفتها آخر الأمر وفي يدها مرطبان من الكرز المحفوظ في الروم. ثم شغلت التلفزيون -بفعل العادة، لا الفضول- قبل أن تستقر في كرسيِّها الأخضر التفاحي ذي الذراعين. استندت إلى الخلف ومدَّت ساقيها، ثم أراحت قدميها المتعبتين على حِشية صغيرة. غمرها السرور في ذلك الدفء الذي صار الآن لطيفًا (بعد أن أنعشها الاستحمام) لأنها رأت أن الفترة الموسيقية في التلفزيون قد بدأت: لعل هناك أملًا على الرغم من كل شيء؛ ولعل إحساسها القديم بالسلام والسكينة يعود الآن.
كانت تعرف حقَّ المعرفة أن العالم يتجاوز، بالمطلق،

حدود فهمها («مثلما يسبق الضوء الرؤية»، جملة غبيَّة كان يكرِّرها ابنها إلى حدِّ الغثيان)، وتدرك بوضوحٍ تامٍّ أن أولئك الناس الذين استقروا في أعشاشهم الصغيرةٍ الهادئة -وهي منهم- الذين هم واحات صغيرة من اللياقة والعقلانية، لا يزالون خائفين مرتعدين من الحوادث الجارية في الخارج ومن القطعان الحانقة، قطعان العالم الفوضوي غير الحليق التي لن تلبث أن تتولَّى غريزيًّا مقاليد الأمور: كان الأمر، ببساطة، هو أنها لم تتمرَّد أبدًا على أساليب هذا العالم، بل قبلت قوانينه التي لا تفهمها، وكانت شاكرةً تلك المسَّرات الصغيرة التي تأتيها مما جعلها تشعر بأنَّ لها كلَّ الحقِّ في الاعتقاد بأن في وسعها افتراض كانت تواسي نفسها بهذا أن ضربات القدر سوف تتجنَّبها وتتجنَّب أسلوبها في الحياة. سوف تتجنَّبها وتحمي جزيرة وجودها الصغيرة. لن يقبل القدر باحتمال أنّها (هنا، راحت السيدة بلوف تبحث عن الكلمات المناسبة) هي التي لم تكن لها يومًا رغبة في أيِّ شيءٍ غير السلام لنفسها ولغيرها من بني البشر، قد تقع ضحيَّة ذلك القطيع! كانت أنغام الأوبريت الخفيفة الرقيقة الساحرة (هزَّتها الفرحة عندما عرفتها... أوبريت الكونتيس ماريتسا!)، تنداح في الغرفة مثل نسمة ربيعية لطيفة. وما إن تركت السيدة بلوف نفسها تطفو مع «موجات الأغنية الحلوة»، حتى كفَّت الصُّور المفزِعة

في ذلك القطار بحمولته من بشرٍ أجلافٍ سوقيين عن الظهور لها من جديد، لأن شعورها الآن تجاههم لم يعد خوفًا بقدر ما كان ازدراءً ـ والحقيقة أن شعورها قد عاد، تمامًا، مثلما كان لحظة بداية الرحلة عندما رأتهم أول مرّة في تلك العربة القذرة. كان في تلك الجمهرة غير المستساغة عنصران اثنان («قطيع من الأجلاف الذين يلتهمون الطعام التهامًا»/ «قتلة صامتون»).

وكان هذان العنصران قد اختلطا في ذهنها اختلاطًا جعلها تشعر بأن لها مطلق الحرية على الأقل- في النَّظر إليهم من عليائها نظرة ازدراء، وفي أن تعلو فوق الظروف المؤسفة التي مرّت بها، تمامًا مثلما كانت تلك الموسيقى المنبعثة من التلفزيون تعلو وتغطي الأرض وأهوالها كلِّها. تعزَّزت شجاعتها، وفلقت حبة كرز حلوة أخرى بين أسنانها أمام جهاز التلفزيون، وفكَّرت في أنه قد يكون من المحتمل تمامًا لأولئك الرعاع المتجمهرين في الخارج في ظلمة الليل أن يحرزوا الغلبة؛ لكنْ... في الوقت المناسب، وبالطريقة الصحيحة، عندما تصير الفوضى التي خلقوها غير محتملة أبدًا، فسوف يعودون من حيث أتوا لأن ذلك هكذا قالت السيدة بلوف في نفسها هو المكان الذي ينتمون إليه: خلف أسوار عالمنا المنظَّم المُنصِف، سوف يجري استبعادهم منه من غير غفران. وإلى أن يأتي ذلك اليوم، وتتحقَّق العدالة الصَّحِيحَة،

سوف تظلّ ثابتة على آرائها في هذا الأمر، واثقةً منها... فلتنفتح أبواب الجحيم كلُّها، ولسوف تتجاهلها: لا علاقة لها أبدًا بهذه الفوضى كلِّها، وبهذا الطغيان اللابشري، وبهؤلاء الناس الذين ليسوا أكثر من رعاع يستحقّون الحبس. وطالما ظلّت الأمور كما هي الآن، وظلَّت الشوارع محتلةً من قبل أمثالهم، فلن تضع قدمًا خارج بيتها، ولن تقبل بأن تكون لها صلة بالأمر كله - مهما تكنْ تلك الصلة-، ولن تقبل بأن تسمع كلمة أخرى عنه إلى أن يصل هذا الوضع المخزي إلى نهايته، وإلى أن تصفو السماء ويعود التفاهم المتبادل والتعقّل الواعي نظامًا مستقرًا. هدّأتها هذه الأفكار، وشدّت من عزيمتها، فراحت تتابع انتصار الكونت كاسيلو والكونتيس ماريتسا إذ عثر كلٌّ منهما على الآخر بعد مصاعب ومحنٍ كثيرة، وصارا الآن موشكين على الذوبان باكيين في خضَّم السعادة الغامرة التي حملتها مقدِّمة الجزء الأخير من الأوبريت عندما سمعت... من غير توقُّعٍ أبدًا... صوت جرس الإنترفون في الممر. وضعت يدها على قلبها وقد هزها الذعر («لقد وجدني! لقد لحق بي!»). ثم ارتدت قناع الشجاعة («حقًا! كيف يجرؤ!؟...»)، ورفعت رأسها فألقت على الساعة الجدارية نظرة سريعة ثم قامت مسرعة إلى الباب. لا يمكن أن يكون القادم جارًا ولا صديقًا لأن الناس لا يزورون بعضهم

بعضًا بعد الساعة السابعة ليلًا... بحكم حسن تربيتهم، في الأصل، وبفعل عدم التجرؤ على التجوُّل في المدينة في مثل هذا الوقت. وهكذا، بعد أن أبعدت عن ذهنها احتمال أن يكون القادم ذلك الشخص الكابوسي ذو معطف الجوخ، ما عاد لديها شكٌّ في الهويّة الفعليّة لمن يدق بابها. منذ أن استأجرت هذه الشقة من بيت أسرة هاريرز، حتى صار من عادة ابنها (للأسف) أن يأتيها كل ثلاث ليالٍ. غالبًا ما يكون ثملًا من النبيذ، فيغمرها ساعات طويلةً بكلامه الجنوني المهووسِ بالنجوم والكواكب، أو (هذا ما كان أكثر حدوثًا) بكلامه عن الحوادث الأخيرة... يأتيها دامع العينين، حاملًا أزهارًا لا شك لدى أمه غير المخدوعة به في أنه سرقها حتى «يعوِّضها عن كل ما سبَّبه لها من ألم بفعل عقوقه». لم تقل له مرَّة، بل ألف مرَّة، بل في كل مرَّة عندما تفلح أخيرًا في التخلُّص منه، بأن عليه ألا يأتي إليها، وألا يزعجها. عليه أن يتركها في سلام لأنها لا تريد رؤيته، ولأنها لا تحبُّ أن تطأ قدمه أرض شقتها. و... لقد كانت تعني هذا حقًّا: لم تكن تريد رؤيته لأن سبعة عشر عامًا بائسة أمضتها معه كانت أكثر من كافية. لم يمر بها يوم، ولا دقيقة، لم يحمرَّ فيه وجهها خجلًا لأن لها هذا الابن.

لقد اعترفت لصاحباتها المتعاطفات معها بأنها حاولت فعل كل ما استطاعت التفكير فيه؛ ولم تلبث أن أعلنت

لهنَّ في الآونة الأخيرة أنها لا ترى سببًا يرغمها على المعاناة جرّاء سلوكه لمجرد أنها أنجبت ابنًا عاجزًا عن أن يكون كائنًا بشريًّا محترمًا. لقد كانت تعاني مع زوجها الأول، فالوسكا الأكبر، الذي دمَّره الكحول تدميرًا تامًّا؛ ثم عانت أكثر من أي حدٍّ مقبول مع ابنها. كانت تؤكِّد على هذا، مرّة بعد مرّة، أمام معارفها جميعًا. لقد نصحوها -وهي تتبع نصائحهم أكثر الأحيان- بأن عليها، بكلِّ بساطة، أن «ترفض السماح لابنها المجنون بدخول بيتها إلى أن يتخلَّى عن عاداته السيئة». لكن هذا لم يكن صعبًا فحسب، «يجد قلب الأم الحنون صعوبة في فعله»، بل كان عليها أيضًا أن تعترف بأنه ليس حلًّا حقيقيًّا. ففي آخر المطاف، لا طائل من وضع قانون لابنها في حين تكون الإرادة التي تمكِّنه من اعتماد نمط حياة طبيعي ضعيفة لديه ضعفًا واضحًا، بل حتى غائبة: لا طائل من دعوة فالوسكا الأصغر -المستمرِّ في لعب دور المتشرِّد الجوَّال- إلى رفع رأسه في يوم من الأيام والإعلان، بوجهٍ مشرقٍ، أنه قد «عقد العزم الآن». لقد تكرَّر هذا مرَّة بعد أُخرى. وطّنت نفسها على قبول هذا الصراع اليائس، وعلى قبول معرفتها بأن ابنها لن يكون الآن قادرًا (لشدَّة بساطته التي لا شفاء لها) على فهم ما تريده أمُّه منه. لقد طردته دائمًا، وهذا ما كانت تعتزم فعله في هذه اللحظة. لكنها

أجابت الطارق فأتاها في السماعة -بدلًا من رجائه المتلعثم المعتاد «هذا... هذا أنا... يا ماما»- صوت امرأةٍ هادئٍ واثقٍ من نفسه. دهشت السيدة بلوف، فكرَّرت سؤالها: «من؟»، ثم أبعدت السماعة عن أذنها لحظة. «هذه أنا، يا بيري، يا حبيبتي! إنني السيدة إيزتر!». السيدة إيزتر!؟ هنا؟! في هذه الساعة؟! - صاحت السيدة بلوف بهذه الكلمات وبدأت أصابعها تعبث بطرف ثوبها. لم تعرف ما يتعيَّن عليها فعله الآن. كانت هذه المرأة واحدةً من الأشخاص الذين «تحرص السيدة بلوف على الابتعاد عنهم» -هذا ما كان يحرص عليه أهل البلدة جميعًا، بحسب معرفتها- والواقع أن كلًّا منهما كانت غريبة بالنسبة إلى الأخرى. لم تكن السيِّدة بلوف تتبادل مع هذه المرأة أكثر من عشر كلمات عن الطقس خلال السنة كلّها، بمعزل عن تحيَّتها بهزة رأس خفيفة (شيء لا يمكن تفاديه!) عندما تراها في الشارع. ولهذا، كانت زيارتها هذه أمرًا مفاجئًا جدًّا. ما كان الأمر متعلِّقًا بماضي السيدة إيزتر الفضائحي وحده، ولا بتراخيها الأخلاقي، ولا بوضعها العائلي المشوَّش في الوقت الحالي «الذي جعلها موضوعًا دائمًا لأحاديث صديقات السيدة بلوف»، ولكن أيضًا لحقيقة أن غرورها الشديد كان يجعلها ترفض الإقرار بأي شيء من ذلك.
ومن ناحية أخرى، كان أسلوبها المندفع، الصاخب،

الفظّ، و«ملابسها المبهرجة التي تلتصق التصاقًا شديدًا بجسدها المكتنز شحمًا» مما يزعج العائلات المحترمة في الحيّ. وفوق هذا كله محاولاتها الصفيقة للتقرب من الناس عن طريق عروض من النفاق المفضوح الذي يثير أشد النفور، «نفاقٌ وتلوُّنٌ قادران على جعل الحرباء نفسها تشعر بالخجل». وكأن هذا كلّه لم يكن كافيًا! فمنذ بضعة شهور مضت، استغلَّت حالة ضعف الانتباه العام الناتجة عن الأوضاع المضطربة في الآونة الأخيرة، وعن جو القلق المسيطر على الناس لكي تقتنص تعيينها رئيسة للجنة المرأة -من خلال نفوذ عشيقها، مدير الشرطة- فصارت أكثر تكبُّرًا من ذي قبل، وصارت مجوهراتها تتلألأ ببريق الاعتزاز والنصر... أو، بحسب التعبير المُحكَم لإحدى الجارات «تتلألأ بابتسامة متكلِّفة، مقزِّزة تراها صاحبتها ساحرة». بعد هذا التعيين، صارت تتذرع بزيارات المجاملة فأفلحت في شَقِّ طريقها بمعسول الكلام حتى إلى بيوت كانت أبوابها موصدة في وجهها قبل ذلك. كان واضحًا تمامًا أن السيدة إيزتر آتية الآن في زيارة من تلك الزيارات الخبيثة، فما كان من السيدة بلوف إلا أن نزلت السلم متقدِّمة في اتجاه الباب مصمِّمة تصميمًا حادًّا على أن تكون شديدة في توبيخها على قلّة ذوقها («من الواضح أن هذه المخلوقة مفتقرة حتى إلى أبسط

قدر من الفهم للأوقات التي تكون زيارة الناس فيها أمرًا مناسبًا!»)؛ وكذلك كانت عازمة على إظهار ميلها العام إلى التحفظ بطريقة مباشرة واضحة تمامًا بحيث تصرفها عنها. إلا أن الأمور لم تجرِ على هذا النحو! لم تجرِ الأمور على هذا النحو، ولا كان ممكنًا أن تجري على هذا النحو لأن السيدة إيزتر كانت على معرفة تامّة بطبيعة المرأة التي تتعامل معها، فرأت أن من الطبيعي -كما يهمس صديقها مدير الشرطة في أذنها كل يوم-ـ أن تسحق مقاومة السيدة بلوف العنيدة «لأنها عملاقة حقًّا من حيث طولها ووزن جسدها... فضلًا عن بقية الأشياء». بعد تخديرها ببضع عبارات هادئة من قبيل «يا عزيزتي»، اتخذت نبرة رجولية رنّانة وأعلنت أنها، مع معرفتها الأكيدة بأنها آتية في ساعة متأخِّرة من الليل، تريد الحديث معها -الآن، هنا- في أمرٍ ذي أهمية حيوية في «مسألة خاصة لا يمكن إرجاؤها». ثم استفادت من لحظة الشلل القصيرة المرتقبة التي مرَّت بها السيدة بلوف المصدومة فتجاوزتها وتركتها واقفة بالباب، ثم اندفعت صاعدة السلم وخفضت رأسها عند الباب ـ بفعل العادة («لا أريد أن يصطدم رأسي به صدمة مؤلمة»)، فعبرت الباب مباشرة إلى الصالة حيث بدأت تلقي عبارات مجاملة صغيرة حتى تحوِّل الانتباه عن توقيت زيارتها هذه... عبارات عن «الوضع

الممتاز» للشقَّة، و«الرسوم المبتكرة» للسجادة التي في الممر، و«الذوق العام الرفيع الذي تُحسد عليه»، ذوق باتت مقتنعة «بسوقيَّته المبتذلة» منذ اللحظة التي ألقت فيها بضع نظرات سريعة من حولها وهي تعلِّق معطفها. سيكون صعبًا التحديد، بأي قدر من الثقة، ما إذا كانت حيلة «تحويل انتباهها» تمثّل حقًّا الطبيعة الدقيقة لنياتها، لأن الحقيقة هي أن هدفها ربما كان يمكن أن يتحقَّق بعدد كبير من الطرق (بالنظر إلى الطبيعة العاجلة لاضطرارها إلى قضاء ربع ساعة، أو نحو ذلك، مع والدة فالوسكا قبل انقضاء هذا اليوم، بحيث تصير قادرةً على الإشارة إلى هذه الزيارة إن هي صادفته في اليوم التالي).

إلا أنها -على الرغم من هذا- لم تختر الحلَّ الذي كان أقرب إلى متناول يدها (ألا وهو أن تجلس على الفور على واحدة من تلك الكراسي المنفرة ذات الذراعين وتسوق الحديث بحيث يصل إلى «تلك الرغبة في التجديد والتنشيط التي هي واضحة جدًّا في البلاد كلِّها؛ وفي هذا السياق، العمل الحماسي من كل ناحية الذي تقوم به الآن لجنة النساء المحلّية»). صحيح أنها كانت قد استعدَّت لهذا، للعزلة الدافئة، وللجو الحميمي البليد، وللأناقة الدبقة «لوكر هذه الحيَّة القذرة»، وكان لهذا الاستعداد أثر قويٌّ عليها بحيث لم تستطع كتم نفورها إلا

بعد جهود كبيرة تمكّنت من بذلها بفعل ما لديها من مهارة ودهاء. كانت مكرهة على تفحص كل قطعة في ترسانة مضيفتها بأقصى قدر من الانتباه بصحبة السيدة بلوف، التي لم تكد تنطق كلمة واحدة لشدَّة غضبها وارتباكها، فاكتفت بالجري خلفها محمرَّة الوجه وتبعتها خطوة فخطوة بينما كانت عينا الزائرة تنقّبان في كل زاوية من زوايا الشقّة، وهي تشعر بأنها موشكة على الاختناق لكثرة ما فيها من توافه. وبإعجاب كاذب متصنِّع (لأن «الوقت لم يحن بعد لكي يضع المرء أوراقه على الطاولة»)، استخدمت صوتها الجهير الهادر لتعلن قائلة، «نعم، من غير شكٍّ، إن النساء قادرات على إضفاء المعنى على ما حولهنَّ من أشياء لا حياة فيها؛ إنهنَّ النساء، النساء فقط، من تستطعن تحقيق ما نسمِّيه سحر الفرادة»؛ إلا أنها كانت تستميت في مصارعة إغراء لا ينفك يزداد شدَّة بأن تسحق واحدًا من تلك التوافه الصغيرة في قبضة يدها الضخمة، وتكسره مثلما يكسر المرء رقبة دجاجة لأن... اللعنة على هذا كلِّه، هذه الرفوف المزيَّنة والزينات المصنوعة من الدانتيلا، وصحن السجائر الذي له رقبة بجعة، والسجَّادة الفارسيّة، ذات الملمس المخملي، وستائر التول الناعمة نعومة سخيفة، وكذلك -خلف زجاج خزانة العرض- تلك الروايات العاطفيّة بالمتنوعة بمحتواها

الخانق الدبق الحارّ... كانت هذه الأشياء كلّها تبيّن لها بشكل مرئي أين انتهى الأمر بالعالم نتيجة تساهله السخيف الذي لا حدود له تجاه «المسرَّات الكسلى والرغبات الواهية». رأت كلَّ شيء، وسجَّلته في عقلها... لم يفت انتباهها أي شيء على الإطلاق! وبعد أن استوعبت ذلك كلَّه، استجمعت كل ما لديها من قدرة على السيطرة على النَّفس، ومضت في تعذيب نفسها أكثر من ذي قبلٍ بأن وجدت مسرَّة مُرَّة في تنفُّس هواء الشقَّة الملوَّث بالعطر... هواء ذكَّرها كثيرًا «بالرائحة اللذيذة لبيوت الدمى» لأن رائحة هذه الشقَّة تفصح بكلِّ جلاء، حتى من مسافة ميل عنها، عن الحالة المزريّة لساكنتها: كانت رائحة نفرت منها منذ أن بلغت العتبة، وذلك خاصَّةً لأنها أثارت فيها رغبةً حقيقيةً في التقيُّؤ (أو، هكذا اعتادت أن تقول -بتهكُّم جافٍ- لمدير الشرطة كلَّما عادت من واحدة من زياراتها بعد انتخابها). وسواء كان هذا ناجمًا عن ميلها إلى السخرية فحسب، أو عن حالة من الغثيان الحقيقي، فقد كان في وسع صديقها أن يثق تمام الثِّقة في أنها تتعرَّض لمصاعب ومحنٍ غير عادية؛ فمنذ أن «جرت أخيرًا استعادة الروح الجمعية» بالقدر الكافي لارتقائها من منصب قيادة جوقة الإنشاد المحلِّية ذات الأصوات الذكورية (منصب كان وجودها فيه تقليلًا من شأنها، وما كان يخفِّف من ثقل متطلباته

شيء غير ما يسمُّونه «المجموعة الحصرية» من المارشات وأغاني العمل وقصائد الاحتفاء بحلول الربيع) إلى رئاسة لجنة المرأة، فصار على هذه الرئيسة ذات الإرادة الحديدية أن تبدِّد أيامها («ساعات طويلة في كل مرّة») في شقق كهذه الشقّة لا لشيء إلا لكي تبين لنفسها مرة بعد مرة أن شكوكها كانت، في واقع الأمر، حقيقيّة من غير أيِّ ظلٍّ من الشكِّ. وهذا لأنها رأت بوضوح أنه في هذه الظروف المضنية تحديدًا -بين محفوظات الفاكهة زائدة الحلاوة وأغطية السرير الهفهافة والسجادات بشراشيبها الممشّطة والكراسي ذات المساند المحمية بأغطية محبوكة حبكًا محكمًا- لا يلبث كلُّ دافعٍ قويٍّ أن ينتهي بحالةٍ من الأسى... ورأت أنَّ في هذا المستنقع القاتل الذي يسكنه من يعتبرون أنفسهم صفوة المجتمع المحلِّي ويستمتِعون -وهم ينتعلون أحذيتهم المنزلية المضحكة- بهذه الأوبريتات السخيفة، وينظرون نظرة ازدراء إلى الناس البسطاء الأكثر عافية منهم، رأت أن فيه ما يكفي لأن يغرق كلُّ دافعٍ محترمٍ حسنٍ في عالم النسيان. فهمت هذه الظاهرة كلَّ الفهم، ورأت أنه على الرغم من شهور من العمل عقب الإطلاق الرئاسي للحملة التي افتتحت عصرًا من التجديد، على سبيل المثال، فإن الحركة قد تعثَّرت، ويا للأسف! لم يكن هذا -إن أردنا الصدق- أكثر مما توقّعته

من قبل؛ ولم تكن مفاجأة حقيقيَّة لها أن يرفض مجتمع الطفيليين الراقي هذا، الغارق في إحساسه الخاص بقيمته الذاتية، حججها التي فكَّرت فيها مليًّا. فمن خلف الأعذار والذرائع الظاهريّة (من قبيل «تنظيف في شهر كانون الأول!؟ لماذا لا يكون هذا في وقت لاحق عندما يأتي موعد التنظيف الربيعي الحقيقي؟»)، رأت السيّدة إيزتر ما هو كامن في قلب اعتراضاتهن، وفهمت أن عجزهن وخضوعهن الجبان نابعان من خوف غير منطقي -مع أنه مبرّر بالنسبة إليهم-من أي مشروعٍ يرمي إلى التجديد العام... تجديد كان يمكن أن يبدو، في نظرهم، شيئًا أشبه بحالة عامة من التفكك والتدهور؛ وذلك لأنه، في كل مناصرة حماسية للجديد، يكون الناس ميالين إلى ترصُّد آثار جنوح إلى الفوضى يماثلها حماسة. وهم يشتبهون -محقِّين تمامًا- في أن القوى التي تطلق من عقالها لن تعمل على حماية ما مات وشبع موتًا، بل ستحطِّمه تحطيمًا من أجل قضيّة عادلة، قضيَّة إحلال «الحماسة المتصاعدة من أجل فعل «جَمعي» محل الضجر البليد في حياتهم الأنانية».

لم يكن يمكن إنكار أنها كانت وحيدة في المدينة - باستثناء النقيب، موضع أسرارها، وواحد أو اثنان من أصحاب العقول السليمة-في تقييمها للحوادث الفوضويَّة غير المعتادة التي جرت في الماضي القريب؛ على أن

هذا لم يكن مقلقًا لها أبدًا، ولم تر ضرورة لإعادة النظر في موقفها، لأن شيئًا كان يهمس لها بأن «النصر الذي يبرر كل شيء» لن يتأخَّر كثيرًا. وأما السؤال عمَّا يتكوَّن منه هذا النصر، فما كانت قادرة على الإجابة عنه بجملة بسيطة، أو حتى بجملتين؛ إلا أن إيمانها كان ثابتًا بحيث لا تخاف شيئًا مهما بلغت مقاومة «تلك الزمرة الخاصَّة من السراويل الأنيقة والأحذية المنزلية» ومهما بلغت كثرتها. ما كان لديها شيء تخشاه من جانبهم، فضلًا عن معرفتها الأكيدة بأن العدو الحقيقي (هذا هو السبب الذي جعل تلك المعركة من أجل الفوز بالقلوب والعقول نضالًا شخصيًا في نظرها) هو غيورغي إيزتر نفسه: رجل يراه عامّة الناس ناسكًا غريب الأطوار يعيش في عزلة مطلقة؛ لكنَّ الحقيقة هي أنه ليس أكثر من إيزتر الكسول العليل، زوجها الاسمي نصف المحترم الذي، خلافًا لها، «ليس في سجله أي شيء من المشاركة في الشؤون المدنية العامّة». لقد أحرز في البلدة شهرة ملتبسة عبر السنين التي أمضاها مستلقيًا في السرير بحيث كان («فلنقل هذا») يلقي نظرة من نافذة غرفته مرَّة كل أسبوع... فهل يمكن أن يكون هذا الشخص عدوًا حقيقيًّا؟ أجل... لقد كان أكثر من ذلك: بالنسبة إلى السيدة إيزتر، كان هذا الرجل «جدرانًا جحيمية، لا أمل منها ولا إمكانيّة لاجتيازها»؛ وفي

الوقت نفسه، كان أملها الوحيد في المحافظة على المكانة التي اكتسبتها لدى أكثر المواطنين نفوذًا وتأثيرًا. بكلمات أخرى، كان ذلك مصيدةً، فخًّا مُحكمًا لا يمكن الشكُّ في فعاليته... كان فخًّا لا تستطيع الفرار منه، ولا إبطاله.
هذا لأن السيد إيزتر يظلُّ الآن، كما كان دائمًا، مفتاح العمليَّة كلِّها؛ يظل الحلقة الحاسمة في السلسلة المفضية إلى تحقيق أسمى طموح لها.
إنه الرجل نفسه الذي تخلَّى عن إدارة مدرسة الموسيقى المحلِّية منذ سنين (بسبب ما دعاه «مشكلات في الظهر»)، وقال لها ببساطة وبتهكُّم لا حدَّ له إنه «لم يعد في حاجة إلى خدماتها المنزلية». كان عليها أن تنقِّب عميقًا في مدَّخراتهما حتى تستأجر لنفسها شقّة عند السوق. إنه الرجل نفسه الذي زاد تلك الفعلة عمقًا - كنوع من الانتقام؛ فماذا غير الانتقام يمكن أن يكون سببًا؟- فتخلى عن الالتزامات القليلة التي كانت بينهما واستقال من قيادة أوركسترا المدينة لأنه، على ما يظهر، وكما سمعت من أشخاص آخرين، لم يعد مهتمًا بأي شيء غير الموسيقى ولم يعد راغبًا في تكريس وقته لفعل أشياء أخرى؛ وذلك على الرَّغم من أن السيدة إيزتر -أكثر من أي شخص آخر- كانت قادرة على إخبار العالم كلِّه عن النغمات الزائفة المؤذية للآذان التي يعزفها على بيانو أفسد ضبط أوتاره عامدًا؛ لكن من

الطبيعي أن هذا لن يحدث إلا إذا، وإلا عندما، تمكَّنوا من جعل جسده الذي صار ضعيفًا نتيجة استلقائه الدائم، ينهض من الفراش وينتزع نفسه من تلك الكومة الضخمة من الوسائد الطرية وبطانيات السفر. عندما كانت تستعيد ذكرى تلك السنين كلِّها، سنين الإذلال التي لا نهاية لها، تكتشف أنها ستكون في غاية السعادة إن هي تناولت فأسًا وقطّعت زوجها الذي لا يمكن احتماله إلى أجزاء صغيرة هناك، في مكانه، حيث يكون مستلقيًا. لكنها تعرف تمام المعرفة بأن هذه ليست بالوسيلة المتاحة لها، ولو من بعيد، مما يجعلها مضطرَّة إلى الإقرار بأن المدينة ستظلّ مغلقة في وجهها من غير إيزتر وبأن طموحها، مهما يكن ذلك الطموح الذي في ذهنها، لن يتحقَّق إلا في مواجهته. عندما كانت تفسر انفصالهما بحاجة زوجها إلى الوحدة وإلى ظروف عملٍ هادئة، تجد نفسها مضطرَّة إلى المحافظة على مظهر الزواج وإلى كبت أيّة فكرة عن الطلاق الذي تتمنّاه من كلِّ قلبها. وأسوأ من هذا أنها كانت مضطرة إلى جعل نفسها تقبل حقيقة أن زوجها، بمساعدة من تلميذه ورفيقه المفضَّل، فالوسكا المخبول تمامًا، ابن السيدة بلوف الفاسد من زواجها الأول، قد قرَّر أن يتولَّى بنفسه غسل الملابس، بما فيها «الملابس الداخليّة المتَّسخة»... سرًّا أول الأمر، ثم على نحو علني تمامًا في وقت لاحق

بحيث صارت المدينة كلّها عارفة بالأمر. بدا الوضع خطيرًا إلى حدٍّ لا يمكن إنكاره، إلا أن السيدة إيزتر ما كانت لتُهزَمَ بهذه السهولة: صحيح أنها لم تكن تعرف إن كان الانتقام الشخصيّ أو «النضال من أجل الصالح العام» هو التفسير الأكثر صحَّةً، لكنَّه صحيح أيضًا أنها لم تكن تعرف أيهما أكثر أهمية، أن تردَّ الصاع صاعين لإيزتر («من أجل كلِّ شيء») أو أن تصرف جهدها إلى جعل «مركزها» غير المستقر أكثر قوَّة. لكنها كانت واثقةً من أمر واحد، ألا وهو أن ذلك الوضع البائس لا يمكن أن يستمرَّ إلى الأبد، وأن يومًا سيأتي (قد لا يكون ذلك في مستقبلٍ بعيدٍ جدًّا)، فتكون قد أحرزت السلطة التي تستحقها تمامًا وبلغت رتبة رفيعة إلى الحدِّ الكافي، فتصير قادرةً على التخلُّص من الفوضى التي سبَّبها ذلك النذل الذي يثير الرثاء والذي كان «مصمِّمًا» على جعلها أضحوكةً للناس، وعلى جعل حياتها بؤسًا متَّصلًا. وقد كانت لديها أسبابٌ وجيهة كافية للظنِّ بأن الأمور قد تسير على هذا النحو حقًّا لأن مركز الرئاسة (الأمر ليس قضية «يجب
أن يكون كذلك، وبالتالي سوف يكون كذلك»)، لم يكن يمثل بالنسبة إليها فرصة إطلاق يدها وممارسة سلطة من «غير قيود» فحسب، بل كان أيضًا دليلًا مشجِّعًا على استقلاليتها المتنامية عنه، هذا فضلًا عن حقيقة

أنها، بعد أن اكتشفت كيف تكسب مساندة البرجوازية المتعنِّتة للتدابير القاسية التي توصَّلت إليها لجنتها، إلى جانب إعادة تأسيس صلتها المفيدة بإيزتر في الوقت نفسه، صارت تجد أن ثقتها بنفسها قد صارت الآن من غير حدود (كانت في ما مضى منخفضة إلى حدٍّ محزنٍ)، فباتت مقتنعة تمام الاقتناع بأنها تسير على الطريقِ الصحيح، وبأن ما من أحدٍ قادرٍ على إيقاف تقدُّمها المباشر صوب هدفها.

كانت الخطة سهلة، بعد كل حساب. ومن الطبيعي أن تكون بسيطة كل البساطة مثل أي «تجلٍّ للعبقرية». وكما يكون الأمر عادةً، لم يكن يلزمها لكي تتوصَّل إلى تحقيق غايتها الفريدة الملائمة كلَّ الملاءمة غير أن تعمل عملًا جادًّا لإحراز ذلك. وبطبيعة الحال، كانت قد رأت بوضوح (تمامًا منذ البداية عندما شرعت في الإعلان عن حركتها) أن من غير الممكن التغلُّب على الاعتراضات، وعلى اللامبالاة العامَّة، إلا من خلال جعل إيزتر نفسه «مساهمًا في الأمر». فإذا أمكن إرغامه على المشاركة، وإقناعه بتولّي دور قيادي، فإن البرنامج الذي كان ممثَّلًا بالشعار الفارغ «فناء مرتَّب، بيت يسوده النظام»، ذلك البرنامج الذي كان فشلًا مزريًا حتى ذلك الوقت، يمكن أن يشكِّل أساسًا لمبادرة

قوية واسعة النطاق. هذا صحيح... لكن، كيف؟ هذا هو السؤال! أمضت أسابيع، بل شهورًا قبل تلك الأسابيع، في التفكير في أساليب غير عملية، وفي استبعاد تلك الأساليب... أساليبُ تراوحت من الإقناع البسيط إلى لَيِّ الذراع... إلى أن عثرت على طريقة مضمونة وحيدة لوضعه في المشهد.

لكنها، منذ ذلك الوقت، ومنذ أن أدركت مدى اعتماد خطّتها كلّها على «ذلك المخلوق الضعيف، فالوسكا» وأمه، السيدة بلوف، التي كان معروفًا بين الناس أنها أبعدته عنها فصار متعلِّقًا بها تعلُّقًا شديدًا، فقد حل عليها شعور بالسكينة التامّة واستقرّ في ذهنها أن ما من أحدٍ، وما من شيء، يمكن أن يحرفها عن تلك الخطة. ثم إنها الآن جالسةٌ بين هذه السجادات وقطع الأثاث المبالغ في تلميعها لدى هذه المرأة ضئيلة الحجم («... لكنها عامرة الصدر»)، فأحسّت سرورًا غامضًا برؤية وجنتي السيدة بلوف «تتوهّجان احمرارًا» كلما سقط رماد سيجارتها وتبعثر على الأرض، أو كلما تذوَّقت -معجبة- واحدة من حبات الكرز المحفوظة الباقية على الطاولة. أسعدتها كثيرًا مراقبة ذلك الغضب العاجز عند مضيفتها («إنها خائفة مني!»... استنتجت هذا بشيء من الرضا)، وأسعدتها رؤية أنها بدأت تتغلّب بطيئًا على سخطها الذي كان لديها أول الأمر، فما كان منها إلا أن راحت

تنظر من حولها في تلك الغرفة الغاصَّة بالنباتات التي جعلتها تشعر كأنها وسط حديقة أو فناء مليء بكتلة ضخمة من العشب وعادت إلى تمتمتها الخفيضة -لا لسبب إلا لكي تسلّي نفسها- وقالت لمضيفتها تعبيرًا عن إقرارها بأنها معجبة بما تراه: «حسنًا، هكذا هو الأمر. يرغب كل ساكن مدينة في جلب الطبيعة إلى بيته. نحن كلّنا نشعر بهذا يا حبيبتي بيري». لكن السيدة بلوف لم تجِبْها بشيءٍ، ولم تفعل إلا ما كانت مضطرّةً إلى فعله: اكتفت بإيماءة صغيرة من رأسها كانت إشارة واضحة للسيدة إيزتر بأن وقت دخولها في الموضوع الذي جاءت من أجله قد حان. وبطبيعة الحال، كانت موافقة السيدة بلوف أو عدم موافقتها على لعب دورها في المسألة أمرًا قليل الأهمية. لم تكن تدرك أنها قالت «نعم» بالفعل عندما فشلت في منع غزو شقتها، وعندما تركَّز اهتمامها كلّه على حضور زائرتها فحسب. على الرغم من ذلك، وبعد أن تحمّلت السيدة إيزتر مشقّة شرح الوضع لها بطريقة («لا تظنّي لحظةً، يا عزيزتي، أنني أنا من يحتاجه... لا، إنها المدينة: هي في حاجة إلى السيد إيزتر. لكن، إقناع رجل كثير المشاغل مثله، كما يعرف الجميع، بأن يتصرَّف يظل أمرًا في غاية الصعوبة لا يقدر عليه غير ابنك المهذَّب اللطيف...»)، وبعد أن خاطبتها بأكثر ما تستطيعه من

مودَّة وهي تنظر مباشرة في عينيها، لم تكن مفاجأتها سارّة ولا قابلة للإنكار عندما جوبهت برفض فوري. لقد كانت قادرة على أن ترى بكل وضوح أن العلاقة بين فالوسكا والسيدة بلوف «قد تحطّمت بالكامل منذ بضع سنين»، وأن على السيدة بلوف «واجبًا أموميًّا في إبعاد نفسها عن أي شيء متعلِّق بفالوسكا، على الرغم من أن المرء يستطيع أن يتخيَّل جيدًا حجم الألم والمرارة اللذين عانتهما هذه الأم حتى تقول هذا الكلام عن ابنها، الذي هو ليس شخصًا من غير قلب، لكنه جاحدٌ تمامًا ولا نفع منه»؛ إلا أن كلَّ ما كان في نفس السيدة بلوف من غضبٍ مكبوتٍ إزاء ضعفها وعجزها قد تركَّز في كلمة «لا» واحدة كانت كفيلة بأن تردَّ للسيدة إيزتر ما ألحقته بها من إذلال خلال الدقائق القليلة الماضية، وذلك لأن حقيقة كونها ضعيفةً، صغيرة الجسم أمام السيدة إيزتر القوية الضخمة -ومهما تكن راغبة في إنكار تلك الحقيقة، فقد أرغمتها على الإقرار بأن ابنها الذي كان مستأجرًا لدى آل هاغلماير- ابنها الذي كان ريفيًّا أحمق لا تؤهِّله قدرته لما هو أكثر من العمل في توزيع الصحف لدى مكتب بريدٍ محليٍّ، شخصٌ لا نفع منه على الإطلاق؛ فلماذا يكون عليها أن تتحمل مسؤولية هذا كله أمام امرأة غريبة لا يقبل بها أحد من أصدقائها.

كانت أمام السيدة إيزتر أدلَّة كافية لأن تدرك هذا كلّه،

لكن رؤيتها أن السيدة بلوف كانت عاجزةً أمامها كلَّ العجز («هذه القزمة»)، جعلتها راغبة في أن تلتمس لنفسها تعويضًا عن اضطرارها إلى الجلوس معها قرابة عشرين دقيقة، واحتمال «تلك الابتسامة التي تثير الحنق»، واحتمال نظراتها المهذَّبة التي تكاد تكون ساخرة، فما كان منها إلا أن قفزت من كرسيها الأخضر التفَّاحي العميق، قائلة بنبرة ازدراء إن عليها أن تذهب الآن، وشقَّت طريقها عبر النباتات الكثيفة فأسقطت - مصادفة- قطعةً مطرزةً بالإبرة عندما مسَّت كتفها الجدار؛ ومن غير أية كلمة أخرى، أطفأت سيجارتها في طبق سجائر لم يُستخدم قبل تلك اللحظة أبدًا، وانتزعت من المشجب معطفها الضخم الأسود المصنوع من فراء مقلَّد. على الرغم من أن السيدة إيزتر كانت قادرة تمام القدرة على تقييم الوضع تقييمًا باردًا، وعلى الرغم من معرفتها أنه ما عاد لشيء أن يفاجئها، فإن قول كلمة لا لها -مثلما فعلت السيدة بلوف الآن- يجعل حلقها ينقبض على الفور ويجعلها تنفجر غضبًا، لأنها لا تملك أيّة فكرة واضحة عن كيفية التصرّف في هذه الحالات. كان الغضب محتدِمًا داخلها، وكان حنقها يشتعل اشتعالًا إلى حد جعلها، عندما وجَّهت إليها السيدة بلوف التي كانت تعصر يديها متوتِّرة سؤالًا بينما كانت تزرّر آخر مشبك معدني في معطفها (عيناها ترفرفان، وشفتاها

مشدودتان، ورقبتها مرتدَّة إلى الخلف... عيناها تحدقان في السقف).
كان ذلك السؤال شيئًا متعلِّقًا بأنها «شديدة القلق» («... هذا المساء... عندما كنت عائدة من بيت أختي... لم أكد أعرف مدينتي... هل أوضح أحد للناس سبب عدم إضاءة مصابيح الشوارع؟... لم يكن هذا الشيء يحدث من قبل، أبدًا»). فما كان من السيدة إيزتر إلا أن زعقت بربة المنزل المذعورة: «هناك ما يجعلك تقلقين بالفعل. إننا على عتبة مجتمع أكثر صرامة وصدقًا وانفتاحًا. هناك زمن جديد قد اقترب كثيرًا، يا عزيزتي بيري». غار اللون من وجه السيدة بلوف مع انطلاق هذه الكلمات ذات المغزى العميق، خاصة لأن السيدة إيزتر شدَّدت على جملتها الأخيرة بأن لوَّحت بإصبعها في الهواء مهدِّدة. لكن هذا لم يكن ليحقِّق أي قدرٍ من الإرضاء للسيدة إيزتر على الرغم من سرورها برؤيتها لذلك، وبمعرفة أن «كيس الأثداء» تلك ستظلّ تنتظر كلمة واحدة، أو إجابة مطمئِنة واحدة من زائرتها التي استفزَّتها من غير قصدٍ منها... ستظلّ تنتظر تلك الإجابة وهي تنظر إليها تنزل السلم، وستظل تنتظرها إلى أن تغلق الباب من خلفها. كان واضحًا لديها أن عليها أن تقبل بهذا التعويض عن الجرح الذي ألحقته السيدة بلوف بتقديرها لذاتها، عن كلمة «لا» التي أتتها

مثل سهمٍ مسمومٍ ينغرس في جذع شجرة، إلا أنها ظلّت ترتجف زمنًا غيرَ قليل ووجدت نفسها مرغمة -ويا للخزي- على الإقرار بأنه ما كان ينبغي لما حدث إلا أن يكون لسعةً مزعجةً، لا أكثر. (لقد حقَّقت هدفها بطريقة جيدة، وليس لهذه النكسة الصغيرة أيَّة أهمية حقيقية). كان انزعاجها يتكثَّف بطيئًا حتى صار ألمًا حادًّا. لو أن السيدة بلوف وافقت على طلبها موافقةً حماسيةً، كما يحق للمرءِ أن يتوقّع منها فعله، لظلت أداة يسهل التلاعب بها من غير أن تدرك تضارب الحوادث من حولها، تلك الحوادث التي ما كان لها شأن بها أصلًا بحيث يصح القول إن دورها الثانوي فيها قد انتهى... لكنها قالت لا («لقد قالت لا!»). ومع هذا الرَّفض، ارتقى كيانها الفائض عن الحاجة إلى دور يرقى إلى دور شريك مستتر... تلك اللاشيء القزمة (يصح القول إنها قزمة بالمقارنة مع وجود السيدة إيزتر الحقيقي الكثيف الذي لا شك فيه). لقد جرَّتها نزولًا إلى مستوى جهلها الآمن فانتقمت لنفسها من زائرتها التي تشعّ تفوقًا؛ وهذا ما لا تستطيع السيدة إيزتر احتماله، ولا مقاومته. ومع أن هذا الإحساس العاجز بالجرح لا يمكن أن يستمرّ إلى الأبد -بالطبع- فإنها ما كانت لتجد أيَّ قدر من الصحة أو الصدق في أن تزعم، بعد هذا كلِّه، أنها قد «تجاوزت الأمر» ببساطة؛ وما كانت قادرةً على

ذلك الزعم بعد أن وصلت إلى البيت وحكت لصديقها ما جرى في ذلك اللقاء، مع أنها تجاوزت (ربما تجاوزت بالفعل) تفاصيل بعينها، ولم تشر إلّا إلى مقدار الانتعاش الذي أحسّته لحظة وضعت قدمها خارج باب سلم السيدة بلوف ذي الهواء الخانق... أنعشها الهواء الرائع النظيف إلى حدٍّ يبهر الأنفاس، وكان لذلك «أفضل الأثر» على سلامة تفكيرها، فلم تبلغ متجر القصَّاب نادابان إلا وقد استرجعت اتزانها السابق وعادت قوية، عاقدة العزم، هادئة كل الهدوء، واثقة من نفسها كل الثقة. وبالتأكيد، لم تكن هذه مبالغة -الأثر الحاسم لست عشرة درجة تحت الصفر على أعصابها المتعبة-، وذلك لأن السيدة إيزتر كانت منتمية بكل معنى الكلمة إلى تلك الطبقة من الناس الذين «يصيبهم الربيع بالسقام، وينهارون بالصيف»، أولئك الناس الذين يوهنهم الدفء، وتثبط الحرارة هممهم، ويرون في الشمس الساطعة في السماء تعذيبًا لهم. كانت تضطرّ في هذه الحالات إلى التزام سريرها لإصابتها بصداع نصفي مفاجئ وشعور قوي باحتمال إصابتها بنزيف. بكلمات أخرى، كانت واحدةً من طبقة الناس الذين يعتبرون البرد، لا الموقد المتَّقد، وسطهم الطبيعي الذي يوفِّر لهم حماية من الشرور التي لا انقطاع لها... أولئك الذين يبدون كأنَّ الروح قد دبَّت فيهم عند أول الصقيع الدائم،

عندما تزوبع رياح قطبية عند زوايا الشوارع... فما من شيء غير الشتاء قادر على جلاء أبصارهم وتبريد مشاعرهم التي لا سبيل إلى ضبطها، واستعادة النظام إلى تلك الكتلة من الأفكار السائبة التي تتفكَّك في حرّ وعرق الصيف. وهكذا، لم تشعر بأنها قد تعافت وصارت قادرة على تقييم مشكلتها الجديدة، بحيث تعلو فوق الموقف الضارّ الذي اتخذته السيدة بلوف، إلا عندما صارت في جادة «البارون بيلا وينكهايم»، منحنية في مواجهة الريح الصقيعية التي تخيف الناس العاديين الضعفاء في بردها المبكر القاسي. لديها الكثير مما يتعيَّن عليها أن تعلو فوقه، وما يتعيَّن عليها أن تصبو إليه، وأن تكون أهلًا له: في تلك اللحظات، بعد أن اخترق البرد كلَّ ذرة من ذرات جسدها فأنعشها، وراحت تدفع بثقل أهميتها الكبير على امتداد ذلك الرصيف الماضي باستقامة تامَّة، خالية البال أكثر من ذي قبل كأنها صارت خفيفة مثل السنونو. في تلك اللحظة، قرَّرت أن الصيرورة التي يتعذر إلغاؤها، صيرورة الدمار والشقاق والتفكك، سوف تتواصل وفقًا لقوانينها الخاصَّة التي لا سبيل إلى خرقها؛ وأن مجال حركة «أية أشياء» لا تزال قادرة على العمل أو على إبداء شيء من الحيوية سوف يضيق أكثر فأكثر، يومًا بعد يوم. رأت هذا واضحًا في تلك البيوت نفسها التي

كانت تحتضر بفعل درجات غير محسوسة من الإهمال، مطيعةً القدر الذي كان من المحتوم أنه سيغلبها: كانت العلاقة بين الساكن والمسكن تتحطّم؛ وكان الجصُّ يتساقط كتلًا كبيرة، وتنفصل إطارات النوافذ عن الجدران... وإلى جانبي الشارع، تبدو علامات الهبوط على السقوف، سقفًا بعد سقف، كأنها تتعمَّد إظهار أن شيئًا في بنية عوارضها وروافدها (لا العوارض والروافد وحدها، بل الحجارة والعظام والأرض ونفسها) كان يفقد ترابطه. وعلى امتداد تلك الأرصفة، كانت القمامة التي لم يجمعها أحد، ولم يجد أحد رغبة في جمعها، تتناثر في أنحاء المدينة كلها، وكانت القطط التي استوطنت المناطق السائبة -قطط يبدو أن أعدادها قد تزايدت بنسب غير معقولة- فصارت تستولي على الشوارع في الليل، وصارت لها ثقة بالنفس كبيرة بحيث إن السيدة إيزتر، عندما أرادت اجتياز «غابة كثيفة» منها، لاحظت أنها لم تستعجل الابتعاد عن طريقها (وعندما ابتعدت، تحرَّكت ببطء وتكاسل، وفي آخر لحظة ممكنة). رأت هذا كله؛ ورأت مصاريع المتاجر الصدئة التي لم تفتح منذ أسابيع، وكذلك الأذرع المتهدِّلة لمصابيح تزيينية غير مُنارة، والسيارات والباصات المتروكة في الشوارع بسبب نفاد الوقود... وفجأة، سرى في جسدها إحساس مدغدغ مفرح لأن هذا التآكل

البطيء لم يعد يشير بالنسبة إليها- إلى حالة تحلّل نهائي، بل كان بشارة لما سيحلّ قريبًا محل هذا العالم الذي صار ناضجًا كل النضج للحظة خرابه... هو ليس نهاية، بل بداية، بداية لن تقوم على «الأكاذيب السقيمة، بل على الحقيقة الخشنة التي لا رحمة فيها»... شيء من شأنه أن يؤكِّد كل تأكيد على «اللياقة الجسدية والرغبة الجميلة القوية في عالم الفعل والنشاط المسكرين». سيدة المستقبل... صارت لديها بالفعل الشَّجاعة اللازمة للنظر في عيني هذه المدينة مقتنعة كلَّ اقتناع بأنها واقفة عند مستهَلّ «تغيُّرات عاصفة تفضي إلى شيءٍ جديدٍ، إلى شيءٍ يحمل وعدًا لا نهائيًا». لم تكن العلامات اليومية المعتادة الدالة على الانهيار تأكيدًا وحيدًا لوجهة نظرها، بل كانت هناك أيضًا جملة غير قليلة من حوادث عادية، لكنها غريبة (حوادث لم تكن، بطريقة خاصّة، غير مرحَّبٍ بها). كانت حوادث يتسارع وقوعها مثبتًا أن البعث الذي لا مناص منه، على الرغم من الافتقار إلى «التصميم البشري المعتاد على دخول تلك المعركة»، كان أمرًا قد قضت به قوى السماء القادرة الغامضة نفسها.

يوم أول من أمس، بدأ خزان المياه الضخم الواقع خلف حدائق غوندولز يتمايل تمايلًا خطرًا من فوق البيوت الصغيرة المحيطة به (استمر تمايله بضع دقائق)...

ظاهرة رآها أستاذ الرياضيات والفيزياء في المدرسة الثانوية المحلية، وهو عضو موثوق في مجموعة المراقبة الفلكية، كان منظاره متمركزًا فوق قمة ذلك الخزان، لأن الرجل ضحَّى بساعات كثيرة من لعب الشطرنج بمفرده حتى يجري مستثارًا مبهور الأنفاس، فيخبر الناس بأن ما يحدث أمر «لا تفسير له أبدًا»؛ ويوم أمس، دقَّت ساعة الكنيسة الكاثوليكية في ساحة المدينة الرئيسية -ساعة متوقِّفة منذ عشرات السنين- ففاجأت الجميع (صوت اخترق السيدة إيزتر كأنه كهرباء!). تصير هذه الحادثة حقيقة أكثر إثارة للعجب عندما يفكِّر المرء في أن من بين الوجوه الصدئة الأربعة لتلك الساعة، عادت ثلاثة إلى حركتها المتناسقة على الرغم من أن عقارب الساعة نفسها قد أزيلت منذ زمن بعيد. ومن ثم استمرَّت حركة تلك الساعة مع تناقص الفترات الزمنية الفاصلة بين تكتكاتها الواهنة، وظلَّت تدقُّ معلنة مرور الزمن. إذًا، ما كان من عجب في حدوث أي شيء بعد توقعها، منذ حلول الليل، أن ترى «علامة مشؤومة» أخرى؛ ولم يفاجئها ما رأته عندما وصلت إلى فندق كوملو، عند زاوية ساحة هيتفيزر، ورفعت رأسها فنظرت إلى شجرة الحور العملاقة التي كانت في ذلك المكان. رأت ذلك النصب الضخم -الشجرة البالغ ارتفاعها أكثر من ستين قدمًا،

والتي كانت تذكِّرها دائمًا بالفيضانات الكبيرة لنهر كوروس القريب، وكانت ملجأ ممتازًا لأسراب السنونو ومَعْلَمًا ظلَّت المدينة أجيالًا تعتبره عجيبة من عجائبها- كانت الشجرة متَّكئة، من غير حياة، إلى واجهة ذلك الفندق في ساحة هيتفيزر، ممتدة على طول الساحة كلّها، بحيث لم يمنعها شي من السقوط في الزقاق الذي بين البيوت إلا أغصانها، التي علقت بالمزاريب الموشكة على الانهيار. لم يكن جذع الشجرة منقصفًا بفعل هبة ريح عنيفة، ولا كان منخورًا بفعل الديدان وبفعل سنين من المطر الحامضي. كانت الشجرة كلّها، جذورها وكلّ شيء، قد شقَّت أسمنت الطريق القاسي. كان أمرًا متوقَّعًا أن تسقط هذه الشجرة العتيقة في يوم من الأيام، لكن حدوث ذلك الأمر الآن، وتخلِّي الجذور عن تشبّثها بالأرض في هذه اللحظة تحديدًا كان ذا مغزى خاص عند السيدة إيزتر. حدَّقت في ذلك الشبح المروّع، في الشجرة المستلقية على امتداد الساحة المظلمة، ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة العارف المتمرِّس بأشياء من هذا
القبيل، وقالت في نفسها: «بالطبع! كيف يمكن أن يكون الأمر غير هذا؟»... وبتلك الابتسامة الخفيّة المتراقصة على شفتيها، واصلت طريقها عارفة في قرارة نفسها أن نهاية تعاقب «المعجزات» و«النُّذُر» لم يئن أوانها بعد.

لم تكن مخطئة في هذا! فبعد خطوات قليلة فحسب، أبصرت عينها، التي صارت جائعة إلى رؤية مزيد من الظواهر الغريبة، مجموعة صغيرة من أشخاص يسيرون متمهِّلين في شارع ليجيت.

كان وجودهم هنا، في هذه الساعة أمرًا يتعذَّر تفسيره تعذُّرًا تامًّا (لأن الخروج من البيوت بعد حلول الظلام في مدينة محرومة الآن من مصابيح الشوارع كان ضربًا من ضروب الشجاعة). وأما من يمكن أن يكونه أولئك الناس، وما الذي يريدونه هنا في هذا الوقت، فقد كان شيئًا لم تقدِر على تخيُّله. الحقيقة أنها لم تهتم كثيرًا بمحاولة ذلك لأنها قرأته، على الفور، إلى جانب اهتزاز خزان المياه، وعودة ساعة الكنيسة إلى العمل، والحالة التي رأت عليها شجرة الحور، باعتباره مجرد بشارة أخرى تنبئ بالقيامة من الركام التي من المؤكّد أنها ستلي ذلك. فإنها بلغت نهاية الجادّة ودخلت منطقة أشجار الأكاسيا العارية في ساحة كوسوث، واكتشفت مجموعة بعد مجموعة من أشخاص منتظرين صامتين، فسرت فيها ومضة إدراك خاطفة حارَّة عندما خطر في ذهنها أن من غير المستحيل تمامًا أنه، بعد شهور طويلة كثيرة «بل سنوات! بل سنوات!...»، وبعد إيمانها الواثق الصامد («ربما!...»)، أنه ليس من المستحيل

تمامًا أن تكون اللحظة الحاسمة التي يفسح عندها الاستعداد مجالًا للفعل يمكن أن تكون قد حانت حقًّا، ويمكن أن تكون «النبوءة قد تحقَّقت». بقدر ما كان يمكنها أن ترى من هذه الناحية من الساحة، كان قرابة خمسين أو ستين رجلًا واقفين في صفين أو ثلاثة صفوف على عشب السوق المتجمِّد الذي داسته الأقدام: كانت أقدامهم محمية ضمن أحذية واقية من المياه أو جزمات ثقيلة؛ وكانوا يعتمرون قبَّعات لها واقيات للآذان أو قبعات فلاحية ملوثة بالشحوم. وهنا وهناك، رأت أيديَ قابضة على سجائر تتوهج، إذ تدبُّ الحياةُ فيها على نحو مفاجئ. حتى في ظلِّ هذه الظروف، في الظلمة، لم تكن صعبة رؤية أنهم غرباء جميعًا؛ ثم إن حقيقة وقوف خمسين أو ستين شخصًا غريبًا في هذا البرد القارس في تلك الساعة المتأخِّرة من المساء، كانت في حدِّ ذاتها، أمرًا أكثر من مدهش. بدا لها سكونهم الخدِر أكثر غرابة، وأكثر سحرًا، لأنه كان أشبه برؤية ملائكة يوم القيامة في إهاب بشري في نهاية ذلك الشارع. وعلى الرغم من أنه كان ينبغي لها اجتياز الساحة من جهة إلى أخرى، إن أرادت أن تتَّخذ الطريق المباشر إلى شقَّتها التي تقع بعد الساحة مباشرة، في هونفيد باساج، فقد أحسَّت لذعةً -لذعةً فقط، لا أكثر- من الخوف، فما كان منها إلا أن دارت من حول صفوفهم

غير المنتظمة سالكة مسارًا متعرِّجً وهي تحبس أنفاسها وتتحرك كأنها ظلٌّ، إلى أن بلغت الناحية الأخرى.
التفتت مرة أخيرة بعد وصولها إلى أول شارع هونفيد باساج، فشعرت بخيبة أمل عميقة ببساطة (وإن لم تكن مشدوهة على وجه التحديد) لاكتشافها الهيكل العملاق لعربة السيرك، ذلك السيرك الذي حظي وصوله بدعاية واسعة (على الرغم من عدم وجود موعدٍ محددٍ لوصوله)؛ فقد اتضح لها في لحظة واحدة أن ذلك الحشد من خلفها لم يكن «بشير العصر الجديد المتنكِّر» بقدر ما كان -على الأرجح- «حشدًا ممن يريدون شراء بطاقات السيرك»... أولئك الذين كانوا مستعدين، بجشعهم الذي لا حدود له، لتحمُّل الوقوف طيلة الليل في هذا البرد، حتى يتمكَّنوا من جني بعض المال عن طريق شراء البطاقات كلِّها في الصباح عندما يبدأ مكتب بيع البطاقات عمله. ثم إن خيبة أملها كانت أكثر مرارة لأن هذا الاكتشاف (بمعزل تمامًا عن أنه أيقظها إيقاظًا فظًا من أحلامها المحمومة)، قلّل المسرَّة الفخور التي عاشتها شخصيًّا أثناء الاتفاق مع هذه الشركة التي صارت الآن سيِّئة الصيت: ثمرة أول نصرٍ عامٍّ مهمٍّ لها قبل أسبوع من الآن عندما تمكَّنت -بمساندةٍ حاسمة الأهمية من جانب مدير الشرطة- من سحق معارضة الأعضاء الأكثر جبنًا في اللجنة التنفيذية في المدينة،

الذين أرادوا منع مجيء السيرك إلى أيّة ناحية من نواحي المدينة، واستشهدوا بحقيقة وجود تقارير كثيرة من القرى والمزارع المحيطة، فضلًا عن الشائعات التي لا أساس لها، تفيد بأن تلك الفرقة العجيبة قد تسببت في حالة اضطراب أينما حلّت، فضلًا عن وقوع حادثة بشعة، أو حادثتين بشعتين. لقد كان ذلك أول نصر مهم لها (قال لها كثيرون إن الكلمة التي ألقتها عن «حق الفضول العام الذي لا يمكن إنكاره» كانت جديرةً بأن تُنشر في الصحف). لكن، وعلى الرغم من هذا، لم تكن قادرةً على الاستمتاع بثمار النصر؛ وذلك لأنها اكتشفت بعد فوات الأوان -نتيجة وجود السيرك تحديدًا- الطبيعة الزائفة إلى حدٍّ يدعو إلى السخرية لفهمها الخاطئ فيما يتعلَّق بالهوية الحقيقية لأولئك المتسكِّعين هنا.

كان إحساسها الواخز بالسخف أكثر من إحساسها بانجذابها إلى تلك العربة الضخمة، فلم تعبأ بالتوقّف والنظر مليًّا لإشباع ما لديها من «حق الفضول العام الذي لا يمكن إنكاره» في شأن عربة غريبة تستحق ما نالته من شهرة. ألقت على العربة نظرة ازدراء جافٍّ، ثم أدارت ظهرها لكل من «ذلك الشيء الفظيع الذي يفوح برائحة أولئك الأوغاد السفهاء»، وسارت بخطوات رنّانة على ذلك الرصيف الضيِّق المفضي إلى بيتها. غنيٌّ عن القول إن تلك «النوبة» من سوء المزاج

(كمثل تلك النوبة التي أعقبت لقاءها مع السيدة بلوف) كان «دخانها أكثر من نارها»، لأنها ليست أكثر من «نوبة». فمع بلوغها نهاية شارع هونفيد باساج، وإغلاقها بوابة الحديقة الضعيفة المتهالكة من خلفها، كانت قد نجحت في التغلُّب على خيبة الأمل التي أصابتها لأنها لم تكن في حاجة إلا لتذكير نفسها بأنها لن تظلَّ، مع نهاية اليوم التالي، خاضعة لقدرها، بل ستكون سيدة حقيقية له. في تلك اللحظة، وعلى الفور، صار تنفُّسها أكثر سهولة، وبدأت من جديد تشعر بأهمية نفسها... النفس التي اتخذت قرارًا حاسمًا بنبذ أية فكرة مما تأتي به أحلام اليقظة غير الناضجة لأنها نفس «راغبة في النصر، مصمّمة على المضي من أجله». كانت صاحبة البيت بائعة نبيذ متقدِّمة في السن، وكانت تشغل واجهة البيت، في حين تشغل السيدة إيزتر القسم الخلفي من ذلك المسكن الريفي الآيل للسقوط. لم يكن البيت غير مُرْضٍ لها بصرف النظر عن كونه في حاجة إلى شيء من الإصلاح؛ فعلى الرغم من السقف المنخفض الذي يمنعها من الوقوف منتصبة القامة على هواها ويجعل الحركة تحته صعبةً، من غير شك، وعلى الرغم من أن النوافذ الصغيرة لا تغلق جيدًا، ومن أن الجدران الراشحة رطوبةً تتيح مجالًا لشيء من التحسين، فإن السيدة إيزتر كانت (حتى ذلك الوقت) من

أنصار ما يدعونه «الحياة البسيطة»، بحيث لم تكن تكاد تلاحظ هذه التفاصيل التي لا أهمية كبرى لها؛ وذلك لأنه -بحسب قناعتها- إذا توفَّر سرير وخزانة ومصباح ومغسلة، وإذا لم يكن الماء يتسرَّب من السقف، في «غرفة المعيشة»، فإن الحاجات البشرية الممكنة كلّها تكون ملبّاة. وهكذا، لم يكن في ذلك المكان شيء غير هيكل حديدي لسرير ذي نوابض، وخزانة فردية، ومقعد ومغسلة وإبريق، وشمعدان له ما يشبه العُرف (لم تكن تطيق وجود سجادة، ولا مرآة، ولا ستائر)، وطاولة غير مطلية، وكرسي جرَّدته من ظهره حتى تستطيع أن تضع طعامها عليه، وحامل قابل للطي مما يستخدم من أجل النوتات الموسيقية، وضعته في الغرفة نتيجة تزايد كميات الأوراق الرسمية التي لا بد لها من جلبها إلى البيت. كان في المكان أيضًا مشجب من أجل الضيوف (إن جاءها ضيوف) حتى يعلِّقوا معاطفهم عليه. وفيما يخص مسألة الضيوف، فمنذ أن التقت مدير الشرطة، لم يزرها أحد غيره؛ لقد كان يأتيها كل مساء منذ ذلك اليوم الذي زلزلت في كيانها رؤية حزامه الجلدي وحذائه الملمع والسير الجلدي المعلق من كتفه والمسدس المتدلي من خصره، فصارت لا تعتبره صديقًا قريبًا، ولا رجلًا مستعدًا لمساندة امرأة وحيدة فحسب، بل حليفٌ حميمٌ يمكنها أن تسرَّ له بأعمق أسرارها وأخطرها، وأن تفتح

له قلبها في لحظات الضعف. وفي الوقت نفسه -بمعزل عن الشروط الأساسية كلها- لم تكن تلك علاقة خالية من المشكلات لأن مدير الشرطة، الذي كان دائم الميل إلى صمت عَبوس تقطعه نوبات مفاجئة غريبة من العصبيَّة الحادَّة، كان منشغل البال «بظروفه العائلية المأساوية» -ماتت زوجته في زهرة شبابها وصار عليه أن يتدبَّر أمره مع ولديه الصغيرين من غير حنان الأم- وكان عبدًا للشراب. كان يقرُّ في مرَّات كثيرة (عند سؤاله المتكرِّر عن ذلك) بأن العلاج الناجع الوحيد لما يلقاه من مرارة هو الدفء الأنثوي الذي تبثه السيدة إيزتر، فكان ذلك، حتى هذا اليوم، عبئًا لم تستطع الإفلات منه أبدًا. وفي هذا اليوم تحديدًا، خشيت السيدة إيزتر (الذي كانت تتوقَّع وصوله قبلها)، أن يكون مدير الشرطة في هذه اللحظة جالسًا في واحد من تلك البارات التي في الضواحي، غارقًا في حالة الكآبة المعذِّبة المعتادة، فما كان منها إلا أن مضت مباشرة إلى طاولة المطبخ عند سماعها صوت الخطوات في الخارج، وتناولت الخَلَّ وعلبة البيكاربونات عارفة من تجارب سابقة أن الدواء الوحيد لحالته هو ذلك المزيج المحلي واسع الشعبية (للأسف) المعروف باسم «سبريتزر الإوزة»(1)؛ وهو مزيج كانت تراه -خلافًا للرأي العام- العلاج الفعَّال الوحيد (وإن يكن مقيِّئًا)، لا لعسر الهضم الذي يصيب

المرء في اليوم التالي، بل أيضًا لحالة السكر التي يكون فيها. لكنها فوجئت عندما اتضح لها أن الزائر ليس مدير الشرطة، بل هارر (مالك المكان الذي يقيم فيه فالوسكا)، وهو حَجَّار معروف لدى السكّان المحليين باسم «النسر»؛ ولعل آثار الجدري على وجهه كانت سبب اكتسابه ذلك الاسم. رأته مستلقيًا على الأرض لأن ساقيه -هذا ما كان المرء قادرًا على رؤيته بنظرة سريعة- اللتين كانتا غير قادرتَين على حمل جسده المتهاوي دائمًا من غير نهاية، قد استسلمتا قبل أن تفلح يداه المرتخيتان العاجزتان عن الإمساك بمقبض الباب. سألته بصوتٍ غاضبٍ: «لماذا أنت مستلقٍ هنا؟» لكنَّ هارر لم يتحرَّك من مكانه. كان رجلًا صغيرًا، سقيمًا، ضئيل الجسم؛ وكان متهالكًا على الأرض وقد انثنت ساقاه الضعيفتان من تحته. كان من السهل وضعه في واحدة من سلال العجين الكبيرة المخزَّنة في الحديقة... ثم إنه كان فائحًا برائحة البراندي الرخيص الكثيفة بحيث لم تمض إلا بضع دقائق حتى ملأت تلك الرائحة الفظيعة الفناء كلِّه، واخترقت كل زاوية من زوايا البيت، فجعلت صاحبة البيت العجوز تنهض من فراشها وتزيح ستارة نافذتها المطلة على الفناء، ثم تكتفي بالتساؤل عن السبب الذي يجعل «الناس المحترمين غير مكتفين بشرب النبيذ». لكن هارر، الذي بدا في تلك اللحظة وكأنه غيَّر

رأيه، استعاد وعيه سريعًا وقفز من مرقده عند العتبة قفزةً رشيقةً جعلت السيدة إيزتر تحسب الأمر كلّه مزاحًا. على الرَّغم من ذلك، سرعان ما تبيَّن أنه ليس مزاحًا لأن الحجَّار راح يلوِّح بزجاجة البراندي بإحدى يديه، وظهرت فجأة في يده الأخرى باقة أزهار صغيرة، وراح يتمايل تمايلًا خطيرًا وينظر إليها مضيِّقًا عينيه تلك النظرة المركزة التي لا يمكن أن تخطئ مرماها... ذلك المرمى الذي لم تبادله إياه السيدة إيزتر، خاصَّة بعد أن انتبهت إلى أنه ما من معنى لشرابه ولهاثه، غير أنه يريد من السيِّدة إيزتر أن تحتضنه مثلما كانت تحتضنه في وقت من الأوقات (لأنك «أنت، بأنوثتك، أنت فقط، قادرة على توفير السلوى لقلبي المسكين الحزين...!»). فأمسكت به من كتفي معطفه، ثم رفعته في الهواء وأدارته -من غير هزء أو مزاح- في اتجاه باب الحديقة. حطّ المعطف الثقيل على الأرض كأنه كيسٌ نصف ممتلئ، واستقر على مسافة ياردات قليلة (إن شئنا الدقة، يلزم القول إنه حطَّ أمام نافذة المرأة العجوز التي كانت لا تزال واقفة تهز رأسها). وأما هارر، الذي لم يكن واثقًا تمامًا من أن سقطته الجديدة هذه كانت شيئًا مختلفًا عن سقطته الأولى، فقد بدأ يشتبه في أن وجوده غير مرغوب فيه، فما كان منه إلا أن جرى مبتعدًا، تاركًا السيدة إيزتر تعود إلى غرفتها وتدير المفتاح في القفل،

وتحاول أن تنفض عن ذهنها ما لحق بها من إساءة عن طريق تشغيل راديو الجيب الذي كان إلى جانب سريرها. كان للنغمات السارَّة المنبعثة من الراديو -اتفق أنها «أجواء تقليدية فرحة»- كعهدها دائمًا، أثر جيِّد عليها جعلها تنجح، شيئًا بعد شيء، في تهدئة مزاجها المشتعل، مما كان أمرًا حسنًا. فعلى الرغم من أنها يجب أن تكون قد اعتاد إزعاجات من هذا القبيل، ومن أن تلك لم تكن المرة الأولى التي يأتي فيها ذلك الشخص الواهن فيزعجها في الليل، فقد كانت تشتعل غضبًا كلَّما أبدى واحد من معارفها القدامى، ومنهم هارر (الذي لم يكن لديها اعتراض حقيقي عليه لأنها قادرة على قضاء وقت سعيد معه - «من حين لآخر، بطبيعة الحال، من حين لآخر فقط»)، «قلَّة اعتبار تامة لوضعها الاجتماعي الجديد»، فهي لم تعد قادرة على السماح لنفسها بالاسترخاء لأن العدو -كائنًا من كان من تعتبره السيدة إيزتر عدوًا- يمكن أن يترصَّد «فرصة من هذا النوع تحديدًا». نعم، إنها في حاجة إلى السلام والهدوء لأنها تعرف أن مصير الحركة بأسرها سوف يتقرَّر غدًا. ومن غير أي ظل من الشك، كانت الراحة هي ما يلزمها.

هذا ما جعلها، عند سماعها صوت خطوات مدير الشرطة في الفناء -صوت لا تخطئه الأذن- تتمنَّى أوَّل

الأمر أن يستدير على أعقابه ويعود من حيث أتى مع كل ملحقاته، من حزام وحمّالة وحذاء ومسدس، ويمضي إلى بيته. لكنها فتحت الباب فرأت شخصه الهزيل القصير الذي لا يكاد يبلغ كتفيها، وظنَّت بأن من المحتمل أن يكون ثملًا من جديد، فاستولت عليها فجأة رغبة مختلفة تمامًا، لا لأنه كان مستقرًّا تمام الاستقرار على قدميه فحسب، بل أيضًا لأنه بدا لها غير موشك على الصراخ عليها. بالأحرى، كان واقفًا مثل «فهد يهمُّ بالوثب»، وعلى وجهه تلك النظرة التي فهمتها على الفور... نظرة لا تطالب بمزيج الكاربونات والصودا بقدر ما تطالب بعاطفة منفلتة من كل قيد؛ وذلك لأن صديقها (وشريكها ورفيقها)، وبما يتجاوز أشواطًا آمالها في ذلك المساء، قد أتاها مثلما يأتي محارب جائع... محارب، هكذا أحسَّت، تستحيل مقاومته. وبما أنها لم تكن مفتقرة إلى التصميم الذكوري، فقد كانت غير قادرة على إنكار أنها «قادرة على تقدير ذلك الرجل ذي الحذاء المطاطي حق قدره لأنه يستطيع دفعها إلى ذرى من النشوة لا تبلغها إلا نادرًا»، ولا كانت قادرة على الاستهانة بالفرصة عندما يعِدها شخص متواضع القدرات في الأمور الأخرى -مثله- وعدًا واضحًا جدًّا بأن تنال فرصةً للترقِّي. لذا... لم تقل شيئًا، ولم تطلب توضيحًا، ولم تصرفه عنها، بل -ومن غير أيِّ مزيد من

الصخب- استجابت لتعبير وجهه الذي كان يزداد حماسة (ويعدها، في كل لحظة، بسرور أكبر، فأكبر)، بأن خلعت عنها فستانها بحركات كسلى، وتركت سروالها الداخلي يسقط على الأرض، ثم ارتدت ثوب النوم الأحمر الناري المحفوظ له خصِّيصًا لأنه مولع به كثيرًا؛ وكأنما تنفِّذ أمرًا أصدره إليها، جثمت على يديها وركبتيها فوق سريرها وهي تبتسم ابتسامة حييَّة. وفي تلك الأثناء، كان صديقها (وشريكها ورفيقها) قد رمى عنه عدَّته كلّها، مثلما فعلت، وأطفأ النور، ثم ارتمى عليها صائحًا صيحته المعتادة «هجوم» وهو لا يزال منتعلًا حذاءه الثقيل. لم تخب آمال السيدة إيزتر... لقد تمكَّنت، خلال بضع دقائق، من إراحة مدير الشرطة من ذكرياته المزعجة ذلك المساء؛ وبعد أن سقطا على الفراش متقطِعَي الأنفاس بعد التحامهما العنيف، وبدأ الرجل يصحو شيئًا فشيئًا ويتلقَّى إقرارها بالإشباع والرضا، معبِّرًا عنه بطريقة عسكرية ملائمة. قصَّت عليه نسخةً -معدلةً قليلًا- من مقابلتها السيدة بلوف والرعاع الذين كانوا في ساحة السوق، فأحسَّت بعد ذلك بقدرٍ عجيبٍ من الثقة والسكينة، وصار جسدها كله مفعمًا بإحساس بالسلم ذي حلاوة استثنائية، وصارت على ثقة من أن اليوم القادم سيتوِّجها بالمجد، وبأن ما من أحد سيستطيع تجريدها من ثمار النصر النهائية.

مسحت نفسها بمنشفة، ثم شربت كأسًا من الماء، وعادت فاستلقت على الفراش نصف مصغية فقط إلى كلام المدير غير المترابط، عما فعله في يومه لأنه ما كان لديها، في تلك اللحظة، شيء أكثر أهمية من هذه «الثقة والسكينة»، ومن «الإحساس الحلو بالسلام»... رسائل السعادة هذه التي راحت تتصاعد من كل نقطة من جسدها، فتتخلَّلها أمواجٌ مترقرقة فرحًا. فما أهمية أن يكون «مدير السيرك البدين» قد ظلَّ يثرثر زمنًا طويلًا مطالبًا «بالترخيص المحلِّي المعتاد»؟ وما الذي يعنيها إن كان مدير الشرطة قد اكتشف في مدير تلك الشركة ذات الشهرة العالمية، الرجل الذكي على الرغم من رائحة الأسماك الفائحة منه قليلًا، «سيِّدًا محترمًا من رأسه إلى قدميه»، وإن كان قد حمل في يده «زجاجة غير مفتوحة من شراب زيغوين»؟ ما أهمية أن يكون قد لفت انتباهه، باعتباره حارسًا للقانون والنظام، بأن اقترح تأمين حضور متواضع للشرطة (وأن يكون قد قدَّم ذلك الطلب كتابة) حتى تجري العروض خلال زيارتهم التي ستستمر ثلاثة أيام من
غير أية ثغرات أو عقبات؟ ما أهمية هذا كلِّه بالنسبة إليها عندما بدأت تشعر حقًّا بأن من المقدَّر لكل شيء أن يفقد أهميته ما إن «يبدأ الجسد الكلام»؟ فما من شيء أكثر بهجةً وإنعاشًا من تلك اللحظة التي لا يريد فيها

الفخذ والظهر والثدي والعجيزة شيئًا غير الانجراف في النوم انجرافًا ناعمًا رقيقًا! بلغ من شعورها بالرضا والاكتفاء أن اعترفت له بأنها لم تعدْ في حاجةٍ إليه.
وهكذا، بعد أن حاول عدة مرات أن يمد يده تحت دفء لحافها، ثم يسحبها من جديد، جعلته يذهب في حال سبيله مشفوعًا ببضع كلمات حملت نصائح أموميَّة عميقة في ما يخصُّ «اليتيمَيْن»، ثم راقبته وهو خارج عبر الباب إلى البرد الصقيعي في الخارج، وراحت تفكِّر فيه، وإن لم يكن ذلك تفكير حبٍّ على وجه التحديد -لأنها كانت دائمًا تنأى بنفسها عن ذلك الهراء الأدبي الرومانسي- ثم قامت معتزَّةً بنفسها، فاستبدلت بثوب الإغراء ثوب نوم قطنيًا أكثر دفئًا، وعادت آخر الأمر فاندسَّت في فراشها لكي تستمتع «بالنوم الذي صارت تستحقه». استخدمت مرفقها لتمسِّد الملاءة حيث تجمعت من تحتها،
واستخدمت قدميها لكي تجذب اللحاف فوقها من جديد، ثم انقلبت على جانبها الأيسر، ثم على جانبها الأيمن، حتى عثرت على الوضعية الأكثر راحة لرقادها، فدسَّت وجهها في دفء ذراعها الناعم وأغمضت عينيها. كانت ممن ينامون نومًا عميقًا، فقد غرقت في النوم بعد دقائق معدودة، وكانت الارتعاشات العارضة لقدميها، ودوران عينيها في محجرَيْهما تحت أجفانها الرقيقة، وحركة صعود اللحاف وهبوطه التي غدت أكثر انتظامًا

مؤشِّرات دقيقة على أنها لم تعد تعي العالم الذي من حولها، وعلى أنها تنجرف أبعد فأبعد عن الاستمتاع الحاضر بالقوة العارية، ذلك الاستمتاع الذي كان يتضاءل سريعًا، لكنه سيكون مُلكًا لها مرة أخرى يوم غد... ذلك الاستمتاع الذي كان يهمس لها في ساعات يقظتها بأنها سيِّدة ممتلكاتها الباردة الفقيرة، وبأن مصيرها معتمدٌ عليها. لم تعد المغسلة موجودة، ولا كأس البيكاربونات التي لم يمسّها أحد؛ واختفت الخزانة، ورف الملابس، والمنشفة المتَّسخة المرمية في الزاوية؛ وما عاد للأرض والجدران والسقف معنى بالنسبة إليها. هي نفسها لم تعد شيئًا أكثر من جسمٍ بين أجسامٍ أخرى، واحدة من ملايين النائمين غير القادرين على الدفاع عن أنفسهم؛ صارت جسدًا، كالآخرين، جسدًا يعود كلَّ ليلة إلى بوابات الوجود الكئيبة، تلك التي يمكن أن يدخلها المرء مرة واحدة من غير أي أفق للعودة. حكَّت رقبتها -لكنَّها لم تكن مدركة أنها فعلت ذلك؛ وللحظة، تقلَّص وجهها مكشِّرًا- لكنَّ تلك التكشيرة لم تكن موجَّهة إلى أي شخص بعينه؛ أطلقت نشيجًا قصيرًا كأنها طفل يبكي حتى ينام، لكن نشيجها لم يكن يحمل أي معنى، ولم يكن إلا صوت تنفُّسها الباحث عن نمطٍ منتظم. استرخت عضلاتُها، وانفتح فمُها مثلما تنفتح أفواه المحتضرين.
خلال الوقت الذي استغرقه صراع مدير الشرطة مع

البرد القارس، ووصوله إلى بيته، وإلقاؤه نفسه -بملابسه كلِّها- إلى جانب جسدَي ولدَيه النائمين، كانت قد شقَّت طريقها حتى القلب الكثيف لأحلامها... بدا أن ما من شيءٍ يتحرك في غرفتها الغارقة في ظلام دامس: الماء القذر في المغسلة البورسلانية كان هادئًا هدوءًا غير طبيعي؛ وعلى المشاجب الثلاثة المثبتة إلى رف الملابس، تدلَّت سترتها ومعطفها المطريّ وسترة أخرى ضخمة مبطنة كأنها ثلاثُ ذبائح معلّقة في متجر القصاب. كان تأرجح حزمة المفاتيح المعلَّقة من القفل قد توقف بعد أن امتصَّت أخيرًا كل ما كان لديها من طاقة حركية.وكأنهم كانوا ينتظرون هذه اللحظة بعينها، وكأن هذا السكون المطلق والهدوء التام كانا نوعًا من إشارة، خرجت من تحت سرير السيدة إيزتر -في ذلك الصمت الكبير (أو، ربما، من ذلك الصمت الكبير)- ثلاثة جرذان فتيَّة. انسلَّ واحد منها في البداية، ثم تبعه الاثنان الآخران بعد وقت قصير. كانت رؤوس الجرذان الصغيرة، مرفوعةً، منتبهةً، مستعدَّة للتجمُّد قبل الوثب والفرار. وبعد ذلك، وبصمتٍ، وهي لا تزال تحت تأثير خوفها الغريزي، تقدَّمت الجرذان، تقدَّمت متردِّدة متجمِّدة في مكانها كل بضع خطوات، وراحت تقوم بجولة في الغرفة. وكما يفعل كشافون مقدامون في جيش غازٍ، إذ يُجرون تقييمًا لمواقع العدو قبل الهجوم،

ويلاحظون كل ما هو موجود، وأماكن وجوده، وكل ما يبدو آمنًا أو خطيرًا، راحت الجرذان تتفحص الألواح الخشبية على الجدران والفجوات والزوايا المتداعية، والشقوق الواسعة في خشب الأرضية، كأنها تضع خريطة تحدِّد المسافات الدقيقة بين الفتحة التي تحت السرير من ناحية، والباب والطاولة والخزانة والكرسي المتداعي قليلًا وطوار النافذة من ناحية أخرى -ثم، من غير أن تمسَّ أيَّ شيء، وفي مثل لمح البصر، اندفعت الجرذان الثلاثة كلُّها تحت السرير في اتجاه زاوية الغرفة عائدة من جديد إلى الجحر المؤدِّي إلى الحرية عبر الجدار. لم يمر من الزمن أكثر من دقيقة واحدة قبل أن يصير سبب ذلك الانسحاب غير المتوقَّع واضحًا؛ لقد حذرهم حدسهم من أن هناك شيئًا موشكًا على الحدوث، فكان هذا الخوف الغريزي العاري الذي لا يخطئ تجاه ما لا يمكن التنبؤ به كافيًا لجعلهم يختارون الفرار فورًا. عندما تحرَّكت السيدة إيزتر فأفسدت الصمت الذي كان مهيمنًا حتى ذلك الوقت، كانت الجرذان الثلاثة قد انسحبت وصارت في أمانٍ تامٍّ في أسفل الجدار الخارجي في آخر البيت. وهكذا، ارتفعت السيدة إيزتر من قاع محيط النوم، وسبحت بضع دقائق في مياهه الضحلة، التي يمكن أن تظهر فيها لمحاتٌ خافتةٌ من الوعي، فرفست لحافها وأزاحته عنها، ومدَّت أطرافها

كأنها على أهبة الاستيقاظ. وبالطبع، لم يكن هناك بعد أي احتمال لحدوث ذلك لأنَّها لم تلبث أن هدأت بعد بضع زفرات ثقيلة وبدأت انحدارها من جديد إلى الأعماق التي جاءت منها.

بدا جسدها -لعل ذلك، ببساطة، لأنه لم يعد مغطَّى- وكأنه يتنامى ويكبر أكثر مما كان، فيصير كبيرًا على السرير، بل حتى كبيرًا على الغرفة كلِّها: صارت كأنها ديناصورٌ ضخمٌ في متحف بالغ الصغر... صارت ضخمةً، لا يدري أحد كيف وصلت إلى هذا المكان لأن الأبواب والنوافذ أصغر كثيرًا من أن تستطيع المرور منها. كانت مستلقية على السرير منفرجة الساقين على اتساعهما. وراح بطنها المكوَّر -بطنٌ شديدُ الشَّبه ببطنِ رجلٍ متقدِّمٍ في السنِّ يكثر من شرب البيرة- كأنه مضخة بطيئة الحركة. انشمر ثوب نومها وتجمع عند وسطها. وبما أنه ما عاد قادرًا على إبقاء جسدها دافئًا، فقد تحبحب جلدُ بطنها وفخذاها كلِّه. لكن الجلد وحده أحسَّ بالبرد حتى تلك اللحظة، بينما ظلت النائمة غير منتبهة إلى شيء. وبما أن الأصوات قد هدأت وتلاشت، ولم يعد هناك شيءٌ موحٍ بالخطر، فقد عادت الجرذان الثلاثة إلى التجوُّل في الغرفة من جديد بعد أن ألِفت المكان قليلًا هذه المرَّة، لكنَّها ظلَّت ملتزمةً أقصى درجات

اليقظة، مستعدَّةً للفرار عند أدنى إحساسٍ بالخطر، بحيث تسلك طرق انسحابها السابقة عبر أرضيةِ البيت. كانت سريعة جدًّا، صامتةً جدًا؛ ولم يكد وجودها يعبر العتبة الحسِّيَّة للواقع... لم تترك الجرذان مرّةً واحدةً طبيعتها الغائمة كالظلال، بل ظلَّت توازن دائمًا بين تحركاتها والأخطار الماثلة ضمن محيط نشاطها، بحيث لا يكتشف وجودها أحدٌ: تلك البقع القاتمة أكثر قليلًا مما يحيط بها في ظُلمة الغرفة لم تكن هلوسات سبّبها الإرهاق، ولا مجرَّد ظلالٍ تلقيها طيور ليلية غير محسوسة، بل ثلاثة حيوانات حذرة حذرًا مهووسًا لا تعرف كللًا ولا مللًا في بحثها عن الطعام. هذا ما جعلهم يأتون عندما غرقت النائمة في نومها وهدأت تمامًا؛ وكان هذا ما جعلهم يعودون الآن. وإن كانوا لم يتسلّقوا بعد ساق الطّاولة لقضم قطعة الخبز المستقرّة بين الفتات، فالسبب هو أن عليهم أن يتأكّدوا أولًا من أن شيئًا غير متوقع لن يحدثَ أبدًا. بدأوا بالفتات، لكنهم لم يلبثوا -بعد أن تخلّوا عن شيءٍ من حذرهم- أن غرسوا خطومهم الصغيرة الحادّة في قطعة الخبز وراحوا يقضمونها؛ إلا أن حركة فكوكهم السريعة لم تكن موحيةً بأيِّ قدرٍ من فراغ الصبر.

راحوا يتجاذبون قطعة الخبز في ما بينهم، في ثلاثة اتجاهات، لكنّها تدحرجت عن الطاولة وسقطت تحت

الكرسي قبل أن يفرغوا منها. وبطبيعة الحال، تجمّد الثلاثة عندما اصطدم الخبز بالأرض ورفعوا خطومهم في الهواء مستعدّين للفرار. إلا أن كلَّ شيءٍ كان هادئًا على جبهة السيدة إيزتر، وما كان هناك غير صوت تنفُّسها البطيء المنتظم. وهكذا، نزلت الجرذان إلى الأرض بعد دقيقة من الانتظار وصارت تحت الكرسي. سوف يجدون الآن أن الأمر في هذا المكان صار أفضل من ذي قبل، فبمُعزل عن الظلمة الكثيفة التي توفِّر حماية أكبر، صارت مسافة الانسحاب إلى ما تحت السرير أقل انكشافًا، بحيث يستطيعون النفاذ سريعًا إلى الحرية، عندما تخبرهم غريزتهم الاستثنائية بأن يتركوا قطعة الخبز التي لم يكد يبقى منها شيءٌ. على أيَّة حال، كان الليل يقترب بطيئًا من آخره، وكان ديك فتيٌّ يصيح غاضبًا، فيجيبه نباح كلب غاضب مثله. وأحسَّ آلافٌ وآلافٌ من النائمين (من بينهم السيدة إيزتر) باقتراب الفجر، فبدأوا حلمهم الأخير. وأما الجرذان الثلاثة، ومعهم بقية أترابهم، فقد صاروا الآن يجرون ويزقزقون في سقيفة الجيران المتداعية، بين أكواز الذُّرَةِ التي قرضوا كثيرًا منها. في تلك اللحظة، مثلما يفعل شخصٌ ينكمش مشمئزًا من مشهدٍ مخيفٍ، أطلقت النائمة شخيرًا حزينًا، وارتعدت، وأدارت رأسها سريعًا عدَة مرَّات من اليسار إلى اليمين ومن اليمين إلى اليسار، ثم انتصبت

جالسة في سريرها مفتوحة العينين. تنفَّست بصعوبة وألقت نظرات مجنونة في هذه الناحية وتلك الناحية في الغرفة الهادئة، في الضياء الذي يسبق الفجر قبل أن تدرك أين هي، وتفهم أن كل ما تركته في حلمها قد كفَّ عن الوجود. دعكت عينيها المحمرَّتين، ودلَّكت أطرافها المتحبحبة من البرد، وشدَّت عليها اللحاف الذي أبعدته عنها ورقدت من جديدٍ، مطلقةً زفرة ارتياح. لكن عودتها إلى النوم كانت مستحيلة لأن الكابوس المخيف الذي كانت غارقة فيه قد اختفى من وعيها وحلَّ محلَّه إدراك بالنهار الذي ينتظرها وبما ستنجزه فيه، فسرَت في جسدها نشوة إثارة ممتعة ولم تعد قادرة على النوم من جديد. أحسَّت بأنها منتعشةٌ، مستعدَّةٌ للحركة، فقرَّرت النهوض في تلك اللحظة لأنها كانت مقتنعة بأن الفعل يجب أن يعقب التخطيط فورًا من غير تردُّد أو تأخير. ما كان منها إلا أن أزاحت لحافها ووقفت مترنِّحة قليلًا على أرض غرفتها المتجمِّدة، ثم وضعت عليها سترتها المبطَّنة، وتناولت غلاية الماء الفارغة، فخرجت إلى الفناء حتى تأتي بشيء من الماء للاغتسال. استنشقت الهواء الصقيعي ملء رئتيها، ونظرت إلى قبّة الغيوم الجنائزية المرتفعة فوقها، وسألت نفسها إن كان يمكن أن يوجد ما هو أكثر إنعاشًا من هذه الصباحات الشتائية الرجولية القاسية، عندما يخبئ الجبناء رؤوسهم

و«ينطلق إلى الأمام بشجاعة أولئك الذين تدعوهم الحياة إليها». إن كان لديها أيُّ شيءٍ تحبّه، فهو هذا: التراب المتجمِّد تحت الجليد، والهواء الحادُّ كنصل السكِّين، وتلاحم الغيوم الشديد الحازم في صدِّ النظرة الضعيفة أو الحالمة حتى لا تضيع العيون في احتمالات غامضة للسماء الزرقاء العميقة. تركت الريح تعضُّ لحمها بضراوة وتفتح سترتها؛ ومع أن البرد كان يحرق قدميها من تحت نعلي شبشبها الخشبيين المهترئين، فإن الاستعجال في تنفيذ مهمتها لم يخطر في ذهنها أبدًا. كانت تفكر في الماء الذي سيزيل عنها ما بقي من دفء الفراش؛ لكن خيبة أمل كانت تنتظرها؛ فعلى الرغم من أنها كانت تتطلَّع إلى تحقيق نصرٍ، بهذه الطريقة، في تجربة الفجر هذه كلِّها، فقد رفضت مضخَّةُ الماء أن تعمل: أثبتت الخرق وأوراق الصحف التي حاولوا عزلها بها أنها غير قادرة على مقاومة هذا البرد الكاوي. وهكذا وجدت نفسها مضطرةً إلى إزاحة الأوساخ عن سطح الماء الباقي في المغسلة من الليلة الماضية والتخلِّي عن أيّة فكرة للاغتسال الكامل، فاكتفت بمسح وجهها وثدييها الضئيلين، وكذلك فعلت بالمنطقة كثيفة الشعر ما بين ساقيها، وكان عليها أن تقنع بالمسح الجاف على الطريقة العسكرية، لأنه «لا يُتوقَّع من المرء أن يربض فوق المغسلة كالمعتاد عندما يكون

الماء قذرًا هكذا». وبطبيعة الحال، كان مزعجًا لها أن تتخلَّى عن تلك المتعة القطبية؛ إلا أن أمرًا تافهًا صغيرًا كهذا الأمر ما كان ليفسد عليها يومها («هذا اليوم تحديدًا...»)، فما إن انتهت من مسح نفسها وتخيَّلت الدهشة التي سترتسم على وجه إيزتر بعد ساعات قليلة من الآن عندما ينحني فوق الحقيبة المفتوحة، حتى أبعدت عن تفكيرها الاحتمال المزعج، لأن تعاني «رائحة الجسم» طيلة ما بقي من النهار وشغلت نفسها -ميكانيكيًا- بالعبث بهذا الشيء أو ذاك. لن تضيِّع وقتًا؛ فعندما اكتمل ضوء النهار، كانت قد ارتدت ثيابها، وكنَّست الأرض، ورتبت السرير؛ وبما أنها اكتشفت آثار جرائم الليلة الماضية (ليس معنى هذا أنها معترضة كثيرًا على تلك الجرائم، فقد اعتادت هذه الأشياء، وصار لديها شيء من العاطفة تجاه هذه الكائنات الصغيرة اللعوب)، فقد نثرت «سم الفئران الموثوق» على بقايا الخبز، بحيث يتمكَّن «أوغادها الحلوين الصغار» من إقامة وليمة في السماء إذا تجرأوا على دخول غرفتها من جديد. وبما أنه لم يبقَ لديها شيء ترتِّبه، أو تنظِّمه، أو تلتقطه، أو تصحِّحه، فقد حملت الحقيبة نصف المحطَّمة، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة تفوُّق، فأنزلتها من فوق الخزانة، وفتحت غطاءها، ثم ركعت على الأرض إلى جانبها، ومرت

بعينها على القمصان والمناشف والسراويل الداخلية المصفوفة في أكوامٍ مرتَّبة على رفوف الخزانة. وخلال دقائق معدودة، نقلتْ تلك الملابس كلّها إلى بطن الحقيبة. صوت إغلاق قفلي الحقيبة الصدئين، وارتداؤها معطفها... بعد هذا الانتظار كلِّه، وبعد هذا العناء كلِّه، أتى وقت الانطلاق الذي لن يرافقها فيه إلا هذا العبء البسيط، أو هذا الجهد البسيط، كان هذا بالضبط ما تاقت إليه منذ زمن بعيد، الحقيقة المُسكرة التي تفسِّر تفسيرًا واضحًا مدى مبالغتها في تقدير أهمية الضربة التي خطَّطت لها، وأثر تلك الضربة... ضربة خطَّطت لها كثيرًا (بل ربما بالغت في التخطيط لها). فقد كان الأمر هكذا، من غير شكٍّ -كما أقرَّت، هي نفسها، في وقتٍ لاحقٍ- فهذا التخطيط الدقيق كلّه، وهذه الحسابات المحكَمة والحذر الذي لا حدود له، كانت كلّها أمورًا لا ضرورة لها أبدًا، إذ لا حاجة إلا إلى اكتشاف شيء غير متوقَّع في هذه الحقيبة، بدلًا من الملابس الداخلية والجوارب والقمصان المغسولة والمكويَّة؛ وبتعبير تاريخي، «الإبلاغ الأول والأخير لضحيّة تدرك حقوقها تمام الإدراك».

وإذا كان هذا اليوم علامة على بداية شيءٍ جديدٍ، فهو الانتقال التكتيكي من الحرب الخفيّة ضد إيزتر، ومن أجل مستقبل أفضل، إلى وضعية الهجوم المباشر. إلا أنه

بدا لها، وهي سائرة على الأرصفة الضيِّقة المتجمِّدة في شارع هونفيد باساج، أنه إذا كان عليها أن تنتقل من جو الفعل المكبوت الذي يخنقها إلى الهواء النقيِّ للفعل المباشر، فمن المستحيل أن تكون قد بالغت في حذرها؛ ومن هنا، وخلال سيرها بأقصى سرعة في اتجاه ساحة السوق، عادت إلى مراجعة التفاصيل الدقيقة للكلمات التي يمكن أن تستخدمها، تلك الكلمات التي ستشكِّل جملًا من شأنها أن تصيب فالوسكا، عندما تجده، بحالة من العجز التام. ما كانت لديها أيّة شكوك، وما كانت لتخشى أيّة انعطافة غير متوقعة في مجرى الحوادث، بل كانت واثقةً مما عقدت العزم عليه إلى أقصى حدود الثقة؛ إلا أن كلَّ عصبٍ وعرقٍ في جسدها كان متأهِّبًا للمواجهة الوشيكة إلى حد جعلَ ردة فعلها، عندما بلغت ساحة كوسوث ولمحت مجموعةً «الأقزام القذرين» الذين ازدادت أعدادهم خلال الليلة الماضية حتى صاروا جمهرةً كبيرةً، تتجلَّى غضبًا حانقًا أكثر منها شعورًا بالصدمة؛ فقد توقَّعت أن تكون غير قادرة على العبور إلى الجهة الأخرى من غير الانخراط في صراع مباشر بالأيدي، على الرغم من أن «أيّة خسارة للوقت -في الظرف الراهن- أمر لا يمكن قبوله أبدًا». إلا أنه ما كان لديها أيُّ بديلٍ عن شقِّ طريقها عبر تلك الجموع، لأن أولئك المتسكِّعين الثابتين في أماكنهم (وبما أنهم ما

عادوا -في نظرها- ظاهرة فوق طبيعية) لم يكونوا يشغلون الساحة كلَّها فحسب، بل انتشروا في مداخل الشوارع المجاورة أيضًا، فكانت مضطرَّة إلى جعل حقيبتها «سلاحًا هجوميًا» مع الانتباه إلى رفعها فوق رأسها -من حين لآخر- وهي تشقُّ طريقها في اتجاه شارع هيد رود، وتعاني تحديق أزواج العيون الخبيثة، وتحسُّس الأيدي الوقحة. كانت أكثرية أولئك الموجودين في الساحة من الغرباء؛ ومن الواضح أنهم كانوا ريفيين جذبتهم أنباء الحوت إلى هذا المكان (هذا ما قدَّرته السيدة إيزتر)، لكنها رأت أيضًا شيئًا غريبًا مقلقًا في وجوه السكان المحليين... وجوه تعرفت فيها -على نحو غامض- على مزارعين صغار ممن يقيمون على أطراف المدينة، ويأتون بمنتجاتهم إلى السوق الأسبوعية المزدحمة. وبقدر ما استطاعت الاستنتاج من المسافة بينهم وبين منطقة الاحتشاد الكثيف، فإن إدارة السيرك لم يصدر عنها بعد ما يشير إلى قرب بداية العرض الذي سيكون فريدًا من غير أيِّ
شكٍّ. وبما أنها قد عزت توتُّر المدينة البادي في عيون الناس إلى هذا الأمر، فقد كفَّت عن السماح لنفاد الصبر المزعج بأن يشغل ذهنها؛ بل إنها -على العكس من ذلك تمامًا- سمحت لنفسها مدَّة دقيقة كاملة، لأن الفرصة لم تسنح لها يوم أمس، بأن تستمتع (بقدرٍ من الرضا

والفخر) بفكرة أن هذا الحشد الضخم من الناس جاهلٌ حقيقة أن كل شيء، كل شيء هنا، موجود بفضلها هي؛ فمن غير مساهمتها التي لا تُنسى، ما كانوا ليجدون هنا «سيركًا، ولا حوتًا، ولا عرضًا من أي نوع كان». لم يستمر هذا التفكير إلا دقيقة واحدة... إلا دقيقة قصيرة واحدة... لأنها خلّفتهم وراءها، ووجدت، آخر الأمر، طريقها من خلف البيوت القديمة في شارع هيد رود، فسارت في اتجاه ساحة فيلموس آبور، وكان عليها أن ترغم نفسها على تذكّر أن من الواجب أن ينصبَّ تركيزها كلّه في مكان آخر. اشتدت قبضتها الغاضبة على مقبض حقيبتها التي كانت تصدر صريرًا مرتفعًا، وأحسَّت بأن كلَّ كلمة، وكلَّ صياغة ناجعة لعبارة من العبارات قد صارت الآن طوع بنانها؛ فمهما يمكن أن يحدث، لم يعد الآن أي شيء قادرًا على مفاجأتها: لقد تخيَّلت المشهد عشرات المرّات، ثم عشرات المرّات، وتخيّلت كيف ستبدأ كلامها، وما سيقوله الآخر لها. وبما أنها كانت تعرف ذلك الآخر جيدًا مثلما تعرف نفسها، فقد وجدت أنها قادرة على إضفاء اللمسات الأخيرة والتأمُّل في العظَمة التي تبهر الأنفاس لجملها الأكثر هجومية، وما عاد لديها أيُّ شك أبدًا في أن الحوادث القادمة لا يمكن أبدًا أن تنتهي إلا إلى ما يصبُّ في صالحها.

كان كافيًا لها أن تستحضر تلك الهيئة المزرية، والصدر الغائر، والظهر المنحني، والرقبة النحيلة العجفاء، وتلك «العينين الرطبتين الدافئتين» من فوق ذلك كلِّه... كان يكفيها أن تتذكَّر مشيته العرجاء الأبدية وهو يسير حاملًا حقيبة البريد الضخمة، ويترنَّح عند الجدران، ويتوقَّف كلَّ حين وآخر فيرفع رأسه إلى السماء. كان مثل شخص يتوقّف بعد كل خطوة حتى يتأكّد من أنه يرى فعلًا ما لا يراه أحد غيره، حتى وإن كان ذلك لكي لا تبقى لديه أيّة شكوك في ما يخصّ وجود ذلك الذي يراه. وهكذا واصلت تذكير نفسها بأن فالوسكا سيفعل ما هو متوقَّع منه فعله. «وإذا لم يفعل ذلك»... ابتسمت ابتسامة باردة ونقلت ثقل الحقيبة إلى يدها الآخرى... «فسوف أضغط قليلًا على خصيتيه الواهنتين؛ ذلك القزم! ذلك اللاأحد! أستطيع أن آكل من هم مثله». وقفت تحت السَّقف المنحدر لبيت هارر، ثم ألقت نظرةً سريعةً على السور المتوَّج بقطع زجاج متكسِّرة، وفتحت البوابة بطريقة كفيلة بأن تلفت على الفور انتباه هارر صاحب «العينين النسريتين»، الذي كان أصلًا ينظر إليها من إحدى النوافذ وما كان بقادرٍ على أن يشكَّ لحظةً في أن الوقت ليس وقتًا للثرثرة الكسول، وفي أنها «ببساطة، ومن غير أيِّ تمهيد،

مستعدةٌ لأن تدوس أيّة عشبة أو نبتة تعترض طريقها». كانت تؤرجح حقيبتها كأنما تريد التأكيد على تلك الفكرة، على الرغم من أن هارر -الرازح تحت وطأة انطباعه الخاطئ بأن تلك الحركة تشير إلى أنها في طريقها إليه- كان في حالة لا تسمح لشيءٍ بأن يثنيه عمَّا يريده.
وعندما وصلت إلى نقطة أرادت عندها الانعطاف يمينًا بحيث تتجاوز البيت وتتابع طريقها عبر الحديقة صوب غرفة «المطبخ ـ الغسيل» القديمة التي صارت مسكنًا لفالوسكا، قفز هارر فجأة من خلف الباب ورمى بنفسه أمامها -صامتًا، يائس الرَّجاء- ورفع وجهه المعذَّب إليها، ونظر إليها متوسِّلًا. لكن السيِّدة إيزتر لم تبدِ أيّة رحمة (رأت على الفور أن زائرها في الليلة الماضية كان غير قادر على فهم شيء، ورأت أنه ينتظر كلمة صفح منها). من غير حتى أن تفتح فمها، حدَجته بنظرة سريعة، ثم أزاحته جانبًا بخفَّةٍ مستخدمة حقيبتها وكأنها تزيح عسلوجًا يعوق تقدمها، ثم تجاهلت وجوده تجاهلًا تامًّا وكأن كل ما كان يعصف به من خجلٍ وشعور بالذنب -لأن هارر كان يتذكَّر تمامًّا ما جرى في الليلة الماضية- لم يكن ليساوي شيئًا على الإطلاق. فبعد كلِّ حسابٍ (لا معنى لإنكار هذا) لم يكن ذلك كلّه ليساوي شيئًا على الإطلاق، مثله مثل السيدة بلوف وشجرة الحور التي سقطت، ومثله مثل السيرك والناس

المحتشدين، وحتى ذكريات الأوقات التي أمضتها مع مدير الشرطة، وإن تكن ذكريات حلوة... الآن، لا معنى لشيءٍ من هذا. وهكذا، عندما دار هارر من حول البيت ووقف أمامها صامتًا معترضًا طريقها إلى كوخ فالوسكا (دار حول البيت ببراعةِ من جعلته الخيبات المرَّة صلبًا قويًّا؛ وكان خجله وشعوره بالذنب قد جعلاه شديد الاحمرار، بل قرمزيًّ)، لم يكن منها إلا أن بصقت في وجهه كلمتين اثنتين «لا مغفرة!»، ثم تابعت سيرها لأن ذهنَها ما كان في تلك اللحظة منشغلًا غير بأمرين اثنين في حالة النشاط المحموم التي تلبَّستها: تخيَّلها إيزتر منحنيًا فوق الحقيبة وقد أدرك أنه قد وقع في الفخِّ حقًّا، وصورة فالوسكا الذي لا شكَّ في أنه لا يزال مستلقيًا في ملابسه كلِّها في ذلك الجحر حيث يعيش، ورائحة تبغ تفوح منه وهو يحدِّق في السقف بعينيه اللامعتين، غير مدركٍ أن ما هو فوقه ليس إلا طبقة من الجصِّ المتشقِّق الذي يكاد يسقط عليه، لا سماء الليل بنجومها اللامعة. اكتفت بأن دقَّت الباب المتهالك دقَّتين عنيفتين، ثم فتحته بدفعة من يدها، فوجدت -بالضبط- ما كانت تتوقَّع أن تجده: رأت سريره غير المرتب تحت سقف من جص مُتشقق موشك على السقوط في غيمة من رائحة التبغ، لكنَّها لم ترَ تلك «العينين اللامعتين... ولم ترَ نجوم السماء اللامعة في الأعلى».

(1) سبريتزر: شراب مصنوع من النبيذ والصودا.
تَوافُقاتِ فيركْمايسْتِر(2)
مفاوضاتٌ
لما كان السَّيد هاغلماير ـ مالك المؤسسة المرخّصة لتقديم الطعام والكحول في شارع هيد رود، «بيفيفر وشركاه»، أو «بيفيفر» كما كان اسمها الشائع بين الناس، يتوق عادةً للذهاب إلى سريره بحلول هذا الوقت، فقد بدأ ينظر إلى ساعته نظرةً لا تنفكّ تزداد صرامة، وكأن وجهه يقول («إنها الثامنة. حان وقت الإغلاق، يا سادة!») مما كان يعني أن صوته ذا الصرير قد بدأ الغضب يظهر فيه ويزداد تأكيدًا، وأنه لن يلبث أن يطفئ المدفأة البترولية التي تخرُّ خريرًا متواصِلًا في زاويتها، ويطفئ الأنوار، ويفتح الباب، ويُخرج زبائنه ـ كارهين ـ إلى حيث الريح الجليدية الغاضبة خلف ذلك الباب. ولم تكن مفاجأة لفالوسكا الذي يبتسم سعيدًا وهو محشور بين سترات العمل والمعاطف المبطنة التي مرَّ عليها زمنٌ طويلٌ منذ أن وضعها أحد على كتفيه أو منذ أغلق أحد أزرارها، بأن يُدعى إلى شرح مسألة «الأرض والقمر» -بل أن يُشجَّع تشجيعًا ملحًّا على شرحها؛ وذلك لأن هذا ما طلبوه منه الليلة الماضية، والليلة التي قبلها، ومن قبلها ليال كثيرة لا يعرف عددها غيرُ الربِّ نفسه؛ حتى

وإن كان الهدف من ذلك تشتيت الانتباه الحادِّ لصاحب المكان ذي الصوت المرتفع (وإن يكنْ نعِسًا) بما يتيح تناول كأس أخيرة بالغة الأهمية من السبريتزر.

صار ذلك الشرح، بعد تكراره عددًا لا نهائيًا من المرّات باعتباره نوعًا من التسلية مُلمّعًا صقيلًا إلى أقصى حدٍّ ممكن؛ وصارت وظيفته إشغال الوقت بعد أن كفَّ منذ زمنٍ طَويلٍ عن إثارة اهتمام أيٍّ كان. وبكلِّ تأكيد، صار غير ذي جاذبية في نظر هاغلماير الذي يفضِّل مسرَّات النوم على أيِّ شيء آخر، فهو يعلن عن انتهاء الوقت مبكرًا نصف ساعة (حتى يحافظ على انتظام سير الأمور) بغية جعل الجالسين يفهمون أن «لا سبيل إلى خداعه بهذه الحيلة القديمة التي لا تساوي شيئًا». بل إن ذلك الحديث صار غير ذي قيمة حتى في نظر جماعة السائقين اللامبالين، وعمال الطلاء، والخبّازين، وعمال المستودعات، الذين ألفوا ارتياد المكان وألفوا تلك الحكاية، مثلما ألفوا الطعم الجاف للريزلينغ الرخيص في كؤوسهم التي عليها خدوش كثيرة، فما كانوا ليتردَّدوا في خنق فالوسكا إذا حاول في غمرة حماسته توجيه «أصدقائه الأعزاء» إلى مواضيع من قبيل «رحابة الكون التي تحيِّر العقول» لأن هذا الاتجاه لا بدَّ أن ينتهي به إلى الحديث عن مجرِّة درب التبّانة... وذلك أنهم كانوا على أتمِّ ثقة من أن نبيذًا

جديدًا، وكؤوسًا جديدة، وتسليات جديدة، أمورٌ محكومة كلُّها بأن تكون «أسوأ من القديمة»، مما جعلهم غير مهتمين أبدًا بأي تجديدٍ مثير للشكوك لأن الفكرة المستندة إلى سنين من الخبرة كانت ًأن أي تبديل أو تغيير، وأي تعديل من أي نوعٍ كان، يفضي إلى الهلاك (كان هذا الرأي موضع قبولٍ عام). فإذا كانت الحوادث قد اتَّخذت منعطفًا ما، حتى هذه اللحظة، فإنهم يتمسَكون أشدَّ تمسكٍ بأن ذلك هو الاتجاه الذي تنبغي مواصلته، خاصّة في هذا الوقت الذي يشهد كثرة كبيرة من الحوادث التي كان من أبرزها البردّ الاستثنائي من خمس عشرة درجة تحت نقطة التجمّد، إلى عشرين درجة تحتها، منذ بداية شهر كانون الأول الذي كان مما يثير القلق أن أحدًا لم يشرح سببه؛ ثم إن تلك المدة كلّها لم تشهد ندفة ثلج واحدة، ولمٍ يكن فيها غير الصقيع الذي انقضَّ عليهم وظلَّ متشبِّثًا كأنه مثبت على نحو غير طبيعي أبدًا إلى الأرض بالمسامير؛ وذلك خلافًا لما يكون متوقَّعًا عادة في مطلع الفصل. هذا ما خلق لديهم شكًّا في أن شيئًا («في السماء!؟... على الأرض!؟»)، قد تغير تغيُّرًا جذريًّا. إنهم يعيشون منذ أسابيع في حالة واقعة بين الحيرة والقلق تكاد تصل بهم إلى كآبةٍ متوتِّرة. ثم إنهم، بعد ملاحظتهم الملصقات التي ظهرت في أول هذه الليلة وأيَّدت إشاعات واردة من الضواحي القريبة تقول إن

ذلك الحوت الضخم مشؤوم بكلِّ تأكيدٍ، وأنه سوف يصل يوم غدٍ (في آخر المطاف، «من عساه يعرف ما قد يعنيه هذا؟ وما الذي سيؤدّي إليه؟»)، كانوا قد تجاوزوا قليلًا حد الثمالة عند وصول فالوسكا إلى هذه المحطة بعينها خلال جولاته. وأما في ما يتعلَّق به، وعلى الرغم من اتخاذه تعبيرًا حائرًا بدوره لا بدَّ له من ذلك ومن هزِّ رأسه المثقل بأشياء كثيرة كلما استوقفه أحدهم وسأله عن الأمر، فقد كان يصغي فاغر الفم إلى كلِّ ما يجري في حانة بيفيفر من أحاديث عن الخطر غير الواضح، بل الغامض على نحو غير مفهوم، الذي يحيط بالسيرك وبمغزاه على المستوى المحلّي، فكان غير قادر على التوصُّل إلى أيِّ معنى في ذلك الأمر كلِّه. وفي مواجهة اللامبالاة العامَّة، لم يبد على فالوسكا فالوسكا وحده أيّ ضجر من تكرار حديثه ذاك، ولا هو كفَّ عن إظهار الحماسة له؛ بل على العكس تمامًا، كانت فكرة مشاركة أفكاره مع الآخرين، وبالتالي عيشها عبر «نقطة الانعطاف القدسيَّة هذه في الطبيعة»، يمنحه إثارة فائقة. فإذا كانت من نصيبه تلك الحماسة المحمومة، والإحساس العاطفي الشديد الذي يعيشه خلال ثواني الصمت الدراماتيكية التي تعقب الانتهاء الرسمي لأدائه الذي لا يتغيَّر أبدًا، الحماسة التي تغمره كلّه بحلاوة ونقاء لا مثيل لهما، فلماذا يهتم عندما يقول الناس أشياء

من قبيل: «أتساءل متى سيأتينا قليل من الثلج اللعين آخر الأمر؟».
ولماذا يُشغل بالَه أصلًا بإزعاجات المدينة التي يحاصرها الجليد؟... هكذا كان الأمر إلى حدٍّ أن الطعم الغريب لمكافأته المعتادة التي هي كأس من النبيذ مع الصودا (يقدِّمون إليه معها، أحيانًا، البراندي الرخيص والبيرة)، هذا المزيج الذي لم يستطع أبدًا أن يتعلَّم كيف يحبُّه، لكنّه كان غير قادر على رفضه (إذا رفض عربون المحبة الذي يقدِّمه إليه «الأصدقاء الأعزاء» دائمًا، وأفصح عن كرهه هذا الشراب من خلال طلب شيء من النبيذ الحلو، فسوف يكون قد اعترف أخيرًا بأنه كان دائمًا يفضل المشروبات السكَّرية الفوَّارة، وهو يعرف أن السيد هاغلماير لن يحتمل وجوده في بيفيفر بعد ذلك)... الخلاصة أن الشَّراب بدا له الآن أقل إزعاجًا من المعتاد. وعلى أية حالة، ما كان هناك أي معنى للمخاطرة بخسارة ثقة مالك المكان ورواده المنتظمين، التي هي ثقةٌ منقوصةٌ أصلًا، من أجل أمر تافهٍ إلى هذا الحدِّ، خاصّة بعد أن رأى، قرابة الساعة السادسة مساء، أن عمله مع معلمه المعروف الذي يحظى بإعجابٍ شديدٍ قد انتهى (وبما أن هذه الصداقة الدافئة الظاهرة للجميع كانت شيئًا لا يفهمه فالوسكا ولا بقية مواطني المدينة فهمًا كاملًا، فقد كان شديد الحرص

على إظهار امتنانه لها). وهكذا، بعد أن رتَّب أمور السيد إيزتر كلّها وصار عليه أن يتركه، جعل من هذه الحانة الواقعة خلف خزان المياه واحدًا من ملاذاته الرئيسية في تجواله الدائم، فكان أمان جدرانه وألفتها، وصحبة «الرجال ذوي النوايا الحسنة» مما يجذب أي شخصٍ شديد الاستقامة مثله. ومنذ ذلك الحين كما اعترف مرات كثيرة للسيد هاغلماير صاحب الوجه الحجري صار يعتبر هذه المؤسسة بيتًا ثانيًا له من الوجهة العملية، وكان أمرًا طبيعيًا ألّا يجد لديه استعدادًا للمغامرة بهذا كلِّه من أجل كأسٍ من الشراب لا تعجبه، بل بالأحرى من أجل كأسٍ من النبيذ لا تعجبه. وعندما طلب «كأسًا أخرى»، كانَ ذلك كأنه يطلب الكأس الأولى لأنَّ أكثر ما كان يفتقده في عزلته التي صار يعيشها في حديقة بيت هارر الخلفية، في ذلك المكان الذي كان مطبخًا أو غرفة غسيل في يوم من الأيَّام، ثم صار غرفة له، هو بالضبط الرفقة البشريَّة بدفئها وبساطتها، والإحساس المريح برخاء العيش الذي صار لديه الآن بعد أن ترك الغسق الأبديّ خلف ستائر غرفة صديقه المسنِّ الذي كان يعتني به كثيرًا، تلك الغرفة بما فيها من جوٍّ عابقٍ بالوجل والحرج النابعَين من الاحترام. لم يجد هذه الرفقة إلا هنا فقط هنا في بيفير، حيث يحسُّ بأنه مقبول، وحيث لا يكون عليه إلا أن يعيد

عندما يطلبون ذلك منه عرضه الذي صار الآن قادرًا على الالتزام بحرفيَّته من غير أيِّ خللٍ تقريبًا، عرضه تلك «اللحظة الاستثنائية في الحركة المنتظمة للأجسام السماوية». بكلمات أخرى، فقد وجد القبول هنا؛ وحتى إذا كان عليه أحيانًا أن يقدِّم عرْضًا ذا حماسة خاصَّة حتى يقنع مستمعيه بأن ثقتهم به قائمة على أساس متين، فإن مما لا يمكن إنكاره أن المزاح الجلف الموجه حصريًا إلى ذاته البريئة المستعدَّة دائمًا، وإلى «فنجانه» الغريب، لم يكن يعوقه عن الإحساس بأنه جزء من جمهرة الأشخاص المتشابهين الذين يتردَّدون دائمًا على هاغلماير. ثم إن القبول المستمر الذي يلقاه وجوده بينهم (من الطبيعي تمامًا أن يعمل على استمرار هذا القبول؛ فمن المستبعد كثيرًا أن يستطيع احتمال النار المضطرمة في سرده المتلعثم، وأن يعتمد على «الفكرة» وحدها لكي يمضي قُدُمًا، لو أنه كان وحيدًا وصاحيًا)، بين هؤلاء السائقين والخبَّازين وعمال المستودعات والطلاء، مع ما كان ينظر إليه باعتباره إحساسهم الرفاقي بالتضامن، كان يعني أنه يستطيع الاستفادة من الفرصة المتكرِّرة دائمًا لإلقاء نظرة على «البساطة الهائلة للكون». وما إن يُطلب منه الكلام، حتى تسقط من فورها مستلزمات الكون العاقل، (تلك المستلزمات التي لا يملك أصلًا، هو نفسه، إلا تصوُّرًا ضبابيًا عنها)،

فيتوقَّف عنده أي إدراك لـ«أين هو» و«من هو»، وتنقله إلى أرض مسحورة حركة واحدة من عصا الساحر، فيفقد رؤية الأشياء الأرضية، ويذوب كل ما له لون أو ثقل أو وزن في خفَّةٍ تتخلَّل كلَّ شيء... يكون ذلك وكأن حانة بيفيفر نفسها قد طارت في غيمة من بخار فبقي وحده «مع الأخوة» تحت سماء الرب ذاتها، وتنشدّ عيناه إلى «العجائب» التي يتحدَّث عنها. وبطبيعة الحال، ما كان ممكنًا إنكار أنّ تحقّق تلك الصورة الخياليّة سالفة الذكر كان أمرًا مستحيلًا استحالةً مطلقةً لأن هذا الجمع الغريب من الناس كان يبدي قدرًا واضحًا من التواني العنيد ضمن الجدران الأربعة لحانة بيفيفر؛ وكان أي نوع من التجول في «المجهول العظيم» آخر ما قد يدور في ذهنه. والواقع أنه لم يكن يبدي أي قدرٍ من الانتباه الواضح إلى تلك الصرخة المتوحِّدة الموجَّهة إليه («ألا تصغون الآن؟ إن يانوس موشكٌ على الحديث عن تلك النجوم من جديد!»).

كان بعضهم أولئك المحشورون في الزاوية- على مقربة من المدفأة، أو تحت رف تعليق المعاطف، أو المتكئين على البار، قد وقعوا فجأة تحت سحر الرغبة في النوم: سحر شديد لا يستطيع حتى وابل من قذائف المدافع أن يوقظهم منه؛ بل إن فالوسكا ما كان قادرًا حتى على البحث عن أي قدر من الفهم بين أولئك الذين

ظلُّوا واقفين على أقدامهم بعد أن انقطع حديثهم عن الحيوان العملاق المنتظر وصوله يوم غدٍ، وصارت عيونهم جامدةً كالزجاج. لكن، بالتأكيد، وبالنظر إلى صاحب الحانة البائس الذي يلقي نظرات حادّة إلى ساعته، فإن «الأفقيين» و«العموديين» معًا كانوا متفقين في ما يخصُّ المجرى العام لما يحدث، وذلك حتى مع أن واحدًا منهم (كان خبَّازًا متدرِّبًا أرجوانيَّ الوجه) كان قادرًا على التعبير عن ذلك الاتفاق تعبيرًا محسوسًا عن طريق إيماءة حادَّة من رأسه. ومن الطبيعي أن يكون فالوسكا قد فسَّر حلول الصمت عليهم جميعًا بأنه علامة لا شكَّ فيها على انتباههم الذي لن يلبث أن ينصبَّ عليه. وبمساعدة من عامل طلاء البيوت الذي كان أول من طلب منه الكلام شخص يكسوه غبار الجير من رأسه حتى قدميه استطاع فالوسكا استخدام ما كان باقيًا لديه من إحساس بالاتجاهات حتى يخلي فسحة في وسط ذلك البار العابق بالدخان: دفعا إلى الخلف طاولتي الشرب المرتفعتين اللتين تبلغان مستوى الصدر، لأنهما كانتا تعترضان الطريق، وعندما قوبلت التوسُّلات الشديدة، العبثية، من مساعده سالف الذكر («هيا، اقتربوا من الجدار قليلًا، من فضلكم!»)، بمقاومة غير ثابتة من أولئك المتشبِّثين بكؤوسهم تشبّثًا غائمًا، الذين ما كانت تبدو عليهم أكثر من بضع علامات واهنة دالّة على

الحياة، اضطر الاثنان إلى استخدام الأساليب نفسها معهم، فلم تلبث فسحة مفتوحة أن ظهرت في المكان بعد مشاجرات صغيرة ناتجة عن ذلك التدافع والسير غير المقصود إلى الخلف. تقدَّم فالوسكا إلى تلك الفسحة وقد صار جائعًا إلى أن يصير مركز اهتمام، واختار الواقفين على مقربة منه ليكونوا جمهوره المباشر. لقد كان من بينهم سائقٌ طويلٌ ضامرٌ لديه حَوَلٌ ظاهرٌ في عينيه، وكتلة ضخمة هي عامل مستودع يشار إليه الآن، ببساطة، باسم «سيرغي». ما كان يمكن الشكُّ كثيرًا في عامل طلاء المنازل صاحب السويَّة المفاجئة من الصحو والانتباه (كان استعداده للمساعدة الآن خيرَ دليلٍ على ذلك)، إلا أن المرء لم يكن ليستطيع أن يكون على هذا القدر من الثِّقة في ما يتعلَّق بانتباه الشخصين الآخرين، فبصرف النظر عن حقيقة أنهما لم يكونا مدركَين شيئًا مما يجري، ولا مدركَين سبب دفعهما إلى هذه الناحية أو تلك، فقد جعلهما حرمانهما من السند المادي الذي توفِّره كتلة الأجساد من حولهما يحدِّقان بنظرات فارغة وبقدر من عدم الرضا الغامض في المساحة الخالية التي صارت أمامهما؛ وبدلًا من الانتباه إلى عبارات فالوسكا التمهيدية المعتادة، والتأثُّر بالنشوة الغامرة التي تولِّدها كلماته التي هي غير مفهومة لهما أصلًا، كانا منشغلَين أشدَّ الانشغال في محاولة منع

أجفان عيونهما من الإطباق لأن قدوم الليل الذي داهمهما كعادته في كلِّ مرّة أتى معه بالأعراض الواضحة لدوارٍ حادٍّ جعل حركة الكواكب في تدويمها المجنون تحمل أبعادًا شخصية تمامًا، وإن تكن في غير محلها. إلا أن هذا لم يكن أمرًا ذا أهمية، خاصّة بالنسبة إلى فالوسكا الذي كان قد بلغ ختام استهلاله المسهب الذي تحدّث فيه عن «المنزلة الوضيعة للإنسان ضمن نظام الكون الكبير»، وكان موشكًا على القيام بخطوة مهمَّة تجاه رفاقه المتمايلين؛ وذلك لأنه (هو نفسه) كان شبه عاجزٍ عن رؤية أولئك الثلاثة: على العكس من ذلك فإن فالوسكا نفسه، خلافًا لـ«أصدقائه الأعزاء» الذين كان من الصعب إيقاظ مخيلتهم النائمة (إن كان إيقاظها ممكنًا أصلًا) من غير توسُّط أولئك الثلاثة المختارين الذين يمثلونهم، لم تكن لديه أيَّة حاجة إلى «منصة إطلاق» حتى يقفز من رقعة الأرض الجافَّة جفافًا يوهن العزيمة، التي لا تكاد تكون مأهولةً إلى «محيط من السماوات لا نهاية له»؛ ففي عالم العقل والخيال عنده، ذلك العالم الذي لم يكن أبدًا منقسمًا إلى هذين الحيِّزين المتمايزين، كان قد أمضى أكثر من خمسة وثلاثين عامًا وهو يشقُّ عباب السماء المرصَّعة بالنجوم. ما كانت لديه أيّة ممتلكات تستحق الذكر لم يكن يملك شيئًا أكثر من معطف ساعي البريد وحقيبته ذات السيور الجلدية،

ومعهما قبعته وحذائه فكان من الطبيعي بالنسبة إليه أن يقيس نصيبه بالأبعاد المدوّخة للقبة اللانهائية التي من فوقه. وفي حين كان ذلك الميدان الشاسع الذي لا يمكن استنفاده، وإن يكن مألوفًا لديه، يسمح له بحرية حركة تامَّة، فإن كونه سجينَ تلك الحريّة ذاتها جعله غير قادر على العثور على مكانٍ في «الجفاف الموهن» المختلف تمامًا الذي في الأسفل، فما كان له إلا أن يترك عينيه تتمتعان مثلما كان يفعل الآن بما يعتبره وجوهًا وَدودة، وإن تكن ضبابية أو غير مفهومة أحيانًا، تلك الوجوه التي أمامه، لكي يوكل إلى كلّ منها دوره المعتاد بادئًا، في هذه المرة، بالسائق الطويل النحيل. همس في أذنه، «أنت الشمس» ولم يدر في خلده أبدًا أن هذا لم يعجب الشخص المقصود على الإطلاق؛ وذلك لأنه مما يزعج الرجل أن يخطئ الناس فيظنّوه شخصًا آخر - بل إنها إساءة في واقع الأمر، خاصة عندما يكون جفنا عينيه مصرَّين على الانسدال، وعندما يتسلّل الليل إليه تسلُّلًا خفيًّا متّصلًا فيصير غير قادر حتى على إبداء أدنى قدر من الاعتراض. «وأنت القمر»... قالها فالوسكا ملتفتًا إلى عامل المستودع ضخم الجثة الذي ما كان منه إلا أن هزَّ كتفيه من غير مبالاة كأنما يقول إن «لا أهمية للأمر» عنده، ثم لم يلبث أن اندفع على الفور إلى مهمّةٍ عاجلةٍ ميؤوسٍ منها فراح يلوِّح بذراعيه محاولًا استعادة

توازنه الذي فقده بفعل تلك الحركة الطائشة لكتفيه. «وأنا الأرض، إن لم أكن مخطئًا»... قال عامل الطلاء هذه الجملة مستبشرًا، وأمسك بسيرغي المترنِّح ترنّحًا شديدًا فجعله يقف في مركز الدائرة، ثم أداره حتى صار في مواجهة السائق الذي كان تعكّر مزاجه في تفاقم نتيجة استمرار زحف الليل. ثم، وكما يفعل شخصٌ يعرف عمله معرفة جيدة، تقدَّم خطوة حماسية من خلفه. وفي حين كان السيد هاغلماير، الذي صار مختفيًا تمامًا خلف هذه التشكيلة من الأشخاص الأربعة، يتثاءب محتجًّا ويقعقع بالكؤوس ويغلق النوافذ بصخب حتى يلفت أنظار من كانت ظهورهم إليه إلى مرور الوقت الذي لا يرحم، كان فالوسكا موشِكًا على تقديم عرض شديد الوضوح بحيث يستطيع أي شخص أن يفهمه، وبحيث يتيح للجميع كما قال بنفسه منفذًا يمكن من خلاله (للناس العاديين من أمثالنا أن يبصروا شيئًا من طبيعة الأبدية)؛ وما كان في حاجة إلى عونٍ من شركائه أكثر من أن يتقدَّموا فيدخلوا معه الفضاءَ الذي لا حدود له حيث «يكون العدم الذي يمنح السلم والدوام وحريّة الحركة سيدًا وحيدًا»، وأن يتخيَّلوا الظُّلمة التي لا سبيل إلى اختراقها ممتدّةً في أنحاء مملكة الصمت الرنَّان اللانهائي الذي لا يستطيع أحدٌ استيعابه. وأما من ناحية أهل حانة بيفيفر، فقد كانت نغمة الصوت المتدفِّق

المرتفعة ارتفاعًا سخيفًا لهذا الخطاب المعروف لديهم بل الذي صار الآن مضجرًا الخطاب الذي كان في ما مضى يثير فيهم موجةً عاتيةً من الضحك الخشن قد صارت الآن تلقى برودةً تامّةً من جانبهم. لكن الأمر ما كان في حاجة إلى كبير جهد حتى يصير مضحِكًا من جديد لأن الظُّلمة التامَّة «التي لا سبيل إلى اختراقها» كانت، بدقَّة إلى هذا الحدِّ أو ذاك، هي ما يرونه من حولهم، وكانت هناك تسلية حقيقية لأنهم (على الرغم من حالتهم البائسة) لم يستطيعوا مقاومة الضحك المبتهج عندما جعلهم فالوسكا يعرفون أن السائق الأحول الذي كان في حالة شلل تام، هو «مصدر الدفء»؛ وبكلمات أخرى، هو «النور الذي يهب الحياة» في هذا «الليل الذي لا نهاية له». لعلَّ ما من حاجة إلى القول إن الغرفة التي تتيحها تلك الحانة كانت صغيرة بعض الشيء إن هي قورنت باتساع الكون الذي لا تحيط به الأفهام. فعندما حان الوقت لوضع الكواكب في مسار حركتها، اضطر فالوسكا إلى الرضوخ لهذا التمثيل المختل ذي المقاييس غير المتناسبة، بل إنه لم يحاول الدفع بالسائق القانط عديم الحَوْل، الذي ظل واقفًا في المركز وقد تدلّى رأسه على صدره، إلى الدوران حول محوره، فلم يوجّه تعليماته بطريقته المعتادة، إلا إلى سيرغي وإلى عامل الطلاء الذي كانت حماسته في

تصاعد واضح. وحتى هذا الترتيب، لم يستطع السير من غير عثرات غريبة؛ فإذا كانت شخصية «الأرض» المبتسمة ابتسامة خبيثة قد واجهت جمهور الحاضرين الذي كان يستعيد صحوه ببطءٍ وأكملت المناورة المعقَّدة المتمثِّلة في دورتين اثنتين حول الشمس الهزيلة متحرّكة بسهولةٍ رشيقةٍ تثير العجب، فإن القمر لم يلبث أن مال وتهاوى كأن سوء طالع فظيعًا قد طوَّح به لحظة لمسه فالوسكا. وعلى الرغم الاحتياطات المتَّخذة كلّها، فقد فشلت فشلًا محزِنًا تلك المحاولات الرامية لجعله يقف على قدميه من جديد. وهذا ما جعل فالوسكا نفسه في وسط خطابه الحماسي الملهم، وإن يكن متلعثمًا كلِّه-، يجد نفسه مضطرًّا إلى الإقرار بأنه قد يكون من الأفضل الاستعانة بمساعد آخر بدلًا من عامل المستودعات الثقيل غير المستقرِّ. إلا أن «القمر»، في هذه اللحظة، تمامًا عندما كانت متعة الجمهور تبلغ أوجها، استجمع شتات نفسه وكأنه أفلح في اكتشاف الترياق الشافي لدواره الحاد فتمكّن من تغييرٍ وضعية ساقيه المعوجَّتين، ثم أفلح في إطلاق نفسه (مائلًا بزاوية حادة) وإن يكن في اتجاه خاطئ فسار في مداره، وبدأ يدور، ثم لم يلبث أن انساق في هذه العملية بحيث صارت حركاته، التي كانت أشبه بخطوات رقصة سكارداس المألوفة، توحي بأنه قادرٌ على الاستمرار بعض الوقت على هذا النحو؛

لكنه تفوّق على نفسه بأن بدأ يستعيد قدرته على الكلام، إلى حدٍّ ما. في آخر المطاف، صار كلُّ شيءٍ جاهزًا، فعاد فالوسكا إلى العمل الذي بين يديه بعد أن تنحَّى جانبًا نصف دقيقة، أو نحو ذلك، لكي يجفِّف حاجبيه المتعرِّقَين (لأنه لم يكن راغبًا في المخاطرة بحرمان أيِّ شخصٍ، ولو للحظة، من الاستمتاع بالمشهد المجيد لذلك التناغم السماوي بين الأرض والقمر والشمس في حركتها المتزامنة التي خطَّط لها بكل عناية). رفع قبَّعته لحظة فسوَّى شعره وأزاحه عن عينيه، ثم مد ذراعيه أمامه بحركة دراماتيكية حتى يستعيد ما كان يشعر صادقًا بأنه انتباه الجميع الشغوف، ثم رفع وجهّه المحمرّ إلى السماء وقد نشّطته الشعلة المتّقدة في داخله. بدأ كلامه بصوتٍ هادئٍ جدًا.

وعلى الفور، كفَّ الجميع عن الكلام عند سماع صوت همسه... صمتوا مترقِّبين عاصفة الضحك التي ستأتي. «في البداية، إن جاز القول... لا نكاد ندرك الحوادث الاستثنائية التي نشهدها! إن ضياء الشمس الساطع...»، أشار بيده إلى السائق الذي كان يصرُّ على أسنانه مقاومًا بحر الأفكار المزعجة التي ملأت رأسه، ثم لم تلبث إشارته أن اتَّسعت حتى اشتملت على شخص عامل الطلاء الذي كان يدور كأنه منوّم... «فتغمر الأرض

بدفئها... وبضيائها... تغمر جانب الأرض المواجه لها». وبحركة لطيفة ثبت «الأرض» الذي كان يبتسم ابتسامة خليعة، ثم أداره حتى واجه الشمس ووقف من خلفه مائلًا عليه كأنه يعانقه. كان مشرئبًا من فوق كتف الرجل وقد ارتسم على وجهه ملمحٌ متوتِّرٌ وكأنه ليس أكثر من «وسيط» للآخرين. راحت عيناه ترفرفان في مواجهة «الإشعاع الذي يعمي الأبصار» المنبعث من السائق الذي لا يكاد يستطيع الوقوف ثابتًا في مكانه.

«نحن واقفون في هذا... الألق. ثم، على نحو مفاجئ، لا نرى غير قرص القمر المدوّر...». وهنا أمسك بسيرغي ودفعه مخرجًا إياه عن مساره الدائر من حول عامل الطلاء حتى صار في موقع متوسِّطٍ بين الشمس والقمر... «هذا هو قرص القمر المدوّر... يصنع فجوة في ضياء الشمس... فجوة مظلمة على وجه الشمس الملتهب... وهذه الفجوة تزداد اتساعًا... ألا ترون؟...». تحرَّك من خلف عامل الطلاء ودفع عامل المستودع الغاضب دائمًا، لكن من غير حَول...

«أرأيتم؟... مع اتساع المساحة التي يغطيها القمر، بعد وقت، نصير غير قادرين على رؤية شيءٍ في السماء غير هذا القوس اللامع من ضوء الشمس. وفي اللحظة التي تلي ذلك...»، همس فالوسكا بصوت مختنق لشدة إثارته وهو ينقل عينيه جيئة وذهابًا، في خط مستقيم،

بين السائق وعامل المستودع وعامل طلاء المنازل... «لنقل إنها الساعة الواحدة ظهرًا... نحن موشكون على رؤية تطوُّر دراماتيكي جدًّا لأن الهواء يزداد برودةً من حولنا في غضون دقائق معدودة... يزداد برودةً على نحوٍ غيرٍ متوقِّعٍ... هل تحسّون ببرودة الهواء؟ تظلم السماء، وعندها... لا تلبث أن تصير سوداء تمامًا! تعوي كلاب الحراسة! ويلتصق الأرنب المذعور بالعشب! تجري قطعان الغزلان مفزوعة... تجري بجنون! وفي هذا الغسق المخيف، غير المفهوم... حتى الطيور»، («حتى الطيور» صار فالوسكا منتشيًا وهو يرمي بذراعيه إلى الأعلى، صوب السماء، وتنفتح عباءة ساعي البريد الواسعة مثل جناحي خفاش)... «الطيور نفسها تغدو حائرة فتجلس في أعشاشها! ومن ثم... يسود صمت... ويصير كلُّ كائنٍ حيٍّ ساكنًا... ونحن أيضًا، نظلّ دقيقةً كاملةً عاجزين عن الكلام... هل الجبال موشكة على السير؟ وهل ستسقط السماء من فوقنا؟ وهل ستنفتح الأرض من تحتنا فتبتلعنا؟ لا نعرف شيئًا! إنه كسوف الشمس الكلِّي». نطق هذه الجمل الأخيرة مثلما نطق الجمل الأولى، نطقها بذلك الوجد النبوئي، وبالترتيب نفسه الذي يكرِّره منذ سنين من غير أدنى تغيُّر في ما يقدمه (وبالتالي، من غير أيِّ تطوُّرٍ مفاجئ في كلامه).

وهكذا، على الرغم من القوَّة العجيبة في هذه الكلمات، ومن امتصاصها كلّ ما في قائلها من قوّة حتى تركته مستنفَدًا يصحِّح وضع سير حقيبة ساعي البريد الذي ظلَّ ينزلق عن كتفه وهو يبتسم لجمهوره ابتسامة مسرورة، لم يكن قد بقي لها من قوةٍ قادرةٍ على إشاعة أي اضطراب في نفوسهم. مرَّ نصف دقيقة بأسره من غير سماع أيِّ صوتٍ في الحانة المزدحمة التي تجمَّع روّادها وهم يعيشون الآن موجةً جديدةً من الحيرة (مع أنهم عرفوها من قبل واستطاعوا تجاوزها)، ونظروا إلى فالوسكا بعيونٍ خاليةٍ من أي تعبير، فقد كانوا غير قادرين على فعل شيء لإرضاء نزعتهم إلى قذفه ببعض العبارات المازحة المرحة كأنهم اكتشفوا شيئًا مقلقًا في معرفتهم أن سبب الصعوبة التي يجدها صاحبهم «يانوس نصف المجنون» عند العودة في «الجفاف المهلك» غير المحتمل لم تنشأ إلا لأنه لم يغادر قط «محيط النجوم الكبير»، في حين أنهم لم يخرجوا من صحرائهم أبدًا، بل ظلُّوا مثلما يصيب أنواعًا كثيرة من الأسماك عند إخراجها من الماء جالسين في أماكنهم وقد تناثرت عليهم بقع ضوء منعكسة عن كؤوسهم.

هل تقلَّصت الحانة برهةً؟

أم إن العالم صار شديد الاتِّساع؟

هل سمعوا هذه الكلمات من غير طائلٍ... تلك المرّات

كلّها:
«السماء تزداد ظلمةً»...
و»الأرض تنفتح تحت الأقدام»...
و»الطيور تختبئ في أعشاشها»...
وقعقعتهم الجامحة
توقظ فيهم شيئًا، مرّة أخرى،
لكنها مرّة واحدة فحسب،
شيء يشبه حكّةً حارقةً
لا يستطيعون، حتى الآن، فهمها؟
ليس تمامًا: لم يفعلوا إلا كما يقال «ترك الباب مفتوحًا» جزءًا من ثانية، أو أنهم نجحوا فحسب، على نحو ما، (كانوا ينتظرون هذا تحديدًا)، في نسيان النهاية! على أيّة حالٍ، وبعد أن استمرَّ الصمت في حانة بيفيفر قدر ما كان له أن يستمر، سرعان ما وجد الجالسون ألسنتهم فصاروا مثل شخصٌ كان غارقًا في مراقبة مسار مقوَّس كسول يرسمه طيرٌ في السماء فوجد نفسه مضطرًّا إلى الاستيقاظ فجأة من حلم الطيران واستعاد استعادةً حادّةً اتصاله بالأرض الصلبة تحت قدميه... لقد وجدوا أن ذلك الإحساس العابر، الضبابي، غير الواضح، الذي لا شكل له، قد انزاح جانبًا بفعل إدراكهم المفاجئ لما حولهم من دخان سجائر، وللثريّا النحيلة المعلّقة من حولهم، وللكؤوس الفارغة التي تمسك بها أيديهم إمساكًا

محكمًا، ولهيئة هاغلماير خلف البار وهو يزرر معطفه بحركةٍ سريعةٍ حزينةٍ. وفي خضم عاصفة التصفيق الساخر التي أعقبت ذلك، انهال عليهم التربيت والتهنئة مع صفعات على الظهر، للأجرام الثلاثة، عامل الطلاء الذي كان يشعُّ اعتزازًا بنفسه والاثنين الآخرين اللذين صارا الآن عاجزَين عن أيِّ إحساسٍ؛ وخلال ثوانٍ معدودة، وجد فالوسكا نفسه وحيدًا بعد أن استلم كأسًا النبيذ. وبحركاتٍ خرقاء، انسحب من غابة السترات الطويلة والمعاطف المبطَّنة إلى زاوية أخرى في الحانة تتيح له مزيدًا من الهواء.

وبما أنه ما عاد قادرًا على الاتكال على انتباه الآخرين إليه، فقد عاد ذلك الشخص المتوحِّد، المتحمِّس حقًّا، الشاهد الصادق على تلاقي الكواكب الثلاثة وعلى ما جرى لها بعد ذلك. كان لا يزال يشعر بشيء من الدوار بعد تقديم ذلك المشهد، وبعد الفرحة والصخب اللذين اعتبرهما تحيّةً له، فجلس في عزلته الرائعة يتابع حركة القمر وهو يسبح خلف وجه الشمس المتألِّق الآخر... فلماذا؟ لأنه أراد أن يرى فرأى حقًّا، رأى النور يعودُ إلى الأرض؛ أراد أن يحسَّ، فأحسَّ حقًّا بذلك الفيض الجديد من الدفء؛ أراد أن يعيش، فعاش حقًّا ذلك الإحساس العميق بالإثارة، إحساس الحرّية الذي يأتي به الفهم للإنسان الذي يكدح في ظلال الخوف الجليدية

المخيفة القاتلة. لكن، ما كان هناك مَنْ يستطيع أن يفسِّر له هذا، ولا حتى من يتحدَّث معه عنه؛ وذلك لأن عامَّة الناس كما هي نزعتهم عادة ليست ميَّالة إلى الإصغاء إلى ما تعتبره «ثرثرةً كسولًا». والآن، بعد انقضاء ذلك الكسوف الشبحي، صار الناس يعتبرون الأمر منتهيًا فاندفعوا إلى البار أملًا في الحصول على قدح أخير من شراب سبريتزر. فماذا عن عودة الضوء؟ وماذا عن تدفُّق الدفء اللطيف؟ ماذا عن العمق، وعن الانعتاق؟ عند هذه النقطة، لم يعد هاغلماير (الذي بدا كأنه قد تابع تسلسل أفكار فالوسكا بكلِّ دقة) قادرًا على منع نفسه من التدخل: صار نصف نائم، ولم يعرف أي عمق كبير للمشاعر، فقدّم إليهم تلك «الطلبات الأخيرة»، ثم أطفأ النور وفتح الباب وجعل الناس يذهبون في سبيلهم وهو يجأر صائحًا في أعقابهم «اخرجوا من هنا... أنتم يا براميل الشراب الكبيرة!... اخرجوا جميعًا». ما كان ممكنًا فعل شيءٍ إزاء هذا الأمر، فما كان منهم إلا أن قبلوا حقيقة أن الأمسية قد انتهت فعلًا: لقد طُردوا طردًا، وأُجبروا على الذهاب في دروبهم الكثيرة. وهكذا خرجوا صامتين. ومع أن أكثريتهم لم تبدِ أيّة رغبة خاصَّة في مزيد من التسلية، فقد ظلَّ منهم زوجٌ هنا وزوجٌ هناك. وعندما ألقى عليهم فالوسكا، عند الباب، تحيّةً حارَّةً متمنّيًا لهم ليلة طيّبة، نظروا في أعقابه مثلما

فعلوا في الليلة السابقة وفي ليالٍ كثيرة لا يعرف أحدٌ عددَها، وراحوا يرقبونه وهو سائر في طريقه بهيئته الهزيلة المميِّزة له، وهو لا يزال واقعًا تحت سحر رؤاه... كان يسير منحنيًا إلى الأمام خافضًا رأسه، مطبطبًا بقدميه الصغيرتين، يسير سيرًا سريعًا يكاد ينقلب جريًا («وكأن لديه شيئًا مهمًّا يفعله»)، ذاهبًا في الشارع المهجور، فبدأوا يضحكون ويدارون ضحكاتهم بأيديهم، ثم لم يلبثوا أن انفجروا ضاحكين ضحكًا حقيقيًا صاخبًا عندما انعطف من حول خزّان المياه... ضحكوا لأنه لم يكن لديهم الكثير مما يمكن أن يضحكوا منه هذه الأيام خاصّة، عندما صار السائق وعامل المستودع وعامل طلاء البيوت والخبّاز يحسُّون جميعًا كأن «الزمن قد توقَّف». إلا فالوسكا الذي كان يوفِّر لهم، كما اعتادوا القول: «تسلية مجّانيّة» لا بتمثيليته تلك فحسب، بل بمظهره كلِّه، وبعيني الظبي الناعمتين اللامعتين دائمًا، وذلك الأنف الذي يشبه الجزرة كثيرًا، لونًا وطولًا، وحقيبة البريد التي لا تفارقه أبدًا، وذلك المعطف الفضفاض كثيرًا المعلَّق على جسده النحيل كان هذا كلّه، وبطريقة غريبة، مسلّيًا لهم كثيرًا- فقد أثبت أنه ينبوع لا ينضب للروح المرحة التي صارت نادرةً. ولم يكنِ الحشد المجتمع أمام حانة بيفيفر مخطئًا تمامًا في هذا الاستنتاج، لأن فالوسكا كان لديه حقًا «شيءٌ مهمٌّ

يفعله». حاول وجِلًا أن يوضح لهم هذا عندما راحوا يصيحون في أعقابه ويناكفونه ساخرين من استعجاله؛، حاول توضيح أن عليه «أن يجري طيلة المسافة قبل أن يحين موعد النوم». وقد كان معنى هذا أن عليه أن يجري على طول صف أعمدة مصابيح الشوارع غير المضاءة التي صاروا، خلال الأيام المعدودة الأخيرة، يطفئونها في الساعة الثامنة مساء لأنَّها لم تعدْ تؤدِّي أيّة غاية مفيدة. وهكذا كان قادرًا على تحرِّي المدينة المتجمِّدة الصامتة من مقبرة سان جوزيف حتى مقبرة الثالوث الأقدس، ومن باردوس بيتش، عبر الساحات الخالية، حتى محطَّة القطار، فينجز في مساره هذا دورة كاملة من حول المستشفى العام ومباني المحكمة (التي تضمُّ السجن أيضًا)، وبالطبع، القلعة وقصر آلماسي (قصرٌ جعلتهم عدم قابليته للترميم يعيدون تجصيص جدرانه كل عشر سنين)؛ ففي أيِّ شيء كان هذا مفيدًا؟ وما الغاية منه؟... ما كان أحد يعرف الإجابة على وجه اليقين؛ ولم يكن الغموض لينجلي فيصير أقل غموضًا عندما يجيب فالوسكا عن تساؤلات ملحَّة من واحد أو آخر من السكان المحليين، فيحمرّ كلُّه فجأة ويزعم أنه «مدفوع ويا للحسرة بحافز داخلي مستمر». لكن هذا لم يكن يعني شيئًا أكثر من أنه غير قادر، وغير راغب، على التمييز بين بيته (الذي كان المطبخ القديم

في فناء هارر الخلفي) وبيوت الآخرين جميعًا، ولا بين المكتب الذي يعمل فيه وحانة بيفيفر، ولا بين الحدائق الصغيرة ونقاط سكّة القطار في الشوارع. بكلمات أخرى، ما كان قادرًا على أن يتبيَّن أي اختلافٍ عضويٍّ حاسم بين حياته وحياة الآخرين؛ فصار يعتبر المدينة كلها بالمعنى الحرفي للكلمة من جادة ناغوفارد حتى مصنع الحليب المجفَّف، مسكنًا له. وبما أن على صاحب المسكن أن يقوم فيه بجولاتٍ يوميّة منتظمة، فقد كان فالوسكا (الذي يثق بالجميع ويتمتَّع بالحماية التي تسبغها عليه سمعة «نصف المجنون»، والذي صار معتادًا على شطط رحلات مخيلته إلى «طرقات الكون السريعة الحرّة»، التي لا تبدو المدينة أكثر من عشٍّ صغيرٍ مهلهلٍ إن هي قورنت بها) يجوب الشوارع لا يعرف التعب مثلما ظل يفعل طيلة خمس وثلاثين سنةً مضت. وبما أن حياته كلّها كانت سلسلة غير منتهية لأيامه ولياليه، فإن زعمه بأن «عليه أن يجري المسافة كلّها قبل أن يحين موعد النوم»، كان فيه شيء من التبسيط: أولًا، لأنه لا ينام إلا ساعتين قبل الفجر (ينام هاتين الساعتين مرتديًا ملابسه كلّها، بل صاحيًا من الناحية العملية، بحيث يصعب اعتبار ذلك «نومًا» بأي معنى من المعاني التقليدية)؛ وثانيًا، لأنه، وبقدر ما يتعلَّق الأمر بـ«جريه» الغريب، قد أمضى السنوات العشرين

الأخيرة مندفِعًا في المدينة خبط عشواء بحيث ما كان يمكن اعتبار غرفة السيد إيزتر ذات الستائر، ولا المكتب، ولا تقاطع الطُّرق، ولا جولاته السريعة، ولا حتى الحانة الواقعة خلف خزّان المياه، محطات حقيقية خلال «طيرانه الأبدي». وفي الوقت نفسه، كان تقافزه المستمرّ الذي لا يعرف سكونًا، تلك الحركات التي كانت كافية لجعل الآخرين غير قادرين على اعتباره واحدًا منهم، بل جعلتهم ينظرون إليه على أنه «لون محلي» - إن أردنا التعبير عن الفكرة بكلمات لطيفة بعض الشيء - لم يكن له أي أمل في التطور لكي يصير أكثر اهتمامًا بالانتباه إلى الوقت انتباهًا حقيقيًّا، بل ظلَّ أقرب إلى أن يكون نوعًا مجنونًا من أنواع التأهُّب؛ وذلك على الرغم من أن بعض الأشخاص ابتغاء التبسيط أو نتيجة عمق تطبعهم بردود الأفعال غير الحساسة يفضِّلون اعتباره شخصًا مجنونًا عندما يكون مطلوبًا منهم إبداء آرائهم في الأمر. لقد اعتاد فالوسكا الذي لم يفلح أبدًا في تحقيق رغبته في إبقاء وثْبات السماء المدوّخة مرئيَّة له من غير انقطاعٍ ألا ينظر إلى شيء غير الأرض التي من تحته؛ ولم يكن نتيجة ذلك «يرى» المدينة على الإطلاق! كان يجوب الشوارع منتعلًا حذاءه المهترئ ومعطف العمل الثقيل، معتمِرًا قبعته الرسميّة ذات الشعار، حاملًا حقيبته التي صارت كأنّها شيء عضويٌّ

نامٍ عند جنبه... يسير بمشيته المتعثِّرة المميِّزة له، وقد انحنى ظهره فيقوم بجولاته من حول المباني المتداعية في مسقط رأسه. وأما بالنسبة إلى «الرؤية» فما كان يرى إلا الأرض والإسفلت وحجارة الطريق وما بينها من أعشابٍ متفرِّقة تنبثق هنا وهناك عبر تلك الشقوق التي بين الحجارة مادّة رؤوسها من تحت القمامة المتجمِّدة التي تكاد تجعل المرور في تلك الطرق أمرًا مستحيلًا: طرقٌ مستقيمةٌ، وطرقٌ منحنيةٌ، وصعودٌ متدرِّجٌ، وهبوطٌ متدرِّجٌ. ما كان أحدٌ يعرف شقوق تلك الحجارة، وما هو مفقودٌ منها، أكثر من فالوسكا (كان قادرًا على أن يحدِّد مكان وجوده تحديدًا دقيقًا وهو مغمِضٌ عينيه، وذلك عن طريق تحسُّس الأرض بقدميه)؛ وأما بالنسبة إلى الجدران التي كانت تتزايد أعمارها مع تزايد عمره، ومثلها البوابات والأسيجة، وكذلك التفاصيل الدقيقة في أفاريز السقوف، فقد كان غافلًا عنها كلّها لسببٍ بسيطٍ هو أنه ما كان قادرًا على احتمال أدنى تضاد بين مظهرها الحالي والصورة التي تحتفظ بها مخيلته. وهكذا فقد كان من الناحية العملية غير مقرٍّ لها إلا بواقعها الجوهري أي بأنها موجودة-، بالطريقة نفسها التي كان ينظر بها إلى بلده وإلى عقود السنين التي بدت كأنها تذوب متداخلة مع مرورها وتواليها، والناس عامَّة. وحتى في أبكر ذكرياته تعود،

تقريبًا، إلى زمن دفن والده كان يبدو له أنه ظلَّ يسير في هذه الشوارع نفسها (من حيث الجوهر، مرّة أخرى، لأنه لم يكن يعرف حقًّا غير المنطقة الصغيرة المحيطة بساحة ماروثي التي انطلق لاستكشافها عندما كان طفلًا في السادسة من العمر). وإن شئنا قول الحقِّ، فإن ما من تباعد أبدًا، ولا حتى من خطٍّ فاصلٍ واضحٍ، بين الشخص الذي كانه في ذلك الوقت، والشخص الذي صاره الآن، وذلك أنه، حتّى في ذلك الماضي غير الواضح، الذي قد يكون عائدًا في الزمن إلى الوقت الذي ساروا فيه عائدين من المقبرة إلى البيت، أي عندما استطاع أوّل مرّة أن يلاحظ شيئًا وأن يستوعبه، كان ذلك الشيء هو السماء المرصَّعة بالنجوم بما فيها من أنوارٍ متلألئةٍ واتساعٍ خارقٍ للفضاء استولى على لبه استيلاءً تامًّا. لقد ازداد طوله، وصار نحيلًا، وبدأ ظهور الشيَّب في شعر صدغيه، لكنه لا يمتلك الآن ذلك الإحساس المفيد بالتناسب (مثلما لم يكن يمتلكه في ذلك الوقت)، ولا هو تمكَّن من اكتساب أي شيء من ذلك القبيل مما يمكن أن يساعده في التمييز بين تدفُّق الكون المستمر الذي هو جزء منه (على الرغم من كونه جزءًا عابرًا) وبين مرور الزمن الذي كان من شأن استيعابه وفهمه أن يفضي إلى قبول حدسيٍّ حكيمٍ بالقدر. وعلى الرغم من سعيه العقيم إلى فهم وعيش ما يريده

«أصدقاؤه الأعزاء» بعضهم من بعض، فقد كان يواجه مدّ الشؤون البشرية البطيء بانعدام فهمٍ حزينٍ، وبقلَّة اكتراث، ومن غير أي إحساس بأنه معنيٌّ به شخصيًا؛ وذلك لأن الجزء الأكبر من وعيه، أي ذلك الجزء المنصرف إلى التأمُّل والعجب انصرافًا تامًّا، لم يترك كبير فسحة لمزيد من المسائل الدنيوية؛ وهذا ما أدى إلى عيشه، منذ ذلك الوقت، في فقاعة زمنية، أو في لحظة أبدية واحدة شفافة لا يستطيع أحدٌ اختراقها (هذا ما كان يجعل أمه تشعر بالعار، ويوفِّر تسلية عظيمة لأهل المدينة). كان يسير، ويخوض في الوحل، وترفرف روحه - هذا ما وصفه صديقه الكبير مرّة، ولم يكن مخطئًا كثيرًا، بأنه «سيرٌ أعمى لا يعرف التعب... مع جمال كونه الشخصي الذي لا شفاء منه». عاش عقودًا من السنين وهو يحدِّق في السماء نفسها التي فوقه، ويعبُر المسارات نفسها، والمسارات الإسمنتية التي نمت الأعشاب من تحتها. وإن كان في حياته أيُّ شيءٍ يمكن أن يسميه تاريخًا، فهو مكوَّنٌ من تلك السنين الخمس والثلاثين التي انقضت في مدارات لا تنفك تزداد عمقًا، منذ أن غادر الجوار المباشر لساحة ماروثي إلى أن صارت جولاته تلفّ المدينة كلّها. لكن الحقيقة المفاجئة هي أنه ظلَّ، من كل ناحية أخرى، تمامًا مثلما كان في طفولته؛ فكان ما يمكن قوله عن قدَره قابلًا أيضًا، بالقدر

نفسه من الإنصاف، لأن يقال عن عقله الذي لم يشهد أي تغيُّر مهمٍّ، إذ إن إحساسه بالرهبة كان إحساسًا لا علاقة له بمرور الزمن. وعليه، فسوف يكون المرء مخطئًا إن ظنَّه (مثلما يظنّه مرتادو حانة بيفيفر، على سبيل المثال، وإن يكن ذلك من خلف ظهره) لا يلاحظ أي شيء من حوله، وأنه لا فكرة لديه عن أن الناس يعتبرونه نصف مجنونٍ، وفوق ذلك كلِّه، أنه غير مدركٍ لما يستثيره من غمزاتٍ ولكزات خبيثة يقبلها كلّها لأنه يراها نصيبه في الحياة. كان يدرك هذه الأشياء إدراكًا واضحًا كل الوضوح؛ وكلّما كان ماضيًا في دورته الأثيرية وسمع صوتًا، في الحانة أو في الشارع، في ساحة كوملو، أو عند تقاطع الطرق، يصيح به «يا يانوس، كيف هي الأحوال في الكون؟»، فإنه يدرك حسن النيّة البسيط الكامن من خلف النبرة المعابثة، فيحمرُّ وجهُه ويشيحُ بعينيه جانبًا مثلما يفعل أي شخص يضبطه الآخرون «ورأسه في السحاب»، ويردُ بصوته الواهن الحادِّ، فيغمغم بشيء ما على سبيل الإجابة. وذلك لأنه مقرٌّ، هو نفسه، بأنه شخصٌ قد استحوذت عليه رؤية لا يمكن أن يكون «الهدوء الملكي في الكون» وصفًا وافيًا لها، وبأنه لم يحظَ إلا بلمحة واحدة من شيء لا يكاد يستحقُّه، لكن من غير أي تفسير كان من شأنه أن يستمتع بتقديمه إلى الآخرين، في محاولة منه لمشاركتهم ذلك القدر الهزيل

من المعرفة «الذي يحاول مشاركتهم إياه، وإن يكنْ قليلًا»، وأن يقدِّم ما يعرفه إلى جمهور محدود لا يتجاوز السيد إيزتر الذي كثيرًا ما يصيبه الاكتئاب وأصحابه في حانة بيفيفر. وكثيرًا ما كان يحدث ما يذكّره، على نحو ملائم، بأن عليه أنِ يحرص على حالته المؤسفة وعلى انعدام نفعه الذي يُرثى له بقدر حرصه على متع الكون الخبيئة. كان يفهم الحكم غير القابل للنقض الذي أصدره عليه الناس؛ بل كان موافقًا عليه إلى حد كبير هذا ليس سرًّا فهو يقول عن نفسه إنه «معتوه حقيقي»، وإنه لن يجادل في ما هو واضح للجميع، ويقول إنه مدركٌ مقدار ما يدين به للمدينة من عرفان، لأنها لم «تحبسه حيث ينتمي» بل تسامحت مع حقيقة كونه، على الرغم من كل ما يعبِّر به عن أسفه، غير قادرٍ على إبعاد عينيه عمَا «خلقه الربُّ من أجل الأبدية كلِّها».

كم كان هذا يسحق فؤاده حقًّا؟ لم يكن فالوسكا ليقول شيئًا عن هذا! إلا أنه كان عاجزًا عجزًا أصيلًا عن تحويل نظرة تلك العينين اللتين يسخر منهما الناس عن السماء عندما يقولون إنهما «عينان لامعتان بالذكاء». إلا أن المرء ما كان عليه أن يصدِّق هذا الكلام بحرفيته، ولا كان قادرًا على تصديقه بحرفيته، لا لسبب غير أن

العمل الدقيق المتقن «للخلق الربّاني الأبدي»، على الأقل هنا في هذا الوادي الذي تحميه جبال الكاربات، كان غارقًا في ضبابٍ كثيفٍ يكاد يكون مستمرًّا... إما ضبابٌ رطبٌ، وإما غيومٌ كثيفةٌ، بحيث كان فالوسكا مضطرًا إلى الاتكال على ما يتذكَّره من الأصياف التي لا تنفك تزداد قصرًا... أصياف تصيرٍ، سنة بعد سنة، وعلى نحو لا يكاد المرء يحسُّه، فصولًا عابرة سريعة الزوال. من هنا، وجد فالوسكا نفسه مرغمًا، منذ البداية تقريبًا (وإن يكنْ ذلك مصدر بهجة له) على أن يعيش من جديد «نظرته القصيرة إلى الوجود الكلِّي الذي يزداد وضوحًا»، بحسب واحدة من عبارات السيد إيزتر المتميِّزة بالذَّكاء والإحكام، وهو «يدرس» الخريطة التفصيلية للقمامة المنتشرة على الأرصفة غير المستوية في العتمة التي تزداد سنة بعد سنة. كان الإشراق الساطع لتلك الرؤيا كفيلًا بسحقه لحظةً، وببعثه في اللحظة التي تليها. وعلى الرغم من أنه ما كان قادرًا على الحديث عن أي شيء آخر (لأنه يظنُّ أن هذا «أمرٌ يهمُ الجميع»)، فإن قلة تَمَكُّنِهِ من اللغة كانت تجعله غير قادر على أن يبدأ توضيح ذلك الذي كان يراه، ولو حتى بشكلٍ غامضٍ. عندما كان يعلن أنه لا يعرف عن الكون شيئًا، كان الناس لا يصدِّقونه، أو لا يفهمونه؛ لكن ذلك كان صحيحًا تمامًا: لم يكن فالوسكا يعرف عن الكون

شيئًا، لأن ما عرفه لم يكن معرفةً بالمعنى الدقيق للكلمة. كان لديه عدم إدراك للتناسب، وكان يفتقر افتقارًا تامًّا إلى أي دافع إلى التزام المنطق العقلي؛ وما كان به جوع إلى قياس نفسه، مرة بعد أخرى، بالآليّة الرائعة النقيّة «للعمل السماوي الصامت، الدقيق دقَّةَ الساعةِ»، لأنه كان مدرِكًا بأن اهتمامه العظيم بالكون لن يلقى اهتمامًا مقابلًا من جانب الكون. وبما أن هذا الفهم الذي لديه كان ممتدًّا ليشمل الحياة على الأرض عامّة، والمدينة التي يعيش فيها خاصّةً (ذلك لأن تجربته علَّمته أن كل تاريخ، وكلّ حادثة، وكلّ حركة، وكلّ فعل من أفعال الإرادة، ليس إلا جزءًا من دورة متكرِّرة لا آخر لها)، فإن علاقته ببقية الكائنات البشريّة كانت محكومة بتلك الفرضية غير الواعية نفسها؛ وكان غير قادرٍ على تلمُّس أيّة تحوُّلات حيث كان من الواضح أنْ ما مِنْ تحوُّلات على الإطلاق، ففعل ما تفعله قطرة المطر حين تترك غيمتها التي كانت تضمّها واستسلم بكلِّ بساطةٍ للتنفيذ المستمرِّ للمهمَّة المقدَّرة له. مر من تحت خزان المياه المرتفع، ثم دار من حول تلك الحلقة الخرسانية الضخمة المؤطَّرة بشجرات البلوط النائمة في حدائق غوندولز. لكنّه، ولأنه فعل هذا بعد الظهر، وفي الصباح، ويوم أمس، ويوم أول أمس، لأنه فعله من قبل مرّات لا حصر لها في أوقات الظهر وبعد الظهر

والمساء، فإنه لم يجد أي معنى في التمييز بين تجربة اليوم وأيّة تجربة سبقتها، عندما انعطف عائدًا وبدأ سيره في طريق هيد رود الموازي لطريق الشاحنات الرئيسي. تجاوز التقاطع مع طريق فريديلي ساندور ملوِّحًا بيده بتحيَّة ودِّيَّة تجاه مجموعة ساكنة من أشخاص قاتمين محتشدين حول البئر الارتوازية (مع أنهم لم يكونوا أكثر من بقعٍ وظلالٍ بالنسبة إليه)، ثم تابع خطَّ سيره المألوف إلى أسفل طريق هيد رود، ودار حول المحطَّة، ثم توقَّف عند كشك الصحف وشرب كأسًا حارقةً من الشاي مع موظّف سكّة الحديد الذي أفزعته رؤية «مركبة هائلة الحجم»، وراح يتذمّر من «الطقس الفظيع» وجدول حركة القطارات الفوضوي المضطّرب. لا بد من القول إن هذا ما كان أكثر من تكرارٍ شكليٍّ لما حدث في اليوم السابق، أو في اليوم الذي قبلهُ، فقد كان مطابقًا تمامًا لذلك كله، بخطواته نفسها بالضبط، وفي اتجاهه نفسه بالضبط، كأنه يمتلك تلك الوحدة التامَّة التي لا تنفصم، الوحدة الكامنة خلف كلِّ مظهرٍ من مظاهر الحركة والاتجاه... وحدة قادرة على تكثيف أيِّ حدث بشريٍّ في لحظة واحدة محدَّدة... سمع صوت صفارة التحذير آتيًا من نقطة سكَّة الحديد في فيزتو (وصول مفاجئ لأحد القطارات، خارج جدول المواعيد الرسمي، كالعادة). وعندما توقَّفت القاطرة الصدئة أمام موظّف المحطّة

الحائر (وإن يكن مرحِّبًا بها) ألقى فالوسكا نظرةً سريعةً عبر نافذة الكشك صوب هذا الوصول غير المتوقَّع، وصوب الرصيف الذي ازدحم ازدحامًا مفاجئًا، ثم شكر الموظَّفَ على الشاي واستأذنه بالذهاب، وشقَّ طريقه عبر جموع الناس وقد بدا ضائعًا إلى جانب القاطرة بلهاثها الثقيل... اجتاز الساحة التي أمام المحطَّة حتى يتابع سيره مارًّا بالقطط الشاردة في جادة «بيلا وينكهايم». لم يقتفِ أثر أيِّ مسلكٍ قديم، بل كان يطبع آثار أقدامه على الرصيف المتجمِّد اللاَّمع. أصلحَ وضعَ السير الذي يحمل حقيبته، ذلك السير الذي ظلَّ ينزلق عن كتفه، ودار مرتين حول المحكمة والسجن الملحق بها، ثم قام ببضع جولات صوب القلعة وقصر آلماسي، وجرى على امتداد ضفَّتَي قناة كوروس تحت أشجار الصفصاف الباكي العارية، حتى وصل إلى جسر الحيِّ الألماني حيث انعطف متَّجهًا إلى المقبرة الوالاشية(3). كان يتجاهل تمامًا وجود الحشود الساكنة الصامتة التي بدت كأنها قد احتلت المدينة كلها. حشودٌ مؤلفةٌ ـ تحديدًا ـ من أشخاص سوف يكون قدره مرتبطًا بهم ارتباطًا وثيقًا خلال المستقبل المنظور (لكنه ما كان قادرًا على معرفة هذا). كان يتحرَّك عبر ذلك المشهد الكئيب من غير أن يثور في نفسه أي اضطراب... يتحرَّك بين الجموع وبين السيّارات والباصات المهجورة، يتحرّك

مثلما ظلَّ يفعل طيلة حياته، كأنه كوكب صغير غير راغب في طرح أية أسئلة عن حقل الجاذبية الذي يتحرَك فيه، فقد كان غارقًا كله في معرفته البهيجة بأنه قد يلعب دوره مهما يكن دورًا متواضعًا- في مخطَّطٍ له هذا القدر المشهود من الهدوء والدِّقَّة. اصطدم بشجرة حور ساقطة في هيتفيزر باساج، لكنَّ قمة الشجرة العارية المستندة إلى المزراب لم تثر اهتمامه بقدر ما أثارته السماء التي بدأ الفجر يظهر فيها بطيئًا، ثم تكرّر الأمر نفسه في فندق كوملو حيث عرّج عليه لكي يدفئ نفسه عند المقصورة الزجاجية الخاصَّة بالبواب الليلي. أخبره البواب، الذي لا يزال محمرًّا بعد الجهد الذي بذله في وقت سابق من ذلك المساء، عن عربة السيرك الضخمة التي شاهدها («... يوم أمس، لا بدَّ أن ذلك كان يوم أمس، في الساعة الثامنة أو التاسعة...»)، التي كانت تسير في الشارع... «لم تر شيئًا مثلها، يا يانوس! إنها تضع كَوْنَكَ الواسع كلّه في قبّعة عتيقة، يا صاحبي!...». لأن الفجر المقترب هو ما سحره ذلك «الوعد الذي يتحقَّق كلَّ صباح» بأن الأرض، ومعها مدينته وشخصه، سوف تخرج من ظلال الليل، وأن ذلك الألق الناعم للفجر المقترب لن يلبث أن ينقلب إلى ضوء النهار الساطع... إنَّ في وسع البوّاب أن يقول ما شاء قوله، وفي وسعه أن يصف الجموع التي كان من

الواضح أنها مسحورة بما «يقول الجميع إنه عرض خارق»، وله أن يقترح عليه في وقت لاحق، عندما وقفا أمام مدخل الفندق، أن ينطلقا معًا لكي يتثبَّتا من الأمر بنفسَيهما («عليك أن ترى هذا، يا صاحبي»)؛ لكن فالوسكا قال إن عليه أن يذهب إلى المستودعٍ أولًا حتى يستلم الصحف. ما كان لفالوسكا أن يلقي بالًا إلى ما قاله البواب لأنه، على الرغم من كونه بطريقته الخاصّة يحسُّ فضولًا في ما يتعلَّق بالحوت، كان راغبًا في أن يظل وحده تحت السماء التي يزداد ضوؤها لكي ينظر بقدر ما يستطيع النظر لأن غيومًا كثيفة قد حجبت السماء، في «بئر السماء مع مواصلة ذلك الضوء الذي لا نفاذ له تقدِّمه إلى أن يحلَّ الليل من جديد». لكنَّ مضيَّه في طريقه كان شاقًّا لأن المسافة بين نقاط سكَّة القطار والمحطّة كانت ممتلئة أمواجًا
من الناس المندفعين إلى الأمام. ولاعتياده السَّير بخطوات سريعة، وجد نفسه في حاجة دائمة إلى استخدام المكابح حتى يتفادى الاصطدام بالناس على ذلك الرصيف الضيِّق؛ إلا أنه كان قليل الانتباه إلى ذلك العناء، لأن هناك شيئًا موشكًا على الاندفاع في هذا الفيض المتجهِّم من البشر في حالةٍ من الوعي الكوني جعلت الأمر كلَّه يبدو نشاطًا طبيعيًّا تمامًا. فلم يكد فالوسكا يلاحظ الكثرة المفاجئة للناس لأنه ترك نفسه

تغرق، أعمق فأعمق، في ما كان في نظره لحظات من التجلّي. فالنسبة إلى واحدٍ قليلِ الأهميّة من سكان كوكب الأرض، الكوكب الذي كان الآن مديرًا وجهه صوب الشمس، كان السحرُ شديدًا إلى حدٍّ جعله، عندما بلغ آخر الجادة من ناحية السوق مرة أخرى (وقد ملأت حقيبته نحو خمسين نسخة من صحيفة قديمة لأن نسخ الصحيفة الجديدة هذا ما اكتشفه في المستودع قد ضاعت مرة أخرى)، راغبًا في الصُّراخ بصوتٍ مرتفعٍ قائلًا إن على الناس أن ينسوا الحوت، وأن ينظر كلُ واحدٍ منهم إلى السماء. لكن المؤسف أن جمع الناس المتجمدين بردًا، نافدي الصبر، الذي يكاد الآن يحتل ساحة كوسوث كلّها، لم يكن ينظر إلى اتِّساع السماء المتلألئ في الأعلى، فلم ير فالوسكا أمامه إلا جمهرة كالحة قصديرية اللون.

وبالنظر إلى شدَّة التوتُّر يجوز للمرء القول إنه كان توتُّرًا غير معتادٍ ظهورُه من أجل أمر متعلّق بعرضٍ من عروض السيرك، بل كان كأنه توتُّرٌ «ملموس». إنه توتُّر الانتظار الذي جعل من الواضح أن ما من شيء يمكن أن يجتذب انتباه أولئك الناس بعيدًا عن غاية حجيجهم هذا. لكن ما كان أكثر من أيِّ شيءٍ آخر استغلاقًا على الفهم هو ما أراده أولئك الناس هنا، وما جذبهم جذبًا شديدًا إلى شيء ليس أكثر، بعد كل حسابٍ، من الحصول على بطاقة لحضور عرض السيرك؛

وذلك أن السؤال عن مقدار ثقتهم في أن تلك التكهُّنات المشؤومة عن «حمولة تلك الشاحنة البالغ طولها خمسين مترًا» سواء كانت تكهُّنات صحيحة أم غير صحيحة، لا يجد أساسًا للإجابة عنه في تلك الإشاعات السخيفة عن «حشد الغوغاء المسحور»، الذي يفترض أنه قد كبر الآن حتى صار كأنَّه جيش صغير يتبع الحوت من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة... سؤال ما كان الأفراد المحليون الذين ذهبوا إلى ساحة كوسوف (يجوز اعتبار البوَّاب الليلي واحدًا من أولئك الشجعان)، قادرين على العثور على إجابة سهلة عنه، فقد كان الجمهور المرهق الذي يبدو عليه الفقر، وتلك العلبة الضخمة المخيفة المطلية بلون أزرق ناطقين بحقيقتهما. كانا ناطقَين بحقيقتهما من غير أن يفصحا عن أيّ شيءٍ مهمٍّ؛ ففي حين كانت الظاهرة في حدِّ ذاتِها كافية لإثبات أن أولئك «الناس ذوي العقول الصاحية والحسِّ السليم» ممن كانوا، بالأمس فقط، يعلنون أن ما من غموضٍ في «الأمر كلِّه»، وأن الحكاية ليست أكثر من الخدعة الذكيَّة نفسها التي يستخدمها كلُّ سيركٍ مرتحلٍ حتى يستلفت أنظار الناس، قد تبيَّن أنهم مخطئون وأن الإشاعات التي كان واضحًا أنها من غير أساسٍ كانت صحيحة. كان المواطنون المحلِّيُّون القلائل الذين كانوا يتجوَّلون في الساحة حائرين (وهذا أمر

مفهوم تمامًا)، في تفسير التدفُّق المستمر لأشخاصٍ جددٍ، وفي تفسير السِّحر الذي يبثه الحوت العملاق الذي تحدَّث عنه الإعلان. وبحسب ما قاله أهل المدينة، فإن هذا الجيش الغامض كان آتيًا من النواحي المحيطة بالمدينة. صحيح أن الأصل المحلِّي للحشد الذي صار يربو الآن على ثلاثمئة شخص لم يكن موضع تساؤل (فمن أين يمكن أن يأتي هؤلاء إن لم يكن من القرى والمزارع القريبة، ومن تلك الضواحي الخارجيَّة البائسة من أمثال فيزتو وساركاد وزينتبيندكت وكوتيغيان؟)، لكنَّ أحدًا لم يكن قادرًا على أن يصدِّق حقًّا أن ثلاثين سنةً بعد «ازدهار الأمة»، وما رافق ذلك من خطط تبدو كبيرة، قد تركت خلفها هذا الركامَ الضخمَ من الناس المخيفين، ذوي المظهر الشرير، الذين لا يصلحون لشيء، وأنها تركتهم متعطشين تعطُّشًا خطيرًا إلى أكثر أنواع العجائب فظاظةً وسوقيةً. فإذا غضضنا النظر عن عشرين أو ثلاثين شخصًا ممن كانوا يبدون، لسبب أو لآخر، غير منسجمين مع بقية الموجودين في السَّاحة (اتَّضح في ما بعد أن أولئك الأشخاص كانوا أكثر تصميمًا من غيرهم)، فإن ما يناهز ثلاثمئة شخص كانوا من ذلك النوع على نحوٍ واضحٍ تمامًا؛ ثم إن منظر ثلاثمئة سترةِ فراء وسترةٍ مبطَّنةٍ ومعطفٍ صوفيٍّ خشنٍ، ومثلها من القبَّعات الريفيَّة الملوَّثة بالشحوم إن لم

نقل شيئًا عن ثلاثمئة زوج من الأحذية ذات الأعقاب المدعَّمة بالحديد- كان موحيًا بتقاربٍ شديدٍ بينهم، وكان كافيًا لأن يثير فضولًا فعليًّا كذلك الفضول الذي أثاره لدى بوَّاب الفندق الليلي الذي راقب الحشد من مسافةٍ كافيةٍ فتحوَّل فضوله إلى ترقُّبٍ قلقٍ. لكن، كان هناك شيءٌ آخرُ: الصَّمت... الصّمت المخنوق، المشؤوم، غير المنقطع... الصّمت الذي لم يكن يُسمع فيه أيُّ صوتٍ! مئات الناس ينتظرون، ويزداد صبرهم نفادًا، لكنَّهم يظلُّون صابرين صبرًا عنيدًا، ويظلُّون صامتين صمتًا تامًّا، مستعدين للحركة فور تراجع ذلك الترقُّب الحادِّ المرتبط بحوادث من هذا النوع، وإفساحه الطريق أمام الزئير الطاغي «للعرض». كان كلُّ فردٍ معزولًا عن الآخرين كأنّه ما من علاقةٍ له بهم، أو كأنَّ سببَ وجود الآخرين في ذلك المكان لم يكن مما يثير اهتمامه، أو، على العكس من ذلك، كما لو كانوا كلّهم جزءًا من فريق من السجناء المقيَّدين الذين تحُولُ السلاسل التي تربطهم دون أيِّ احتمال للفرار، فيصير أيُّ تواصُلٍ أو حديث بينهم أمرًا من غير معنى. إلا أنَّ الصّمت الكابوسي لم يكن إلا واحدًا من أسباب هذه الحالة من «القلق القاتل»؛ فما من شكٍّ في أنَّ هناك سببًا آخر يرقد مختبئًا في تلك الشاحنة الهائلة التي تحيط بها جموع الناس؛ وهذا ما كان البواب وأمثاله من المراقبين

الفضوليين قادرين على استنتاجه على الفور، وذلك لأن تلك العلبة الضخمة ذات المسامير كانت من غير مقبضِ بابٍ، ومن غير فتحة من أي نوع، ولم يظهر شيءٌ فيها يمكن أن يكون منفذًا أو بابًا مما جعل الأمر يبدو (مهما يكنْ استيعاب ذلك مستحيلًا)، وكأن جسمًا غريبًا كان موجودًا هناك، أمام عيون مئات الناظرين، لكنَّه من غير أيَّة فتحة في مقدِّمته أو مؤخِّرته أو جانبيه، وكأنَّ الحشدَ الذي يواجهُه كان يحاول فتحه عنوةً بذلك العناد المكابر البليد، ولا شيء غيره. ثم إن حقيقة أن ذلك التوتّر والقلق في صفوف الحشد المنتظر لم يكن مما يمكن تخفيفه بأيَّة وسيلةٍ لم تكن حقيقةً ضعيفة الصلة بالشعور العام بأن العلاقة بين الحوت والجمهور كانت، على الأرجح، علاقةً في اتجاهٍ واحدٍ. في ذلك الوضع، كان واضحًا أن ما أتى بهم إلى هذا المكان غير مقتصرٍ على ترقُّب حضور مشهدٍ غير معتادٍ، بل هو إحساسهم (وهذا أكثر احتمالًا) بأنهم شهودُ على مباراة عنيدة ذات دوافع عجيبة، مباراة مستمرَّة منذ زمنٍ بعيدٍ، مباراة سمعوا أن أكثر عناصر إثارة للخوف كان ذلك الازدراء المتعالي الذي تُكنّه الشركة المؤلَّفة من رجلين (صاحب الشركة الذي كان رجلًا عليلًا زائد الوزن يدعو نفسه «المدير»؛ ورجل آخر هو، بحسب الإشاعات المتداولة، شخص شديد الضخامة، كان ملاكمًا في ما مضى، لكن أحواله

تدهورت بعد ذلك فصار مساعدًا عامًا في السيرك)، ذلك الازدراء الذي تعامل به جمهورها الذي لا يمكن اتهامه مهما اشتطت المخيلة بأنه متقلِّب المزاج أو غير مبالٍ.
وعلى الرغم من اتِّضاح مرور ساعات طويلةٍ من الانتظار، فإن شيئًا لم يكن يحدث في تلك الساحة. وبما أن أيَّة إشارة موحية بأن العرض موشكٌ على البدء لم تظهر، فقد بدأ كثير من سكان المدينة المحليين، من بينهم بوَّاب الفندق، يشكُّون في أن هناك سببًا ممكنًا واحدًا لهذا التأخير المقصود: المسرّة الوضيعة التي يستمدُّها القائمان على الحوت من إدراكهم أنهم قادرون على الاطمئنان إلى صبر الحشد الذي كان يتجمّد، عمليًا، في ذلك البرد الجافِّ، بينما يستمتعان بوقتٍ طيِّبٍ في مكان آخر. وبما أن اضطرار المرء إلى متابعة تسلسل الأفكار هذا حتى يعثر على تفسير منطقي، فإنه لم يكن صعبًا الاستمرار على المسار ذاته وإقناع المرء نفسه بأن المركبة المضعضعة التي تخصُّ «هذه الثّلة من النصابين» لا تحتوي على شيء أبدًا؛ وإن احتوت شيئًا، فهو جثّة حوتٍ فائحة الرائحة عمدوا إلى تمويه عجزها عن إثارة أي اهتمام من خلال عمل دعائي زائف وإن يكن فعَّالًا يروِّج لشيء يدعونه «سرًّا»!...
بهذه الطريقة، وبطرق كثيرة مختلفة أخرى، يواصلون الآن عملهم هذا في مكانٍ خفيٍّ لا يثير الشكوك في هذه

السَّاحة. وأما فالوسكا الذي لم يلاحظ شيئًا من القلق المحيط به، فالوسكا الذي لا يزال حالم العينين بعد مراقبته شروق الشمس، فقد شقَّ طريقه مسرِعًا حتى مقدِّمة الحشد فوصل إلى المركبة ملقيًا اعتذاراته بروح مبتهجة أثناء سيره. لم يكن ليقلقه أي شيء، وما كانت لديه أدنى فكرة عن أن هناك شيئًا غير طبيعي. الواقع أنه بلغ المقدِّمة ورأى المركبة الكبيرة الجاثمة على ثماني عجلات مزدوجة فحدَّق فيها كأنها شيء خارج من قصَّة من قصص الخيال، أو كأنها شيء ذو حجم كفيل بأن يلغي تمامًا أيَّ فكرة عن احتمال اختفائها. وبعينين مدوَّرتين متَّسعتين، مسحت نظرته الجانب القريب من المركبة، من أوله إلى آخره، وهو يهزّ رأسه عجبًا؛ ثم راح يفكِّر في ما قد يكون في هذه العلبة عند فتحها، مثلما يفعل طفل قُدمت إليه هدية مغلَّفة بورقٍ لامعٍ أو علبة من الفاكهة اللذيذة. كانت الكتابة الغريبة على جانب الشاحنة هي ما سحره أكثر من أي شيء آخر. لم يرَ من قبل حروفًا وعلامات مثل هذه! حاول قراءتها من الأعلى إلى الأسفل، ثم من الأسفل إلى الأعلى، ثم من اليمين إلى اليسار. لكنه فشل في فهم معناها. فما كان منه إلا أن ربَّت على كتف أقرب شخص إليه وسأله: «هل تعرف ما تقوله هذه الكتابة؟». لكنَّ الشخص الذي وجَّه إليه السؤال عجز عن الإجابة.

فكرَّر السؤال بصوتٍ أعلى قليلًا، لكنَّه جُوبه بزمجرةٍ خفيضةٍ عميقةٍ تنصحه بأن يطبق فمه. رأى فالوسكا أن من الأفضل له، هو أيضًا، أن يظلَّ ساكنًا تمامًا وأن يبقى مسمَّرًا في مكانه مثل الآخرين. لكنه لم يستطع المحافظة على ذلك فترة طويلة. رفرفت عيناه مرتين ثم عدَّل سير حقيبته، ثم تنحنح، ثم التفت إلى الشخص العابس إلى جانبه قائلًا له بطريقة ودِّيَّةٍ إنه لم يرَ شيئًا كهذا في حياته كلِّها، وإن هناك عروض سيرك متنقِّلة تأتي من حين لآخر، لكنها لا تشبه هذا ولا تكاد تبلغ نصف ما بلغه من إثارة للعجب... إلا أنه قد وصل منذ لحظاتٍ فقط، ولم يستطع أن يتخيَّل ما يمكن أن يكون هذا المخلوق الهائل محشوًا به، لكن من المرجَّح أن يكون محشوًّا بنشارة الخشب. سأل ذلك الشخص أيضًا إن كان يعرف ثمن بطاقة الدخول لأنه لا يحمل إلا خمسين فورنتًا، أو نحو ذلك، وسوف يكون شديد الأسف إن رفضوا إدخاله نتيجة افتقاره إلى قروشٍ معدودةٍ. إلا أن الشخصَ الواقعَ إلى جانبه لم تظهر عليه أيّة علامة تشير إلى أنه سمع شيئًا من هذه التمتمة المُزعجة، فقد واصل تحديقه في مؤخِّرة الشاحنة. كان يحدِّق فيها تحديقًا شديدًا بدا معه غافلًا عن كل ما يحيط به، فلم يلبث فالوسكا نفسه أن وجد نفسه مضطرًا إلى استنتاج أن سؤاله، مهما يكنْ ذلك السؤال، لا فرصة له في

الحصول على أيّة إجابة من ذلك الرجل. في البداية، لم يدرك فالوسكا إلا أن توتُّرًا مفاجئًا قد سرى بين الناس؛ ثم تتبَّعت عيناه اتجاه نظراتهم، فرأى أن لوح الصفيح المموَّج الذي في مؤخِّرة الشاحنة قد بدأ ينخفض، ورأى يدين ممتلئتين (لعلهما اليدان ذاتهما اللتان أغلقتاه من الداخل) تدفعان به إلى الأسفل، ثم تتركانه في منتصف طريق نزوله، فانبعثت قرقعةٌ شديدةٌ عندما اصطدم الباب بالرصيف وأصاب حافَّته.

كان فالوسكا قد دُفع به إلى المقدِّمة مع اندفاع الناس في اتجاه الباب الذي فُتح؛ ولم يدهشه أبدًا اكتشاف أن «مسكن الحوت» لا يمكن أن يُفتح إلا من الداخل؛ وذلك لأن من شأن المرء على نحو طبيعي تمامًا توقُّع أن تبتكر شركة خارجة عن المألوف إلى هذا الحدِّ (بالتأكيد، بدا الأمر كلّه غير مألوفٍ) حلًا عجيبًا لمشكلة من هذا النوع. هكذا جرى منطق تفكيره. فضلًا عن ذلك، بل في ما يعلو ذلك ويتجاوزه، كان انتباهه مشدودًا إلى جبلٍ كبيرٍ من اللحم يربو ارتفاعه على ست أقدام. كان ذلك الجبلُ واقفًا في «مدخل السيرك» الذي صار موضعه واضحًا الآن؛ وكان دور ذلك الشخص واضحًا لا من حقيقة أنه، على الرغم من البرد الشّديد، لم يكن يرتدي غير صدارٍ قذرٍ فوق جذعه ذي العضلات النافرة

والشعر الكثيف (من الطبيعي أن يكون «خادم الحوت» غير محبٍّ للدفء)، ولكن أيضًا من أنفه المكسور ذي الشَّكل الغريب الذي لم يبدُ عنيفًا بقدر ما بدا غبيًا، إذ أضفى عليه مسحةً من براءة مفاجئة. رفع الرجل ذراعيه عاليًا في الهواء وأطلق قُباعًا مرتفع الصوت كمن استيقظ الآن من نوم طويلٍ، ثم قفز بخفَّة بين الناس المتجمِّعين عند الفتحة وأزاح الصفيحة المعدنية جانبًا وأسندها إلى الشاحنة. وبعد ذلك، أنزل ثلاثة ألواح خشبية عريضة شكّل منها مرقاة للصعود، ثم أخلى الطريق للناس وحمل علبةً معدنيةً مسطّحةً وبدأ يبيع البطاقات وقد علا وجهه تعبيرٌ كان مزيجًا من التّعب والضجر، بحيث بدا غير مهتم أبدًا لا بصفِّ «الزبائن» المتمايل فوق الألواح الخشبيةً المهتزة، ولا بجوِّ الترقُّب المتوتِّر الذي كاد يبلغ حدًّا غير محتمل: جنّة أو جحيم، فما الفرق؟... هذا ما اعتاد الناس في تلك الأنحاء قوله. كان فالوسكا واقفًا في الصف يرتجف إثارة؛ وكان واضحًا أنه مستمتعٌ بكل شيء: الجمهور، والشاحنة، والصندوق المعدني، وبائع البطاقات. ألقى نظرة ممتنةً على الرَّجل الضَّخم اللامبالي الواقف أمامه، ثم شكره عندما أخذ بطاقته وقد شعر بارتياح غامر لأن محفظته كانت قادرة على تغطية التكلفة. حاول مرَّةً أخرى أن يبدأ حديثًا مع جيرانه المتغيِّرين دائمًا. وعندما جاء دوره

آخر الأمر، شقَّ طريقه بخطواتٍ حذرةٍ صاعدًا الألواح الخشبية التي تصدر طقطقة وصريرًا، ثم دخل الفراغ الضخم نصف المُضاء الذي كان «بيت الحوت». على منَصَّةٍ منخفضةٍ مصنوعةٍ من عوارضَ خشبية، كان راقدًا الجسم المخيف للـ«بلافال» المثير، تمامًا مثلما زعمت اللافتة الدعائية المعلَّقة على جدار الشاحنة؛ إلا أن أيَّة محاولة لقراءة بقية الكلمات الصغيرة المكتوبة بالطباشير، محاولةٌ من شأنها أن تلقي ضوءًا على المعنى الدقيق لكلمة «بلافال»، ما كان لها إلا أن تبوء بالفشل لأن كل من يريد التمهُّل أمام تلك اللافتة كان مصيره أن يُدفع إلى الأمام بفعل الضغط البطيء لجمع الناس المتقدِّمين من خلفه. ما كان المخلوق الضَّخم الراقد أمامه في حاجة إلى إشارة ولا إلى تفسيرٍ عقليٍّ! تمتم فالوسكا بالاسم الغامض... «بلافال»... تمتمةً خفيضة وهو يحاول استيعاب المشهد البعيد كل البعد عن أن يكون شيئًا عاديًّا. كان ينظر إليه فاغر الفم، محدِّقًا بمزيجٍ من العجب والخوف. لم تكن رؤيته الحوت تعني أنه قادر على استيعاب المعنى الكامل لما يراه، لأن فهم زعنفة الذيل الهائلة تلك، وفهم الدرع المجفَّفة المتشقِّقة ذات اللون الرمادي الفولاذي الممتد حتى منتصف ذلك الهيكل المنتفخ انتفاخًا غريبًا، وفهم الزعنفة العلوية التي كان طولها وحدها يبلغ عدة أمتار، بدا مهمَّةً مستحيلةً لا

أمل يرتجى منها. كان الحوت شديد الكبر، شديد الطول: ببساطةٍ، لم يستطع فالوسكا رؤيته كلّه دفعة واحدة، بل فشل حتى في أن ينظر إلى عينيه الميتتين كما ينبغي له النظر! أفلح في إقحام نفسه ضمن سلسلة الناس المتقدِّمة بحركةٍ متواصلةٍ فبلغ آخر الأمر فكَّي الحيوان اللذين كانا مفتوحين على اتساعهما بطريقة غير طبيعية. لكنّه، سواء حدّق في أعماق حلق الحوت المظلمة، أو انتزع عينيه من تلك الأعماق لينظر إلى الرأس من الخارج، حتى يكتشف العينين الصغيرتين الغائرتين عميقًا في محجريهما على جانبي الجسد ويلاحظ الفتحتين الموجودتين في أسفل الحاجبين اللذين من فوقهما، فقد ظلَّ مدركًا أنه يرى هذه الأشياء معزولة: من المستحيل النَّظر إلى ذلك الرأس الضخم دفعةً واحدةً بحيث يراه المرء كلًّا متكامِلًا. ثم إن الرؤية الحسنة كانت صعبةً على أيّة حال، لأن المصابيح المعلَّقة في الأعلى لم تكن مضاءة. كان مستحيلًا أن يتوقَّف المرء حتى يستمتع متمهِّلًا بذلك الهول، وحتى يتأمَّل الفم المخيف أو اللسان الضخم الراقد في داخله من غير حركة، وذلك على الرغم من أن ما أدهشه أكثر من غيره لم يكن فم الحوت، ولا حجم ذلك المخلوق الهائل الذي لا يمكن استيعابه، بل معرفته التامّة الأكيدة، التي أكدها الإعلان، بأن هذا الحوت قد رأى عجائب العالم البعيد كثيرًا،

الغريب كثيرًا، ثم صار ساكن البحار العظيمة اللطيف هذا، وإن يكن مخيفًا، موجودًا هنا، وصار المرء قادرًا حتى على لمسه بيده. على الرغم من هذا كله، وعلى الرغم من وقوف فالوسكا رابط الجأش على نحو مفاجئ في غمرة نشوته السعيدة، فإن الآخرين (الذين واصلوا تدفُّقهم المتذمِّر من حول الحوت في تلك الظلمة الفائحة برائحة كريهة) لم يظهروا أيّة علامات على تأثر يماثل تأثّره، بل كانوا يعطون انطباعًا واضحًا بأن الحوت موضوع الإعلانات، الذي صار الآن مرئيًا لهم، كان ذا أهمِّية محدودة في نظرهم. وبالفعل... كانوا يلقون بضع نظرات ناعسة في اتجاه ذلك العملاق المتحجِّر الممدَّد في الوسط، نظرات لم تكن خالية تمامًا من عنصر الاحترام اللائق، لكنَّ عيونهم ظلَّت قلقةً، متحرِّكة، وظلَّت أنظارهم تتقلَّب هنا وهناك مذعورةً، راغبةً، تجوب امتداد العربة كلّه كأن هناك شيئًا آخر ينبغي العثور عليه: وجود افتراضيٌّ كان من شأن إمكانه وحده أن يتجاوز توقُّعاتهم كلّها. ليس معنى هذا أنه كان هناك شيءٌ في تلك

البيئة غير المرحّبة، التي كان الضوء الذي يدخلها يجعلها أقل ترحيبًا بزوارها... ما كان هنالك أيُّ شيء يعزِّز تلك التوقُّعات. فبعد الباب مباشرة، إلى أحد جانبي صف الناس، انتصبت بضع خزائن معدنية صغيرة،

كانت واحدة منها مفتوحةً، فظهرت فيها ثماني أو عشر أوعية زجاجية من الفورمالين تحتوي على أجِنّةٍ صغيرةٍ متغضِّنة، حزينة المظهر، لم يلقِ إليها أحدٌ بالًا، ولا حتى فالوسكا نفسه. كانت الناحية الأخرى من العربة محجوبةً بستارةٍ، إلا أن شقًّا كبيرًا بعض الشيء كان فيها؛ وكان المرء يستطيع أن يرى من خلاله أن ما من شيء مثير للاهتمام خلفها، اللهم إلا مغسلة وإبريق ماء. أخيرًا، قبالة التجويف المفتوح لفم المخلوق، قبالته تمامًا، كان هناك بابٌ في الحاجز المصنوع من ألواح الحديد المموَّج الذي يعزل القسم الخلفي من المقصورة (كان بدوره بابًا من غير مقبض، بابًا يمكن أن يكون مؤدِّيًا إلى غرفة نوم من أجل العاملين؛ وعلى الرغم من أن الحشد أظهر عند هذه النقطة أقصى قدر من علامات الإثارة، فإن فالوسكا لم يكن قادرًا على فهم سبب ذلك السلوك العجيب (إن كان قد لاحظ تلك العلامات أصلًا). وعلى أيّة حال، كان ذلك ضربًا من التخمين، فقد سحره الحوت تمامًا، ولم يعد يرى شيئًا غير الحوت؛ فبعد أن استعرض الجهة البعيدة من ذلك الجسم الخرافيِ، وجد نفسه من جديد وقد صار في الهواء الطلق، نازلًا من على المنصة المرتفعة بسلام (سلام نسبي)، بل إنه فشل في ملاحظة أن من سبقوه في الصف، أي أولئك الذين مرُّوا بالتجربة مثله، قد عادوا إلى المكان الذي بدأوا

منه، وكأن ساعات الانتظار الطويلة لم تحقِّق الغاية المرجوَّة منها (على الرغم من رؤيتهم الحوت). لكن هذا التأثير لم يشمله ربما لأنه، هو نفسه، كان قد قرّر العودة في المساء لكي يتوصّل، قبل غيره إلى حلٍّ لغز تلك الظاهرة المحيِّرة، ظاهرة الصِّلة الغريبة بين الحوت ومريديه الصابرين صبرًا استثنائيًا وهكذا، لما مرّ ببواب الفندق الذي حياه بتلويحة مرحة من يده، راح ينظر إلى المشهد كأنه شيءٌ يتجاوز نفسه كثيرًا، ويتجاوز كونه عرضًا من عروض السيرك؛ وعندما خاطبه البواب بهمسه الأجشِّ فسأله: «اسمع، أخبرني عما هو موجود هناك... يتحدَّث الناسُ عن أرستقراطية من نوع ما». فما كان منه إلا أن وضع ذلك السؤال ضمن سياق أفكاره، فأجابه بحماسة: «لا، يا سيد آرغويلان، لا يا سيدي! إنه شيء أكبر من ذلك كثيرًا، أؤكِّد لك هذا! شيء ملكيّ، ملكيٌّ بالتأكيد!». سار متوهِّج الوجنتين تاركًا خلفه ذلك السيد الحائر يعالج دهشته بنفسه. شدَّ حقيبته إلى صدره، وشقَّ طريقه بين الجموع؛ ولما كان قد أحسَّ الآن بأن الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة، وبأن «كيس ملابس الغسيل» ينتظره عند السيدة إيزتر، فقد قرَّر أن يعود إلى البيت حتى ينتهي من ذلك، فلديه الوقت الكافي لتوزيع الصحف في وقت لاحقٍ بعد الظهر. وهكذا انطلق إلى شارع هيد من غيرٍ أن يدور

في خلده أبدًا أن من الأفضل له أن يندفع خارج المدينة باحثًا عن مكانٍ آمن يلجأ إليه، فسار بخطواتٍ واسعةٍ، لكنَّه ظلَّ يتوقَّفً من حين لآخر حتى يرفع رأسه، مضيِّقًا عينيه وينظر إلى السماء نظرة تآمرية؛ سرعان ما اجتاز المسافة القصيرة فبلغ البيت ورأى أمامه من جديد، ومن جديد أيضًا، الجسم الميت البريء، رآه أكبر من الخيال، غير واضح لكنّه ماثل في أبديته، ذلك الجسم الذي شغل عقله كلّه فتركه يفكر ويقول في نفسه: «كم هو كبير!... يا للمخلوق الاستثنائي العجيب!... كم هو شخص غامض ذلك الخالق الذي يسلِّي نفسه بهذه المخلوقات العجيبة!». ومع تقدُّمه في هذه الوجهة من التفكير، لم يمر وقتٌ طويلٌ قبل أن يتمكَّن من استعادة التأملات السامية التي كانت لديه في الصباح الباكر، فبدأ يربطها بالتجارب التي عاشها في ساحة السوق. ثم توصَّل من غير أي كلام (كان مصغيًا فقط إلى الحوار الهامس المتواصل في أعماق روحه) إلى تصوُّر عن كيفية نجاح إشارات الخالق ذي القدرة الكلية ـ إشاراتٍ لطيفة لكنها قاطعة ـ في مجرى القضاء في إقامة الصلة بين قدرته الكلية وآلاف الملايين من مخلوقاته التي لا علم لها بشيء، وصولًا إلى مشهد ذلك الحوت المخيف الذي كان مشهدًا ممتعًا أيضًا. سار يخفض رأسه حينًا ويرفعه حينًا حتى ينظر إلى السماء بطريقته المميزة فلعله يغرق كله،

مرة أخرى، في الفرحة الصامتة المتولدة من إدراك أن كل ما هو موجود متصل، بطريقةٍ أخويةٍ، بحيث يكون جزءًا من فكرةٍ واحدةٍ وحيدةٍ، متَّصلٍ بكل شيءٍ آخر. أسرع في سيره مارًّا ببيوت شارع هيد رود التي تبدو خالية من الناس. أسرع في سيره مندفعًا عبر الصمت الكئيب في ساحة فيلموس آبور، ثم انحدر في شارع دورر وقد استقرَّ البرد في عظامه أو لعله... على نحو ما، قسم نفسه إلى جزأين اثنين، كان واحد منهما يغذُّ الخُطى في الأسفل، على الأرض، بينما طار الجزء الآخر بعيدًا، محلِّقًا، فارتفع وارتفع كأنَّه مدرك أن هبوطًا مؤلمًا أو سكونًا مفاجئًا قاتلًا سيكون في انتظاره؛ عبَر بوابة بيت هارر وجرى في الممرِّ المؤدِّي إلى غرفة الغسيل القديمة ليفتح بابها، فاستبدت به الدهشة عندما وجد فيها شخصًا رفع رأسه ونظر إليه نظرة يمكن افتراض أنها مستاءة من «تعابير وجهه المتألقة»، ثم هاجمه من غير مقدِّمات، وراح يسأله: «قل لي، لماذا تتجوَّل بهذا الوجه الغبيّ؟ أليس من الأفضل أن تقفل باب بيتك؟ هذه دعوة مفتوحة لأن يدخله لص!». لما كان مسلكها المعتاد أن تترك الحقيبة عند هارر، أو أن تعطيها له من غير أن تتجاوز عتبة الباب، لا أن (بالتأكيد، لا أن) تدخل وتمضي معه جزءًا من يومها، فقد جعلته رؤيته المفاجئة للسيدة إيزتر، «شريكته

المخيفة المتواطئة معه»، هنا وسط حوائجه المبعثرة في هذا الوقت خاصَّةً، وبوجهها المتوهِّج احمرارًا كالشوَنْدر، المنتفخ غضبًا نتيجة انتظارها... أو، هذا ما ظهر له... نتيجة انتظارها إياه منذ الصباح كان أكثر مما يستطيع فالوسكا احتماله، فاستبد به ارتباك شديد، جعله ينسى أين هو وما كان يفعله. أفقده صوابه كلٌّ من هذا التشريف الذي ما كان يريده، ونزوله السريع من علياء سمائه، فجعله حرجه يحمرُّ من أذنه حتى أذنه الأخرى. كانت السيدة إيزتر قد اضطرت إلى دعوة نفسها إلى الجلوس على سريره نظرًا لعدم وجود كرسي في غرفته؛ فما كان منه إلا أن أسرع فمسح بقايا الخبز عن الطاولة الصغيرة، ومعها بقية من الزبدة في غلافها الورقي، وعلبة فارغة، وبعضًا من قشور البصل، فرماها كلَّها إلى الأرض؛ ثم راح يحاول تحت نظرات ضيفته الغاضبة، التي كانت تراقبه وهو يجلس على موضع الجلوس المتوفِّر الوحيد (بعد أن «نظَّفه») ويركل بقدمه بضعة جوارب متناثرة حتى يدخلها تحت الخزانة من غير أن تنتبه إليها. وبابتسامة بلهاء، حاول أن يبعد سروالًا داخليًا قذرًا كان مرميًا على السرير نفسه. على أن ذلك كلِّه لم يفلح في تحسين الموقف، مهما يكن الشيء الذي يمدُّ يدَه إليه، بل كان يكشف بوضوح متزايد عن الوضع غير المقبول في غرفته.

لكنه رفض أن يستسلم ويقلع عن محاولاته اليائسة مع بقية تفاحة متعفِّنة مرمية في الزاوية ومع أعقاب السجائر المرمية في المدفئة، تلك الأعقاب التي كانت إشارات باقية من زيارات السيد هارر. وبدوره، ظلَّ باب الخزانة يرفض أيّة محاولة لإغلاقه، إلى أن لاحظت السيدة إيزتر أنه لا يولي ما تقوله «أي انتباه»، فزعقت به آمرة إياه «أن يكفَّ عن ذلك في الحال!»، وأن يجلس في مكانه، لأن لديها شيئًا بالغ الأهمية ينبغي أن تقوله له. كانت تُدوّم في رأسه أفكار كثيرة جدًا، فظلَّ بضع دقائق غير قادر على سماع ما يقوله ذلك الصوت الذي يعرفه جيِّدًا. إلاً أنه ظلَّ يومئ برأسه، ويرفرف بعينيه ويتنحنح، بينما كانت عينا ضيفته معلَّقتين بالسقف وهي تتابع ثرثرتها عن «الأيام التي ستأتي»، و«الحكم الثقيل الذي ينتظر العالم». ولما كانت مندفعة في حديثها ذلك الاندفاع، وجد فالوسكا نفسه غير قادر على الاستجابة بغير التحديق المتواصل في الطاولة، وقد ارتسم على وجهه تعبيرٌ موحٍ بموافقة حماسية. في ظل هذا الوضع، لم تكن السيدة إيزتر في حاجة إلى انقضاء وقت طويل قبل أن تلتفت وتركِّز انتباهها عليه، على الرغم من أن القليل الذي بدأ يفهمه بحلول ذلك الوقت كان شديد البعد عن الكفاية. ولبرهة، سرَّ سرورًا حقيقيًا لمعرفة أن أمه وضيفته قد «افترقتا صديقتين حقيقيتين»

الليلة الماضية، ثم أخافته خطّتها القاضية بأن تنتقل السيدة إيزتر من مسكنها الحالي في غرفتها المستأجرة فتعود إلى بيتها الجديد «في هذا اليوم بسبب الكميّة المتزايدة من الأوراق التي ينبغي لها أن تعمل عليها، ونتيجة ما يرتبط بمركزها الجديد من أهميّة للمظهر العام». قالت له إنها تريد إرسال ملابسها قبل وصولها (بحيث يكون الأمر واضحًا في ما يتَّصل بالترتيب القديم الغامض بين زوجها وغسل الملابس). فزع فالوسكا لأنه لم يكن يشكُّ أبدًا في أن الصحَّة الحسَّاسة لصديقه الكهل، الذي ازداد حساسية الآن وصار يرتعش لمجرَّد ذكر اسم زوجته، سوف تكون في خطر شديد بفعل ما هو موشك على الحدوث. وبما أنه رأى على نحوٍ واضحٍ لا يقل وضوحًا عمَّا سبق أن عمله الشَّاق في محاولة العناية بالسيد إيزتر لكي يستعيد صحته تمامًا، إضافة إلى تحسين شروط عمله، سوف ينتهي إلى لا شيء إذا نجحت «شريكته» في تحقيق أهدافها. رأى أيضًا أن منعها من تحقيق أهدافها سيكون أمرًا شديد الصعوبة، فكان ارتياحه عظيمًا عندما أضافت محدِّثته بعد أن تطرَّقت «على نحو عارض»، إن جاز القول، إلى تأسيس حركة سياسيّة جديدة، وقالت إن أهل المدينة يريدون أن يقودها غيورغي إيزتر، وإنهم لا يقبلون بغيره قائدًا إن هذا التكليف المهم سوف يستتبع شرفًا

عظيمًا، مما سيجعلها أسعد الزوجات وأكثرهن اعتزازًا إن قبل زوجها ذلك المنصب (همست قائلة إن من شأن ذلك القبول وهذا أمر طبيعي أن يستدعي تأجيل خطط الانتقال إلى بيت زوجها إن وافق على حمل هذه المسؤولية الكبيرة، التي هي عبء أكبر كثيرًا من الأعباء الواقعة عليها. وأضافت أنها لن تفكِّر لحظةً واحدةً في إزعاجه). المشكلة الوحيدة هي أنها، السيدة إيزتر، على العكس من السيدة بلوف، أضافت هذا مشيرة بيدها إشارة موحية بالعجز، ترى ضرورة أن يعهد بالأمر كلِّه إلى فالوسكا من غير تأخيرٍ، لأنه كفيل بضمان نجاحه. تابعت تقول: «... إنني أعرف حالة زوجي الصحِّيَّة الدقيقة الحسَّاسة، وأعرف كم صار معتزلًا الحياة العامة. وهذا ما يخلق عندي شكوكًا جدية في احتمال قبوله هذه الترتيبات». أخيرًا، فهم فالوسكا ما تتحدَّث عنه، فلم يدر ما كان مبعث سرور أكبر لديه، حقيقة أن أمَّه على نحو مفهوم تمامًا، بالطبع قد فكرت في الاستعانة به على الرغم من إهمالها له، وذلك لكي يحلَّ هذه المسألة المعقَّدة (هكذا فهم الأمر)، أو حقيقة إقدام السيدة إيزتر على الكشف عن جانب غير متوقَّع من جوانب شخصيتها من خلال قبولها هذه التضحية المذهلة فعلًا.

إلا أن ما كان مؤكَّدًا تمامًا هو أن الفكرة جعلت إثارة شديدة تكتسحه، فقفز واقفًا على قدميه في فيض حماسته وراح يجري في الغرفة محاولًا إقناع زائرته بأنه «سوف يتولَّى تنفيذ المهمة»، و«سوف يفعل كل ما يستطيع لكي يضمن نجاحها»، فكان من شأن تلك الاندفاعة أن جعلت المرأة ذات المظهر الصارم المتجهِّم عادةً تنخرط في ضحك لم يستمرْ طويلًا، لكنه كان صادقًا. على أن ذلك الضحك لم يكن إشارة إلى قبول فوري لأن الضيفة اقتنعت بأن عليها ألا تقبل عرض فالوسكا إلا بعد مراجعة دقيقة وعودة إلى الوثائق، بل إنها امتدحته بعبارات شديدة الغموض يصعب فهم معناها من قبيل «المعلومات الأساسية عن الحركة السياسية»، ثم سجلت على ورقة أسماء الأشخاص «الذين ينبغي أن يبدأ رئيس الحركة العتيد الاستعانة بعملهم وقدراتهم في مجال الدعاية السياسية اعتبارًا من ظهر هذا اليوم». بدت شديدة الإصرار على مسألة الحقيبة والرسالة التي ينبغي إيصالها إلى زوجها، وذلك إلى حد جعلها فور خروجهما من بوابة بيت هارر وسيرهما في شارع دورر في ذلك الصقيع، الذي لم تتراجع شدَّته على الرغم من أن الوقت قد قارب الظهر، وفور بدء فالوسكا إمتاعها بحديثه عن «العرض

الرائع» في ساحة كوسوث تستمع إليه بلا مبالاة مطلقة- ولا تحدِّثه إلا عن الحقيبة وعن تفاصيل خطتها. وحتى عندما بلغا نقطة افتراقهما عند زاوية شارع جوكاي، ظلَّت مصرَّةً على إخبار فالوسكا من جديد بأنها، هي، السيدة إيزتر، سوف تفعل ما اعتزمت فعله في الأصل إذا لم يعد إليها عند الرابعة بعد الظهر حاملًا موافقة قاطعة من زوجها، وسوف «تتناول طعام العشاء في جادة بيلا وينكهايم!». وبعد أن قالت له هذا، استدارت على عقبيها وانطلقت لإنجاز ما دعته «أعمالًا عاجلة»، تاركة فالوسكا يحمل حقيبة الملابس الممتلئة في إحدى يديه والورقة في اليد الأخرى. ظلَّ ينظر إليها قرابة دقيقةٍ كاملةٍ، وقد أثَّرت في نفسه تأثيرًا كبيرًا معرفته بأن صديقه الكهل، إن كان لديه شكٌّ «في القيمة الحقيقية لهذه المرأة النموذجية»، فإنَّ من شأن ما فعلته الآن «أن يكون كافيًا لإقناعه بأنه مخطئ» (لأن هذه علامة أكيدة على حسن نيتها وعلى استعدادها للتضحية بمصالحها من أجله). وذلك لأنه صار واضحًا له الآن، بل صار واضحًا وضوح ضوء النهار، أن روحَها تُكنّ له الاحترام كله، على الرَّغم مما تبدو عليه تلك الروح من خشونة وضراوة... الحقيقة أن هذا كان قد صار واضحًا له منذ اللحظة التي بحثت عنه فيها لكي تبلغه بأنها، من تلك اللحظة فصاعدًا، تريد أن تغسل ملابس

زوجها المتَّسخة بيديها الاثنتين (إن كان فالوسكا مستعدًا لكتمان السرِّ). وهذا ما يفسرِّ استمرار وفائها غير المشروط عبر تلك السنين كلِّها للرجل الذي نبذها بكلِّ برود، وما يؤكِّد على ما تكنُّه له من احترام يتخلّل وجودها بأسره. وعندما أدرك فجأة ما أرادت ضيفته تحقيقه من خلال خدعتها المكشوفة («الانتقال للعيش في بيت زوجها من جديد»)، وقولها إنها مستعدة لأن تثق به من جديد، وإنها تريد إقناعه بأن يتولى دورًا في الحركة السياسية التي كان فالوسكا مقتنعًا تمامًا بأنها أقامتها من أجل غاية وحيدة متمثلة في إظهار «الخصائص» المذهلة لغيورغي إيزتر، واضحة في أعين سكان المدينة جميعًا، حتى صار أكثر ثقةً من ذي قبل بأن ذلك الساكن الوحيد في البيت الذي في جادة وينكهايم لن يكون قادرًا على مواصلة مقاومة إصرارها الاستثنائي، وسوف يجد نفسه مضطرًّا إلى الإقرار بأنه لا يستطيع شيئًا في مواجهة هذه العاطفة الجارفة. كان هناك شيء أشبه بريحٍ باردةٍ قد بدأت تهبُّ عند بداية سيره، فكان عليه أن يقاوم صفعاتها الجليدية التي تحاول أن تسلبه أنفاسه. كانت الحقيبة ثقيلة، ثم راحت تزداد ثقلًا مع كل دقيقة تمضي. وكان الطريق زلِقًا انتشرت فيه جماعات من قطط شاردة لا تعرف الحياء، مستلقية أمامه بكسل شديد جعلها تتباطأ في إخلاء الطريق أمامه. لكنَّ شيئًا

من هذا كلِّه ما كان قادرًا على إلحاق أي ضرر بمعنوياته المرتفعة: كان واثقًا من أنه لم ينطلق من قبل إلى بيت معلمه حاملًا ما يماثل هذه الوفرة من البشائر الطيِّبة. اليوم، سيتحوَّل كلُّ شيء في اتجاه الأفضل لأنه كان ينطلق كلَّ يومٍ من أجل هذا تحديدًا، منذ أن تركت السيدة إيزتر البيتً؛ صار يعرف المسكنَ وسيِّدَه المتجهم فهو يحمل يوميًا طعام العشاء إليه. لكن، قبل كل شيء، فمنذ أن أعلن «عالم الموسيقى الذي لا تزال أبحاثه وأهميَّته العامَّة محجوبةً عن البلدة، والذي كان يحاول إخفاء هذه المواهب عن طريق العزلة الصارمة التي فرضها عليه تواضعه الشديد، فضلًا عن كونه طريح الفراش من الناحية العملية نتيجة معاناته الجسدية... هذه الشخصيَّة الرائعة التي تستحقُّ كل احترام... أنه يعتبره صديقًا له. صحيح أنه كان في حيرة من أمره إزاء عجزه عن فهم ما جعله أهلًا لهذه الصداقة، وعن إدراك السبب الذي جعل السيد إيزتر يختاره دونًا عن أي شخص آخر فيشرِّفه بهذا التميُّز (أيّ شخص آخر قادر على الالتقاط الدقيق لتحرُّكات عقله التي كان لا يفهمها، كما أقرَّ هو نفسه، إلا فهمًا غامضًا في أحسن الأحوال). ومنذ ذلك اليوم فصاعدًا، صار يشعر بأن من مسؤوليته أن ينقذه من المستنقع القاتل، مستنقع المرارة وانقشاع الأوهام، الذي لم يكن يهدِّد بابتلاعه هو وحده، بل

بابتلاع المدينة كلِّها. وخلافًا لما قد يظنُّه أيُّ شخص، لم يفت انتباه فالوسكا (لأن الأدلَّة كانت متوفرة واضحة كل الوضوح)، أن كل من يلتقيه كان مشغول البال بفكرة «السقوط في الفوضى»، ذلك المآل الذي، بحسب الرأي الشائع، ما عاد تفاديه متيسِّرًا. كان الجميع يتحدَّث عن «الاندفاع إلى الفوضى الذي لا يمكن إيقافه»، و«عدم إمكانية توقُّع أيّ شيءٍ في الحياة اليومية»، و«الكارثة التي تقترب»، وذلك من غير أيّة فكرة واضحة عن الثقل الفادح لهذه الكلمات المخيفة. وهذا ما جعله يخلص إلى أن جائحة الخوف تلك لم تكن متولِّدة عن ثقة حقيقية، تزداد كلَّ يوم، بأن هناك كارثةً وشيكةً، بل عن عدوى المخيِّلة التي كانت قابليتها كبيرة للسقوط فريسة الذعر الذي تنتجه بنفسها؛ وهذا ما يمكن أن يؤدِّي إلى كارثة فعليَّة آخر الأمر: بكلمات أخرى، الهاجس الزائف الذي يمكن أن يستسلم له إنسان فقد صوابه عندما تتحلَّل البنية الداخليَّة لحياته (ترابط عظامه ومفاصله في ما بينها)، ويتخلى، لشدَّة طيشه، عن قوانين روحه التي وضعها الأسلاف... إذا فقد قدرته على ضبط العالم المنظَّم الذي يحفظ له كرامته. كان يقلقه كثيرًا أن أصدقاءه ظلُّوا يرفضون الإصغاء إليه رغم محاولاته المتواصلة بإقناعهم بهذا الأمر. لكن ما كان يسبب له حزنًا أكبر من أي

شيء آخر هو زعمهم، بنبرة دائمة الكآبة، أن الزمن الذي يعيشونه كان «جحيمًا لا يسبر غوره بين مستقبل خدّاع مخاتل وماضٍ سحيق لا يمكن تذكّره»؛ ذلك أن هذه الأفكار الفظيعة كانت تذكِّره بالمشاعر والحوارات من جانب واحد (حوارات مؤلمة كثيرًا) التي كان يسمعها كل يوم في ذلك البيت الكائن في جادّة بيلا وينكهايم، أي في البيت الذي وصل إليه الآن. على أن ما كان يبعث في نفسه حزنًا أشدّ من ذلك هو أن من المستحيل عليه إنكار (مهما أراد أن ينكر) أن غيورغي إيزتر الذي ينعم بحساسية شعرية رفيعة، وبرقّةٍ لا نظير لها، بل بفضائل الروح العظيمة كلّها الذي لم يكن يتأخّر أبدًا، كعلامةٍ واضحةٍ على الصداقة، عن إنفاق ما لا يقلّ عن نصف ساعة من وقته حتى يعزف له... له، له هو، فالوسكا صاحب الأذن العاجزة عن تذوُق الموسيقى... مقاطع من باخ الشهير كان أكثر الأشخاص بعدًا عن الأوهام والضلالات؛ وفي حين أن قسمًا كبيرًا من ذلك كان عائدًا إلى ضعفه العام الناتج عن مرضه، وإلى الرتابة المؤذية المتولِّدة عن اضطراره لملازمة السرير، فقد كان يحمِّل نفسه كامل المسؤولية عن تطاول مدة نقاهته، ويأمل أملًا صادقًا، بأنه إذا قام بواجباته بكلِّ حرصٍ، ومن غير أيِّ نقصٍ، فقد يكون هناك أملٌ في الشفاء الكامل آخر الأمر، بحيث يتحرَّر صديقه الكبير

أخيرًا مما اعترى روحه من «عتمة لا ضابط لها». لم يكفّ يومًا عن الاعتقاد بأن تلك اللحظة يمكن أن تأتي. والآن، مع دخوله البيت وسيره في الممر الطويل الذي تحفُّ به رفوف الكتب، وتفكيره في ما إذا كان عليه أن يبدأ كلامه بالحوادث ذات الصلة بفجر ذلك اليوم، أم بالحوت، أم بالسيدة إيزتر، انتابه إحساس بأن من الممكن أن تكون فترة النقاهة تلك قد بلغت منتهاها، وبأن لحظة الشفاء الكامل التي يتمنَّاها من كلِّ قلبه قد تكون الآن قريبة وبالمتناول. توقَّف عند الباب الذي أَلِفه كثيرًا، ونقل الحقيبة الثقيلة إلى يده الأخرى، وفكَّر في أن ذلك النور السامي الذي يجُبُّ كلَّ شيءٍ إن كانت تلك اللحظة قد أتت موشكٌ على أن يشرق على السيد إيزتر. عندها، سيكون هناك ما يستحقُ الرؤية، وسيكون هناك ما يستحق الاكتشاف -(دقَّ الباب ثلاثَ مرّات، كعادته)- ولسوف يحظى عند ذلك بنظرة إلى ذلك النظام الذي لا يعرف الفساد، النظام الذي تجتمع في كنفه طاقة جميلة مندغمة في كلّ متناغم يشمل البحر والأرض اليابسة، المبحرِين والسائرِين، السماء والأرض، الماء والهواء، وكل ما هو حيٌّ، في اتصال واعتماد متبادَلين، ويضمُّ كل حياة تبدأ وكل حياة تطير مبتعدةً؛ ولسوف يرى أن الولادة والموت ليسا إلا لحظتين عظيمتين في مسار أبديٍّ، وسيتألَّق وجهُه دهشةً وعجبًا عندما يفهم ذلكَ كلِّه؛

سوف يشعر -(أطبقت كفُّه برفقٍ على مقبض الباب النحاسي)- بدفء الجبال والغاباتِ والأنهار والوديان، ويكتشف الأعماق الخبيئة للوجود البشري، ويفهم أخيرًا أن الصِّلات الوثيقة التي تربطه بالعالم، ليست سلاسل تحبسه وتحرمه الحرّية، بل نوعٌ من تعلُّق ومن معنى لا سبيل إلى فساده لأن له موطنًا؛ وسوف يكتشف المسرَّة الكبرى للصِّلة المتبادلة التي تحتضن كلَّ شيء وتحرِّك كلَّ شيء: المطر، والريح، والشمس، والثلج، وتحليق طائر، وطعم فاكهة، وشذى أعشاب؛ وسوف يبدأ التفكير في أن مرارته ومخاوفه لم تكن إلا أثقالًا مربكة تفرضها جذور ماضيه الحيَّة ويفرضها إقلاع طائرة مستقبله الأكيد؛ وعندها -(بدأ يفتح الباب)- سيعرف أخيرًا أن كلَّ لحظةٍ من لحظاتنا تمرُّ في تعاقبٍ يعبر فجر الأيام ونهاياتها، أيام الأرض الدوَّارة في مسارِها، عبر موجات متعاقبة من شتاءات وأصياف تنتظم الكواكب والنجوم.

دخل الغرفة حاملًا الحقيبة في يديه، ووقف يرفرف بعينيه في النور الخافت.

* * *

(2) أندرياس فيركمايستر (1645 - 1706): مؤلف

موسيقي ألماني من عصر الباروك كانت له مساهمات نظرية مهمة تركت أثرًا كبيرًا على تطور التوافقات الموسيقية (Harmonies) في الموسيقى الغربية.
(3) نسبة إلى ولاية والاشيا القديمة.

خطا متقدِّمًا في النُّور الخافت، مبتسمًا ابتسامة حائرة مرتبكة. ولما كان إيزتر قد أَلِف حالته الانفعاليَّة المضطربة لحظة وصوله، فقد حاول تهدئته بإشارة من يده كانت كأنها إشارةُ تحيَّة موجَّهة بطريقةٍ يستحيل رفضُها، إشارةٌ مفادها أن عليه أن يجلس في مكانه المعتاد عند الطاولة المستخدمة من أجل التدخين، وأن يدفئ نفسه بعد رحلته الصقيعية، وينتظر إلى أن تهدأ نار حماسته بينما يتحفه صديقه الكهل ببضع عبارات منتقاة. بدأ كلامه من غير مقدِّمات... «إذًا، لن يكون لدينا أيُّ مزيدٍ من الثلج...». أفرحه أن يواصل سلسلة أفكار المتوحدة السابقة بحيث يُدرج فيها كلَّ ما كان يشغل ذهنه منذ الصباح عندما انقضى الوقت المتاح للاغتسال وارتداء الملابس، وعندما انصرفت عنه السيِّدة إيزتر -أراحه ذلك كثيرًا- «هذا ما يستطيع المرء أن يجرؤ على قوله احتكامًا إلى حالة العالم في هذه اللحظة من الزمن». لم يكن أمرًا منسجمًا مع أسلوب السيد إيزتر أن ينهض ويتحقَّق بعينيه من صدقيّة هذا التصريح القاطع، وأن يطلب من زائره المتحمِّس،

الجالس حاليًّا على الكرسي، أن يزيح الستائر الثقيلة، لكي ينظر إلى الشارع الخاوي الكئيب ويرى صفحات من صحفٍ تجري هاربةً من موجاتٍ مدوّمة من ريح جليديّة وأكياسًا ورقيّة تتجرف مسرعة بين بيوت تبدو كالقبور وهي متجمِّدة في صمتها... أي، بكلمة واحدة، أن ينظر بنفسه! وذلك لأن النظر عبر النوافذ الكبيرة التي كان من الواضح أنها مصنوعةٌ من أجل أيام أفضل، كان في رأيه -هو، سيِّد مقاومة الحركاتً الزائدة عن الحاجة- أمرًا عديم المعنى تمامًا؛ وذلك لأن الفارق في حدِّ ذاته لا يمكن أن يكون ذا قيمة بالنظر إلى أن السؤال الذي يبدو أنه قد يوفِّر إجابةً عنه كان، على الأرجح، سؤالًا خاطئًا. ومن هنا، فإن أيَّ سؤالٍ يحملُ أيَّ قدرٍ من الأهمية، عند الاستيقاظ من النوم، وذلك في ما يتعلَّق بما إذا كان الثلج يتساقط في الخارج أم لا، يمكنه التوصُّل إلى إجابة مُرضية عنه انطلاقًا من موضعه الحالي على الفراش وظهره إلى النوافذ التي تغلقها الستائر بكل إحكام؛ وذلك أن ما يرتبط بعيد الميلاد من إحساسٍ بالسلام ورنين أجراسٍ فرحٍ، والثلج نفسه، ليس إلا شيئًا منسيًّا في شتائه الأبديٍ - إذاً كان لهذا التّواصل القاسي للبرد الذي يخترق العظام، عندما يكون على الحماسة الخفيفة الأخيرة لوجوده نفسه أن تقرِّر ما ينبغي أن يواجه الخراب أوَّلًا: البيت أم

ساكنه؟... إذا كان لهذا أن يدعى شتاء أصلًا! ففيما يتعلَّق بالأول -البيت- فقد كان لا يزال قائمًا «بحكم العادة»، على الرغم من أن حقيقة السيّدة هارر، التي كانت تتلقَّى أجرها حتى تُشعل الموقدَ وقت الفجر، ولا شيء غير ذلك، كانت تأتي مرّة كل أسبوع تحت ستار زعم القيام بأعمال التنظيف... تأتي متسلِّحة بمكنستها وخِرَقِها التي تدعوها «مماسحَ»، فتنقضُّ على البيت بعنفٍ تبدو معه كأنها تحاول أن تنجز في داخله ما كان الصقيع ينجزه من الخارج بفعالية شديدة: كانت تضرب بخرقتها هنا وهناك، وتنقضّ -نشطة مستعدَّةً للحرب- مرّة بعد مرّة (سوء طالع لا يضاهيه شيء) على الصالة والمطبخ وغرفة الطعام، وكذلك على الغرف في خلفية البيت. كانت تمضي في فعل ذلك أسبوعًا بعد أسبوع، فتتساقط التزيينات الصغيرة من حولها، لكنَّها تتابع الدعك مستعينةً برشق كمِّيَّات وافرةٍ من الماء وبتحريكٍ عنيفٍ لقطع الأثاث الحسّاسة ذات السطوح المتشقِّقة والقوائم غير الثابتة. وباسم التنظيف، كانت تكسر أحيانًا قطعة أو قطعتين من مجموعة أطباق الطعام الفينيسية أو البرلينية الحسّاسة، فقد يكافئ صاحب البيت نياتها الحسنة بملعقة فضية أو بكتابٍ ضخم ذي غلاف جلديٍّ (كان هذا مما يسعد تجار الأنتيكات المحلِّيين سعادة لا شكّ فيها). بكلماتٍ أخرى، كانت تكنِسُ وتمسحُ وتغسلُ

وترتِّبُ كلَّ شيءٍ من غير أيّة رحمةٍ أو إشفاقٍ على أيِّ شيءٍ، فصار البيت المسكين، الذي يتعرَّض الآن إلى الهجمات من الداخل والخارج، في حالةٍ خطيرةٍ، ولم يبق فيه إلا ملتجأً واحدًا تستطيع الأشياء الموجودة فيه أن تظلَّ على حالها: إنه غرفة المعيشة الواسعة التي كانت «بطلة الترتيب المنزلي الخرقاء» («أأُزعج المدير أثناء عمله؟ لا يمكن أن أفعل هذا، بالتأكيد!»)، لا تجرؤ على دخولها إلا في حالات نادرة. وبطبيعة الحالة، كان مستحيلًا القول لها أن تكفَّ عن ذلك وأن تُشغِلَ نفسها -حصرًا- بالعمل الذي تتلقَّى أجْرَها حتى تقوم به؛ فبصرف النظر عن الفظاظة الضمنيّة التي قد يوحي بها هذا الطلب (كان إيزتر دائم الحرص على تفادي توجيه الأوامر، بل كان في الواقع شديد الحرص على تجنُّب كلِّ ما قد يشتمل على اتخاذ قرار من أي نوع)، فقد كان واضحًا أن المرأة، حتى إن كانت غير قادرة على الوصول إليه أو الإحاطة به إحاطة مباشرة، التي كان لديها دافع قوي غامض لفعل الخير، وجدت أن من واجبها أن تنخرط في معارك مريرة مع أيَّة أشياء لا تزال غير محطمة، وأن تواصل فعل ذلك حتى إن نُهيت عنه نهيًا صريحًا؛ فكان ذلك مأزقًا لم يترك لصاحب البيت من خيارٍ غير اللجوء إلى غرفة معيشته، وهذا ما لم يكن من غيرٍ سبب وجيه يؤيّده، ألا وهو حقيقة

معروفة مفادها أنه يتابع أبحاثه المزعومة في علم الموسيقى، تلك الأبحاث التي تعزِّز سمعته في المدينة. ولما كان سوء الفهم هذا قادرًا على إبقاء السيدة هارر بعيدة عنه بحيث لا يُخشى انقضاضها على الزينات وقطع الأثاث الحسَّاسة المحيطة به إحاطة مباشرة، فقد كان سوء فهم ملائمًا له... بل أكثر من ذلك أيضًا لأنه كان واثقًا من أن سوء الفهم المواتي هذا كان يبعد عنه كل ما يمكن أن يزعجه ويعطِّله عن إنجاز مهمَّته الحقيقية التي يشير إليها بأنها «انسحابه الاستراتيجي أمام الغباء المحزن لما يسمونه تقدُّمًا بشريًّا». كان الموقد ذو القوائم المهيبة المصنوعة من نحاس أصفر (يتألَّق بهيجًا) كما اعتاد الناس أن يقولوا. والواقع أنه كان القطعة الوحيدة في الغرفة التي لا تعطي إيحاء فوريًّا بأن الزمن قد أتى عليها وأنهى أمرها: السَّجّادة التي كانت في ما مضى سجادة فارسية بالغة الجمال، وورق الجدران الحريري، والثريا المتدلِّية من وسط دائرة تزيينية متشقِّقة في السقف، والكنبتان المنحوتتان نحتًا، والأريكة، والطاولة الصغيرة ذات السطح الرخامي، والمرآة ذات السطح المنقوش، وبيانو ستايمواي الشائخ الذي صار في حالة خطيرة، وما لا يحصى له عددٌ من الوسائد والمطرَّزات والقطع الخزفية التزيينية... تلك التذكارات العائلية الموروثة كلّها في

غرفة المعيشة -كل قطعة منها- كانت قد استسلمت منذ أمد بعيد وتخلَّت عن الصراع الميؤوس منه، وما عاد من شيء يحول دون تهاويها وتحلُّلها حيث تقف إلا طبقة ثخينة من غبار عمره عشر سنوات بات يعزلها... ولعل لوجود صاحبها اللطيف الدائم، معدوم الحركة من الوجهة العمليَّة، مساهمةٌ في بقائها على حالها حتى الآن. على أن حضوره الدائم، ويقظته اللاإرادية، لم يكونا يمثِّلان في حد ذاتهما حالة صحيَّة ولا تأكيدًا يتمتَّع بأيّة قوة خاصة على القدرة على الحياة، وذلك أن أكثر الأشياء كآبة ومأتميَّة في تلك الغرفة، كان، بعد كل حساب، ومن غير أي شكل، كرسي الاستلقاء التزييني الذي يحتلُّه ساكن الغرفة المخلص بعد أن جرَّه (في زمن مضى) من غرفة النوم، فصار يرقد عليه فوق وسائد مكوَّمة عاليًا، وصار جسمه الذي استحال هيكلًا عظميًّا لا يمكن الاكتفاء بوصفه أنه هزيل إلا بعد الاستعانة بقدر كبير من التلطُّف والرحمة في اختيار الكلمات، ولم تعد حالته المتهدِّمة شاهدًا على التمرُّد المفهوم لأعضاء الجسم بقدر ما صارت احتجاجًا دائمًا ضد القوى التي تحاول إبطاء عملية التدهور الطبيعية -وإن تكن عملية عنيفة- وعلى الروح التي أصدرت على نفسها حكمًا لا رأفة فيه بأن تعيش عيشة راحةٍ دائمة. كان يرقد على فراشه من غير حركة، فتستلقي يداه المرهقتان على

البطانية التي أكلها العث مجسِّدتين صورةً دقيقةً لحالته التي صارت الآن مستقرَّةً لا تغيير فيها... حالة ليست واقعة في قبضة اضطراب في العظام يتفاقم تفاقمًا بطيئًا، من قبيل داء شيرمان مثلًا، ولا هي نتيجة إصابة بعدوى مفاجئة قد تكون قاتلة، بل حالة انهيارٍ تامٍّ هي العاقبة الخطيرة لترك العضلات والجلد والشَهيَّة كلَها تتراجع وتتدهور بفعل ملازمة الفراش من غير انقطاعٍ. كان ذلك احتجاج الجسد على هذا المحبس الطري الناعم المصنوع من وسائد وأغطية؛ على الرغم من أنه سيكون صحيحًا بالقدر نفسه القول إن هذا كان كل ما ينطوي عليه الأمر لأن نظام الراحة الإرادي هذا الذي لا تقطعه، هذه الأيام، إلا زيارات فالوسكا وطقوس الصباح والمساء، ذلك الانسحاب النهائي من عالم الفعل والحركة والتواصل الاجتماعي، لم يكن له أيُّ أثرٍ على تصميم روحه وصمودها. الشعر الرمادي المسرَّح بعناية، والشارب المشذّب، والتناسق الشديد في ملابسه اليوميَّة المختارة... كلُّها كانت تبوح بالشيء نفسه: طيَّات بنطلوناته، وقمصانه المنشَّاة، وربطة العنق المربوطة بعنايةٍ فائقةٍ، والمبذل البيتي ذو اللون الكستنائي الداكن، لكن، فوق ذلك كلِّه، تلك العينان في وجهه اللتان لا تزال زرقتهما الشاحبة متوقِّدة، عينان لا تزالان حادَّتين ليستا في حاجة إلى أكثر من نظرةٍ

سريعةٍ إلى أوضاعه المتدهورة وجسده نفسه حتى تدركان مدى فعالية حفاظه الذاتي على نفسه وتتحسَّسان أدنى العلامات الدالَّة على الانحطاط من تحت السطوح الهشَّة لحوائجه الجليلة التي كانت كلُّها محيَّكة من نسيج الشكل الخارجي الواهي نفسه الذي كان محيَّكًا منه. لم تكن وحدها الحالة العامَّة لنفسه ومحيطه هي ما يلاحظه بتلك النظرة الفطنة، بل أيضًا ذلك الإحساس العميق بالصِّلة الوثيقة الموجودة، من غير شك، بين الهدوء الميت في الغرفة والبرد عديم الحياة في العالم الخارجي: السماء، التي كانت أشبه بمرآة لا تعرف الرحمة تعكس دائمًا ذلك العالم نفسه فتعيده إليه ببلادة، وحزنه الذي ينبعث سحائبَ من تحتها؛ وفي وقت الغسق الذي تزداد ظلمته قليلًا مع مرور كل يوم، تبدو أشجار الكستناء العارية ذات الرؤوس المقطوعة كأنها في اللحظة التي تسبق اقتلاعها الأخير من جذورها، تبدو منحنية أمام الريح القارسة؛ والطرق مهجورة، والشوارع خاوية، «كأنما لم يبقَ فيها غير الجرذان والقطط الشاردة وبضعة خنازير تعيش على الفضلات»؛ وخلف المدينة، تمتد سهوب كالحة مهجورة، تلك الأرض المنخفضة القادرة حتى على تحدي النظرة الثابتة للمنطق الذي يحاول اختراقها... هذا الحزن، وهذا الغسق، وهذا الجدب، وهذه العزلة، يمكن القول إنها استطاعت كلّها

أن تعثر على مكافئ لها في غرفة معيشة إيزتر، بأماكنها الصحراوية، في الأشعة القادرة على إحراق كل شيء، تلك الأشعَّة المنبعثة من فكرة ثابتة لا تعرف تغييرًا، فكرة توحِّد الغثيان وانقشاع الأوهام ونظام ملازمة الفراش، أشعة قادرة على اختراق دروع السطح والشكل معًا حتى تدمِّر المادَّة ونسيجها، حتى تدمِّر الخشب والقماش والزجاج والفولاذ في كل شيء، من الأرض إلى السقف. قال من جديد، «لا، لن نرى هطول أي مزيد من الثلج»، وألقى نظرةً هادئةً مهدِّئةً في اتجاه ضيفه المتوتِّر الذي يتململ نافد الصبر في جلسته على كرسيه، ثم انحنى إلى الأمام قليلًا وأصلح غضون البطانية التي تغطي قدميه: «لا مزيد من الثلج». استند إلى الخلف غائصًا في وسائده من جديد.

«لقد توقَّف إنتاج الثلج، مما يعني أن ما من قطرة واحدة يمكن أن تسقط بعد الآن. وكما تعرف جيِّدًا، يا صديقي -هذا كلام بيني وبينك- فإن هذا نهاية الأمر...». قال هذا ولوَّح بيده تلويحة واحدة بتلك الحركة اللامبالية التي كان قد استخدمها من قبلُ مرَّات لا تُحصى حتى يعبِّر عن الفكرة نفسها. الصقيع القاتل المبكّر الذي حلَّ على الخريف الجاف بما فيه من انعدام مفزع لأيَّة هطولات («آه، السنوات السعيدة، عندما كانَ الهطلَ غزيرًا!...»)، ما كان يمكن أن يعني إلا شيئًا

واحدًا، شيئًا أكيدًا كالسم، ما كان يمكن أن يعني غير الحقيقة التي لا سبيل لإنكارها، حقيقة أن الطبيعة نفسها قد ألقت أدواتها جانبًا وأنهت مهمَّتها المعتادة، وأن الصلة التي بين السماء والأرض، الصلة التي كانت أخوية، قد انفصمت انفصامًا حقيقيًا تمامًا، وأن الفصل الأخير قد بدأ حتمًا... الفصل الذي نطفو فيه على مدارنا، وحدنا، بين حطام قوانيننا المتناثر، و«سرعان ما نُترك محدقين، كما شاء القدر، تحديقًا غبيًا غير فاهم شيئًا... ننظر ونرتجف بينما ينسحب النور انسحابًا ثابتًا ويبتعد عنا». قبل انصرافها في كلِّ يوم، تتوقَّف السيدة هارر عند الباب نصف المفتوح، فتمتِّعه، من غير أي تقصير، بقصص مرعبة لا تنفك تزداد غرابة: مرّةً عن خزان المياه الذي يترنح ترنّحًا واضحًا، ومرَّةً عن مسننات الساعة التي بدأت، من تلقاء نفسها، تتحرَّك في برج الكنيسة في الساحة الرئيسية (لقد حدَّثته اليوم عن «عصابة من الخارجين عن القانون»)، وعن شجرة اقتُلِعت من جذورها وسقطت في هيتفيزر باساج. لكنه هو نفسه، لم يعد يعتبر هذه الحوادث بعيدة الاحتمال، على الإطلاق، ولم يكن يشكُّ لحظةً في أن تلك الأنباء صادقة كلَّ الصّدق -على الرغم من الغباء الأصيل لدى ناقلتها- فقد كانت بالنسبة إليه تأكيدًا مطلقًا على ما لم يكن قادرًا على الامتناع عن التكهُّن به: سلسلة السبب

والأثر، وبالتالي فكرة قابليَّة أيِّ شيء للتوقُّع، كانتا وهميتين، كلتيهما، «مما يعني أن ضوء المنطق العقلي الواضح قد خبا إلى الأبد». واصل إيزتر حديثه بينما كانت نظراته سارحة ببطء في أرجاء الغرفة، قبل أن تتركَّز متأمِّلة على الموقد وعلى شرره المتطاير الذي يخبو سريعًا: «هذا كلّه بسببنا. لقد فشلنا في أفكارنا وأفعالنا ومخيِّلاتنا، بل حتى في محاولاتنا البائسة لفهم سبب فشلنا. لقد أضعنا ربنا وتخلَّينا عن صيغ الاحترام الاجتماعي التي تضبطنا، صيغ الشرف والمكانة، وأهملنا المحافظة على إيماننا النبيل، الذي أسأنا استخدامه، في قوانين التناسب السرمدية التي تمكِّننا من تقدير قيمتنا الحقيقية من خلال نسبتها إلى مقدار فشلنا في تلبية الوصايا العشر... بكلمات أخرى، وصلنا إلى وقت الحصاد، وصلنا إلى حصاد مؤلم في الكون الذي ما عاد مستعدًّا لأن يقدِّم لنا شيئًا، على ما يبدو؛ وإذا كان للمرء أن يصدِّق ثرثرة السيدة هارر...». ابتسم لفالوسكا الذي كان في حالة تأرجح بين النطق والانتباه العميق،... «فإن الناس يتحدَّثون عن القيامة والحساب الأخير لأنهم لا يعرفون أنه لن تكون قيامة ولن يكون حساب أخير... فهما أمران لا يحقِّقان أية غاية لأن العالم سوف ينهار -بكل سعادة-من تلقاء نفسه ويستحيل حطامًا وخرابًا، بحيث يمكن أن يبدأ كل شيء من جديد،

ويستمرُّ الأمر هكذا من غير نهاية، وهذا مماثل في وضوحه التام...»، رفع عينيه إلى السقف... «لدوارننا العاجز في الفضاء: ما إن بدأ حتى صار توقُّفه مستحيلًا». أغمض إيزتر عينيه... «إنني أشعر بالدوار؛ أشعر بالدوار، وأيضًا -فليسامحني الرب- أشعر بالضجر، مثل أيِّ شخصٍ آخر نجح في تخليص نفسه من فكرة أن هناك أيَّ إيحاء بوجود إيقاع أو منطق في النشوء أو الفناء، في الولادة أو الموت، في هذا الدوران الدائم المعذِّب في دوائر لا تنتهي، فكرة استنتاج أن هناك خطةً كبيرةً رائعة وليس مجرَّد حركة ميكانيكية بسيطة إلى حدٍّ يفقأ العين... فكرة أنه ربما كان... ذات يوم... في الماضي البعيد... أنه ربما كان هناك شيء من الإحساس بعكس هذا...»، ألقى نظرة أخرى في اتجاه شخص ضيفه المتململ،... «وهو أمر ممكن، بالطبع! وأما اليوم، في خضمّ سيل الدموع هذا، فقد صار ذلك كله صحيحًا أكثر مما ينبغي له أن يكون؛ وقد يكون من الأفضل لنا أن نظل صامتين في ما يخصُّ هذا الأمر، بحيث نترك، على الأقل، الذكرى الضبابية للكائن الذي جعل هذا كلّه يبدأ حركته تخبو في سلام. من الأفضل أن نبقى صامتين...»، كرر هذا بنبرة صوت فيها قدر أكبر من الرنين... «من غير أن نحاول التكهُّن بالغايات السامية -من غير شك- لخالقنا الذي مات؛ وهذا

لأننا قمنا بما يكفي من محاولات لكي نحزر كيف يكون السبيل الأفضل لتوجيهها، ثم لم نصل إلى شيء في تلك العملية كلِّها. لم نصل إلى شيء في هذه العملية ولا في أي شيء آخر لأننا، كما هو مناسب أن نشير إليه عند هذه النقطة، لم نحظَ بقدرٍ وافرٍ من تلك الموهبة المطلوبة، موهبة وضوحِ الرؤية! فذلك الفضول بالغ النشاط الذي يستهلك طاقتنا كلَّها، والذي كنا نهاجم به العالم المعقول، مرة بعد مرة -ولا حاجة بنا إلى التعمُّق في هذا الأمر- لم يحقِّق لنا أي نجاحٍ يمكن ذكره. وعندما كنا نكتشف، في مناسبات قليلة، سرًّا من الأسرار -مهما يكن تافهًا قليل الشأن- فسرعان ما كنا نجد سببًا يجعلنا نأسف لأننا اكتشفناه. وإذا سمحت لي بنكتة رديئة الذوق...»، مسح حاجبه،... «فتخيَّل أول إنسان قذف حجرًا إلى أعلى. لعله قال في نفسه أقذف الحجر، فيعود الحجر من جديد. ما أروع هذا! لكن، ما الذي يحدث حقًّا؟ أقذف بالحجر، فيعود الحجر نازلًا، ويصيبني في رأسي! الدرس المستفاد: جرِّب لكن بحذر!». أسدى إيزتر هذه النصيحة إلى صديقه بنبرة رقيقة... «من الأفضل أن ترضى بحقيقة صغيرة، لكنها غير مؤذية، حقيقة يمكن أن يجرِّبها أيُّ واحد بنفسه، باستثناء نفسك الملائكية بالطَّبع. الحقيقة هي أننا لسنا أكثر من ضحايا بائسين لفشلٍ قليلِ الأهمّيَّة، وأننا وحيدون في هذه الخليقة

الرائعة؛ فالتاريخ البشريِّ كلّه، إن كان لي أن أوضح لك فكرتي، ليس أكثر من تمثيلٍ مسرحيٍّ يؤدِّيه ممثلٌ منبوذٌ، غبيٌّ، بليدٌ، بائسٌ في زاوية مظلمة قصيّة من زوايا خشبة مسرح هائلة الاتساع، نوعٌ من اعتراف معذَّب بالخطأ، وإقرارٌ بطيءٌ بالحقيقة المؤلمة... حقيقة أن هذه الخليقة -نحن- ليست، بالضرورة، نجاحًا باهرًا». مد يده إلى الكأس التي كانت على الطاولة إلى جانبه، فأخذ منها جرعة ماء، ثم ألقى في اتِّجاه الكرسي نظرةً مستفهمةً لأنه لاحظ، ليس من غير شيء من القلق، أن ضيفه الوفيَّ الذي كبر -منذ زمنٍ بعيدٍ- على دور المساعد المنزلي العام الذي لا شخصيّة له، كان اليوم قلقًا مضطربًا أكثر من المألوف. كان فالوسكا قابضًا على حقيبة الملابس بإحدى يديه، وعلى ورقة صغيرة بيده الأخرى، فبدا كمن يحاول الاختباء خلف ظلِّه، أو كأنه يحاول الاختفاء بين طيّات معطف ساعي البريد الواسع الذي لا يخلعه أبدًا، بينما كان شلّال من كلمات إيزتر اللطيفة الواعية منهمرًا عليه. وقد كان واضحًا أنه يغدو مرتبكًا، أكثر فأكثر، في خصوص ما ينبغي عليه فعله. بدا لإيزتر أنه يحاول اتخاذ قرار بأن يستسلم لطبيعته الحانية العطوف، فيستمع إلى صديقه حتى النهاية من غير مقاطعة، أو يسير على عادته المألوفة فيسمح لنفسه، من غير تأخير، حتى يرتاح، بأن يعبِّر عن

إحساسه بالعجب، ذلك الإحساس الذي يستولي عليه وهو سائر كالملاك في الشوارع الصامتة طيلة الليل وطيلة النهار. ولما كانت واضحة استحالة الأخذ بهذين الدافعين في وقت واحد، فإن إيزتر ما عاد يرى أي شيء مفاجئ في ظهور علامات هذه الحيرة على زائره. لقد اعتاد دخول فالوسكا غرفته، واعتاد رؤيته مارًّا عبر الباب محمولًا على موجة من الإثارة -كان دخولًا اكتسب هالة التقليد- وصار يقبَل حقيقة أنه «إلى أن يتمكَّن فالوسكا من السيطرة على فرحته الكبيرة بهذه الظاهرة الكونيّة أو تلك، فإن مهمة إيزتر أن يتحف ضيفه بدعاباته المرة اللاذعة في نقدها». هكذا كان الأمر بينهما منذ سنين: إيزتر يتحدَّث، وفالوسكا يصغي، إلى أن تأتي لحظة يرتخي فيها توتُّر وجه تلميذه فيخلي سبيلًا للابتسامة الرقيقة الأولى التي يسعد المضيف بتقديمها إلى ضيفه؛ وذلك أن محتوى الكلام لم يكن هو ما يثير اضطرابه بقدر ما تثيره الحالة الحماسية، في البداية، لصديقه الشاب الذي كانت إجاباته مليئة بذلك «العمى الرائع والسحر النقيِّ». كان زائره يمتعه بقصَّةٍ طويلةٍ غير منقطعة ينسجها من كلمات متلعثمة مستثارة في ظل الظهر وظل العصر طيلة ثماني سنوات، على الأقل... خيالات لا نهاية لها عن الكواكب والنجوم، وعن نور الشمس، وعن الظِّلال التي تدور دائمًا، وعن الآلية

الصامتة لحركة الأجرام السماوية في مداراتها، تلك الحركة التي تقدِّم له «برهانًا صامتًا على وجود عقلٍ لا يمكن وصفه»، وتسحره طيلة حياته وهو يحدِّق في سماء تجوّله الأبدي المثقلة بالغيوم من غير انقطاعٍ. كان إيزتر يفضل، من جانبه، الامتناع عن الإدلاء بأيٍّ تعليقٍ معترضٍ عندما يدور الحديث عن تلك المسائل الكونية؛ وذلك على الرغم من أنه كثيرًا ما كان يلقي نكاتًا عن «الدوران المداري الأبدي»، كأن ذلك نوع من التسلية المريحة الخفيفة (غمز بعينه ذات مرّة غمزة مبالغًا في اتجاه كرسي فالوسكا، «لا عجب في أن الناس، بعد آلاف السنين من الدوران، قد صاروا يجدون أنفسهم مشوَّشين بعض الشيء لأن انتباههم كلَّه متركز على محاولة البقاء واقفين على أقدامهم...»)، إلا أنه كفَّ، في وقتٍ لاحقٍ، حتى عن هذه التدخُّلات إذ اعتبرها مفتقرة إلى الفطنة، لا لأنه خشي أن يفسد رؤية فالوسكا الحسّاسة الهشَّة للكون فحسب، بل أيضًا لأنه رأى أن نسبة الحالة البشرية الحزينة، في الماضي أو في الزمن الآتي، إلى حاجة بني البشر، «التي هي أصلًا محزنةً في حدِّ ذاتها»، إلى السير من غير هدفٍ عبر الكون منذ زمنٍ بعيدٍ جدًا يمكن أن تكون أمرًا خاطئًا. وبالتالي، كان موضوع الكون والسماء، في التراتبية الصاعدة لأحاديثهما، واقعًا كلّه ضمن الحيِّز الخاصِّ بفالوسكا.

وقد كان هذا منصفًا، بالقدر الكافي ومن كل النواحي. فبمعزل تمامًا عن الاستحالة القديمة لرؤية السماء عبر تلك الغيوم الكثيفة (غيوم كثيفة إلى حد يجعل ذكرى السماء نفسها أمرًا تعوزه الفطنة، بعض الشيء)، فقد كان الرجل مقتنعًا بأن كون فالوسكا لا علاقة له بالكون الحقيقي على الإطلاق. وكان يرى أن ذلك الكون عنده ليس إلا صورة، أو شيء لعل الفتى يتذكَّره منذ الطفولة. يتذكَّر صورة فحسب من نظام كونيٍّ لمحه مرة فصار ذلك النظام ميدانًا شخصيًّا له. وكان من الواضح له أنه مشهد وضّاء لا يمكن نسيانه أبدًا، أو إيمان محض قائم على افتراض مفاده أنه كانت هناك، أو ربما كانت هناك، آلية سماوية «مدفوعة بمحرك خبيء من السحر والأحلام البريئة». وفي حين كان المجتمع المحلّي، «بالنظر إلى ميله الطبيعي»، لا يرى في فالوسكا إلا شخصًا أبلهَ، فقد كان لا يشكُّ، من جانبه في أن هذا الذي يبدو مجنونًا، هذا المتجوِّل في طرق مجرَّاته الخاصَّة به بما لديه من براءة تحول دون فساده، وروح كريمة إزاء كلِّ شيءٍ، وإن يكن ذلك كرمًا محرجًا، كان في واقع الأمر «برهانًا على أن الملائكة موجودة بالفعل على الرغم من قوى الانحطاط الشديدة في الزمن الحاضر». إلا أن إيزتر كان يسارع إلى إضافة أن ظاهرةً واحدةً خارجة عن السياق غير كافية للإشارة إلى أن الناس قد

كفُّوا عن ملاحظة تلك الكائنات، أو أنهم صاروا يصرفون النظر عنها حقًّا. وكما أن -بحسب رأيه الخاص- الحساسية الرفيعة والميل إلى الملاحظة الدقيقة اللذين يرصدان ذلك الكرم وذلك الامتناع عن الفساد ويعتبرانها فضائل متميِّزة في حدِّ ذاتها، لا يفعلان ذلك إلا نتيجة معرفة أكيدة بأنه ليس هناك شيء، ولم يكن هناك شيء، يمكن أن تكون تلك الفضيلة إشارة إليه أو زينة له، أو... يمكن التعبير عن الأمر بطريقة أخرى: إنهما يشيران إلى شكلٍ وحيدٍ غير ظاهر، ولا فائدة منه -كأنه نوع من أنواع الزيادة أو الإفراط- وليس له «علَّة ولا تفسير». كان يحبّه مثلما قد يحب عالم حشرات متوحِّد فراشة نادرة؛ وكان يحب الطبيعة الأثيرية المسالمة للكون الذي يتخيَّله فالوسكا، ويطلعه على آرائه الخاصَّة -آراء عن الأرض كانت بدورها تتجاوز كلَّ قدرةٍ على الفهم- وذلك أنه، بما يتجاوز ضمانة حسن النيَّة التي كانت الزيارات المنتظمة لصديقه الشاب تمثِّلها، وكانت تقيه «خطر الجنون الذي لا يمكن تجنُّبه نتيجة تلك العزلة التامَّة»، فقد كان هذا الجمهور المستمع إليه، المكوَّن من شخصٍ واحدٍ، يوفِّر له دليلًا دائمًا يبرهن من غير أيِّ شك على توفُّر الخصائص الملائكية، ويحلُّه من المسؤولية عن الآثار، التي قد تكون مفسدةً، الناتجة عن آرائه الكئيبة ذات العقلانية

العميقة؛ وذلك لأن جمله الدقيقة التي يصوغها بمشقَّة كانت ترتدُّ عن درع فالوسكا اليقيني كأنها سهامٌ خفيفةٌ، أو لعلَّها كانت تخترقه من غير أن تمسَّ فيه عرقًا أو عصبًا أو تسبِّب له أدنى قدر من الأذى. وبطبيعة الحال، ما كان قادرًا على أن يكون واثقًا من هذا ثقةً مطلقةً، فعلى الرغم من الصعوبة الكبيرة، ضمن مجرى الأمور العادي، في تحديد ما ينصبّ عليه اهتمام فالوسكا، كان واضحًا له أن كلماته -هذه المرة- ما كان لها أيّ أثر مهدِّئ، وأن السبب الأكثر وضوحًا لتوتُّر زائره كان الحقيبة التي معه، والورقة المنتزعة من دفتر ملاحظات التي كانت أصابعه ممسكة بها. ومن عساه يدري إن كان إيزتر قد أدرك، على الفور، أسباب هذا التوتُّر المستمرَّ، أو كانت لديه أيّة فكرة عن محتوى الورقة التي كان فالوسكا ممسكًا بها بتوتُّر، وكان يقلِّبها بين أصابعه... إلا أنه اشتبه (حتى على أساس من ذلك الدليل الواهي) في أن زائره قد جاءه رسولًا هذه المرة، لا صديقًا. وبما أن فكرة إرسال شيء إليه، أو فكرة حدوث ما قد يرقى إلى مرتبة التواصل مع الآخرين، قد هالته وأفزعته، فقد أسرع في إعادة الكأس إلى الطاولة الصغيرة وتابع بلطف -ولو حتى من أجل المحافظة على خلوِّ باله ومنع فالوسكا من الكلام- سلسلة أفكاره التي انقطعت، تابعها بإصرار لا هوادة فيه. قال: «في حين أن أبرز علمائنا،

أولئك الأبطال المثابرون لهذا الاضطراب السرمدي، قد أفلحوا أخيرًا، ولسوء الحظ، أفلحوا على نحو ما في تخليص أنفسهم من مجاز الألوهيِّة، فقد سقطوا على الفور في فخِّ النظر إلى هذا التاريخ ذي الوطأة الثقيلة باعتباره نوعًا من مسيرةٍ ظافرةٍ لن يلبث أن يليها تقدُّم خارقٌ للطبيعة، أي ما يدعونه نصر 'الإرادة والعقل'. وعلى الرغم من أنني، كما تعرف، لم أعد قادرًا على الشعور بأي قدر من الدهشة إزاء هذا الأمر، فلا بد لي من الاعتراف لك بأنني لا أزال عاجزًا عن فهم السَّبب الذي يجعل نزولنا عن الأشجار مدعاة لهذا القدر من الاحتفاء في نظرهم! فهل يظنُّون أن الأمر حسنٌ هكذا؟ لست أجد فيه أيَّ شيءٍ مفرح! وفوق هذا، هو ليس مناسبًا لنا تمامًا: ليس عليك إلّا أن تفكر في الزمن الذي نستطيع إمضاؤه، حتى بعد آلاف السنين من التمرين، ونحن واقفون على ساقين اثنتين. نصف يوم، يا صديقي العزيز!... علينا ألا ننسى هذا! وأما في ما يخصُّ تعلُّم الوقوف بقامة منتصبة، فاسمح لي أن أستخدم نفسي مثالًا على ذلك، بالنظر خاصَّةً إلى التاريخ الطبيعي إلى مرضي الذي ينتهي مسار تطوره، وأنت تعرف هذا بنفسك، إلى حالة اسمها داء بيتش كيريو(4) (تطور يرى طبيبي، الدكتور الحكيم بروفاجنيك، أنه لا يمكن تفاديه)، مما يعني أن يجب أن أوطّن نفسي على قبول

حقيقة أن عليَّ قضاء ما بقي من عمري مستلقيًا على ظهري. وهذا يعني، باختصار، أن عليَّ أن أواصل الحياة، إذا واصلت الحياة أصلًا، في وضعية منحنية، أو في وضعية محدودبة إذا شئنا استخدام المعنى الحقيقي للكلمة، وكأن معاناتي الكبيرة ليست إلا تكفيرًا عن العواقب الخطيرة لافتراضنا الطائش، في ماضٍ بعيدٍ، في أن وضعيتنا المنتصبة...! من هنا، فإن انتصابنا وسيرنا على ساقين اثنتين، يا صديقي العزيز، هما نقطتا البدء الرمزيتان لتقدُمنا التاريخي البشع. وإن شئت قول الحقيقة، فإنني لست متفائلًا...»، هز إيزتر رأسه هزَّةً حزينةً... «بأننا قادرون على الوصول إلى نهاية أفضل من ذلك لأننا نهدر أيّة فرصة بسيطة يمكن أن تسمح لنا. وعلى سبيل المثال، في حالة الهبوط على سطح القمر، الذي كان -في زمانه يمكن أن يشكِّل علامة على وداعٍ أكثر جمالًا، ذلك الهبوط الذي كان له أثر كبير عليّ إلى أن وجدت نفسي مضطرًّا، بعد وقتٍ قصيرٍ، أي بعد عودة آرمسترونغ(5) ورفاقه، بأن الأمر كلَّه ما كان إلا سرابًا، وبأن آمالي ما كانت إلا عبثًا؛ وذلك أن جمال كلّ محاولة مهما تكن باهرة- يظلُّ ملوَّثًا بحقيقة أن روّاد الارتحال الكوني، لأسباب لا أفهمها أبدًا، قد نزلوا على سطح القمر وتحقَّقوا من أنهم لم يعودوا واقفين على الأرض، لكنَّهم لم يبقوا هناك! وأنا... تعرف أنني أقول

لك الحقيقة... حسنًا، أنا مستعدٌ للذهاب إلى أي مكان حتى أصير خارج هذا كلِّه». كان صوت إيزتر قد انخفض حتى صار همسًا.

أغمض عينيه كأنه يتخيَّل انطلاقه في طيران كونيٍّ لا نهائيّ. وما كان للمرء أن يقول بأي قدر من الثقة الحقيقية إن الجاذبيّة السحريّة لهذه الرحلة في الفضاء، ولهذه الإقامة الطويلة في ذلك الاتساع العميق، كان لها أن تخفِّف شيئًا من شهيته؛ إلا أن الأمر لم يكن ليدوم أكثر من ثوانٍ معدودة في كلِّ مرَّة. صحيح أنه كان يرفض تخفيف مرارة جملته الأخيرة، لكنه لم يستطع تركها معلَّقة بكل ما فيها من فجاجة متعجلة! هذا فضلًا عن حقيقة إغراءات هذه الرحلة الرمزية كانت قد انقلبت رأسًا على عقب منذ لحظة ولادتها («لن أذهب بعيدًا على أية حال. ومهما ابتعدت، فإن من شأن حظي العاثر أن يجعل الأرض أول شيء أراه»، أو هذا ما كان يظنه)، وكذلك حقيقة أن انزعاجه نتيجة أدنى حركة كانت أكبر مما يظهر عليه. ما كانت لديه أي رغبة حقيقيّة في المشاركة في مغامرات تحيط بها الشكوك، ولا كانت فكرة التجارب العارضة في أوضاع غير مألوفة بالفكرة التي تستهويه لأنه كان يعرف معرفةً كافيةً -»لم يكن يفوته أبدًا أن يميز تمييزًا قاطعًا بين

سحر الوهم وبؤس متابعته التي لا رجاء منها»- أن كل ما يستطيع الاتكال عليه، وقد ووجه بأفق رحلةٍ مدوِّخة من ذلك القبيل، ليس إلا «الطبيعة الفريدة لعجزه عن الحركة». فبعد خمسين سنة من المعاناة، ومن المحاولة والفشل في اجتياز المستنقع الذي تمثِّله المدينة التي هي مسقط رأسه بما فيها من غباء خانق وقذارة تشبه قذارة المستنقعات، توصل أخيرًا إلى العثور على ملجأ يبعده عنها (غرفة المعيشة في بيته). لقد برهنت تلك اللحظة من حلم اليقظة المسكر آه كم كانت قصيرة!- على انعدام أثرها التام في مواجهة المدينة، فما كان قادرًا على إنكار أن رحلة قصيرة على قدميه في وحولِها كانت شيئًا يتجاوز قدرته. ثم إنه لم يكن ينكر هذا، بالطبع؛ ولم يكن ينكر أن ما جعله ممتنعًا عن مغادرة بيته طيلة تلك السنين ليس إلا إحساسه بأن مجرد احتمال التقائه مواطنًا آخر وتبادل بضع كلمات عند زاوية الشارع الذي يغامر بالخروج إليه (مغامرة طائشة) يمكن أن يلغي كل ما أنجزه من تقدُّم في اعتكافه. وهذا لأنه كان يريد نسيان كلّ ما كان مضطرًا إلى معاناته خلال عشرات السنين مما يدعونه «قيادته الأكاديمية الموسيقية»: هجمات البلاهة الطاحنة تلك، والنظرات الجاهلة الفارغة في عيون الناس، والانعدام الكامل لأيِّ برعمٍ من براعم الذكاء لدى صغار السنِّ، والرائحة

العفنة للبلادة الروحيّة، والقوة الغاشمة للتفاهة والعجرفة، وقلة ما يمكن ترقّبه تحت وطأة ما كاد يجعله ينهار، هو نفسه. كان يريد نسيان الأولاد الذين تلتمع عيونهم التماعًا لا يخطئه النظر، تلتمع رغبة في الانقضاض بالفؤوس على البيانو المكروه؛ والأوركسترا السيمفونية الكبيرة التي كان مرغمًا على تكوينها عبر انتقاء أعضائها من بين صفوف معلِّمي الموسيقى السكِّيرين ومحبِّي الموسيقى ذوي العيون الدامعة. يريد أن ينسى التَّصفيق الهادر الذي كان جمهور جاهل، لكنه متحمِّس، يقابل به -شهرًا بعد شهر- تلك الفرقة الفضائحيّة، الفظيعة فظاعة لا لبس فيها، المكوَّنة من أشخاصٍ منعدمي القدرات لا تصلح مواهبهم المتواضعة حتى لإحياء حفل زفاف قروي. يريد نسيان الصراع الذي لا نهاية له من أجل تعليمهم الموسيقى، ومناشداته العبثية بأن يعزفوا ما يتجاوز مقطوعةً موسيقيةً واحدةً طيلة الوقت... كان يريد نسيان كلّ تلك «الطقوس المستمرّة لصبره المشهود». كان هناك أشخاصٌ كثيرون يريد أن يمسحهم من ذاكرته مسحًا: الخيَّاط الأحدب والنَر؛ ومدير المدرسة الثانوية ليهيل، الذي كان ذا حماقة لا نظير لها؛ والشاعر المحلِّي لانادابان؛ ولاعب الشطرنج المهووس ماهوفينتش الذي كان موظَّفًا في خزان المياه؛ والسيدة بلوف وزوجيها الاثنين؛

والدكتور بروفاجنيك الذي نجح آخر الأمر في تسهيل وصول كل من يأتيه إلى القبر مستعينًا بشهادة الطب التي يحملها... كانوا يستحقُّون ذلك جميعًا: من السيدة نيوزبيك إلى مدير الشرطة المجنون إلى درجة ميؤوس منها، ومن رئيس المجلس المحلِّي المولع بالفتيات الصغيرات إلى آخر كنَّاس شوارع في المدينة.
وباختصار، كان ينبغي إنهاء «بيئة توالد ذلك الغباء كلّها، بضربة واحدة، وإلى الأبد». وبطبيعة الحال، كان الشخص الذي يتمنّى، مخلصًا في تمنِّيه كل الإخلاص أن يبقى بعيدًا عنه، هو السيدة إيزتر، زوجته، ذلك الوحش الخطير من وحوش ما قبل التاريخ الذي تمكّن، «بفضل من الرب»، من الانفصال عنه قبل سنين... الوحش الذي لا يذكّره إلا بواحد من مرتزقة العصور الوسطى الذين لا يعرفون شفقةً ولا رحمةً. لقد تورَّط في ملهاة الزواج الجهنميّة تلك نتيجة لحظة لا تغتفر من لحظات طيش الشباب. إنها المرأة التي تلخِّص في جوهرها الخطير المفزع على نحو فريد مجمل «مشهد انقشاع الأوهام متعدِّد الوجوه» لمجتمع المدينة، المشهد الذي تمكَّنت هي، في نظره، (تمكَّنت على نحو ما)، من تمثيله أوضح تمثيل. وحتى منذ ما قبل البداية، عندما ينظر الآن إلى الأمر انطلاقًا من حصيلته، كانت حقيقة كونه زوجًا قد أرخت سدولها عليه منذ أن نظر إلى

عروسه نظرةً شاملةً بعض الشيء فوجد نفسه في مواجهة مشكلة لا سبيل إلى حلِّها، فكيف يتفادى مخاطبة خطيبته اليانعة على نحو مفرط باسمها الأول المدهش؟ (فكَّر وقتها «كيف أستطيع أن أسمِّيها تودي وهو اسم جنيّة لطيفة في قصيدة» مع أنني أراها أشبه بكيس بطاطس عتيقة؟).

وعلى الرغم من أن هذه المشكلة صارت تبدو، بعد حين من الزمن، غير مهمَّة نسبيًا، فإنه لم يجرؤ أبدًا على نطق اسمها البديل بصوتٍ مرتفعٍ. وذلك لأن «المظهر القاتل» لشريكته في الزواج لم يكن شيئًا يستحقُّ الذكر إنْ هو قورن بما اكتشفه من الطبع الداخلي لـ«نصفه الحلو»، ذلك الطبع الذي يشير على نحو لا لبس فيه إلى شيء عسكري يشبه ما لدى الضباط... طبعٌ لا يدرك إلا إيقاعًا واحدًا هو إيقاع المشية العسكريّة، ولا يدرك إلا نغمةً واحدةً هي نغمة البوق الداعي إلى حمل السلاح. ولما كان غير قادرٍ على مواكبتها، فقد كان صوتُها الذي يشبه نفير الحرب يجعله يرتعد، فتحوَّلَ زواجه إلى ما كان -في نظره- زنزانةً شيطانيةً أو مصيدةً لا يعجزه الفرار منها فحسب، بل إن فكرة الفرار منها كانت تبدو أبعد من قدراته. وبدلًا من «طاقة الحياة الأساسية، وحاجة الرجل البسيط الماسَّة إلى اليقين الأخلاقي» اللتين توقَّعهما وقت خطبته،

(توقَّعهما مخطئًا، وعلى نحو يجعله يشعر بالعار كلَّما تذكّر ذلك)، فقد وجد نفسه يواجه شيئًا يرقى، من غير مبالغة، إلى مرتبة «البلاهة» المكثَّفة الممتدَّة من الغثيان إلى الطموح الجامح المزهو بنفسه، وإلى نوعٍ من «الحسابات السوقية» التي تجريها روحٌ فجّةٌ، روح الثكنات... خشونة، وجفاء،

وجحيم مليء بكرهٍ هدَّام عميقٍ، وبفظاظة شديدة أدت به، بعد عشرات السنين، إلى حالةٍ عجز تام. لقد صار عاجزًا عديم الحَوْل لأنه ما كان قادرًا على احتمالها، وما كان قادرًا على تخليص نفسه منها (كان مجرَّد ذكر كلمة الطلاق كفيلًا بانسكاب شلالٍ عنيفٍ من الإساءات فوق رأسه)؛ إلا أنه ظلَّ محتملًا الحياة معها تحت سقف واحد قرابة ثلاثين سنة إلى أن جاء يوم -بعد ثلاثين سنة كابوسية- بلغت فيه حياته نقطة الحضيض (بلغت نقطة لا مزيد من الانحدار بعدها). كان جالسًا عند نافذة مكتبه، مكتب المدير، في الكنيسة التي جرى تحويلها إلى أكاديمية للموسيقى، متأمِّلًا مدى أهمية بعض الملاحظات المقلقة التي سمعها من فراكبرغر الضرير الاختصاصي في ضبط البيانو بعد أن صحبه حتى الباب عند انصرافه. نظر إلى غروب الشمس الشاحب، ورأى الناس سائرين في الشوارع الباردة المظلمة عائدين إلى بيوتهم، حاملين أكياسًا من النايلون، فلمعت الفكرة في

رأسه وأدرك ببطء أن عليه أن يعود إلى بيته هو أيضًا، فأطبق عليه إحساسٌ بالاختناق ما كان متوقَّعًا وما كان مألوفًا على الإطلاق. أراد أن ينهضَ، ربما لكي يشرب كأس ماء، لكن أطرافه رفضت أن تتحرَّك، فأدرك في تلك اللحظة أنها ليست نوبة عابرة من العجز عن التنفُّس، بل هو التَّعب العميق الدائم، والقرف، والمرارة، والبؤس الذي لا حدود له، بؤسٌ مستمرٌ منذ أكثر من خمسين عامًا من «كونه مستنفَدًا بغروبات الشمس هذه وبرحلات العودة إلى البيت»... أدرك أن هذا هو ما أطبق عليه في قبضته. ومع وصوله إلى بيته في الجادَّة، وإغلاقه بابه من خلفه، صار مدركًا أنه ما عاد قادرًا على احتمال الأمر أكثر من ذلك فقرَّر أن يستلقي؛ قرَّر أن يستلقي ولا يقوم أبدًا بعد ذلك حتى لا يخسر أيَّة دقيقة أخرى، لأنه عرف لحظة رقوده في سريره تلك الليلة أن «العبء الفادح لانحدار الإنسان إلى الجنون، والبلاهة، والبلادة، والعجز عن الإدراك، وانعدام الكرامة، وانعدام الذوق، والجفاء، والطفولية، والجهل، والغباء عامّة»، ليس شيئًا يستطيع الإنسان أن ينام ويصحو فيجده قد انجلى عنه، حتى لو استمرَّ في فعل ذلك خمسين سنة أخرى. رمى بحذره السابق كلِّه جانبًا، وطلب من السيدة إيزتر ترك البيت في أقرب فرصة مناسبة، وأبلغ مكتبه بأن حالة التدهور الجسدي التي أصابته ترغمه على

التنازل فورًا عن امتيازاته والتزاماته كلِّها، ونتيجة ذلك -وقد أدهشه هذا- اختفت زوجته فجأة كما يحدث في الحكايات الخرافيّة، ووصل (بالبريد الخاص) قرار رسمي بتقاعده بعد بضعة أسابيع حاملًا له أطيب التمنِّيّات لقاء «عمله المتميّز في البحث الموسيقي». وقد حمل القرار توقيعًا كان على شكل خربشة غير مفهومة؛ فكان معنى ذلك أنه، منذ ذلك اليوم فصاعدًا، وبفضل من حسن حظٍّ لا يمكن وصفه، سيظلُّ من غير أن يزعجه شيء ليعيش من أجل ما صار الآن يعتبره مهمته الأولى، ألا وهو الاعتكاف في فراشه ومحاربة الضجر من خلال تأليف جمل، في الليل والنهار، تكون تنويعات على «الموضوع المرِّ نفسه». لم تكن لديه أيّة فكرة عمن، أو عن ماذا، يتعيَّن عليه توجيه شكره إليه بسبب السلوك الاستثنائي المفاجئ للمؤسسة التي كان يعمل فيها، وبسبب سلوك زوجته، وخاصَّةً بعد أن غمرته أولى موجات الارتياح. إلا أن القناعة العامّة بأن تقاعده المفاجئ لم يكن إلا نتيجة حقيقة أن سنواته الكثيرة في البحث في «عالم الأصوات» قد بلغت منعطفًا حاسمًا، أخيرًا كانت قناعة قائمة على سوء فهم شديد، بل كانت فرضيّة خاطئة (ليست من غير أساسٍ تمامًا)، وذلك بصرف النظر عن أنه كان أمرًا غير صحيح -في حالته- أن يتحدَّث المرء عن البحث الموسيقي بقدر ما

كانت المسألة كلّها عائدة إلى «صحوة ضد موسيقية»، صحوة استمرّت التعمية عليها قرونًا، «كشفٌ حاسمٌ» كان في نظره فضيحةً فاجعةً كلِّيًا. في ذلك اليوم المصيري الحاسم، كان يقوم بجولته المسائية المعتادة على المباني حتى يتحقَّق من عدم بقاء أحد فيها قبل إقفالها. وجد نفسه في قاعة الأكاديمية الرئيسية، فرأى فراكبرغر، وكان واضحًا له أن الآخرين قد نسوه هناك؛ وكما حدث مرَّات كثيرة قبل ذلك، لم يجد نفسه قادرًا على احتمال تمتمة ذلك الرجل العجوز لنفسه كلَّما أتى في زيارته الشهرية لكي يضبط آلات البيانو. عادة ما كان إيزتر، نتيجة حساسيته (أو ربما نتيجة نفوره) يخرج من الغرفة بهدوء عند سماع تمتمة الرجل العجوز، وذلك من غير أن يشعره بوجوده، ثم يجعل أحدًا غيره يذهب لكي يحثّه على الانصراف. لكنه لم يجد أحدًا في ذلك المساء، لم يجد حتى واحدًا من عمال التنظيف في المبنى؛ وهكذا، صار عليه -شخصيًا- أن ينتشله من تأمُّلاته. كان الرجل حاملًا في يده شوكةً رنّانةً(6) من المفترض أن تكون عونًا له في التمييز الواضح بين النغمات المتقاربة؛ وكان ذلك الحِرَفي الأستاذ منبطحًا فوق البيانو، كعادته، غير قادر على أن يأتي بأبسط حركةٍ من غير صوت يرافقها، وكان منخرطًا في محادثة بهيجة من جانب واحد. لم تبدُ

تمتمته أول الأمر أكثر من ثرثرة كسلى؛ وبقدر ما كان فراكبرغر نفسه معنيًّا بالأمر، لم تكن تلك التمتمة أكثر من ذلك. لكنه لم يلبث أن عثر على وتر غير مضبوط، فصاح مرّة ثانية («كيف وصلت هذه النَّغمة الحلوة إليك؟ آسف جدًّا، يا عزيزي، لكن عليَّ أن أخفض نغمتك درجة أو اثنتين...»). عند ذلك، صار إيزتر منتبهًا إلى كلامه أشدّ الانتباه. لقد عاش، منذ أن كان صغير السِّن، مقتنعًا قناعة راسخة بأن الموسيقى، التي كانت تمثِّل -بالنسبة إليه- سحر التناغم والصدى ذا القدرة الكليَّة، وتؤمّن للبشرية سبيل البقاء المضمون في مواجهة قذارة العالم المحيط وأرجاسه... الموسيقى التي هي قريبة من الكمال إلى أقصى ما يستطيع تخيله؛ إلا أن رائحة العطر الرخيص في الصالة مكتومة الهواءِ، ومعها بربرة فراكبرغر الخَرِفة، كانت انتهاكًا فظًّا لتلك المثاليّة الشفافة. كان هذا المخلوق المسمى فراكبرغر القشَّة الأخيرة في ذلك المساء: استبدَّ الغضب بإيزتر... غضبٌ كان لا يزال في مرحلته الأولى... فأمسك بيدي الرجل، على نحو يخالف طبيعته مخالفةً تامةً، فوضعهما خلف ظهره ثم ساقه خارج القاعة. ورمى بعصاه البيضاء(7) من خلفه بدلًا من أن يضعها في يده. لكنه لم يستطع التخلّص من كلماته بمثل سهولة تخلّصه منه: على غرار أصوات السيرينات، ظلّت تلك الكلمات تدوّي

في داخله مُعوِلةً، ظلّت تعذّبه؛ ولعله أحسَّ منذ ذلك الوقت بما ستؤدِّي إليه تلك الثرثرة التي تبدو بريئة، فلم يستطع إخراج تلك الكلمات من ذهنه. وعلى نحو طبيعي جدًا، تذكَّر جملةً من أيام دراسته الجامعية، جملة كانت تعني شيئًا من قبيل أن «ضبط الآلات الموسيقية الغربية خلال السنوات المئتين، أو الثلاثمئة، الماضية، كان يجري وفق ما يُعرف بالنغمات المضبوطة المعتدلة». وعلى الرغم من أنه لم ير، في ذلك الوقت، أيَّة دلالة خاصّة لتلك المعلومة، ولم يكن يعنيه ما قد يكون كامنًا خلف هذه الجملة البسيطة، فإن سماعه الآن التمتمة المرحة لفراكبرغر المنعزل أوحى له بأنها كانت تشير إلى سرٍّ من الأسرار، أو إلى نوعٍ من عبء غامضٍ لا بد له من إزاحته عنه قبل أن يصلَ إلى سحق إيمانه الشديد بكمال التعبير الموسيقي. وفي الأسابيع التي أعقبت تقاعده، فور انتهائه بسلام من الدوَّامات الأكثر خطورةً لإرهاقه الشخصي، انكبَّ على العمل الشاقّ المتمثِّل في غوصه في الموضوع الذي بدا له أنه يستهدف شخصه استهدافًا شديد الشراسة. سرعان ما صار واضحًا له أن تعمّقه في الموضوع ينطوي على تورُّطه في صراعٍ تحرُّريٍّ مؤلم في مواجهة الخيالات العنيدة الأخيرة لخداع الذات؛ فما إن بدأ يشقّ طريقه عبر الرفوف المغبرَّة الممتلئة كتبًا على صلة بهذا

الموضوع، حتى اكتشف أنه قد بدأ يشقّ طريق الخروج من نظامه بحيث يتخلّص من وهمه الأخير المتعلِّق بطبيعة «المقاومة الموسيقية» الذي كان يحاول به إسناد قيَمه المهتزّة وتدعيمها. وتمامًا مثلما عمد فراكبرغر إلى «خفض الوتر درجةً أو اثنتين»، بدأ بدوره يخفِّض سراب البطولة في أفكاره إلى أن انقشعت عنه تلك السماوات المدلهمَّة التي كانت تزداد ظلمة. فمن خلال نزعه القشور عما هو جوهري، أو بالأحرى استخراجه الجوهر الكامن خلف المفاهيم، كان يحاول -قبل أي شيء آخر التفريق بين الصوت الموسيقي والصوت غير الموسيقي، منطلقًا من أن الأول يكون متميِّزًا بتناظرات نابعة من التوافقات الصوتية الملازمة لطبيعته الفيزيائية الأساسية، وبأن خصِّيصته التي تميِّزه ماثلة في حقيقة أن التردُّد الصوتي الواحد مؤلَّفٌ من سلاسل بأسرها مما يسمونه موجات دورية يمكن التعبير عنها بعلاقات بين أعداد كاملة. ثم مضى بعد ذلك إلى دراسة الشروط الأساسية التي يمكن في ظلِّها أن يوجد صوتان ضمن علاقة تناغم فيما بينهما، وتوصَّل إلى أن «المسرَّة»، أو المُعادل الموسيقي لذلك الإحساس، تحدثُ عندما يُنتج اثنان من الأصوات المذكورة أعلاه أكبر عدد من التوافقات الصوتية، وعندما يكون أقلّ قدر من تلك التوافقات واقعًا ضمن حدٍّ حرجٍ من التقارب في ما

بينها. كان ذلك كلّه حتى يصير قادرًا على أن يحدِّد، من غير أي ظلٍّ من شكٍّ، مفهوم النظام الموسيقي وتاريخه الذي كانت فيه محطَّات تدعو إلى الأسف الشديد، فكان موشكًا على التوصّل إلى استنتاجه النهائي ذي الأهمية الحاسمة. ونتيجة حالته الذهنية اللامبالية، كان ميالًا كلما تعلَّم شيئًا جديدًا إلى نسيان تفاصيل بعينها، مما يجعله مضطرًا إلى العودة من جديد إلى مهمّة إنعاش ذاكرته وتقويتها. وهكذا، فلم يكن من المفاجئ في شيء أن صارت غرفته، بعد تلك الأسابيع المحمومة، مدفونةً في جبل كبير من أوراق الملاحظات التي كتب عليها كمية كبيرة من المعادلات الرياضية والحسابات والكسور والفواصل العشرية والتردُّدات وعلامات التوافُقات الموسيقية بحيث صار المشي في المكان متعذِّرًا لكثرتها. كان عليه أن يفهم فيثاغورس وخفاياه الرياضية، وكيف أقام ذلك الأستاذ اليوناني الكبير، محاطًا بتلامذته المعجبين به، نظامًا موسيقيًا ساحرًا كله، بطريقته الخاصَّة، وذلك كلِّه من خلال حسابات معتمدة على طول وتر مربوطٍ بين نقطتين. وبالتأكيد، صار معجبًا ببصيرة أرستوكسونس اللامعة، إذ وضع ثقته في المهارة الموسيقية الأصيلة وروح الابتكار الفطرية لدى العازف القديم، واعتمد على الأذن اعتمادًا كليًّا، وآمن بأن السبيل الأفضل الذي يستطيع اتخاذه (لأن يسمع

بوضوح تلك العلاقة الشاملة بين النغمات النقية) هو ضبط نغمات توافقات آلته الموسيقية على رباعي النغمات الأولمبي؛ بكلمات أخرى، كان عليه أن يقرَّ، ويعجب أيضًا، بحقيقة أن «الفيلسوف الذي كان شديد الاهتمام باللحظة الكامنة خلف الكون كلِّه، وبالتعبير الموسيقي الهارموني» قد توصل، من مقدمات متميزة مزاجية كليًا، إلى استنتاجات مماثلة إلى حدٍّ مفاجئ. وفي الوقت عينه، كان مرغمًا على الاعتراف بأن ما ينجم عن ذلك (لإضفاء شيء من الظرف على التاريخ الحزين لما يدعونه تطوّرُ علم الموسيقى) يبيِّن حدود الضبط الطبيعي للآلات الموسيقية. وجد نفسه أيضًا مضطرًا إلى ملاحظة العملية الإشكالية لضبط أيّة آلة موسيقية، تلك العملية التي ألغت آخر الأمر استخدام النغمات الصوتية العليا -نتيجة الصعوبات الملازمة لأي تعديل- مما جعل المسألة الأساسية، خطوة فخطوة، وعلى نحو متدرِّج، مسألةً منسيةً: مسألة معنى ارتفاع الصوت وقيمته. وكانت الطريق التي اختطها المعلم الأستاذ سالبناس من سلامانكا، والمعلم الأستاذ الصيني اكساي يونغ، مرورًا بستيفينغ وبراتوريوس وميرسين وصولًا إلى أستاذ الأرغن في هالبرشتادت (مع أن هذا الأخير قد تمكَّن من حلِّ المسألة مرّة، وإلى الأبد، على نحو مرضٍ له في كتابه الصادر العام 1691 بعنوان

«في درجة الحرارة الموسيقية»)، قد أفضت إلى ترك الأمر كله على حاله، فظلَّت مشكلة الضبط الموسيقي المعقَّدة قائمة، أو مشكلة كيف يمكن للمرء أن يستخدم نغمات السلم الموسيقي الأوروبي السبع كلّها استخدامًا حرًّا إلى أقصى حدٍّ ممكن مع استخدام الآلات الموسيقية المضبوطة ضبطًا محدَّدًا ثابتًا. محتفظًا لنفسه بالحقِّ بتغيير رأيه، قطع فيركمايستر العقدة الغوردية(8) بضربة فروسية من سيفه. فلم يحتفظ إلا بالفواصل الدقيقة بين الأوكتافات، وقسَّم المجال كلَّه إلى اثني عشر نصف نغمة -فما أهمية موسيقى الأكوان بالنسبة إليه؟- قسمه إلى اثني عشر قسمًا من الأقسام البسيطة المتساوية فتغلَّب بسهولة، بالتالي، على المقاومة الواهية لأولئك الذين لديهم توقٌ غامضٌ إلى التناسقات النغميّة النقيّة مما خلق ابتهاجًا مفهومًا لدى المؤلفين الموسيقيين، فاستقرَّ له المقام الموسيقي. لقد استقرَّ له هذا المقام الموسيقي المخجل المثير للغضب... مقام ربَطه إيزتر ربطًا تاريخيًا بأروع التوافقات الموسيقية وبأكثر التردُّدات المشتركة سموًّا، فهو مقام كانت بموجبه كل نغمة من كل عمل موسيقي كبير، عبر قرون كثيرة، تُبتكر للإيحاء بعالم المُثُل الأفلاطوني الكبير.

وقد صُدم إيزتر عندما اكتشف أنه كان يضيِّع وقته،

بكل بساطة، في الخوض في مستنقعات البساطة السامَّة، تلك البساطة التي اتضح في حقيقة الأمر أنها «زائفة حتى لبِّها». تقاطر الخبراء لتقريظ عبقرية المعلّم أندرياس الاستثنائية على الرغم من أنه، إذا أردنا قول الحقيقة، لم يكن مجدِّدًا بقدر ما كان مستغلًّا لمن سبقوه؛ وقد راح أولئك الخبراء يناقشون مسألة التعديل المتساوي وكأن هذا الغشّ، هذا الاحتيال، كان من أكثر الأشياء في العالم وضوحًا. لم يقف الأمر عند ذلك، بل إن من وقع الاختيار عليهم لدراسة الأمر، أثبتوا (في محاولاتهم الرامية إلى كشف الأهمية الحقيقية للظاهرة) أنهم أكثر براعة من المرحوم فيركمايستر نفسه. ففي بعض الأحيان، كانوا يلقون محاضرات في كيف أن المؤلِّفين الموسيقيين الذي بلغ من سوء طالعهم أن يغرقوا عميقًا في سجن النغمات التسع التي يستطيعون استخدامها (سائرين بحسب أصل نظرية تساوي الأبعاد وانتشارها) قد صاروا الآن قادرين على الخوض الشجاع في أماكن مجهولة غير مكتشفة بعد. وفي أوقات أخرى، كانوا يلقون محاضرات عن حقيقة أن ما يستطيعون الآن الإشارة إليه، ضمن أقواس مزدوجةٍ تفيد معنى السخرية بأنه «ضبط» طبيعي للنغمات، كان يمثل مشكلة تناسق نغمي خطيرة لا بد من مواجهتها. وفي ما يخصُّ هذه النقطة، كانوا يعودون، عادة، إلى

مسألة الحساسيَّة، فمن عساه يتخلَّى بإرادته عن الأعمال الخالدة لـ«بيتهوفن وموزارت وبرامز»، لمجرد أن أداء أعمالهم العبقرية يشتمل على افتراقٍ صغيرٍ جدًّا عن حالة النقاء المطلق للنغمات. كانوا متفقين كُلّهم على أن «علينا تجاوز التفاصيل التافهة»؛ وعلى الرغم من وجود واحدٍ أو اثنين من سكان الأبراج العاجية ممن تجرأوا على سبيل الترضية، على الحديث عن تسوية ما، فإن الأكثرية الغالبة كانت أميَل إلى اعتماد ابتسامةٍ متعاليةٍ، وإلى المثابرة على وضع المصطلح بين قوسين مزدوجين؛ فكان هؤلاء يتودَّدون إلى قرّائهم ويهمسون لهم بنبرة من يستودعهم سرًّا قائلين إن الضبط النقيَّ للنغمات ليس في الواقع إلا سرابًا، وإن ما من شيء اسمه نغمة نقية؛ وحتى في حال وجودها، فما أهمية الأمر إذا كان كلُّ شيء يسير بنجاح؟ عند هذه النقطة، جمع إيزتر كلّ الأدلّة على إخفاقات البشر، وتلك الأعمال الكبرى المتعلّقة بالصوتيات، جمعها معًا وأودعها سلّة المهملات، فسبَّب -من غير أن يدري عن ذلك شيئًا- سرورًا عظيمًا للسيّدة هارر، وكذلك لتاجر الكتب المستعملة في الحيّ. وفوق ذلك، أحسّ بأن وقت التوصّل إلى النتائج الملائمة قد حان، وذلك حتى يكون تصرّفه الشّخصيِّ هذا بمثابة إعلان عامٍّ عن انتهاء دراساته الشاقّة المرهِقة. لم يكن يشكُّ لحظةً واحدةً في

أنه لا يتعامل مع مسائل تقنية فحسب، بل مع مسائل «ذات أهمية فلسفية خطيرة». ثم لم يلبث أن أدرك أنه، بعد أن تأمَّل في الأمر تأمُّلًا أكثر عمقًا، عبر مساره من «التعديل البسيط الذي أدخله فراكبرغر على الوتر الخامس عندما خفضه خفضًا ضئيلًا» إلى أبحاثه المتحمِّسة في النغمات الموسيقية، قد بلغ أزمة إيمان لا مفر منها، حيث كان عليه أن يسأل نفسه إن كان نظام التوافقات الموسيقية الذي تشير إليه تلك الأعمال العبقرية كلّها، بأهمِّيتها المطلقة الواضحة، والذي أقام عليه قناعاته الراسخة (هو الذي لا يمكن اتهامه أبدًا بأنه صاحب أوهام)، قد كان له وجود أصلًا. وفي وقتٍ لاحقٍ، وما إن مرَّت موجات العاطفة الأولى التي كانت شديدةً المرارة من غير شكٍّ، وبعد أن هدأت مشاعره بعض الشيء، صار قادرًا على مواجهة ما هو «واقع ضمن قدرته على الفهم». ثم لم يلبث أن أحسَّ قدرًا أكيدًا من خفَّة الروح بعد أن تقبَّل هذا الوضع، وذلك لأنه رأى بوضوح ودقّةٍ ما كان قد حدث. لقد صار إيزتر واثقًا من أن العالم مكونٌ فحسب من «قوة لا مبالية تسبِّب الخيبة عند كل منعطف»، وأن اهتماماته الكثيرة كانت غير متوافقة في ما بينها، وكانت مليئة أكثر مما ينبغي لها بأصوات التصادم والتصاعد والصراخ... ذلك الضجيج كلّه الذي لم يكن أكثر من أصوات متنافرة متكسِّرة

منبعثة عن حالةٍ من الصراع، وأن العالم... إلخ، إن كان لنا أن ندرك هذه الحقيقة! وأن «زملاءه من بني البشر» الذين يجدون أنفسهم، هم أيضًا، في مهبِّ الريح، والذين لا يستطيعون احتمال حرمانهم من فكرة ما عن حالة بعيدة من النور والعذوبة، محكومون بأن تحرقهم حمى الترقُّب إلى الأبد، وبأن يظلُّوا منتظرين شيئًا لا يستطيعون حتى أن يحدِّدوه، وبأن يأملوا فيه على الرغم من حقيقة أن الأدلة المتوفِّرة كلِّها التي لا تفتأ تزداد تراكمًا

في كل يوم تقول بعدم وجود ذلك الشيء، وبالتالي فهي تبيِّن أن انتظارهم لا معنى له على الإطلاق. ليس الإيمان مسألة اعتقاد في شيء ما (على الرغم من أن إيزتر أدرك مدى غبائه الخاصّ في ما يتَّصل بهذه النقطة)، بل هو الاعتقاد بأن الأمور يمكن -على نحو ما- أن تكون مختلفة. وعلى النحو نفسه، لم تكن الموسيقى تعبيرًا عن الجزء الأفضل من أنفسنا، أو إحالة إلى فكرة ما عن عالم أفضل، بل إخفاء لحقيقة أن ذواتنا التي لا سبيل إلى الصفح عنها، وأن الحالة المؤسفة للعالم... لكن، لا... ليست هي مجرد إخفاء لتلك الحقيقة، بل إنكارٌ معوَجّ تامّ لتلك الحقيقة: لقد كانت الموسيقى علاجًا غير ناجع، أو دواء مسكنًا ذا مفعول مخدّر. لقد كانت هناك أزمان أسعد من زماننا (أو، هكذا

كان يقول في نفسه آنذاك)؛ فليس على المرء إلا أن يفكِّر في زمن فيثاغورس وأرستوكسينوس، عندما لم يكن يزعج زملاءنا من «بني البشر» أيُّ شكٍّ، ولم يشعروا بأيّة حاجة إلى الافتراق عن اطمئنان إلى أساليبهم البريئة براءة الأطفال، وذلك لمعرفتهم أن التناغمات السماوية شيء خاصٌّ بالسماء، ولأنهم كانوا قانعين بأن الموسيقى التي يبتكرونها بآلاتهم الموسيقية المضبوطة ضبطًا نقيًّا بسيطًا توفّر لهم لمحة من اتساع الفضاء الممتدّ بين النجوم. وأما في ما بعد، أي بعد ما يدعونه تحرُّرًا من الكوزمولوجيا المنظّمة، فقد صارت أهمية هذا كله أقل من لا شيء لأن العصبة المشوّشة المتغطرسة التي فضّلت الفوضى المحض لم تكن راغبة في شيء من هذا، بل أصرّت على التحقيق الكامل لما لم يكن أكثر من حلمٍ هشٍّ، ذلك الحلم الذي تفتت وتهاوى -بالطبع- وتركهم يجمعون ما يستطيعون جمعه منه، تلك المهمّة التي عهدوا بها إلى أشخاصٍ من أمثال ساليناس وفيركمايستر كرَّسوا نهاراتهم ولياليهم من أجل تحويل الزيف إلى حقيقة فأصابوا نجاحًا باهرًا بحيث صار عامّة الناس الممتنِّين لهم قادرين على الجلوس مرتاحين والنظر إلى أنفسهم معجبين والقول: ممتاز... يا له من عملٍ متقنٍ! يا له من عملٍ متقنٍ، هذا ما قاله إيزتر لنفسه، فكانت أول فكرة تأتيه هي أن عليه تحطيم البيانو

القديم أو رميه خارج البيت. لكنه سرعان ما أدرك أن تلك هي الطريقة الأقل جاذبية لتخليص نفسه من الذكرى المخجلة لسذاجته وسرعة تصديقه. وبعد ذلك بوقتٍ قصير، أعاد النظر في الوضع وقرر ترك بيانو ستينواي والبحث، بدلًا من تحطيمه، عن وسيلة أكثر ملاءمة لتطهير نفسه. تسلَّح بأداة ضبط البيانو ذات الرأس المسطَّح، وبمقياس تردداتٍ صوتيّة حسّاس (كان الحصول عليه أمرًا صعبًا في ظلِّ «المناخ التجاري الراهن»)، ثم راح يمضي مزيدًا من الوقت على البيانو المتداعي. كان مؤمنًا بأن الاستعداد أهم شيء، ولم يفعل غير الاستعداد فصار مقتنعًا عندما أنهى مهمَّته بأن ما سيسمعه لن يكون مدهشًا له بأي حال من الأحوال.

كانت تلك فترة من إعادة النظر في عملية ضبط البيانو، أو كانت ما أحبَّ أن يسمِّيه «تعديلاته الحذرة التي أدخلها على عمل فيركمايستر»؛ وقد كانت في حقيقة الأمر تعديلات يدخلها على حساسيته نفسه. وفي حين كان المشروع السابق نجاحًا مطلقًا، قد كان اللاحق مسألة أكثر تعقيدًا لم يشعر أبدًا بأنه متأكّد من حكمه عليه. وذلك لأن اليوم الكبير جاء، وصار أخيرًا قادرًا على الجلوس أمام البيانو الذي أعاد ضبطه، وتكريس نفسه -هذا ما كان قد اعتزمه- لعزف مقطوعة واحدة من الموسيقى طيلة ما بقي من حياته (اللآلئ الأكثر تألّقًا من

أعلى الأرقام في كاتالوج فوهلتيمبيريرتي كاليفيير لأنها كانت تلائم غايته تمام الملاءمة). إلا أن المقطوعة الأولى التي اختارها، الافتتاحية الموسيقية من مقام سي ماجور، وبدلًا من أن تعطي الإحساس المتوقّع «بقوس قزح مرتعش»، كان لها في أذنيه وقع ضجيجٍ مزعجٍ غير محتمل وجد نفسه مرغمًا على الاعترافً بأنه لمً يكن يتوقّعه أبدًا. وأما الافتتاحية الموسيقية الشهيرة من مقام إي فلات مينور، فلم يذكِّره الصوت الذي أعطته عبر هذه الآلة الموسيقية المضبوطة ضبطًا إلهيًا إلا بمشهد عرس ريفي يتجشّأ فيه المدعون ويتقيأون وينزلقون ساقطين عن كراسيهم وهم يزدادون سكرًا، وبعروسٍ بدينةٍ حولاء أفرطوا في تزيينها بالمساحيق - عروس أكثر سكرًا من بقية الحضور- تخرج من واحدة من الغرف وهي تحلم بالمستقبل الجميل! وحتى يخفِّف من معاناته، حاول أن يعزف الافتتاحية من مقام إف ماجور، تلك الافتتاحية من الكتاب الثاني التي فيها إحالة إلى عناصر من أعمال موسيقية فرنسية، لكنّها بدت فظيعة مثلما بدت المقطوعة الأولى التي بدأ بها. لقد كرّس وقته كلّه، حتى الآن، من أجل «إعادة الضبط الشاملة»؛ فكان معنى هذا أنه قد حان وقت الانخراط في تعديلات طويلة مضنية، وهي عملية تستدعي اعتماده العميق على موارده الداخلية وإجهاد كل عصب فيه.

وعندما نجح، بعد شهور من العمل، لا في محبّة ما توصّل إليه، بل في تحمّل تلك الضوضاء التي تمزق الأذنين، قرر أن يخفِّض مدة عمله التي تمتدّ على فترتين زمنتين كل يوم، وتستمرّ كلٌّ منهما ساعتين اثنتين، إلى ستين دقيقة من العذاب اليومي، وليس أكثر من ذلك. لم يهمل تلك الساعة أبدًا، ولا حتى بعد أن صار فالوسكا زائرًا منتظمًا لديه. والواقع أنه بدأ يشاطره سرَّه المؤلم، سرّ خيبته العميقة وعقابه اليومي لنفسه، بعد أن صار الشاب صديقه، فتجاوز دور المزوِّد اليومي بالطعام، وصار مؤتمنًا على أسراره وخادمًا له في كلِّ أمر.
شرح لفالوسكا آليات السلَّم الموسيقي، لافتًا انتباهه أن ما من شيء آلي فيه لأن العلامات الموسيقية السبع، التي تبدو ثابتة في ظاهرها ليست مجرّد أسباع من أوكتاف موحَّد، بل هي سبع خصائص متمايزة مثل سبعة نجوم في كوكبة واحدة. وقد نوّره في ما يخصّ حدود «البصيرة»، وكيف أن النغم -تحديدًا بسبب عدم تطابق تلك الخصائص السبع- لا يمكن عزفه ابتداء من أيّة نقطة في السلَّم الموسيقي. لأن ذلك السلَّم ليس «سلاسل منتظمة من درجات معبَد نستطيع أن نَجري عليها صعودًا ونزولًا على هوانا، وأن نستمتع بلقاء الآلهة عندها. عرّفه على «المجموعة المؤسفة من الخبراء اللامعين» من «رجل بورغوس الضرير» إلى

«الرياضي الفلامنكي»، ثم لم يُضِعْ أيّة فرصة لإتحافه بعزف مقطوعات من يوهان سيبستيان باخ (حتى يضرب له أمثلة تجعله يرى كيف تصير تلك المقطوعات الرائعة عند «عزفها على هذا البيانو الأكثر سماوية من بين الآلات الموسيقيّة كلّها»). وعلى امتداد سنين كثيرة، يومًا بعد يوم، في عصر كلّ يوم، وبعد أن يكون قد دفع بطعام الغداء جانبًا بعد بضع لقمات غير شهيّة، كان يجعل فالوسكا شريكه في تلك الكفّارات المنتظمة عن طيشه الماضي. لقد صار الآن ملتزمًا بهذا النظام الثابت، مصمِّمًا على متابعته من خلال عزف شيء من موسيقى يوهان سيبستيان باخ «لتثقيف نفسه»، آملًا في تأخير اللحظة التي سيكتشف عندها سرَّ فساد اللحن ويفهم تلك الحالة التي ظلت عالقةً في مكانها على نحو يثير الأعصاب. إلا أنه لم يستطع تطبيق هذه الخطة الآن، إما لأنه ترك ثغرة زمنية أكبر مما يجب بعد ملاحظته المهمَّة الأخيرة، أو لأن فالوسكا قد عثر على مزيد من الشجاعة... على أيّة حال، كان ما له أهمية عنده (في هذه اللحظة) هو أن صديقه ذا العينين اللامعتين تمكّن من نطق الكلمة الأولى التي تلتها كلمات كثيرة، وإن تكن متردِّدة، بدأت بالحديث عن دور فالوسكا نفسه في قصة الحقيبة، فأدرك إيزتر سريعًا أن مخاوفه لم تكن من غير أساس. لم تكن من غير أساس

أبدًا؛ فعلى الرغم من أن الرسالة وهوية حاملها أخذاه على حين غرّة، فقد كان يعرف دائمًا أن زوجته، بعد أن تركت البيت، لن تكتفي بعدم مسامحته على طردها، بل ستبتكر خطّةً تنتقم بها منه لأن أسلوبه البارد في إخبارها بأن عليها أن ترحل كان موجبًا للانتقام. لم تكن هناك أيّة أهمية لحقيقة أن يوم رحيلها صار يبدو بعيدًا جدًّا، كأنه كان قبل الطوفان؛ وذلك لأن سنين كثيرة مضت منذ ذلك الوقت. ولم يكن يجرؤ على مواساة نفسه، ولو لحظة واحدة، بفكرة أن السيدة إيزتر لن تزعجه بعد الآن.

صحيح أنه تعمَّد أن «يمحو ذكرى إجراءات الطلاق الرسميَّة»، إلا أن الحقيقة أن ذلك كان إهانة له إلى حدٍّ ما؛ لكن هذه الحركة المسرحية -الحقيبة الممتلئة ملابس مغسولة- أرغمته على الإقرار بأن «العاهرة لم تنسَ الأمر أبدًا». كان عليه أن يتحمَّل هذه الكوميديا السخيفة، كوميديا استمرار زوجته الضخمة، أسبوعًا بعد أسبوع، وعلى الرغم من تظاهرها بأن زوجها لا يعرف شيئًا عن هذا الترتيب السرِّي، فقد واظبت -منذ تقاعده- على غسل ملابسه وإرسالها إليه مع فالوسكا الساذج الذي كان عليه التظاهر بأنها آتية من محلِّ تنظيف الملابس.

«هذا لأن الأمر متعلِّقٌ بالشيء الوحيد الذي تجيده: التعامل مع الغسيل الوسخ»... هكذا كان رأي إيزتر في ذلك الوقت؛ لكنه رأى الآن كم صار عليه أن يدفع ثمنًا

مخيفًا نتيجة إهماله السابق، فقد اكتشف سريعًا ملابسها التي وضعتها في أسفل الحقيبة، وأدرك أن تلك هي طريقتها الفجَّة المفاجئة في الإعلان عن أنها ستعود إلى البيت «بعد ظهر هذا اليوم». ما من شيء هنا موحٍ بأن وقت الانتقام قد حان بالفعل، لكنَّ الأمر كان كافيًا لتَترك إيزتر في حالة من الحيرة إلى أن نطق فالوسكا شيئًا جعل الأمر واضحًا (كان فالوسكا يخشاها كثيرًا؛ ولم يتوقَّف عن امتداحها): كانت الخطة الشريرة التي وضعتها السيدة إيزتر متعلِّقة بالمستقبل القريب، لا بالحاضر. لم تكن تعتزم الانتقال إلى البيت على الفور، بل كان الأمر مجرَّد طريقة في الإشارة إلى أنها قادرة على فعل ذلك في أي وقت... شكل من أشكال الابتزاز. لقد اتضح من الورقة أنها لم تكن تطلب منه إلا تولِّي رئاسة حملة من أجل «إعادة التسلّح الأخلاقي»، فقد «اختارته» هذه الحملة «قائدًا لها»، إن جاز القول. أضاف فالوسكا متحمِّسًا، مغمغمًا كعادته، أنها أرسلت إليه قائمة بأسماء المواطنين المحلِّيين الذين يتعيَّن عليه كسبهم من أجل القضيّة، وأن عليه أن يبدأ العمل على الفور -إنه سباق مع الزمن- بحيث يجول على بيوتهم، اليوم وليس غدًا، على الفور، الآن، لأن كلَّ دقيقة ثمينة. وهكذا صار مدركًا تمامًا ما ينتظره إن هو تقاعس عن فعل ذلك. أنهت رسالتها بالتلميح إلى «أمسية على

العشاء معًا...». لم يقلْ شيئًا، بل ترك كلام صديقه مستمرًّا في التدفّق، وحتى إنه لم يفتح فمه بعد أن كفَّ فالوسكا عن امتداح «وفائها ورقَّتها التي لا سابق لهما ولا مثيل» (كان شبه واثق من أنه خائف من تلك الساحرة الشمطاء الدنيئة). ظلَّ صامتًا، مستلقيًا بين الوسائد الطرّية في كرسي الاستلقاء الذي كان مزخرفًا في ما مضى، وظلّت عيناه تتابعان الشرارات المتقافزة من الموقد. هل يقاوم؟ وهل يمزِّق قصاصة الورق؟ هل ينقضَّ عليها بفأس، مثلما يمكن أن ينقضَّ طالب مستجد حسّاس على البيانو في الأكاديمية الموسيقية غير المحروسة، إن هي تجرّأت على الاقتراب من البيت «في وقت ما في المساء»؟ لا... قالها إيزتر لنفسه... ما من شيء يستطيع فعله في مواجهة هذا المكر وهذه القوة. وهكذا، أزاح الأغطية عنه وجلس محنيَّ الظهر على حافة السرير قبل أن يخلع عنه مبذله البيتي ذي اللون الكستنائي بحركة بطيئة. قال لصديقه، الذي كان ارتياحه لسماع ذلك واضحًا تمامًا، إنه مضطر -وإن لفترة وجيزة- إلى تعليق «مسرَّة النسيان المهدِّئ التي لا تقدَّر بثمن» نتيجة «قوة قاهرة»، إلخ...! قرار اتخذه بسرعة، لا لأن الخوف أفقده قدرته على التفكير السليم، بل لأن رغبته الشديدة في عدم الانخراط في أيّة حرب، ورغبته في تفادي ما هو أسوأ من هذا، جعلتاه غير قادر

على اتخاذ أي موقف آخر. في الحقيقة أنه كان مضطرًّا إلى الرضوخ إلى الابتزاز من غير أيّة مقاومة، ومن غير أي مزيد من التفكير في الأمر، على الرغم من أن الامتناع عن التفكير في الأمر لم يكن ساريًا على فكرة الخروج من البيت. عهد إلى فالوسكا بمهمّة «تنظيف» المكان من خلال وضع الحقيبة -مؤقتًا- في أبعد نقطة في البيت («يمكن إبعاد الحقيبة، على الأقلّ، وإن لم يكن إبعاد الإحساس بوجودها ممكنًا»)، ثم وقف متردِّدًا أمام خزانة الملابس وقد انتابه شيء من الحيرة. لم تكن حيرة ناجمة عن شكِّه في سلامة أحكامه، بل إنه لم يعرف من أين يبدأ، وما الذي يفعله بعد أن يبدأ. ومثلما يحدث لشخصٍ نسي لحظةً جزءًا من مجموعة حركات متتابعة، وقف أمام الخزانة محدِّقًا في بابها، ففتح الباب وأغلقه من جديد. فتح الباب وأغلقه، ثم عاد إلى سريره لينطلق صوب الخزانة مرّة أخرى. ولما كان موقفه الميؤوس منه قد خيّم عليه، فقد حاول أن يركِّز تفكيره على شيءٍ واحدٍ لكي يقرِّر إن كان عليه أن يختار بدلته ذات اللون السماوي/الفضي الباهت، أو بدلته السوداء التي كانت أكثر تلاؤمًا مع تلك المناسبة الجنائزية. وقف متردِّدًا بين الاثنتين، يختار هذه حينًا ويختار تلك حينًا آخر؛ ثم فشل في الوصول إلى أي قرار في ما يخصُّ القميص أو ربطة العنق أو الحذاء؛ ولو لم يجفل بسبب صوت قرقعة

فالوسكا بعلبة طعام الغداء في المطبخ، لكان من المحتمل أن يظلَّ حتى المساء في حالة عجز عن اتخاذ قرار، ولكان من المحتمل أن يظلَّ متردِّدًا بين البدلة الرمادية والبدلة السوداء لا يعرف أيهما يريد لأن ما يريده كان خيارًا ثالثًا: كان شيئًا يمكن أن يوفِّر له حماية في الخارج... ولو كان درعًا لكان ذلك شيئًا مثاليًّا. ما كان يريد الاختيار بين سترة وأخرى، صدار وآخر، معطف وآخر، بل أراد خوذات وواقيات مصفّحة للصدر والساقين، فقد كان مدركًا تمامًا مدى الإذلال السخيف الذي ينطوي عليه ما هو مجبر على فعله -السيّدة إيزتر تحوِّله إلى ما يعادل كنّاس شوارع- ولن يكون ذلك الإذلال شيئًا يُذكر إن هو قورن بالصعوبات الحقيقية القاتلة التي من المحتمل أن يواجهها عمَّا قريب. ففي حقيقة الأمر، مر عليه شهران اثنان منذ أن حاول آخر مرّة أن يسير في الشارع حتى يصل إلى أقرب تقاطع طرق. كانت تلك الصعوبات مشتملة على لحظة احتكاكه الأول بالرصيف وبالهواء، وبكل تلك المسافات التي يصعب تقديرها، مع ما ينطوي عليه ذلك من أخطار قد تتعيّن عليه مواجهتها، عندما يخاطر فيدخل واحدًا من تلك الحوارات الرمزية بين «حوافّ السقوف الموشكة على السقوط، والحلاوة الخانقة للستائر الشبكيّة المنشاة». فضلًا عمَّا يمكن للمرء أن يدعوه «المخاطر

المعتادة التي يتعرَّض لها المرء في الشارع» (تعقيدٌ فوق تعقيدٍ)، وذلك من قبيل التقاء أول مواطن، ثم المواطن الثاني، ثم بقية المواطنين الذين يصادفهم في طريقه. سيكون عليه أن يقف هناك، ثابتًا كأنه صخرة، محافظًا على هدوئه، بينما يعبِّرون له، من غير أدنى رحمة، عن سعادتهم برؤيته من جديد. عليه أن يظلَّ صامتًا بينما ينخرط أشخاص مختلفون في حالة من عدم القدرة على ضبط النفس (حالة يبيحها القانون) فيلقون بمشكلاتهم النفسية كلّها عند قدميه. وأسوأ من ذلك كله... هنا، ازداد اكتئابه لهذه الفكرة... سيكون عليه أن يظل أصمَّ أعمى أمام بلاهتهم الخانقة إذا ما تورط فوقع في ذلك الفخّ المغثي حقًّا، فخّ إظهار التعاطف أو الالتزام بفعل أو مشاركة مما يمكن أن يتضح أنه غير قابلٍ للرجوع عنه... ورطات كان قد تجنَّبها عن طريق الانسحاب من المجتمع و«الاستمتاع بلعبة اللامبالاة الملائكيّة التي كان مستحقًّا لها». ولأنه كان واثقًا من أن صديقه الذي يحتاج إليه سوف يريحه من بعض جوانب مهمته تلك، لم يشغل نفسه بالتفكير في طريقة أداء تلك المهمة: ما كان يهمه إن انتهى به الأمر إلى تشكيل حلقة من المهتمِّين بالخياطة، أو بتنفيذ مسابقة للفوز بنبتة في أصيص، أو بقيادة هذه الحركة المكرّسة من أجل إحداث

تغييرات كبيرة؛ وذلك لأنه كان قد كرَّس طاقته كلّها لمقاومة تلك الأفكار والرؤى الغريبة.

بعد أن انتهى من ارتداء ملابسه وألقى نظرة أخيرة في المرآة على مظهره الذي لا تشوبه شائبة (لقد ارتدى البدلة الفضية)، فكّر لحظة في الاحتمال الواهي لعودته من الأفق المخيف لرحلته سالمًا من غير أن يمسَّه أذًى فيصير قادرًا على متابعة أفكاره من حيث انقطعت أفكاره عن الحالة المؤسفة للعالم، وأفكاره العامة التي كان يصعب التعبير عنها بالكلمات، بما في ذلك مواضيع من قبيل الشرارات المنبعثة من نار الموقد وتلاشي «مغزاها الشرير، وإن يكن مغزًى ملغزًا»، تلك الأفكار التي انقطعت نتيجة مطالب السيدة إيزتر المفاجئة (مع أنه كان يتوقَّعها). قال في نفسه إن ذلك كان احتمالًا واهيًا، لكن الأمر يستدعي بذل جهد جبار في مواجهة الصعوبات القاتلة المتوقَّعة. مرّ بصف الكتب المزدوج الذي يغدو أضيق فأضيق مع التقدُّم في الممرِّ (كان فالوسكا سائرًا في أعقابه؛ وكان الآن يؤرجح فرحًا علبة طعام الغداء التي في يده)، ثم عبر مدخل المبنى ذي الإنارة الخافتة فبلغ الشارع. بدا له الهواء الذي استنشقه حادًّا كالسم، وانتابه دوار شديد. وبدلًا من قلقه من «أن يغمره طوفان شؤون الطبقة المتوسِّطة»، كان ما يشغل

باله الآن تساؤله عمَّا إذا كانت ساقاه تستطيعان حمله في ذلك الفراغ السائل المربك، وما إذا كان من الأكثر تعقلًا وحكمة أن يفكِّر في العودة، الآن وفي تلك اللحظة، «قبل أن...»، أضاف هذا وكأنّه يجيب عن سؤال آخر،... «تتمكَّن الرئتان والقلب والعضلات من الإجابة تلقائيًاّ بكلمة لا مدوّية». أغرته العودة إلى البيت وإغلاق باب غرفة المعيشة من خلفه وعزل نفسه بوسائده وأغطيته في ذلك الدفء اللذيذ، لكنه ما كان قادرًا على التفكير في هذا الأمر تفكيرًا جادًّا لمعرفته ما يمكن توقّعه إن هو «عصا الأوامر»: كان إغراء سحق رأس الوحش

وتحطيمه خيالًا مثله مثل إغراء العودة! استند إلى عكّازه فهبَّ صديقه إلى مساعدته وقد أصابه القلق فجأة («هل هناك مشكلة، يا سيد إيزتر؟ يا سيدي؟»)، ثم لم يلبث أن استعاد توازنه وأبعد عن ذهنه كل تفكير في المقاومة، وراح يركِّز على قبول الحالة المدوِّخة للعالم الذي بدأ يدور من حوله وعلى النظر إلى ذلك باعتباره الحالة الطبيعية للأشياء. عند تلك النقطة، أحكم قبضته على ذراع فالوسكا وتابع السَّير في طريقه. لقد تابع السّير في طريقه مقررًا أن فالوسكا، ملاكه الحارس، مستعدٌ لجره عبر المدينة كلِّها، حتى في حالته نصف الميتة تلك (إما لأنه خائفٌ من المرأة، أو لأنه مسرورٌ

كثيرًا بقدرته على جعله يرى الأماكن التي يتردَّد عليها). تمتم لنفسه بشيء علّه يهدئ به مخاوفه («لا، إنه لا شيء... لا شيء حقًا»)، واحتفظ لنفسه بالتفاصيل الحقيقيّة لدواره الذي جعله غير مدرك شيئًا، ولضعفه المتزايد أيضًا. وأما صديقه الذي صار مطمئنًا إلى أن ما من شيء يمكن أن يعرقل انطلاقهما في حوار حماسيٍّ من طرف واحد فقد راح يتحدَّث عن ولادة تلك الكتلة من الضباب الجليديِّ عند الفجر -الضباب الذي كان طافيًا في الهواء من حولهما- وقال إنه واقعٌ تحت تأثير سحره الآسر كأنه يراه أول مرة. إلا أن إيزتر، كان قد فقدَ كلَّ أملٍ قبل بضع لحظات، ثم صار الآن أصمَّ أعمى: كان يركز انتباهه كلّه على محاولة حفظ توازنه، ويضع قدمًا أمام الأخرى، علَّهما يصلان أخيرًا مكانًا يستريحان فيه عند أقرب زاوية. أحسَّ كأن حَسَرًا قد أصاب عينيه الاثنتين، وأحسّ كأنه يمضي سابحًا عبر خواء من ضباب. قال في نفسه «قد يغمى عليّ»، وبدلًا من أن يخشى ذلك الفقدان الكبير للوعي، وجد أنه راغبٌ فيه حقًّا إذ استقر في روعه أن خطّة السيدة إيزتر يمكن أن تفشل فيصير في وسعه أن يفلت من فخها بأهون طريقة إن هو سقط في الشارع وأحاط به جمع من عابري السبيل المذعورين فحملوه إلى البيت على نقّالة. كانا قد بلغا تقاطع الشارع الثامن عشر مع الشارع

الثامن والأربعين عندما أحسّ فجأة -بدلًا من الانهيار- بأنه قد بدأ يتحسّن: لم تعد ساقاه تهتزان، وتوقّف الطنين في أذنيه، كما أن (يا لشدة انزعاجه!) ذلك الإحساس بالدوار قد فارقه أيضًا. بكلمات أخرى، لم يعد لديه عذر يسمح له بقطع رحلته. توقَّف فوجد أنه صار قادرًا على السمع والرؤية من جديد؛ وما إن صار يرى حتى وجد نفسه مضطرًّا إلى النظر من حوله والانتباه إلى حقيقة أن شيئًا قد تغير، بالتأكيد، منذ رحلته الأخيرة في «مستنقع المدينة اليائس». لم يستطع أن يعرف ما تغير على وجه التحديد، أو أنه لم يستطع ذلك في اللحظات الأولى لحيرته المرتعشة. لكنه أدرك، على الرغم من عدم قدرته على عزل الظاهرة، صدق كلام السيدة هارر عن أن هناك شيئًا في غير محلِّه، في غير محلّه كليًّا. كان هذا صحيحًا... هناك شيء في غير محله... لكن صوتًا داخله همس له بأن السيدة هارر لم تلتقط تمامًا جوهر ذلك الشيء؛ ففي الوقت الذي وقفا فيه عند تقاطع الجادّة وطريق الشاحنات الرئيسي في استراحة للالتقاط الأنفاس، كان قد «لاحظ الأمر تمامًا»، وصار واضحًا له -خلافًا لرأي المرأة الوفيَّة التي تنظِّف بيته- أن «مسقط رأسه الحبيب» لم يكن له مظهر المدينة التي تنتظر حلول نهاية العالم بقدر ما كان مظهر المدينة بعد نهاية العالم. وكان مما فاجأه أنه، بدلًا من مظهر البلاهة

التائهة على وجوه المارّة (تعبير الصبر الذي لا نهاية له الذي يظهر أيضًا على وجوه من يسترقون النظر من النوافذ في ترقُّبٍ قلقٍ لحدوث أمر عظيم، بكلماتٍ أخرى «رائحة الروث المعتادة المنبعثة من بلادة السبات الروحي»)، كانت جادة وينكهايم والشوارع المحيطة بها قد اكتست مسحةً غريبةً من القنوط ومن الإهمال القاحل الأبكم الذي حلَّ محلَّ «الخواء الوحشي» الذي اعتاد رؤيته هناك. وكان أمرًا غريبًا أن ذلك الحيَّ المهجور عامَّة كان موحيًا بوقوعٍ حدث كارثي... كلّ شاردة وواردة في الحياة (خلافًا لما يتوقّعه المرء في حالة جائحة مرتقبة أو مرض ناتج عن الإشعاع، حين يفر الجميع مذعورين)، كانت لا تزال على حالها، وكانت تبدو باقية مستمرة كعهدها. كان هذا كلّه غريبًا، ومفاجئًا؛ لكن ما وجده أكثر إثارة للدهشة -عندما لاحظه- هو أن الإجابة عن هذا اللغز الذي لا يمكن حتّى للأعمى أن يغفل عنه، والذي أدرك وجوده غريزيًّا وعلى الفور، أدركه بتلك الغريزة التي قالت له إنه دخل منطقة أصابها تغيّر فضائحي... هو أن الإجابة... ظلّت تلك الإجابة خارج متناوله على الرغم من حقيقة أنه كان يزداد اقتناعًا مع كل دقيقة تمرّ بأن هناك إجابة لكنّها على هيئة إشارة خبيئة لم يستطع -حتى هو- أن يحدّدها. من الواضح أن تلك الإشارة ينبغي أن تكون مرئية، لكنه

غير قادر على التعرُّف عليها: كانت شيئًا كامنًا في تلك الصورة التي تزداد تركيزًا -الصمت، والمزاج الكئيب، وانعدام الروح التامّ في الشوارع المهجورة- كأنَّ كلَّ شيءٍ قد توقَّف عند نقطة استراحتهما تلك. مال قليلًا واستند بكتفه إلى جدار المدخل الذي كان مكان استراحتهما، وراح ينظر إلى المباني المقابلة متأمِّلًا ضخامة بواباتها ونوافذها وأقواسها والانطباع المهلهل الذي تعطيه في ذوبان معالمها في الفراغات التي بينها. وبينما كان فالوسكا مستمرًّا في كلامه، وضع إيزتر يديه على الجدار المجصَّص خلف كتفه علّ حالة المادة المتفتتة بين أصابعه تخبره بما حدث. رأت عيناه المصابيح المقاومة للريح، والأعمدة التي غطّتها الإعلانات. راح ينظر إلى قمم أشجار الكستناء العارية وترك عينيه تسرحان حتى نهاية الشارع الرئيسي، من الجهتين، باحثًا عن تفسير يتعلَّق بالمسافة أو الحجم أو عدم تناسب الأبعاد. لكنه لم يجد إجابة هناك، فحاول أن يبحث عن اتجاه مرجعي يمكن أن يضفي بعض المعنى على اضطراب المدينة المحسوس، ثم استمر في تلك المحاولة إلى أن وجد نفسه مرغمًا على الإقرار بأن من العبث التماس رؤية عامة واضحة تحت تلك السماء المدلهمَّة التي جعلت وقت الضُّحى شبيهًا بالغسق.

توصَّل إيزتر إلى أن هذه السماء، هذه الكتلة التي يتعذَّر

فهمها، هذا الثقل المركب الذي أناخ عليهما، لم تغيِّر شيئًا من طبيعتها، ولا حتى من أدقِّ تفاصيلها. ولما كان هذا موحيًا بأن تصور حدوث أدنى تغيّر أو تعديل على وجهها ليس إلا مضيعة للوقت، فقد قرّر ترك البحث وكبت فضوله، وفسر فشل «ردة فعله الغريزيّة الأولى» باختلال أداء جهازه العصبي الذي أصابه توترٌ زائد.
إلى الجحيم بالأمر كلِّه!... هكذا قال في نفسه مقرًّا بأنه لا يستطيع الاطمئنان إلى قرار مرضٍ في شأن التحسُّن الذي لا يزال مستمرًّا في حالته التي هي حالة مؤسفة عامةً. وكأنما أراد التشديد على هذه الفكرة بأن ركّز انتباهه، المشتت ظاهرًا، على ما كانت كلمات فالوسكا الرنانة تصفه بأنه «ذلك الإعلان الأبدي عن البشائر الطيبة»، وعلى قبة السماء غير المبالية بأي شيء، عندما أدرك فجأة، مثلما حدث مع الأستاذ ذي الذهن الشارد الذي صار مضرب الأمثال عندما اكتشف نظارته المفقودة فوق أنفه... أدرك أن ليس عليه أن ينظر إلى الأعلى، بل إلى الأسفل، عند قدميه لأن ما يبحث عنه موجود هناك... موجود هناك إلى حدٍّ أنه كان واقفًا عليه. لقد كان واقفًا عليه، وكان يطأ سطحه طيلة الوقت، وكان مقدّرًا له أن يواصل السير عليه في مستقبل وشيك. ومع ملاحظته هذا الأمر، أرجع إدراكه المتأخِّر له إلى حقيقة أنه أمر ظاهر كثيرًا، قريب كثيرًا،

فكانت المشكلة كامنةً في قربه غير المتوقّع. كان قادرًا على لمسه بيده، وعلى السير عليه؛ وهذا ما جعله غير منتبه إليه. ثم لم يلبثْ أن اقتنع أنه ما كان مخطئًا أبدًا في تلك اللحظات الأولى عندما أحسَّ بأن هناك شيئًا «كالقيامة»، شيئًا «ثوريًّا إلى حد مفاجئ تمامًا» في الأمر. لم تكن الحقيقة العارية بالشيء المفاجئ كثيرًا لأن المدينة، بنوع من الموافقة الخفيّة (وقد حُدّت قدرتها على الحيوية المدينية بشكل صارم)، كانت تنظر إلى كلّ مكان مشترك عام كأنه أرض لا تخصُّ أحدًا، مما أدى إلى أن بضع سنين قد مرَّت الآن من غير أن يكترث أحد لما يُدعى «مشكلة» صيانة الطرق. لم تكن النوعية غير المعتادة لطوفان المواد التي في الشارع هي ما صدمه، بل كميتها؛ تلك الكمية التي اعتبرها إيزتر كمية عجيبة تتجاوز ما قد يتخيّله في أكثر أحلامه جموحًا، خلافًا لما كان يراه، عشرون ألفًا، أو نحو ذلك، ممن يسيرون على تلك الأرصفة كل يوم، بما في ذلك السيدة هارر (لو أنها انتبهت أي انتباه خاصٍّ إلى ذلك، فمن المؤكّد أنها لن تقصَّر في إخباره به). لم تتجاوز استجابته الظاهرية قوله «حسنًا، حسنًا...»، لكنَّ ذعرًا أصابه: كان هذا مستحيلًا! لا يمكنك أن ترمي في هذا المكان هذه الكمية الهائلة كلّها، ولا يمكنك أن تجرّها إليه! ولما كان ما رآه يتجاوز كثيرًا كل ما يمكن تفسيره

تفسيرًا قابلًا للتصديق من جانب شخص ذي سويّة عادية من الذكاء، فقد أحسَّ بأنه -إن أدخل الحجم الاستثنائي لهذه «الفوضى الوحشية» في حسابه- يمكن أن يكون محقًّا إن غامر باعتماد الرأي القائل إن «القدرة البشرية الفريدة على بلوغ مستويات إهمال ولا مبالاة مذهلة للعقول قدرة، من غير أيّ شكٍّ، لا حدود لها أبدًا». «هذه الكمية كلّها! هذه الكميّة العجيبة!». هز رأسه وحاول، متخلّيًا عن أي تظاهر بالإصغاء إلى كلام فالوسكا المستمرّ من غير انقطاع، أن يستوعب حجم هذا الفظاعة، هذا الطوفان الذي يغمر كل شيء، فصار قادرًا آخر الأمر، للمرّة الأولى، عندما بلغت الساعة الثالثة بعد الظهر، أن يجد اسمًا لهذا الذي شوَّشه إلى هذا الحدِّ الغريب. إنه قمامة! حيثما نظر، كانت الطرقات والأرصفة مغطاة بدرعٍ متينة مستمرةٍ من المهملات المرميَّة في كلِّ مكان؛ وكان نهر الفضلات هذا، المتألق تألقًا خارقًا للطبيعة، قد ديس حتى صار عجينة، ثم تجمَّد في كتلة صلبة نتيجة البرد الشديد... كتلة صلبة متجمدة مترامية في كل اتِّجاه في الضياء الغسقي الرمادي. بقايا تفاح، وأجزاء من أحذية، وجلود ساعات، وأزرار معاطف، ومفاتيح صدئة، وكلّ شيء... كلّ شيء يمكن أن يكون أثرًا من آثار البشر -هذا ما لاحظه ببرودة- كان موجودًا هناك. لكن هذا «المتحف الجليدي للوجود

الذي لا غاية له» لم يكن ما سبَّب له تلك الدهشة كلّها (ما من شيء جديد، ولو من بعيد، في تلك المجموعة من المعروضات)، بل هو امتداد لتلك الكتلة الزلقة الملتوية بين البيوت كأنها انعكاس شاحب للسماء ينير كل شيء بلمعانه الفضّي الباهت غير الأرضي. وقد كان لوعيه بمكان وجوده أثرٌ متزايدٌ على حالة الصحو التي أتته - هو لم يفقد أبدًا قدرته على التقييم الهادئ- ومع مواصلته ذلك التقييم، كأنه ينظر من علوٍّ غير قليل إلى متاهة وحشية من القاذورات، صار متأكِّدًا أكثر من ذي قبل من عدم جدوى الحديث عن «الحسِّ المجتمعي»، لأن «زملاءه من بني البشر» قد فشلوا تمامًا في ملاحظة هذا التجسيد التامِّ المهول لنهاية العالم. ففي حقيقة الأمر، كان ذلك كأن الأرض قد انشقَّت من تحته فكشفت عمَّا هو تحت المدينة، أو... نقر بعكازه على الرصيف... كأن مستنقعًا آسنًا عفنًا قد تسرَّب عبر طبقة الإسفلت الرقيقة فغطى كلَّ شيء. مستنقع في أرضٍ سبخيَّة -هكذا قال إيزتر في نفسه هو الأساس الحقيقي لهذا المكان.

(4) داء بيتش كيريو: التهاب الفقار الروماتويدي.
(5) نيل آرمسترونغ: رائد فضاء أميركي كان أول من سار على سطح القمر.

(6) الشوكة الرنانة: أداة على شوكة من شعبتين تُستخدم في ضبط الآلات الموسيقية فضلًا عن استخداماتها الكثيرة في الفيزياء.
(7) أي العصا التي يحملها المكفوفون عادة.
(8) هي العقدة التي تمكَّن الإسكندر المقدوني من «حلِّها» بأن قطعها بسيفه.

في وقوفه برهةً هناك غارقًا في تأمّلات بلهاء، أتته صورة على نحو مفاجئ، صورة البيوت والأشجار وأعمدة المصابيح ولوحات الإعلان الضّخمة تغرق كلُّها في ذلك المستنقع. تساءل: أيمكن أن يكون هذا هو شكل القضاء الأخير؟ لا أبواق، ولا فرسان يوم القيامة، بل ابتلاع للجنس البشري، من غير ضوضاء ولا احتفال... غرق الجنس البشري في قمامته؟ قال في نفسه: «ليست بالنهاية المفاجئة أبدًا»، ثم أصلح وضع وشاحه وتأهَّب للحركة بعد أن بلغ نقطة النهاية الواضحة هذه واعتبر أن تحرِّياته قد بلغت غايتها الأخيرة. لكنه أحسَّ بشيء من عدم الثقة (إحساس مفهوم تمامًا) إزاء فكرة المشي من إسمنت الأرضية الصلب في مدخل البناء إلى المستنقع المتجمِّد على الرصيف، وذلك أن الطبقة الهلاميّة المتجمِّدة الجحيميَّة الصَّلبة الثابتة كانت لها موهبة الظهور بمظهر الرقَّة والثخانة في وقتٍ واحدٍ، بمظهر الصلابة والهشاشة في وقت واحد: هكذا تبدو

بركة تجمَّد سطحُها بعد يومٍ واحدٍ من الصقيع؛ فقد يتشقَّق ذلك السطح لحظة وضعِ أي ثقل عليه! كانت هذه الطبقة ثخينة لا تتكسر، من حيث هي فكرة، وكانت هي السويّة العليا من كتلة لا نهاية لها. وأما من حيث هي مادّة، فقد بدت في غاية الرقَّة، بدت سطحًا خطيرًا غير قادرٍ على حمله. وقف هناك متردِّدًا بين فكرتي الحركة والبقاء في مكانه، إلا أن روح الاشمئزاز والمقاومة انبثقت في نفسه من جديد فقرَّر أنه «نتيجة ظروف غير متوقَّعة» سيبسّط الإجراءات العملية التي وصفتها السيدة إيزتر، ويختصرها، وينقل القائمة التي تركتها له إلى أيِّ شخص يأتي: دعهم يرتِّبون الأمور باسمه، تلك الأمور التي كان غير صالحٍ أبدًا للتعامل معها بالنَّظر إلى حالة المدينة... دعهم يواصلون ما بقي من مسائل تنظيمية! وأما في ما يخصُّه هذا ما قرره فسوف يعود إلى بيته سريعًا، أو بالسرعة التي يسمح بها وعيه وصحَّته وتلك الطَّبقة المتحجِّرة من قمامة قمرية متوهِّجة. لسوء الحظ، كانت هناك فرصة صغيرة جدًّا لأن يقابل أيَّ شخصٍ في الشارع لأن الشكل الوحيد المرئي لأشكال الحياة في جادة بيلا وينكهايم كان أنواعًا جريئة من القطط، بل قطعان كبيرة من قطط تخطو على الأرض بنعومة كأنها تحرس، بطريقتها المتراخية الكسلى، تلك البقايا المتجمِّدة من أشياء لا يزال لها شيء من الأهمّية في

نظرها، لكنها أشياء رُفع عنها ثقل أيّ معنى كما يُرفع عبءٌ ذو طبيعة غير محدَّدة. كانت مخلوقات سمينة من الواضح أنها قد صارت متوحِّشة... مخلوقات مولودة من حلم طويل ثم ارتدَّت، في هذه الشروط المواتية، إلى أسلافها المفترسين القدامى وصارت شهودًا على عصرٍ مظلمٍ متوقَّع منذ زمن بعيدٍ، بل صارت قياصرة لذلك العصر الذي يبدو كأنه مستمرٌ إلى الأبد: سادة المدينة الجدد حيث «بقدر ما استطاع أن يرى، كانت العلامات الدالَّة على الانحطاط العام المتزايد شديدة الوضوح». ما كان لأحدٍ أن يستطيع الشك في أن هذه القطط لا تهاب شيئًا؛ وكأنما على سبيل البرهنة على هذا، تقدَّم واحدٌ من تلك الوحوش الذي كان في قطيع من القطعان... وحشٌ تكفي رؤية نصف الجرذ الذي بين فكيه لأن تكون دلالة واضحة على أنه غير جائعٍ... تقدَّم عندما رأى في مدخل البناء هذين الشخصين اللذين هما فردين من العرق الذي كان سيد المكان. اقترب منهما بجرأةٍ وقحةٍ. لكن إيزتر لم ير في القطط أيّة دلالة خاصَّة؛ فعندما رآها هز يده بحركة كان يقصد منها إخافتها؛ لكن تلك الحركة كانت عديمة الأثر على ذلك الحشد غير الآبه به، ذلك الحشد الذي كان واضحًا أنه متخمٌ بالطعام إلى حد الغثيان. وبما أن تلك الحركة من يده ما كانت كافية للتذكير بما كان لبني جنسه من مكانة، فقد كان أثرها

الوحيد تراجعًا احترازيًا بسيطًا من جانب القطيع، فبدا له أن عليه أن يجعل نفسه قانعة بصحبتهم. وبعد أن قرَّر أن يتحرَّك (واضعًا نهاية لتردُّده السابق كله)، وأن ينطلق في اتجاه السينما وفندق كوملو، وجد أن القطط لم تتركهما «كأنها أدركت، بطريقتها الحيوانية الغريزية، التغيُّر الذي طرأ على مكانتها النسبية»، قد واصلت اللحاق بهما مسافة غير قليلة من الطريق، أو على الأقل حتى الفندق الذي كان فالوسكا يأخذ منه طعام إيزتر ويضعه في تلك العلبة، فعند تلك النقطة، ومثلما يفعل عملاء سرِّيون ضجروا من ملاحقة أحد المشتبه فيهم، تخلَّت القطط عن تلك المتابعة وتفرَّقت باحثةً عن مزيدٍ من الطعام بين أكوام القمامة التي تبدو أحدث عهدًا من غيرها مستعينة بحاسّة الشم البدائية التي عندها وهي تفتش عن قطعٍ من اللحم أو عن عظام دجاج أو عن جرذان حيّة. بدا المكان كله كأن كرنفالًا عاصفًا مجنونًا قد مر به قبل وقت غير بعيد: أكوام من زجاج متكسّر، وأجزاء من زجاجات الكحول الرخيص راقدة أمام مدخل الفندق المهجور، في حين كان، على الجانب الآخر من الشارع، باصٌ مخرّبٌ مبقور البطن كأنه انهار إلى حالة نصف ركوع عند محاور عجلاته المحطّمة. كان سقف الباص مستقرًّا أمام متجر تشوستر للخردوات كأن أحدًا رماه في ذلك الاتجاه. سرعان ما

انضم فالوسكا إلى إيزتر، فبلغا مقهى «شي نو» حيث، بحسب السيدة هارر، ينبغي أن تكون شجرة الحور الشهيرة مرئية من تلك النقطة (الشجرة التي يظهر أنها ضجرت كثيرًا من التشبّث بالتربة فأرخت قبضتها عنها وسقطت، مثلما يسقط عملاقٌ طيبٌ، في شارع هيتفيزير باساج الضيِّق). لا شك في أن إيزتر لا يزال مذهولًا بفعل تلك التجربة العامة، تجربة وجوده خارج البيت. لكنه لم يكن يفكِّر إلا في القمامة، فحاول لفت انتباه رفيقه إليها: «قل لي، يا صديقي، هل ترى ما أراه؟». لكن محاولة مشاركة فالوسكا دهشته كانت من غير طائل: كان ذلك واضحًا له منذ اللحظة التي فتح فيها فالوسكا فمه؛ فبعد لحظة من الحيرة (في نفسه أم في نفس الرجل الآخر؟)، كان مجرَّد النظر في وجه فالوسكا المتألِّق كفيلًا بإظهار أنه قد صار محلِّقًا في مكان آخر تمامًا بعد أن انتهى من قصَّته عن جولاته عند الفجر. رأى إيزتر أن الأمر لا بد أن يكون كذلك عند شخصٍ أمضى الزمان كلَّه متجولًا في شوارع المدينة، ولا يزال غير قادر على ملاحظة أي شيء غير معتادٍ في هذا المشهد الكابوسي. كان التعبير الباسم على وجه مرافقه في هذا المسير الجنائزي المتثاقل إظهارًا شديد الوضوح لحقيقة أنه لا يكاد يرى الأقذار التي تحت قدميهما؛ بل كان الأمر كأن المناسبة كلّها مبهجة لفالوسكا على نحو ما،

وكأن ما يراه كله ليس أكثر من شيء ناتج عن هلوساته المتولِّدة عن ضعفه ودهشته من أنه، إيزتر، قد أدرك غلطته متأخِّرًا وعرف أنه يسير في مدينة أشباح قائمة حيث كانت المدينة القديمة من قبل. منذ أن غادرا البيت، كان انتباهه منصبًّا كله على مراقبة الوضع وتقييمه، ولم يكد يسمع شيئًا مما قاله الرجل الآخر. وإن كان منتبهًا إلى وجوده معه، فذلك لمجرد أن ذراعيهما كانتا متشابكتين؛ فكان غريبًا الآن، فجأة، بعد أن فهم كل شيء متأخر كثيرًا، أن يرى أن هناك هدفًا واحدًا يستحقّ انتباهه، ألا وهو الشخص الذي إلى جانبه، ذلك الرجل المرتدي قبعة ومعطف ساعي بريد خشنًا، ناقل المؤن الجوال، فالوسكا نفسه. حتى هذه النقطة بعد أن كان، حتى الآن، يفترض مخطئًا أنه يتعامل مع مجتمع محكوم عليه لكنه لا يزال عاملًا لم يكن قد خطر في ذهنه أن النظام الذي يمكن الاعتماد عليه تمامًا، نظام وقت الطعام المحدّد و«الزيارات الملائكية» بعد الظهر، فضلًا عن تسلسل نشاطاته اليومية الذي لا يتغير، كان في واقع الأمر مرتَّبًا من جانب فالوسكا، وأن دقّة صديقه الغريبة (التي صارت تبدو الآن طبيعية) يمكن أن تتأثّر بفعل ظروف خارجية. وأما الآن، في هذا اليوم، في هذا اليوم الذي يمكن القول إنه يوم خاص، هنا، أمام مقهى «شي نو»، وللمرة الأولى خلال الزمن

الطويل الذي انقضى منذ تعارفهما، انتبه إيزتر فجأة إلى المخاطر الكبيرة التي كان رفيقه يعرِّض نفسه لها، وإن بغير علمه، فاستولى عليه قلق مخيف. رأى هذه النسخة النهائية من آخر بيئة بشرية، واستطاع في اللحظة نفسها، وللمرة الأولى ـ أن يفهم حياة فالوسكا ويتخيّلها، وكيف أن هذا المخلوق البريء غير المنتبه إلى شيءٍ، الذي لا يعرف تمامًا أين هو ولا مقدار الخطر الذي يمكن أن يكون معرَّضًا له، هذا الرجل الذي يعمي بصره تألّق نجوم نظامه الشمسي الداخلي الخاص به («مثل فراشة نادرة معرَّضة للخطر ضائعة في طيرانها في غابة مشتعلة...»)، قد كان يمضي أيامه ولياليه كلّها متجوِّلًا في كومة القمامة السامّة هذه. فهم إيزتر هذا، فما كان قادرًا على الخروج إلا بنتيجة واحدة مفادها أنه غير قادر على الاعتماد على نفسه فقط ولا بد له من مساعدة رفيقه الوفي؛ ثم قادته هذه الفكرة بدورها إلى أنه هناك، في تلك اللحظة، إن استطاعا النجاح في العثور على طريق العودة إلى البيت- لن يترك فالوسكا يغيب عن نظره بعد الآن أبدًا. السبب في هذا هو أنه فقد كل اهتمام بما كان يحدث هناك، وبما يمكن أن يعقب طوفان القمامة من مصائب؛ والحقيقة أنه فقد اهتمامه في كلِّ شيء عدا كيفية تمكّن شخص أخطأ فدخل الحلبة من التماس مكان أكثر أمانًا (قبل انتهاء العرض) وكيف

يمكن أن يختفي مثلما يختفي «لحن رقيق في خضم نغمات متنافرة» فيختبئ في بيته متحصِّنًا حيث لا يمكن لأحد أن يعثر عليه. ظلّت هذه الفكرة تلاحقه كأنها ذكرى باهتة، لكنها ملحة، تقول له إن هناك شخصًا يمثله -»حسًّا مخنوقًا، يتيمًا، ذا شاعرية غامضة»- كان موجودًا في وقت من الأوقات وكان له وجود فيزيائي حقيقي. كان يستمع، نصف استماع، إلى قصص فالوسكا المنتشية عما مر به في الصباح، وإلى كلامٍ عن حوت في ساحة كوسوث لم يجتذب أهل المدينة وحدهم (كانت هذه مبالغة واضحة لكن من الممكن التسامح معها) «بل اجتذب أيضًا مئات الناس، من الريف المجاور». لكن، إن أردنا قول الحقيقة، فإنه ما كان قادرًا على التعامل مع أكثر من فكرة واحدة في وقت واحد، ألا وهي مشكلة الزمن اللازم لهما حتى يحوِّلا البيت الذي في الجادة إلى قلعة حصينة قادرة على الصمود في وجه كل ما قد يرميها به القدر. كان رفيقه يقول، «هناك يتواجد جميعهم...»؛ ومع تقدّمهما في الشارع الرئيسي صوب الزاوية التي فيها «مجلس المياه» (اجتذب اسم هذا المجلس بعض السخرية في الأشهر القليلة الماضية)، فانخرط فالوسكا بحماسة متزايدة في توقّعات عن مدى روعة أن يتمكّنا معًا، بحيث يكون ذلك ذروة رحلتهما، من رؤية ذلك الحيوان الضخم الذي لا يمكن أن يراه

المرء إلا مرة واحدة في حياته، والواقع أن وصف فالوسكا لمالك السيرك، بأنفه المحطّم، وصداره الوسخ، ووصفه ساعات الانتظار التي احتملها الجمهور الذي غصّت به ساحة السوق، وأبعاد الحوت الهائلة، وبقية التفاصيل العجيبة عن ذلك المخلوق الاستثنائي، لم يفلح في التخفيف من رغبة إيزتر في العودة إلى أمان بيته، بل كان له مفعول الفحم إذا أضيف إلى النار، وذلك لأن الرحلة الكئيبة كلّها، مع ما كان فيها من «إحساس غير طبيعي بالتأهب»، يصعب أن تؤدّي (بل لا يجوز أن تؤدّي) إلى أيّة ذروة أخرى غير هذه الشناعة المذهلة. إذا... فكر في هذا فزاده التفكير اكتئابًا... إذا كان ذلك الحيوان الضخم موجودًا في الساحة حقًّا، فلن يكون الجمع الضخم وصاحب العرض ذو الصدار المتّسخ أكثر من علامة دالة على محاولة رفيقه اليائسة ملء المدينة المهجورة بمنتجات مخيلته، وسيكون وجود هذا المشهد المهول قد تأكد بفعل الملصق المثبت على جدار متجر الفراء، ملصق كتب عليه أحدهم بالفرشاة، أو لعله كتب بإصبعه بعد غمسه في الحبر، الكلمتين التاليتين: المهرجان الليلة، ثم بدا له الأمر أشد تأثيرًا في النفس، فكلما نظر من حوله في الخلاء المحيط به، كلما صار كل شيء يشير إلى حقيقة أن، (بمعزل عن القطط الشاردة التي بدا له أنها الكائنات الوحيدة الحيّة في

المكان) وبقدر ما استطاع إيزتر أن يلاحظه بمرارة، التعميم المتسرِّع لإطلاق صفة «الحياة» لا يمكن جعله ساريًا إلا على ذاتيهما البائستين. لقد عاش عقودًا من السنين مقتنعًا بأن عقله وحسّه يدفعانه إلى رفض العالم الذي كانت منتجاته مما لا يقبله العقل والحس، بل هي موضوع دائم للانتقادات الموجّهة إليها منهما كليهما؛ وأما الآن، عندما تقدّمت به خطواته من هيتفيزر باساج إلى الصمت الجنائزي في شارع كاناكس، فقد وجد نفسه مرغمًا على التسليم بأن تفكيره الواضح كله والتزامه العنيد بما يسمى «مبادئ الاستدلال الصاحي» لم يعودا يجديان فتيلًا. فطالما ظلت هذه المدينة (التي اعتبرها تمثيلًا للعالم كله) مصرّة على المحافظة على واقعها القاتل، فإن تلك الرائحة الترابية الموحلة التي وجدها محنة مخيفة سوف تستمر في الانبعاث منها. لا فائدة من الصراع: كان عليه أن يفهم أن هذا النمط الإيزتري المعتاد من الفطنة والذكاء ما عاد مفيدًا له في هذا المكان، وذلك لأن العبارات التي فكَّر فيها فشلت فشلًا لا حدود له في إثبات تفوّقه المعتدّ بنفسه على بقية العالم. لقد ذوت معاني الكلمات مثلما يذوي الضوء في مصباح كاشف فرغت بطاريته؛ وانهارت الأشياء التي قد تشير إليها الكلمات تحت فداحة ثقل خمسين عامًا، أو نحوها، مضت وأفسحت مجالًا للزخارف البغيضة لخشبة مسرح

على غرار مسرح غراند غينيول(9) مقامة على نحو يجعل كل كلمة صاحية، وكل فكرة، تفقد معناها فقدانًا محيِّرًا. في هذا العالم، حيث فقدت استعارات من قبيل «كما» و«كأن» معناها الواضح؛ وفي إمبراطورية كانت مستعدة لأن تزيح جانبًا -أو أنه كان يعتقد هذا- لا الجهل، ولا الاختلاف، بل كل ما من شأنه ألا يكون مناسبًا لها؛ في هذا «الواقع»، (كما فهمه إيزتر وقد اعترته رعشة قرف ونفور)، ما عاد لديه شيء يفعله. وذلك على الرغم من أنه سيكون، في هذه الدقيقة تحديدًا، صعبًا كثيرًا عليه إنكار أن دخول هذه المتاهة، ثم إطلاق تصريحات معتدَّة بنفسها ليس إلا شيئًا لا يمكن أن ينظر إليه أحد باعتباره شيئًا غير سويٍّ. إلا أن هذا لم يثنه عن إطلاق تلك التصريحات؛ ففي نقطة توقفهما التالية عند كشك الصحف في شارع كاناكس، أساء بائع الصحف الودود فهم ما قاله له، وحاول أن يشرح له (على سبيل طمأنته) أنه يعرف سبب هذا «الاختفاء الغريب للناس»، ثم اندفع في شرحه اندفاعًا شديد الحماسة جعل انتباه إيزتر كلّه منصبًا على مهمة العودة إلى البيت في أقرب وقت ممكن بعد إنجاز مهمته؛ فإذا شاء الحظ الطيب أن ينجح في إنجاز تلك المهمة، فسوف يلازم البيت ملازمةً دائمةً بعد ذلك. ما عاد إنكار الأمر مجديًا، فقد كانا يبدوان في مظهر غريبٍ بعض

الشيء... كانا يسيران وقد مال كل منهما على الآخر في مشيتهما البطيئة في اتجاه مقر مجلس المياه القائم عند الزاوية في ذلك البرد القارس، فكانت كل خطوة صراعًا في مواجهة الريح الجليدية؛ كانا أشبه بزائرين كفيفين آتيين من كوكب بعيد منهما برجل محترم مع رفيقه الوفي إلى جانبه ذاهبين لإثارة حماسة الناس حتى يساندوا حركة «لإعادة التسلح الأخلاقي»، ولا شيء أقل من ذلك! كان عليهما أن يوفِّقا بين أسلوبين في السير، بين سرعتين مختلفتين، بل أيضًا بين نوعين مختلفين من العجز، ففي حين كانت كل خطوة يخطوها إيزتر على ذلك السطح ذي اللمعان المريب تتم كأنها آخر خطوة في حياته، أو كأنها استعداد لتوقُّف متدرِّج للحركة لن يلبث أن يصير توقفًا تامًا، كانت رغبة فالوسكا الحادة في زيادة سرعته تواجه إحباطًا دائمًا. فبسبب اعتماد إيزتر عليه اعتمادًا واضحًا، كان مضطرًا إلى إخفاء حقيقة أن الجسد المائل عليه من الجهة اليسرى كان يضع إحساسه بالتوازن موضع الخطر، ففي حين كانت حماسته قادرة، بمعنى من المعاني، على حمل الثقل الروحي لسيده المحبوب، فإن الأمر نفسه لم يكن منطبقًا على الجانب الجسدي. قد يمكن للمرء تلخيص الوضع بالقول إن دوريهما كانا مكونين من الشد والجذب من جانب فالوسكا ومفعول المكابح من جانب

إيزتر؛ أو القول إن فالوسكا كان يجري (عمليًا) في حين كان إيزتر واقفًا في مكانه (عمليًا أيضًا)؛ لكن من شأن النظر إلى كل منهما على حدة أن يكون أمرًا غير صحيح، وذلك في جزء منه لأن الفرق بين خطواتهما كان يبدو كأنه تجري تسويته بحيث ينتج مزيج مشترك من اندفاعات صغيرة إلى الأمام أو من تقدّم مؤلم غير واثق، وفي جزء آخر لأن استنادهما الأخرق، كلّ إلى الآخر، كان يحول دون تمييز كلّ منهما بمفرده باعتبارهما إيزتر من ناحية، وفالوسكا من ناحية أخرى: الحقيقة أنهما كانا يبدوان جسدًا واحدًا غريب الشكل. وهكذا راحا يتقدّمان تقدُمًا موحَّدًا عجيبًا، أو كما كان إيزتر يقول بمرارة في نفسه: «كأنهما عفريت استبد به التعب... شيء منسجم تمامًا مع هذا الكابوس الجحيمي»؛ كانا ظلًا تائهًا، شيطانًا ضل طريقه، جانبٌ من جسده محكوم بأن يحمل الجانب الآخر، الجانب الأيسر مستند إلى عكازه، والجانب الأيسر يؤرجح علبة الطعام التي في يده؛ ومع تقدُمهما مرورًا بمساحة العشب الصغيرة أمام مجلس المياه، وأمام المقر الصامت للتأمين على العاملين، صادفا ثلاثة أشخاص آخرين واقفين في مدخل «نادي الياقات البيضاء» التابع لمصنع الجوارب. كان الأشخاص الثلاثة قد لمحوهما، وبدا عليهم أنهم قد تسمّروا في أماكنهم منتظرين أن تصل

إليهم يد القدر المخيفة المتّخذة شكل شبح مخيف يتقدم منهم بطيئًا (كان لكل من الفريقين أن يرى في الفريق الآخر شبحًا)، إلى أن أتت لحظة استطاع فيها كل من الفريقين تمييز الفريق الآخر. لكز إيزتر فالوسكا قائلًا: «ها هم ثلاثة من أشجع الشجعان»، لكن فالوسكا كان لا يزال غارقًا في قصة الحوت على الرغم من محاولة صاحبه لفت نظره إلى الجماعة التي بلون الرماد التي كانت واقفة إلى الناحية الأخرى من الطريق (بحيث يوفِّر
على نفسه عبارة «أرى أن ما من أحد آخر من حولنا»). وعندها، تذكَّر فالوسكا ما كانت السيدة إيزتر تريد منه إنجازه من أجل «حركتها»، فانطلق عابرًا الطريق وقد أعد نفسه للموجات العنيفة الأولى من مهمته الرسولية تلك محاولًا صياغة عبارات من شأنها أن تثير حماسة الرجال الثلاثة الذين أمامهم (على الرغم مما بدا عليهم من قلَّة استعداد لليقظة الكبرى)، وذلك بالحميّة الملائمة لهذا الأمر. قال إيزتر بصوت مرتفع بعد أن انتهت مجاملات اللقاء الرسمية، «لا بد من فعل شيء!»... وبعد أن أفلح في تحرير يده من أيديهم، واصل أحدهم تحيته (إنه السيد ماداي ثقيل السمع الذي كان من عاداته أن يزعق من غير رحمة في أذن ضحيته حتى يضمن «تبادل وجهات النظر»)؛ وبينما

وافقه الاثنان الآخران على ما قاله، بدا أنهما مختلفان في ما يخص السؤال الأكثر صعوبة: ما هو ذلك الشيء، بالضبط، الذي ينبغي فعله؟ ظل الرجلان جاهلين بالأمر الذي يجب فعل شيء في شأنه، وبدا أن القصَّاب البدين، السيد نادابان، الذي كان موقعه بين مواطني المدينة البارزين ذوي النفوس الطيبة نتيجة طبيعية «لشِعره الرقيق المتقن»، قد اعتبر إيزتر سيد الموقف الذي لا ينازِع، فأعلن أنه يريد لفت أنظار الحاضرين إلى الحاجة للتضامن، إلا أن السيد فولنت، وهو المهندس العام المتحمِّس في مصنع الأحذية، هز رأسه قائلًا إن نقطة البداية الطبيعية يجب أن تكون الاستنجاد بالحس السليم. لكن السيد ماداي خالفه في هذا، فقد رفع يده مطالبًا بالصمت ومال على إيزتر من جديد معلنًا بصوت مرتفع كاد يمزِّق حنجرته أن «اليقظة، اليقظة بأي ثمنٍ! هي نصيحتي». لكن أحدًا منهم، بالطبع، لم يترك مجالًا للشك في أن هذه الأفكار المركزية -»اليقظة»، و«الحسَّ السليم» و«التضامن»- لم تكن إلا الخطوة الأولى في مسار منطقي لمناقشة الأمر، وفي أنهم لا يكادون يطيقون انتظار التقدّم على طريق إنجاز المهمة التي توحي بها هذه القيم النبيلة. وأما إيزتر (ارتاح كثيرًا لأنه صادف، على الأقل، «ثلاثة أنواع تمثل الغباء المحلي خير تمثيل» عند مدخل نادي الياقات البيضاء

التابع لمصنع الجوارب)، فلم يجد كبير صعوبة في توقّع ما سيحدث إذا استمرَّ الخلاف بين وجهات نظر أولئك الأنصار الثلاثة الذين استبدَّت بهم حماسة واضحة وصاروا توَّاقين إلى الانطلاق، فما كان منه إلا أن أقدم على مغامرة محسوبة، قاصدًا منها إفساح مجالٍ، بأسرع ما يمكن، لفالوسكا الذي رآه قد تراجع إلى الخلف، فحاول تهدئة حماستهم المتصاعدة من خلال سؤالهم عما يجعلهم متفقين في الرأي («هذا ما أفترضه من نبرة المرارة في إجاباتكم»، ذلك الرأي الذي مفاده أن نهاية العالم قد أتت حقًّا). كان واضحًا أن سؤاله فاجأهم، فمرّت لحظة بدت فيها وجوه الرجال الثلاثة، بتعابيرها المستثارة المختلفة، كأنها وجه واحد، إذ إن أحدًا منهم لم يتوقع أن يفهم غيورغي إيزتر الموقف؛ فبعد كل حساب، كيف يمكن لشخص صار وجوده يبدو كأنه مقتصرٌ على نقشٍ تذكاريٍّ على ضريح من الأضرحة (نقش غير مكتوب بعد، نقش من قبيل: «لقد أنار حياتنا اليومية بأن جعل مواهبه الموسيقية الاستثنائية جزءًا منها»)، شخص كان مثالًا في صفوف عامة المتعلمين وموضوعًا لمديح شعري اشتمل على عبارة تقول «هو أَلِفُ حياتنا الكئيبة وياءها»، قصيدة كتبها واحد من أولئك الثلاثة، السيد نادابان... شخص كان، لأنه عبقري، ومثلما يكون العباقرة جميعًا، يُفترض أنه شارد

الذهن دائمًا، فضلًا عن أنه آثر الانسحاب بعيدًا عن ضجيج العالم واستعجاله... كيف يمكن لهذا الشخص أن يكون قد عرف أي شيءٍ عن الأمر؟ كان واضحًا أن هناك أسبابًا وجيهة كثيرة لأن يكون جاهلًا بالوضع، وقد كان كلٌّ من الرجال الثلاثة مقدِّرًا تمامًا حسن الحظ الذي أفضى إلى كونه واحدًا ممن اختارهم -من بين سكان المدينة الكبيرة كلّها- لإبلاغه بالتغيُّرات المنذرة بالشؤم التي تجري في الجوار. واصلوا مقاطعة أحدهم الآخر في اندفاعهم إلى فعل ذلك: تكون المتاجر ممتلئة أحيانًا، فارغة في أحيانٍ أخرى. كما أن التعليم والمؤسسات الإدارية في حالةٍ انهيار، وهناك مشكلات فظيعة في تدفئة البيوت نتيجة نقص الفحم؛ ولقد نفد ما لدى الصيدليات من أدوية؛ وصار السفر بالباص أو بالسيارة أمرًا مستحيلًا؛ وفي هذا الصباح نفسه -أعلنوا هذا متذمِّرين يائسين- انقطعت خطوط الهاتف أيضًا. كان هذا كلّه تلخيصًا للوضع، بهذا القدر أو ذاك. وفوق هذا كلّه! أضاف فولنت بمرارة؛ وليس هذا فقط! تدخَّل نادابان؛ وتتويجًا لذلك كله! صاح ماداي... وتتويجًا لذلك كلّه، يأتي هذا السيرك لكي يدمِّر آخر الآمال الواهية باستعادة النظام؛ سيرك يعرض حوتًا ضخمًا مخيفًا سمحنا له بدخول المدينة نتيجة طيبة قلوبنا، فلم نعد الآن قادرين على فعل شيء. وخاصّة بعد الحوادث

الغريبة حقًّا التي جرت الليلة الماضية، خفض نادابان صوته؛ أحداث أكثر شؤمًا من أي شيء رأيناه حتى الآن، أومأ ماداي برأسه؛ ومنذ أن وصلت هذه الشركة العجيبة التي تبدو خطيرة، إلى ساحة كوسوث، عقد فولنت حاجبيه. كان كل منهم يخاطب إيزتر بتجاهل تامٍ لفالوسكا الذي كان ينظر إليهم بمزيج من الحزن والحيرة، وكانوا يوضحون لإيزتر أن من المؤكّد أن هناك مؤامرة إجرامية، على الرغم من صعوبة رؤية معناها ومعرفة هدفها، أو حتى التثبّت من الحقائق الأساسية في ما يخصُّها. قالوا إن «هناك ما لا يقل عن خمسمئة منهم!». لكنهم مضوا إلى القول بأن هناك في الحقيقة شخصان فقط تتكوَّن منهما تلك الشركة! تارة يكون نجم السيرك نفسه العنصر الأكثر إثارة للذعر «لقد رأوه»، وتارة يبدو أن الأمر لا يعدو خوفًا من ظهور نوع من الغوغاء ينتظر حلول الليل حتى يهاجم السكان الآمنين. تارة يكون الحوت لا علاقة له بالأمر كلّه، وتارة يكون الحوت سبب المشكلات كلِّها. وعندما قالوا، آخر الأمر، إن «عصبة غامضة من اللصوص» قد باشرت بالفعل أعمال السلب والنهب لكنها ظلت، في الوقت نفسه، واقفة في الساحة من غير حركة، قرر إيزتر أنه قد اكتفى من سماعهم فرفع يده مشيرًا إليه بأنه يريد الكلام. قاطعه فولنت قبل أن يتمكّن من قول أيّ

شيء، فأعلن أن الناس في حالة ذعر؛ ثم تدخَّل نادابان فقال: لا نستطيع أن نضيِّع وقتًا؛ وأضاف ماداي بطريقته الخاصّة المميزة له: ليس عندما يتآمرون من أجل فنائنا. مسح نادابان دموعه وهو يقول: لدينا أطفال هنا؛ صاح ماداي: ولدينا أمهات باكيات؛ وأضاف فولنت: البيت والأسرة أثمن شيء على الإطلاق. كان صوته يرتعش لفرط عاطفته، وكانوا كلّهم يحسّون خطرًا داهمًا مخيفًا... يستطيع المرء تخيل النقطة التي يمكن أن يبلغها هذا الكورس المتحسِّر إن لم يقاطعه أحد؛ يستطيع المرء أن يتخيّل فقط لأن أحدًا لا يمكن أن يعرف ذلك فقد وجدوا أنفسهم جميعًا رازحين تحت ثقل جو الكآبة العام حتى تقطَّعت أنفاسهم. التقط إيزتر زمام المبادرة وأعلن، منتبهًا إلى الإرهاق الذي أصاب أعصابهم والعذاب الذي حل بأرواحهم، أن هناك يسرّه أن يقول لهم هذا- حلًّا لهذا الوضع: لا يزال ممكنًا تحويل الوضع إلى مصلحتهم، ولا يضمن ذلك غير الحسِّ القوي بالالتزام من جانبهم. ومن غير مزيد من الجلبة، أطلعهم على البرنامج الأساسي لحركة «فناء مرتَّب، وبيت يسوده النظام»، وشرح لهم وهو ينظر إلى بعيدٍ من فوق رؤوسهم، أن الهمَّ المركزي لهذه الحركة واضح بنفسه؛ وقال إنه -إن سمح له أصدقاؤه بذلك، سوف يتولّى دور «تلقِّي الشكاوى في ما يخصّ القمامة»، و«التفتيش العام

على الفضلات»، مضيفًا أنه لا يشكّ لحظة واحدة في نجاح تعاونهم المشترك ولا في فعالية القدرات التنظيمية للسادة الثلاثة الواقفين أمامه. استدار على عقبيه مختصرًا عملية الوداع كلّها إلى إشارة واحدة من يده، وتركهم يهضمون بأنفسهم تلك المعلومات التي تلقوها. كان واثقًا من أن البذرة القابلة للنمو الكامنة في كلمات السيدة إيزتر قد وقعت على تربة خصبة، وأن ما من شيء آخر يستطيع فعله الآن غير مسحموادث ربع الساعة الأخير مسحًا شاملًا، بالقدر الممكن، وذلك حتى لا يسمع شيئًا مما قاله مستمعوه الثلاثة بعد أن صحو من أثر مغادرته المفاجئة واندفعوا صائحين في فيض انفعالهم العفوي، «سوف نتغلّب! فكرة رائعة! التضامن! الحسّ السليم! اليقظة!». وهكذا، استمدّ قوة من إحساسه البسيط بالارتياح بعد أن كادت قدرته على الصبر تبلغ نقطة تتهاوى عندها، فقد خلّص نفسه أخيرًا من عبء مهمته هذه. عاد إلى خططه غير المكتملة، وحاول التفكير بأقصى ما استطاعه من حذر في الاتجاهات الممكنة لما سيفعله. كان مدركًا أن أنباء «الإنجاز الناجح للمهمّة المكلَّف بها» يجب أن تبلغ زوجته بكل تأكيد، وفي الوقت الصحيح («سوف تصير الساعة الرابعة بعد بضع دقائق!»)، وإلا فإن من الممكن أن تنفّذ تهديدها. وضع حدًّا لجهود فالوسكا الذي كان يحاول، بعد أن

أزعجه ما سبق ذلك من ثرثرة، أن يثبت له أن من ما أساس لمخاوفه في ما يتّصل بالسيرك، وقال له إنه، «بعد إنجاز العمل على أحسن ما يرام»، علينا الآن أن نعود إلى البيت. قبل ذلك، نظر إلى فالوسكا نظرة محمّلة بالمعاني وقال له، من غير أن يكشف عن خططه كلّها، أن يعود إليه سريعًا بعد أن ينجز ما يتعيَّن عليه فعله في هونفيد باساج. وبطبيعة الحال، احتجَّ فالوسكا بإنه لا يستطيع تركه يعود إلى البيت وحيدًا في هذا الطقس البارد، فضلًا عن إهمال فكرة الذهاب لرؤية الحوت. وهكذا اضطر إيزتر إلى المضي في مزيد من التفاصيل التوضيحية، ولم يقاطع نفسه إلا لكي يطمئِن فالوسكا إلى أن كل شيء سيكون على ما يرام، وإلى أنه يستطيع أن يتدبر أمره (قال له: «انظر، يا صديقي. لا يمكنني القول إنني أحب لذعة الصقيع القاسية. ومن ناحية أخرى، فإن وجودي هنا لا يمثّل مأساة طبع استوائي محكوم عليه بقضاء زمنٍ أبديٍّ في مملكة الثلج، فأنت تعرف أن ما من ثلجٍ هنا، وأن ما من ثلج سيسقط بعد اليوم. وهكذا، دعنا نكفُّ عن الحديث عن هذا الأمر. لكن عليك ألا تشكَّ أبدًا في أنني قادر على اجتياز المسافة القصيرة الباقية إلى البيت من غير مساعدة، حتى في هذا الطقس البارد». ثم أضاف: «وهناك شيء آخر... لا حاجة إلى بقائك زمنًا طويلًا في هوّة حزنك

الناجم عن الإرجاء القصير لذروة مغامرتنا المشهودة هذه! كان مما يسعدني أن أرى ذلك المخلوق الجليل؛ لكن علينا أن نتخلى عن ذلك في الوقت الحاضر».

ابتسم لفالوسكا وهو يقول: «أظنّ أن من الممكن دائمًا، ومن المسلّي أيضًا، أن يرى المرء مخلوقًا ظهر عند نقطة من سلم التطور كنت أتمنى لو أن التطوّر قد توقّف عندها. إلا أن هذا المسير قد استنفد قواي. وهذا يعني أن موعدنا مع حوتك سوف ينتظر حتى الغد، على ما أظن...»). لم تعد في صوته تلك الحدّة التي كانت فيه؛ وكان مدركًا أن محاولته أن يكون مرحًا كانت أكثر ظهورًا في صوته من المرح نفسه. لكن نبرة الالتزام الكامنة في ما قاله جعلت فالوسكا يقبل اقتراحه على الرغم من عدم سعادته بذلك. وهكذا كانت لإيزتر حرية التخطيط من أجل لقائهما التالي خلال ما بقي من مسافة يجتازانها معًا. استنتج إيزتر أن البيت كان، بفضل حماسة السيدة هارر المدمِّرة للتنظيف، وبمعزل عن إحكام إغلاق الأبواب وتزويد النوافذ بألواح خشبية، في حاجة إلى أشياء قليلة حتى يصير بيتًا آمنًا صالحًا للسكن. أراحته هذه الفكرة فراح يتأمّل في «ما ستكونه حياة شخصين» في ذلك البيت. وبقدر كبير من العناية والدقة، حدّد موضع فالوسكا ضمن المستنقع المغناطيسي

لبيته في الحيز الكائن إلى جانب غرفة المعيشة، أي في مكان قريب إليه إلى أقصى حد ممكن؛ ثم تخيل «الصباحات الهادئة التي يمضيانها معًا»، و«الأمسيات الصامتة المفعمة انسجامًا». كان قادرًا الآن على رؤيتهما جالسَين معًا، في صفاء عميق، يخمِّران القهوة في أوقات العصر، ويعدَّان طعامًا حارًّا للعشاء مرتين في الأسبوع، على الأقل. سيكون صديقه ماضيًا في أحلامه النجمية؛ وأما هو، فسوف يدلي بملاحظاته الانتقادية. وبفعلهما هذا، سينسيان القمامة وسينسيان اضمحلال ركائز هذا العالم، بل سينسيان العالم نفسه أيضًا... ثم لاحظ (من الطبيعي أن إدراك ذلك قد أحرجه بعض الشيء) أن اندفاعه إلى ذلك الحدّ في تخيّل خططه تلك قد جعله يبدأ ذرف دمعات عاطفية. وهكذا، أسرع فنظر من حوله مرة أخرى، وأرغم ذهنه على التفكير في معاناته، واستنتج أن هذا «الظهور» للعاطفة، بالنظر إلى حالة الضعف التي كان فيها («ولكوني رجلًا عجوزًا، فهذه هي الحقيقة في واقع الأمر»)، ليس إلا شيئًا من الممكن غفرانه، لمرة واحدة. أخذ من فالوسكا علبة الطعام التي صارت باردة كالجليد، ثم جعله يقسم أنه سيعود إليه مباشرة بعد فراغه من مهمَّته، وبعد بضع نصائح ثانوية أخرى، بلغا نقطة الفراق ضمن منطقة شارع هيتفيزر باساج، وبقي ينظر

إليه حتى غاب عن نظره.

غاب عن نظره، لكنه لم يغب عنه. فعلى الرغم من البيوت التي صارت تفصل بينهما، ظل قادرًا على رؤية إيزتر، وعلى رؤية سيده المحبوب. كانت ساعة واحدة خارج البيت، في المدينة (تحت حماية فالوسكا المشدّدة)، قد تركت عليه أثرًا كبيرًا بحيث ما عادت أيّة كتلة من البيوت -فهي بيوت، لا أكثر- قادرة على حجبه عنه. كان كلّ شيء يشير إلى أنه قد اجتاز ذلك الطريق؛ فحيثما نظر فالوسكا، كانت معرفته بأن الآخر لا يزال قريبًا منه تستحضر وجوده. كان ذلك حقيقيًا إلى درجة جعلته، بعد افتراقهما الحقيقي، يمضي بضع دقائق في نوعٍ من الخيالات بينما كان أثر هذا البعد الاستثنائي يخفت شيئًا فشيئًا فتتباطأ تلك الصيرورة وتسمح له، ذهنيًا، أن يرافق سيده حتى بيته في جادة وينكهايم حيث يصير قادرًا على التنفُّس من جديد، ويطمئن إلى أن تلك المسيرة، غزوة السيد إيزتر الرائعة غير المتوقَّعة في اتجاه العالم، كان لها أثر حسنٌ واضح، «على الرغم من أنها لم تكن خالية من عناصر محزنة». وقوفه إلى جانبه عندما خرج من الغرفة؛ ووجوده معه عندما خطا خطواته الأولى في الممرِّ، ولحاقه به مثل ظلِّه عارفًا كم سيكون هذا تقدمًا كبيرًا في عملية شفائه، تلك العملية المرجوَّة كثيرًا والتي طال انتظارها كثيرًا؛ ونظره إليه

سائرًا من المدخل حتى البوابة الخارجية... كان ذلك كله مصدر فرحه، وقد أسبغ عليه شرفًا عظيمًا باعتباره الشاهد المعتزّ بهذا النشاط. ومن ناحية أخرى، فإن الاكتفاء باعتبار الرحلة شيئًا «من غير عنصر حزن كان فيها» تقصيرٌ عن إيصال الطبيعة الكاملة للتجربة. لقد تأخَّر إدراكه حقيقة أن صديقه الكهل وجد في كل خطوة عذابًا، الحقيقة التي ألقت شيئًا من الظلِّ -خلال مسارهما كله- على فرحته بكونه «شاهدًا» معتزًّا بما جرى، وقد خلّف هذا لديه إحساسًا خانقًا بالحزن. لقد اعتقد أن لحظة نهوض الرجل المقعد للمرة الأولى، وخروجه آخر الأمر من غرفته المجلّلة بالستائر، كانت إعلانًا عن شفائه، وانبعاثًا لرغبته في الحياة؛ لكن بضع خطوات فقط كانت كافية لجعله في مواجهة احتمال ألا تجلب فترة بعد الظهر أي تحسّنٍ، بل احتمال أن تكشف فقط الخطورة الحقيقية لحالته وأن تبيّن الإمكانيّة المخيفة لأن لا يكون ظهوره العلني من أجل قضية التجدّد الاجتماعي طريقًا لعودته إلى العالم، بل، وهذا أكثر احتمالًا، أن يكون وداعًا أخيرًا للعالم، وانسحابًا منه عبر فعلٍ من أفعال الرفض التام؛ وهذا ما ملأ فالوسكا -للمرة الأولى منذ تعارفهما- بقلقٍ عميقٍ جدًا. لقد أحسَّ توعُّكًا مع أول نفس من الهواء النَّقي، فكانت تلك علامة سيّئة على الرغم من أنها لم تكن أبدًا علامة غير متوقّعة لأن

إيزتر لم يخرج من البيت منذ زمن لم يعد فالوسكا قادرًا على تذكّره، وبالتأكيد لم يخرج في الشهرين الماضيين. لكنه لم يكن مستعدًا لقبول مدى تدهور حالة إيزتر الجسدية، ولا لقبول الحالة الحزينة للمدينة نفسها بما فيها من إرهاق وتوتّر عصبي. لقد جعلته قلّة يقظته يعاني إحساسًا كبيرًا بالذنب. إحساس بالذنب لقلة انتباهه، ولأنه أعمى نفسه عن رؤية الحقيقة وأمِلَ، عبثًا، في ظهور تحسُّنٍ خلال وقت قصير. لقد أحسَّ بالذنب لأنه كان سيلقي باللائمة كلّها على نفسه لو أن أذًى أصاب رفيقه في هذا المسير المرهق... بل كان سيعاني ما هو أكثر من إحساسه بالذنب: العار، والارتباك، والعذاب الذهني الشديد لأنه، بدلًا من تقديم رجل ذكيٍّ، لامعٍ، محترمٍ إلى المدينة، لم يستطع أن يقدِّم سوى رجلًا عجوزًا ضعيفًا أهم شيء له أن يعود إلى البيت من غير تأخير؛ إلا أن تلك العودة لم تكن متاحة نتيجة الوعد الذي قطعه على نفسه للسيدة إيزتر. وهكذا كان عليهما أن يواصلا السير؛ ولما يكن السيد إيزتر قادرًا على إخفاء حاجته إلى الاعتماد عليه، فقد أمسك ذراعه من غير أن يقول كلمة واحدة فكان ذلك إشارة إلى أن ذلك الاعتماد كان نوعًا من التفويض. أحسّ فالوسكا بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا غير محاولة تشتيت انتباه صديقه (بما أن الأمر على هذا النحو)، فبدأ يتحدّث عن الأخبار التي

كان سعيدًا بلفت نظره إليها عند الساعة الثانية بعد الظهر. حدَّثه عن شروق الشمس؛ وحدَّثه عن المدينة، وعن كيف أنَّ كل جزء منها قد استيقظ على حياة منفصلة متميزة عندما لامسه ضوء النهار. سار وواصل حديثه، لكن الكلمات كانت مفتقرة القدرة على الإقناع لأنه هو نفسه كان لا يكاد يلقي إليها

انتباهًا. كان مرغمًا إلى النظر إلى العالم من خلال عينَيْ صديقه، وعلى المتابعة الدائمة لنظرات إيزتر، فأدرك - بمزيد من الإحساس بالعجز - أن كل ما كانت تقع عليه عيناه كان شاهدًا صادقًا، لا على آرائه المتفائلة، بل على نظرة صديقه القاتمة. لقد اعتقد في اللحظات الأولى أن الشيء الذي سيكون أكثر الأشياء طبيعية بالنسبة إلى صديقه، بعد أن تحرَّر من حبس غرفته المغلقة، أن يستعيد قوَّته ورغبته في الحياة وأن يقتنع بأن يجعل انتباهه متَّجهًا إلى «كليّة الأشياء لا إلى تفاصيل»؛ لكنه صار واضحًا له، عند وصولهما إلى كوملو، أن كل ما كانت عين إيزتر تقع عليه من تفاصيل يصير غير قابل لإدراجه تحت تلك الكلمات التي تزداد خلوًا من أي معنى. وهكذا قرَّر أن يلتزم الصمت بحيث تصير مساهمته أكبر قيمة في ما تشتمل عليه رحلتهما من مِحَنٍ ومعاناة، وذلك بأن يقدِّم مساندته من خلال موافقته الصامتة وقبوله الأخرس. لكن هذا القرار لم يفضِ إلى

شيءٍ، فعندما غادرا الفندق بدا له أن الكلمات قد صارت تخرج مندفعة من بين شفتيه بقدرٍ أكبر من القنوط (إن كان شيء كهذا ممكنًا)، وذلك لأنّه كان واقفًا في صف انتظار الطعام فسمع بعض الأخبار المفزعة التي رمت به في حالة من الحيرة التامة. وإذا أردنا الدقّة، فإن تلك الأخبار المفزعة التي سمعها من أشخاص في المطبخ وكانت تفيد بأن «جمع الناس في ساحة السوق، كان، في حقيقة الأمر، تجمُّعًا لعصابة إجرامية تخريبية» قامت بأعمال سلب بُعيد الساعة الثانية عشرة، وسوف تهاجم كل ما في فندق كوملو من مرافق لتقديم الشراب فتدمِّرها. لم تكن تلك الأخبار هي الشيء المفزع بالضبط لأنه، ببساطة، لم يصدِّقها، بل أسقطها من حسابه، معتبرًا إياها «مخاوف ناتجة عن فعل الخيال»، وواحدة من العلامات العامّة المقلقة على «تفشِّي عدوى الخوف والقلق». إلا أن ما فاجأه وهو عائد إلى إيزتر المنتظر حاملًا علبة الطعام كان شيئًا لم يلاحظه قبل ذلك أبدًا: حقيقة أن الممر والفسحة الأمامية والرصيف أمام الفندق كانت كلها مغطاة بقطع الزجاجات المتكسرة التي كان الناس مضطرين إلى أن يشقوا طريقهم عبرها. أحسَّ بالارتباك، وأجاب على أسئلة صديقه المبرَّرة تمامًا بقدر واضح من التردُّد؛ لكن تردُّده كان عابرًا لأنه راح يحدِّثه عن الحوت، ثم راح بعد ذلك -أي بعد وصول

المهمة إلى نهاية ناجحة مع السيد ماداي- إلى تهدئة المخاوف المتّصلة بالحوت، تلك المخاوف التي صار، هو نفسه، ضحية لها الآن، وذلك أنه كان واثقًا من أن نظرة هادئة واحدة في اتجاه السماء كفيلة بأن يعود المنطق إلى الحياة فتعود إليه تلك الحياة التي يعرفها؛ لكنه كان غير قادر على نسيان ما سمعه في المطبخ (وبالأخص جملة كبير الطباخين، «كل من يتجول في الشوارع ليلًا يخاطر في حياته!»). لقد كان من الواضح أن المرء يخطئ إن هو حسب «الناس الودودين المحبّين للاطلاع»، الذين أمضى ساعات منتظرًا معهم أمام عربة السيرك في ذلك الصباح نفسه، أشخاصًا مخرِّبين أو نهّابين؛ لكن فالوسكا رأى أنه ذلك النوع من الأخطاء الذي يمكن أن يجعل رجلًا كالسيد نادابان يرتجف خوفًا، ولو كان ذلك لمجرد أن الإشاعات المخيفة قد انتشرت هذا الانتشار كلّه. وبالتالي، كان من واجبه أن يبادر سريعًا إلى توضيح هذا الأمر توضيحًا تامًا. وبينما كان يرافق السيد إيزتر إلى البيت، في مخيلته، كان قد تجاوز شارع فاروشاز، ووصل إلى ساحة السوق، فدعاه إحساسه الغريزي الأول عندما صار في وسط الحشد، الذي كان لا يزال منتظرًا من غير حركة، إلى اختيار أحد الأشخاص ومناقشة الأمر معه لأن ذكرى المزاعم غير المسؤولة التي سمعها من كبير الطباخين، قد

اختلطت في ذهنه وتعارضت، مع قناعته الخاصة الأكثر تفاؤلًا (... نظرة صاحية واحدة... مداخلة لطيفة واحدة...). أخبر الرجل بما كان يقال عنهم، وبأن الناس في المدينة كانوا ميّالين إلى التسرّع في استنتاجاتهم. أخبره بحالة السيد إيزتر، وصرّح بأنه مقتنعٌ بأن على كل امرئ أن يعرف ذلك الباحث العظيم، واعترف بأنه خائف عليه، معلنًا أنه يعرف تمام المعرفة ما يقتضيه منه الواجب، ثم تمنَّى أخيرًا أن يغفر له ذلك الرجل ما شاب كلامه من قلة وضوح، لكنه أضاف سريعًا أنه واثق بالفعل، حتى بعد هذه الدقائقِ القليلة من أنه يتحدَّث مع «روح ودود»، وأنه واثق ثقةً مطلقةً من أن صديقه الجديد يفهمه تمامًا. لم يجب الرجل الذي خاطبه على أيٍّ مما قاله بأي شيء، بل اكتفى بأن نظر إليه نظرة طيبة متمعِّنة، من رأسه حتى قدميه، ثم (ربما بعد أن لاحظ تعبير فالوسكا المرتبك) ابتسم له وربَّت على كتفه تربيتًا قويًا، وأخرج من جيبه زجاجة كحول رخيص، فقدمها إليه بحركة ودية. أحسَّ فالوسكا بالانفراج عندما رأى الابتسامة المرتاحة على وجه الرجل بعد ذلك الصمت الصارم، خلال «الفحص الأوّلي»، وأحسّ بأنه لا يستطيع رفض ذلك العرض الذي كان تعبيرًا عن حسن النيّة؛ ولشدّة رغبته في أن تتّخذ هذه الصداقة الجديدة طابعًا أكيدًا، أمسك الزجاجة بأصابعه المتيبّسة من البرد،

ونزع سدادتها، وحتى يكسب ثقة الرجل ويقنعه «بروح التعاطف المشترك» الموجودة بينهما، لم يكتف برشفة رسمية صغيرة من محتويات تلك الزجاجة، بل عبّ منها جرعة كبيرة. إلا أنه دفع ثمن قلة حذره على الفور لأن السائل القوي كالسم أصابه بنوبة سعال مخيفة حسب أنها ستخنقه، فلم يتوقَّف سعاله إلا بعد نصف دقيقة، حاول بعدها -بابتسامة اعتذارٍ- التماس الصّفح عن ضعفه. وسرعان ما وجد نفسه عاجزًا عن قول أي كلمة يؤكد بها اعتذاره لأن نوبة سعال جديدة قد داهمته.
أصابه حَرَج شديد، وخاف أن يكون قد أفسد فرصته في إقامة علاقات ودّية مع صديقه الجديد. والواقع أن معاناته كانت حقيقيّة، وكانت شديدة إلى حدٍّ جعله -في غمره عذابه - يمسك بالرجل الذي كان يحدِّثه حتى لا يسقط على الأرض، فكان ذلك فُرجةً مسليةً لطيفةً لا لذلك الرجل وحده، بل لكل ما كان واقفًا على مقربة منهما. استعاد أنفاسه وعاد يشرح، في جوٍّ صار أكثر ارتياحًا، كيف أن السيد إيزتر كان شديد الانشغال بعمل عظيم (على الرغم من إنكاره كله)، وكيف أنه يشعر - حتى لو كان لا لسبب غير هذا- بأن من واجبهم جميعًا العمل على حفظ هدوء ذلك البيت في جادَّة وينكهايم.
وبعد ذلك، نظر إلى صديقه الجديد واعترف له بأن هذا الحديث قد أراحه كثيرًا، ثم شكر الرجل مرة أخرى على

حسن طويّته، ثم اعتذر لأن عليه أن يذهب، ووعد بأن يوضح في المرة القادمة أسباب اضطراره إلى الذهاب (وهي أسباب «مثيرة للاهتمام... صدقني!»). كان عليه أن يذهب. وقد صافح الرجل محاولًا تركه، لكن ذلك الرجل لم يفلت يده («أخبرني بالسبب الآن، فأنا أريد سماعه»)؛ فكان فالوسكا مرغمًا على إعادة ما قاله قبل قليل. عليه أن يذهب -حاول تحرير يده من قبضة الرجل الشديدة غير المتوقّعة- لكنه واثق من أنهما لن يلبثا أن يلتقيا عمّا قريب؛ وإذا لم يحدث هذا، فهو يستطيع البحث عنه في حانة بيفيفر، عند حانة السيد هاغلماير، أو (نظر من حوله غير فاهمٍ شيئًا وقد أحسّ بقدرٍ غير قليلٍ من الخوف)، فاسأل أيَّ شخص تريده لأن اسم يانوس فالوسكا معروف لدى الجميع. ما كان قادرًا على تخيّل ما يريده هذا الرجل منه، أو ما قد تشير إليه إيماءة الحرب هذه، ولم يعرف السبب الذي جعلها تنتهي فجأة عندما ترك صديقه يده واستدار مئات الأشخاص المجتمعين في الساحة، كلّهم، في اتجاه الشاحنة، وقد بدا عليهم ترقُّبٌ عظيمٌ. اغتنم الفرصة، على الرغم من أنه كان لا يزال مصدومًا نتيجة طريقة احتجازه الغريبة تلك، فألقى التحيّة وسار مخترقًا الحشد الكثيف، ولم ينظر خلفه إلا بعد أن ابتلعه الزحام، ففاجأته كثيرًا فكرة مخيفة مفادها أنه كان مخطئًا، وأنه كان غبيًّا تمامًا، فكان

عليه -فورًا وبخجلٍ شديدٍ- أن يعترف لنفسه بأن تلك القوّة الكبيرة التي طبّقها الرجل عليه بطريقة غير مؤذية على الإطلاق لم تكن شيئًا يستوجب الشك أو الريبة؛ بل إن مجرّد الشكّ فيها كان فعلًا فظًّا من جانبه. لكن ما أزعجه أكثر من ذلك كلّه كان سوء تفسيره الذي لا يغتفر لتلك الحركة الودية التي لم يستجب لها، فانتابه خجل شديد من جلافة سلوكه، ولم يخفّف ذلك الخجل شيئًا غير معرفته بأنه سيكون قادرًا على الاستجابة لذلك اللطف بطريقة أكثر انتباهًا في وقتٍ قريبٍ جدًّا. لم يفهم حقًّا ما فعله (لقد كان صبر ذلك الرجل وتفهّمه يستحقان منه امتنانًا، لا ذعرًا غير منطقي). وبما أن مهمته لدى السيدة إيزتر لم تكن تتيح له وقتًا لمعالجة الأمر على الفور من خلال البحث من جديد عن ذلك الرجل بين الناس المجتمعين، فقد عقد عزمه (على الرغم من أنه احتاج إلى بعض الوقت حتى يتوصّل إلى معرفة ما جذب انتباه الناس جميعًا)، على أن يصلح غلطته، بكلّ تأكيد، عندما يلتقيان مرة أخرى. كان الظلام قد خيّم بحلول ذلك الوقت، ولم يعد هناك غير ضوء مصابيح الشوارع المتراقص وقليل من الضوء المتسرّب عبر باب السيرك الخلفي. وبما أن مدير السيرك لم يكن هناك، بل كان في مقدّمة العربة، فلم يكن ظاهرًا من تلك النقطة غير شبحٍ غير واضح له. «إنه هو!»... توقّف

فالوسكا في مكانه. لا شك في أنه هو، فحتّى ظلّه كان منبِئًا بحجمه الضخم من غير أي إمكانية للشكّ في ذلك. إنه حجمه الاستثنائي نفسه؛ بل إن حقيقته تطابق، في كل تفصيل من التفاصيل، ما تقوله الشائعات عنه. نسي مهمَّته العاجلة، نسيها لحظة، ونسي كل ما حدث، فشقَّ طريقه بين الناس الذين كان واضحًا أنهم قد ازدادوا حماسة بعد ظهور المدير، وذلك حتى يتمكن من رؤيته بشكل أفضل، ثم، بعد أن صار قريبًا قربًا كافيًا، وقف على رؤوس أصابعه لشدّة فضوله، وحبس أنفاسه حتى لا تفوته كلمة واحدة. كان المدير يحمل سيجارًا بين أصابعه، وكان مرتديًا معطفًا من الفراء يبلغ الأرض. كان ذلك كله، مأخوذًا بضخامة بطنه، وبإطار قبعته العريض عرضًا غير مألوف، وذلك الصفّ من الطيّات اللحميّة المتدليّة من فوق الوشاح الحريري المعقود بكل عناية على رقبته، قد فاز باحترام فالوسكا العميق في لمح البصر. وفي الوقت نفسه، كان واضحًا أن تلك الهيبة التي فرضها على كل جزءٍ من أجزاء الساحة، لم تكن ناتجة عن ضخامته المؤثِّرة وحدها، بل أيضًا عن حقيقة (حقيقة ما كان أحدٌ قادرًا على نسيانها ولو دقيقة واحدة)، أنه مالك ذلك الشيء الذي كان مركز اهتمام المجتمعين كلّهم. كان المخلوق (الذي من عالم آخر) الذي يعرضه قد أضفى على شخصه وزنًا متميِّزًا، فراح

فالوسكا ينظر إليه كأنه -هو نفسه- كان مشهدًا استثنائيًا: رجل يمارس سيطرة هادئة على ذلك الشيء الذي ينظر إليه الآخرون نظرة عجبٍ وخوفٍ. ومع ذلك السيجار الذي كان ممسكًا به على مسافة منه، كان واضحًا أن له سلطة مطلقة على كل ما كان ينظر إليه؛ وبقدر ما يمكن أن يبدو هذا غريبًا، كان من المستحيل النظر إلى أي شيء في ساحة كوسوث غير ذلك السيجار الثخين، لأنه بدا منتميًا إلى شخص يستطيع، أينما ذهب، أن يقف في ظلِّ حوتٍ هو عجيبة العالم كله. بدا الرجل متعبًا، بل مرهقٌ أيضًا؛ لكن الأمر كان كأن ذلك هو ـ تحديدًا ـ الشيء الذي يرهقه، لا الأمور اليومية المعتادة، بل حرص على شيء واحد يستنزف طاقته كلّها.

كان واضحًا أنه إرهاق آتٍ من عشرات السنين من اليقظة، إرهاق آتٍ من معرفة أن من الممكن أن يقتله في أي لحظة ذلك الثقل الفادح لشحومه. ظلَّ بعض الوقت من غير أن يقول شيئًا، ولعله كان ينتظر الصمت التام. ثم، عندما صار ممكنًا سماع صوت دبّوس إذا سقط على الأرض، نظر من حوله وأعاد إشعال سيجاره المطفأ. وعندما رفع وجهه من خلف الدخان المتصاعد ونظر إلى الحشد عبر تلك العينين المدوَّرتين الصغيرتين كعيني قارض من القوارض، فاجأ تعبير وجهه فالوسكا

مفاجأة شديدة لأن ذلك الوجه، وتلك النظرة (على الرغم من أن المسافة الفاصلة بينهما كانت لا تزيد على ثلاثة ياردات أو أربعة) بدا له كأنه موجود على مسافة هائلة منه. نطق الرجل بعد صمت طويل فقال: «حسنًا إذًا...»؛ لكنه قالها بطريقة أوحت بأنه أنهى كلامه، أو أنه يعدّهم لمواجهة حقيقة مفادها أنه لن يلقي عليهم خطابًا عظيمًا. دوّى صوته العميق من جديد؛ «لقد انتهى العرض لهذا اليوم. وإلى أن يفتح مكتب التذاكر غدًا، أتمنّى للجميع أطيب الأمنيات وأشكركم على حسن انتباهكم. اسمحوا لي بأن أشكركم مرة ثانية باسم الشركة. لقد كنتم جمهورًا رائعًا، لكن علينا الآن أن نترككم». أبعد سيجاره عن وجهه، وببطء، وبقدر من الصعوبة، انسحب عابرًا جمع الناس الذين أفسحوا له الطريق طائعين، ثم صعد إلى الشاحنة واختفى عن أنظارهم. لم يكن ما قاله أكثر من بضع كلمات، لكن فالوسكا أحسَّ كأن تلك الكلمات كانت برهانًا كافيًا على فصاحة المدير النادرة وعلى فرادة هذا السيرك («... مدير يودِّع جمهوره هذا الوداع الجميل!...»)؛ وبعدها، أدرك فالوسكا من شلّال الهمسات الذي أعقب ذلك مباشرة -لعله ذُعِرَ قليلًا نتيجة ذلك- أنه ليس وحيدًا في تقديره الشديد لتلك العجيبة التي شهدها. على الفور، ولأن هدير الأصوات قد بدأ يجتاح الساحة كلّها، تمنى

فالوسكا أن يظهر المدير من جديد لكي يقدّم لهم بعض الملاحظات التوضيحيّة البسيطة عن المخلوق العجيب، أو عن الشركة نفسها، وذلك حتى يخفِّف شيئًا من وطأة الغموض المحيط بهما. ظلَّ واقفًا هناك، في العتمة، غير فاهم ما يقوله الناس من حوله. كان يعدّل، بحركة عصبية، سير حقيبته المعلَّقة من كتفه منتظرًا أن يهدأ الهياج (لأن ما حوله قد صار هياجًا بالفعل). وفجأة، تذكَّر كلمات كبير الطباخين والأحاديث التي جرت أمام نادي الياقات البيضاء؛ ولما كانت الأصوات المعبِّرة عن الاستياء لم تهدأ بعد، فقد انتابه توجُّسٌ لحظي من أن مخاوف أهل المدينة، تلك المخاوف التي لا مبرر لها، يمكن أن تكون مبرَّرة في واقع الأمر. على أنه لم يستطع احتمال الانتظار حتى يهدأ التذمُّر الناتج عن عدم الرضا، ولا حتى تصير أسبابه واضحة له. ومن سوء حظه أنه كان مضطرًا للذهاب من غير أن يفهم ما يجري فهمًا سليمًا. وحتى بعد أن شق طريقه عبر الناس المجتمعين فبلغ فسحة ساحة هونفيد، لم يكن قد توصّل إلى فهم الوضع جيدًا. وعلى أية حال... على طول مسافة الرصيف المفضي إلى مسكن السيدة إيزتر... راح يسير مارًا بتلك الشوارع الخالية، فصار ذهنه مشوشًا بعض الشيء، وصارت حوادث نهاره، هذا الحدث، ثم ذاك، تومض أمامه ولم يستطع أن يرى

معنى أيٍّ منها. فمن ناحية أولى، كانت ذكريات رحلته مع السيد إيزتر تملأه حزنًا؛ ومن ناحية أخرى، كانت أفكاره عن المدينة والساحة تجعله يعاني وخزات حادَّة من الإحساس بالذنب لأنه أضاع وقته: كان ينتقل سريعًا بين هاتين الحالتين الذهنيتين اللتين كانت كلٌّ منهما وضعًا غريبًا عن تجاربه المعتادة: لقد أُقحِم في حياة آخرين -هكذا بدا الأمر- بدلًا من البقاء معزولًا عن حياتهم؛ وقد صار مشوشًا تشوّشًا تامًا بفعل التعاقب المدوّخ للصور حتى لم يبق في ذهنه شيء غير الحيرة وعدم الفهم، فضلًا عن رغبة ملحةٍ متزايدة في تجاهل كلٍّ من حيرته وعدم فهمه. وفوق هذا كله، فتح بوابة الحديقة فأحسَّ ذعرًا يفوقُ ذعرَ كل ما عداه، ذعرٌ اجتاحه عندما أدرك أن الساعة قد تجاوزت الرابعة بوقتٍ غير قليل، وأن السيدة إيزتر، بطبيعتها غير المتسامحة، لن تغفر له ذلك أبدًا. لكنها غفرت له! لم تغفر له فحسب، بل إن الأمر بدا وكأن وجود ضيوف عندها قد قلَّل من أهمية مهمته، فقد بدت كأنها لم تصغ إلى كلامه، بل كانت مكتفية بالإيماء برأسها منزعجة، وتركت فالوسكا واقفًا بالعتبة مستعدًّا لتقديم المعلومات التفصيلية عن نجاح افتتاح حملتهم؛ لكنها أوقفته بأن أعلنت أنه «بالنظر إلى الظروف الحاليّة الخطيرة، فإن المسألة كلّها -في اللحظة الراهنة- قد فقدت أهمّيتها»؛ ثم

أشارت له بالجلوس على كرسي ونبّهته بطريقة صارمة بأن عليه أن يظلَّ ملتزمًا الصمت. لم يدرك فالوسكا إلا عند تلك اللحظة أنه قد أخطأ في توقيت وصوله، وأن هناك اجتماعًا آخر جاريًا من الممكن أن يكون أكثر أهمّية. وبما أنه لم يفهم دوره في هذا كله، ولم يفهم السبب الذي جعل المرأة -بعد أن انتهى عمله معها- تمتنع عن تركه يذهب في حال سبيله، فقد ظلَّ جالسًا ممسكًا بركبتيه خائفًا من إصدار أدنى صوت. إن كان الأمر هكذا حقًّا، وإن كان قد اقتحم اجتماعًا مهمًّا، فقد كان مشهد المجتمعين هناك مشهدًا غريبًا بالتأكيد. كان عمدة المدينة يسير في الغرفة مندفعًا وهو يهز رأسه بطريقة موحية بأسى شديد؛ وبعد أن اجتاز الغرفة مرتين أو ثلاث مرات، صاح قائلًا: «أن نصل إلى هذا... أن يكون على مسؤول كبير أن يختبئ بين الشجيرات في حدائق الناس...!!»؛ ثم لم يلبث، وقد صار وجهه قرمزيًا لشدّة حنقه، أن شد ربطة عنقه، ثم أرخاها من جديد. ما كان للمرء أن يقول الكثير عن مدير الشرطة، لأنه كان مستلقيًا، محمرّ الوجه، وقد امتد منديل جيب مبلَّل على جبهته. كان مرتديًا معطفه الرسمي، راقدًا في سكون تام وهو يحدِّق في السقف بعينين جامدتين... كان ممدّدًا على السرير الذي تفوح منه رائحة كحول قوية. لكن سلوك السيدة إيزتر نفسها

كان أكثر غرابة لأنها لم تقل شيئًا، بل غرقت في تفكير عميق (كانت تعض شفتيها باستمرار)؛ كانت الآن تلتفت إلى ساعتها وتلقي نظرات غريبة في اتجاه الباب. ظلَّ فالوسكا جالسًا على الكرسي وقد غمرته الرهبة؛ وكان يفكِّر في أنه يجب أن يذهب، بالتأكيد، ولو لم يكن لديه سبب للذهاب غير التزامه تجاه السيد إيزتر. لكنه لم يجرؤ على الإتيان بأية حركة خوفًا من تعكير مجريات الاجتماع المتوتِّر. إلا أن زمنًا طويلًا مرَّ من غير أن يحدث أي شيء. ولا بد أن العمدة كان قد اجتاز مسافة لا يستهان بها في ذهابه ومجيئه في الغرفة عندما نهضت السيدة إيزتر واقفة وتنحنحت، ثم أعلنت قائلة إنها تريد تقديم اقتراح كبير القيمة نظرًا لأنه ما من معنى لبقائهم منتظرين. قالت مشيرة إلى فالوسكا، «علينا أن نرسله حتى تصير لدينا رؤية واضحة للوضع أثناء انتظارنا وصول هارر». قاطعها العمدة وقد توقَّف في منتصف مساره وارتسم على وجهه تعبير شديد المرارة: «الوضع صعب، الوضع صعب! من فضلك». ثم هز رأسه من جديد وقال إنه يشك في كون «هذا الشاب الذي يعجبني من النواحي الأخرى» قادرًا على أداء المهمة. إلا أنها («إلا أنني...») لم تكن تشاطره ذلك الشك، فمنحته ابتسامة قصيرة متعالية متجنِّبة الخوض معه في هذا الخلاف. وبعد ذلك، استدارت إلى

فالوسكا وقالت له بأقصى قدر من الجدّية المتجهمة، إن ما هو مطلوب منه يتلخّص في الذهاب إلى ساحة كوسوث، «من أجل مصلحتنا جميعًا»، وملاحظة ما يحدث هناك بكل انتباه، والعودة لتقديم تقريره عما رآه إلى «لجنة الأزمة، وذلك على أبسط نحو ممكن».
نهض فالوسكا عن الكرسي وقال: «يسرّني تنفيذ المهمّة!». لقد فهم على الفور أن عبارة «مصلحتنا جميعًا» تشمل صديقه، وأن هذا هو سبب اجتماع اللجنة؛ وبعد هذا - غير واثق وغير عارف إن كان يفعل الصواب، وقف وقفة الاستعداد وأعلن أنه مستعدٌ تمامًا لتقديم خدماته على الفور لأنه كان في ساحة كوسوث قبل مجيئه مباشرة، وقد أحسَّ بأن من واجبه أن يوضح نقطة أو اثنتين، وذلك في ما يتعلّق خاصّة بالحالة المزاجية الغريبة للناس المحتشدين هناك. انتصب مدير الشرطة جالسًا في السرير، انتصب لحظة عندما سمع عبارة «حالة مزاجية غريبة»، ثم هوى على السرير من جديد. طلب من السيدة إيزتر بصوت واهٍ أن تبلِّل منديل الجيب الموضوع على جبهته وأن تحضر له ورقة وقلمًا حتى يتمكّن من تسجيل الملاحظات اللازمة، وذلك لأنه يرى أن الأمر ذا صلة شديدة بواجباته الرسمية (باعتباره رجل شرطة)، وأن عليه أن «يكون مسيطرًا على الموقف». نظرت المرأة إلى العمدة،

فنظر العمدة إليها نظرة موافقة واضحة (موافقة على تزويد المريض العاجز بمنديل مبلل آخر)؛ وقال إن «من الأفضل أن نحافظ على هدوئنا»؛ وهكذا نظروا جميعًا إلى فالوسكا وجلست السيدة إيزتر إلى جانب السرير حاملة بيدها الورقة والقلم. تنهَّد مدير الشرطة بقلق معذَّب، «وقت قصير جدًّا!»؛ وعندما أجابته المرأة قائلة: «هناك ما يكفي»، سَرَت فيه موجة غضب، وبطريقة استعلائية، كأنه محترف أمام هواة، سألها بطريقة منهجية، «ما يكفي من ماذا؟»؛ فأجابته السيدة إيزتر منزعجة: «وقت كافٍ، ومكان كافٍ. لقد سجلت ذلك كله». أومأ مدير الشرطة برأسه في اتجاه فالوسكا: «كنت أسأله هو. أي وقت؟ وأي مكان؟ أين؟ متى؟ سجِّلي إجابته، لا إجاباتي أنا». أدارت المرأة رأسها حانقة، وكان واضحًا أنها في حالة توتّر استثنائي، لكنها غير راغبة في قول أيّة كلمة في اللحظة الراهنة؛ ثم سيطرت على أعصابها من جديد ونظرت إلى العمدة الذي لا يكفّ عن الحركة، نظرت إليه نظرة محملة بالمعاني، ثم التفت إلى فالوسكا وأشارت إليه بأن «يتابع ما كان فيه». نقل فالوسكا ثقل جسمه من قدم إلى أخرى غير فاهم ما هو متوقّع منه فعله على وجه التحديد؛ وقد خشي أيضًا أن يتحوّل غضب المريض المقعد إليه في أية لحظة، فحاول إعلام المجتمعين «بأبسط طريقة

ممكنة» بما شاهده في الساحة. لكنه لم يقل إلا بضع جمل (كان قد وصل إلى الجزء الخاص بالرجل الذي تعرَّف عليه)، حتى شعر أنه ارتكب غلطة. والواقع أن الآخرين أوقفوه هنا عن الكلام. «لا نريد هذه الثرثرة عن انطباعاتك، ولا عمّا فكّرت فيه أو سمعته أو تخيّلته». حدّجه مدير الشرطة بعينيه المحمرّتين الكئيبتين... «التزم بالحقائق الموضوعيّة. لون عينيه...؟ كم هو عمره...؟ وكم طوله...؟ علاماته الفارقة...؟ فلست أهتم أبدًا حتى...». لوح بيده كمن يتخلّى عن شيء ما... «حتى بسؤالك عن اسم أمه». كان فالوسكا مضطرًا إلى الاعتراف بأنه، في واقع الأمر، ليس متأكِّدًا من المعلومات الدقيقة من ذلك النوع، ووجد لنفسه عذرًا عندما استنجد بحقيقة أن الظلام كان قد بدأ يحل في ذلك الوقت. وعلى الرغم من إعلانه أنه سيستجمع فطنته كلّها ويزيد من تركيزه علّه يتمكّن من تذكّر أي شيء آخر، فقد وجد أن صورة صديقه نفسها (مهما أرهق نفسه بالمحاولة) قد صارت تبدو له خالية من أي شيء غير قبعته ومعطفه الرمادي. ثم شعر الجميع بالانفراج، هو خاصّة، عندما استلم المريض عند تلك النقطة لقوّة النوم الشافية، فزال فجأة خطر ظهور مزيد من الأسئلة الصعبة التي لا إجابة عنها. وبما أن السويّة المدقّقة الموضوعية للتحرّيات التي وجد نفسه

غير مؤهلٍ لها لم تعد مطلوبة، وعلى الرغم من قلقه كلّه، فقد نجح في إكمال قصته وتوضيح الأمور قليلًا. وصف مظهر مدير السيرك، من سيجاره حتى معطف الفراء الأنيق، ثم كرّر الكلمات الخالدة التي قالها عندما ودع جمهوره؛ وصف أيضًا تفاصيل مغادرة الرجل، وكيف استقبله حشد المجتمعين هناك. ولما كان مقتنعًا بأن اللجنة التي أمامه سوف تفسِّر الأحداث السالفة في هذا الضوء، فقد أقرّ أنه -نتيجة الوضع الموجود في ساحة السوق، وفي المدينة عامة- صار غير واثق مما ينبغي عليه فعله، وذلك في ما يتعلَّق بالسيد إيزتر. إن كان لهذا الباحث أن يتعافى ويستعيد صحته فتعود إليه قدراته الإبداعية، فهو في حاجة -قبل كل شيء- إلى ظروف متّسمة بالهدوء المطلق... الهدوء، كرّرها فالوسكا، حتى يزول عنه إحساسه بالتوتّر (ذلك الإحساس الذي لم يكن مفهومًا بالنسبة إلى فالوسكا)، وكذلك إحساسه الحتمي بالقلق والإثارة نتيجة ما واجهه («رغم أنني فعلت كل ما استطعت فعله لأتفاداه») بعد ظهر هذا اليوم عندما قرّر أخيرًا أن يخرج من البيت. يعرف الجميع أن رجلًا يحظى بهذه الدرجة الرفيعة من الحساسية يمكن تمامًا أن تسبب له الأذى والإحباط أدنى العلامات الدالة على الفوضى والاضطراب. أقر فالوسكا أنه نتيجة هذا، وخاصة نتيجة أنه رأى كيف تمكَّنت حالة

القلق العامة من أن تعبِّر عن نفسها في ساحة السوق، فإن تفكيره كلّه كان متجهًا إلى السيد إيزتر. إنه يدرك تمام الإدراك أن دوره وأهميته في المسألة المطروحة، بالمقارنة مع أهمية السيدة إيزتر ومع أهمية اللجنة، لا تكاد تبلغ الصفر، ومع هذا فهو يرجوهم أن يضعوا ثقتهم فيه، وأن يطمئنوا إلى أنهم قادرون على الاعتماد عليه في فعل كل ما يطلبونه منه. كان يحبّ أن يقول أيضًا إن مصلحة السيد إيزتر ذات أهمية قصوى، بالنسبة إليه شخصيًّا؛ وذلك لأنه مضى في كلامه إلى حدِّ الإعراب عن مقدار اطمئنانه، هو نفسه، إلى حقيقة أن مصير المدينة (وبالتالي مصير سيّده ومعلّمه) كان بين يدي هذه اللجنة التي أبهرته عندما رآها أمامه. لكنه -يا للأسف- لم يتمكَّن من التعبير عن هذا الشعور ولا ذاك لأن المرأة أسكتته بإشارة صارمة واحدة، ثم قالت له: «جيّد جدًّا؛ الحقيقة أنك محقٌّ تمامًا.

لا يمكننا الاكتفاء بالجلوس هنا والثرثرة لأن علينا أن نفعل شيئًا». جعلاه يكرِّر ما كان عليه فعله، فما كان منه إلا أن ذكر النقاط البارزة كلّها متحمسًا مستثارًا كأنه طفل يقرأ درسه. وكان من بين تلك النقاط «حجم الجمهور المحتشد... الجو العام... المظهر، وظهور وحش ما، إن ظهر له شيء». وبعد أن أقلع الرجل والمرأة عن فكرة شرح ذلك التحذير الأخير، وجعلاه

يعدهم وعدًا قاطعًا بأن ينجز المهمة بدقة وبسرعة، تعهَّد لهم بأنه سيعود خلال دقائق معدودة، ثم خرج من غرفة اللجنة على أطراف أصابعه حتى لا يوقظ شاغل السرير، الذي كان قد بدأ يئنّ في تلك اللحظة تمامًا. كان فالوسكا مفعمًا بالاعتزاز لأن اللجنة قد وضعت ثقتها فيه، أو يمكن القول بالأحرى إنه كان مفعمًا بالارتياح، لأن «لجنة الأزمة» كلها كانت مساندة للسيد إيزتر في محنته ومعاناته، فظلَّ يسير على أطراف أصابعه حتى اجتاز الفناء كلّه، ثم لم يتذكّر أن يعود إلى مشيته الطبيعية حتى بلوغه الشارع وإغلاقه البوابة القديمة المتداعية من خلفه. لم يكن قادرًا على القول إن زيارته إلى مسكن السيدة إيزتر كانت زيارة مطمئِنَة بالمعنى الدقيق للكلمة، إلا أن رباطة جأشها -على الأقل- قد مارست عليه تأثيرًا شافيًا كفيلًا بأن يزيح عنه قلقه وارتيابه؛ ولما كان لم يتلقَ إجابة عن أيِّ سؤال من أسئلته، فقد أحسَّ بأن -هنا- أخيرًا، من يستطيع أن يستأمنه على شؤونه من غير خوفٍ. فخلافًا للوضع الذي كان قبل ذلك، حيث كان عليه -هو صاحب البراءة غير المنتمية إلى هذا العالم- أن يفهم ويقرِّر كل شيء بنفسه، فقد صار الآن مكلّفًا بمهمة واحدة واضحة، وبأن ينجز تلك المهمة التي طُلب منه إنجازها؛ فكَّر في أن هذا لن يكون أمرًا شديد الصعوبة. استعرض في ذهنه

عناصر المهمَّة المختلفة -استعرضها عشر مرات على الأقل- ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى أحس بأن ذهنه قد صار أكثر ارتياحًا في ما يتصل بمسألة «الوحش»، الذي لم يجر تحديده (توصّل أخيرًا إلى أن عليه أن ينظر إلى الحوت من جديد). أحسّ بأن ثقلًا قد انزاح عنه، وتذكَّر نظرة المرأة الهادئة، فانجلى عنه ضباب الحيرة الذي كان يكتنف مهمته كلها، فلم تكن ردّة فعله كبيرة عندما اصطدم -عمليًا- بالسيد هارر عند مدخل الساحة؛ فقال له الرجل في سيره: «سيكون كلُّ شيء الآن على ما يرام، لكن من الأفضل كثيرًا إذا امتنع شاب مثلك عن التجوّل في الشوارع...!»، إلا أنه أجابه بابتسامةٍ، ثم اختفى بين الناس على الرغم من أنه كان يود كثيرًا أن يوضح له سبب وجوده في هذا المكان. («لا، أنت مخطئ يا سيد هارر لأنه ينبغي عليّ أن أكون في هذا المكان بالضبط...»). كانت الساحة الآن تنيرها مئات النيران الصغيرة؛ وهنا وهناك، تناثرت مجموعات من عشرين إلى ثلاثين جسدًا متجمِّدًا تتدفأ عند ألسنة اللهب التي كانت ترتفع أعلى فأعلى. ولما كان من شأن هذا أن يجعل المرور بينهم أكثر سهولة، فقد صارت ممكنة رؤية كل شيء بمزيد من الوضوح. لم يكن فالوسكا في حاجة إلى أكثر من بضع دقائق لا يعيقه فيها شيء حتى يستوعب المشهد الذي أمامه. لعلَّها بضع دقائق لا يعيقها

شيء، لكن هذا «التفحُّص الشامل» لم يحقِّق له أي وضوح فوريٍّ في ما يخصُّ حجم ذلك الحشد (فما التفاصيل التي يفترض أن ينظر إليها إذا كان كلُّ شيء على حاله). راح ينظر إلى هؤلاء الناس الذين يبدون مسالمين وهم يفركون أيديهم عند النيران، فأحسَّ بأن ما من شيء خطير هنا، ولا حتى في «الجو العام». «لا أحد يتحرّك؛ والمزاج العام يبدو طيبًا». جرّب قول هذه الكلمات، لكنها بدت له زائفة. ولما بدت له زائفة، بدت له طبيعة مهمته أكثر صعوبة من ذي قبل. مراقبة هؤلاء الناس سرًّا، والسير بينهم كما أنه عدو لهم، والشكّ في ارتكابهم مخالفات وجرائم غير محدَّدة، وفهم أكثر حركاتهم براءة على أنها دليل على نية شريرة... أدرك فالوسكا على الفور أنه غير قادرٍ على متابعة ذلك البرنامج حتى نهايته. وإذا كان، في حالة الذعر التي تلبسته في وقت مضى، قد وجد طاقة المرأة الصاحية مصدرًا يستمد منه قوة، فإن بضع دقائق بين هؤلاء الناس المجتمعين
من حول هذا الدفء اللطيف المنبعث من النار (مما أنتج إحساسًا غريبًا بالألفة) جعله يتخفّف من عبء سوء الفهم الذي كان عبئًا ثانويًا، لكنّه محرج له... سوء فهم يتشاطره كل من كبير الطباخين، ونادابان وأصدقائه، والسيدة إيزتر نفسها، وهذا ما يوحي بأن علاج «القلق

الناجم عن الحاجة إلى تفسير منطقي» (وكذلك أيضًا، في واقع الأمر، قلقه المتعلّق بالسيد إيزتر)، يمكن العثور عليه في السيرك وفي هذا الجمهور المنتظر الذي طالت معاناته. السيرك الغامض غموضًا لا شك فيه، والجمهور المخلص إخلاصًا غامضًا، والسرّ كلّه... هذا ما اعترف به فالوسكا لنفسه مع اتّضاح الصورة له... يمكن أن يكون له تفسير بسيط واضح تمامًا. انضم إلى إحدى المجموعات عند النيران، لكن صمت أفرادها وقد رفعوا رؤوسهم وراحوا يحدِّقون في النار، أو يلتفتون من حين لآخر في اتجاه عربة السيرك، لم يعد يقلقه بعد الآن لأنه فهم فهمًا واضحًا أن السر كامنٌ في الحوت، لا في أي شيء آخر، إنها النظرة الأولى إلى الحوت، التي حظي بها هو نفسه وعاش تجربتها هذا الصباح، فهل كان غريبًا -هكذا راح يفكِّر وقد علت وجهه ابتسامة، وكان مما يسعده أن يعانق كلَّ واحد منهم لشدّة ارتياحه- أن يكون كلُّ شخص موجود هنا قد وقع أسير سحر ذلك المخلوق الاستثنائي مثلما حدث له؟ وهل من عجب في اعتقادهم، عميقًا في قرارة أنفسهم، أن الأمر يستحقُّ الانتظار لرؤية حدث استثنائي قد اقترب وقوعه؟ كان في غاية السرور لإحساسه «بسقوط القشور عن عينيه»، وأحب أن يشارك الجميع تجربته، فأعلن مخاطبًا من كان حوله، بنبرة تآمرية، أنه وجد «ثراء

الطبيعة الذي لا نهاية له»، آسرًا للنفس، آسرًا تمامًا. قال هذا وأضاف أيضًا أن تلك العلامة، في يوم كهذا اليوم، تشير إلى «وحدة الأشياء التي من الواضح أنها مفقودة». وبعد ذلك، لوّح بيده مودِّعًا من دون انتظار إجابة، ثم واصل سيره بين الناس. أحسّ في البداية أن عليه أن يندفع عائدًا بهذه الأخبار. لكن الأوامر التي تلقَّاها كانت تقضي بأن يعاين الحوت أيضًا («الوحش...!» ابتسم لهذا اللقب المخيف)؛ وكهذا، حتى يكون ما سيقوله للجنة مكتملًا إلى أقصى حد ممكن، قرر أن يسترق نظرة سريعة أخرى إلى «مبعوث القدرة الإلهية» إن استطاع، وذلك حتى لا يبقى «رفاقُه» في حالة اضطراب هذا المساء الذي بدأ بداية حزينة جدًّا لكنه بات الآن مبشِّرًا بنهاية حسنة تمامًا. كانت العربة مفتوحة لأنهم لم يضعوا بعد الألواح المعترضة التي تغلقها، فلم يستطع مقاومة إمكانية دخولها بدلًا من الاكتفاء بـ«نظرة سريعة». الآن، بعد أن صار وحيدًا في النظر إليه، كان جسد الحوت الذي لا يضيئه إلا مصباحان مرتعشان، راقدًا بين جدران ضخمة من الصفيح في البرد الصقيعي في الخارج، فبدا له أكبر حجمًا وأكثر إثارة للهلع مما عهده؛ لكنّه لم يعد خائفًا منه... فالواقع أنه أحسّ، بمعزل عن افتتانه به واحترامه له، كأن الحوادث الفاصلة بين لقائهما الأول

ولقائهما الحالي قد يسّرت قيام علاقة سرّية غريبة تكاد تكون لطيفة بينهما. لقد كان موشِكًا على وداعه وداعًا مازحًا عند انصرافه («أترى مقدار ما أثرته من متاعب، على الرغم من أنك لم تعد قادرًا على إيذاء أحد منذ زمن بعيد...»)، لكنه سمع أصواتًا غير متوقعة وغير مفهومة آتية من مكان ما في عمق العربة. ظنَّ أنه عرف تلك الأصوات، ثم لم يلبث أن اتضح له أنه لم يكن مخطئًا؛ فقد وصل إلى الباب الموجود في المؤخرة -الباب الذي استنتج وجوده في وقت سابق- ذلك الباب المؤدِّي إلى منطقة مخصَّصة للمعيشة. وضع أذنه على الجدار المصنوع من الصفيح فبدأ يلتقط بعض الجمل («... لقد كلَّفته بإظهار نفسه، لا بأن ينشر قصصًا غبية. لن أتركه يخرج. أدره في اتجاهي!...»). كان متأكِّدًا من أن صوت المدير قال هذه الكلمات. لكن الأصوات التي سمعها بعد ذلك -زمجرة مستوية خفيضة أعقبها نوع من زقزقة حادّة مفاجئة- كانت، أول الأمر، غير مفهومة أبدًا؛ فكان لا بد له من بعض الوقت حتى يدرك أن المدير لا يخاطب طيورًا ودببة محبوسة في أقفاصها، بل كان كلامه موجّهًا -بوضوح- إلى شخصٍ ما، وذلك لأن الزمجرة والزقزقة الغريبتين يجب أن تكونا، في الحقيقة، ناتجتين عن كائنين بشريين. كان أول هذين الكائنين، حتى هذه اللحظة، يزمجر بلغة

هنغارية مكسَّرة ويقول ما معناه: «هذا ما يقوله، ولا يستطيع أحد إيقافه مهما فعل. وهو لا يفهم ما تقوله له، يا سيدي المدير...». بعد أن سمع فالوسكا هذا القدر، صار واضحًا له أنه وجد نفسه في موقع الشاهد غير المدعو (ثم إنه كان شاهدًا لا يكاد يستطيع كبت فضوله) على حديث، أو على مجادلة، على الأرجح، على الرغم من أن موضوع تلك المجادلة، وكذلك هوية من يتوجّه إليه المدير بكلامه بتلك الطريقة المتوتّرة (كان يقول عندها: «قل له، إنني غير مستعدٍ للمغامرة مرةً ثانيةً بسمعة الشركة. لقد كانت تلك المرَّة الأخيرة، بالتأكيد، مرة أخيرة...»)، لم يكونا أمرين واضحين تمامًا. وحتى إن نجح في التمييز بين النوبة الجديدة من الزمجرة والزقزقة التي تصاحبها، وفي تفسير الزمجرة الهنغارية الغامضة قليلًا التي أعقبتها («يقول إنه لا يعترف بأيّة سلطة عليا. ويقول إن المدير لا يمكن أن يكون جادًّا في ظنّه...»)، فقد ظلَّ عاجزًا عن معرفة هوية المتكلِّم أو عن تحديد عدد المستمعين هناك في تلك الغرفة الخفيّة... على الأقل، ليس قبل سماعه الجزء الذي تلا ذلك. قال المدير وقد فقد صبره: «ألا يمكنك، من فضلك، أن تُدخِل في رأس هذا الطفل بطيء الفهم...» - كان فالوسكا يشم رائحة سيجاره فتخيّل دخانه منبعثًا من بين شفتيه-»... إنني لن أسمح له بالخروج؟ يعلم الربُّ،

حتى إذا سمحت له بالخروج، أنه ليس مسموحًا له أن ينطق أيّة كلمة. وأما أنت، فلن تبقى مترجِمًا له. عليك أن تبقى هنا. سوف أُخرجه. وإلا فهو مطرود. بل إنكما مطرودان، كلاكما». انتبه فالوسكا إلى نبرة التهديد التي لا تخطئها الأذن، فأدرك فجأة أن تلك الزمجرة وتلك الزقزقة -قد عادتا إلى تتابعهما السابق نفسه، فلم يذكِّره هذا بأي شيء سمعه قبل هذه اللحظة- كانت بينهما صلة لغويّة مما يعني أن هناك (يجب أن يكون هناك) شخصين في تلك الغرفة الضيِّقة غير المريحة، «هكذا تصوَّرها لأن شخص المدير -عندما رآه- كان موحيًا تمامًا بحاجته إلى الرّاحة»... شخصان موجودان مقابل ذلك الصوت الآمر الهادر. لكنه أدرك أيضًا أن واحدًا من هذين الاثنين، الشخص المزمجر، لا بد أن يكون قاطع التذاكر بائع البطاقات صاحب الأنف المحطّم الذي رآه في الصباح. ثم إن الاسم الذي سمعه ففاجأه كثيرًا، «المساعد العام»، جعل هذا الاستنتاج أكثر احتمالًا. وما إن تمكَّن من التوصل إلى هذا حتى صار أحد المشاركين في هذا الحديث الذي يصير مخيفًا أكثر فأكثر على الرغم مما يوفِّره من توضيح لحقيقة الأمر (الأمر الذي كان واضحًا أنه ذو طبيعة خاصّة، أو لنقل إنه ذو طبيعة متعلِّقة بالعمل) -لقد عرف هوية شخص بعينه من المشاركين في الحديث الذي كانت الدلائل كلّها تشير إلى

أن هناك شخصين مشاركين فيه-، فضلًا عن المدير (همس شيء لفالوسكا قائلًا له إنه عثر على المكان الذي سيجد فيها إجاباتٍ عن أسئلته كلّها فور اتضاح موضوع الحديث الذي لن يلبث أن يتّضح سريعًا). الآن، صار الأمر واضحًا وضوحًا خاصًّا، فتمكن فالوسكا من تصوّر المدير جالسًا هناك ينظر إلى جسد «المترجم» الضخم الواقف خلف هذا الباب المصنوع من الصفيح وهو يحاول أن يلعب دور الوسيط بين الطرفين المتعارضين تعارضًا شديدًا، أي بين تلك اللغة الغريبة غير الواضحة من جهة، ولغة المدير من جهة أخرى. وأما معرفة تلك اللغة، وهوية الشخص الذي كان «المساعد العام» يقوم بدور المترجم له، أي معرفة الشخص الثالث الموجود في تلك الغرفة الصغيرة المغلقة، فقد ظلّت حتى الآن خارج قدرة فالوسكا على الاكتشاف، ذلك أن الإجابة التي سمعها (ترجمها العملاق المزمجر قائلًا: «يقول لك إنه يريد أن أكون معه لأنّه يخشى أن يتخلّى المدير عنه»)، وكذلك الردّ الحادّ من صاحب السيجار («قل له إنني غاضب من تصرُّفه الشائن!»)، لم يوفرا له أي مزيد من الفهم. بل إن هاتين الجملتين زادتا من حيرته ولم تقتصرا على عدم مساعدته لأن ما سمعه حتى تلك اللحظة كان يوحي بأن ذلك العضو، غير المرئي حتى الآن، في مجموعة

الأفراد المرافقين للحوت (ليس غير مرئي فحسب، بل كان واضحًا أنه مخفي على نحو مقصود)، كان لا بد من حمله، (كيف...؟ أفي حضن أحد ما؟...)، كان شخصًا وظَّفه المدير من أجل إظهاره، لكنه لا يريد إظهاره! وهذا ما جعل حل المسألة بشكل مقنع أمرًا أكثر صعوبة؛ ثم جاء ذلك الرد المتعالي، («يقول لك إن هذا أمر سخيفٌ لأن من المعروف للجميع أن لديه أتباعًا هناك. لن ينساه أتباعه.

ولا تستطيع أيّة قوة عادية أن توقفه لأن لديه قوى مغناطيسية»)، فأشار بمزيد من الوضوح إلى أن المدير ذا المظهر المخيف، المدير الذي كان يوحي بأنه قادرٌ على كلِّ شيءٍ، قد وجد نفسه محشورًا في الزاوية... قد وجد نفسه في مواجهة كائنٍ خارقٍ. صاح المدير مفصحًا إفصاحًا واضحًا عن مقدارٍ عجزه وعن اعتماده الشديد على من يكلِّمه، «هذه وقاحة حقيقية!»، فأحسَّ الشاهد الواقف خلف الباب (الشاهد الذي كان يزداد توترًا) رعشةً تسري في جسده، وفكّر في أن المدير الضخم صاحب القوة المخيفة والصوت العظيم الهادر لا بد أن يضع حدًّا لهذا النقاش. زمجر الصوت الهادر ساخرًا: «قوى مغناطيسية! ليست قواه المغناطيسية إلا تشوهًا! إنه حالة من حالات الشذوذ. سأقولها ببطء حتى

تتمكّن من فهمها: ش ـ ذ ـ و ـ ذ، وهو لا يعرف أيَّ شيءٍ عن أيَّة قوى... وهو يدرك هذا كما أدركه. وأما لقب الأمير...»، سُمعت في صوته رنة ازدراء... «فقد كان لقبًا أطلقته عليه بنفسي! كان هذا قرارًا متعلِّقًا بالعمل. قل له إنني أنا من اخترعه! وأنا الوحيد من بيننا، نحن الاثنين، من يملك فكرة عن العالم الذي يطلق فيه الأكاذيب تلو الأكاذيب، الأكاذيب الفاضحة التي تهيّج أولئك الرعاع!!». جاء الردُّ، «يقول إن الجمهور في انتظاره هناك. ويقول إن صبر أولئك الناس قد نفد. فهو الأمير في نظرهم». صرخ المدير: «لا بأس، إنه مطرود...!». على امتداد هذا الحوار الذي كان مخيفًا في حدِّ ذاته نتيجة الغموض الذي يكتنف المتحاورين وموضوع الحوار نفسه، كان فالوسكا متجمِّدًا خلف الباب المعدني كأنه حجر؛ وقد أحسَّ الآن بأن الرعب استولى عليه حقًّا. أحسَّ بأن تلك الكلمات القوية، من «شذوذ» حتى «يحرِّض»، ومن «قوى مغناطيسية» حتى «غوغاء»؛ تجرفه صوب شاطئ مشؤوم يكمن عنده كلّ ما فشل في فهمه خلال الساعات الأخيرة، بل كل ما بدا له ظاهرة عديمة المعنى خلال الأشهر الماضية؛ وأحسّ بأن ذلك كلّه سوف يتجسَّد ضمن صورة واحدة، صورة مخيفة تكون نهاية لكل يقين جاهل (من قبيل الاعتقاد بأن الزجاج المتكسِّر على

الأرض أمام فندق كوملو، واليد الصديقة التي كانت ممسكة بذراعه كأنها قيد، والاجتماع القلق في ذلك المسكن في ساحة هونفيد، وانتظار الحشد الصابر في ساحة السوق... تلك الأشياء كلّها لم يكن لأحدها علاقة بالآخر، وما كان يمكن أن تكون له علاقة بالآخر).

أحسّ بأنه بسبب هذه «الكلمات القوية»، فإن الصورة المشوّشة التي تكوَّنت في ذهنه نتيجة انطباعاته وتجاربه المرتبكة المتداخلة قد صارت كأنها مشهدٌ بدأ ينجلي عنه الضباب وبدأ يمر بصيرورة من الاتضاح لا عودة عنها... وهذا ما أوحى له بأن احتمال أن تكون تلك الظواهر كلها أعراضًا لحدثٍ واحد، أو إشارة لحدثٍ واحدٍ لا يمكن أن يعني شيئًا إلا أن هناك «مشكلة كبيرة». كان الوقت لا يزال مبكرًا جدًّا (عند هذه المرحلة من تفاقم الأمر) على معرفة ما قد تكونه تلك المشكلة الكبيرة؛ لكن فالوسكا توقّع أنه لن يلبث أن يدرك الأمر إذا ما صار عليه أن يقاوم تلك المشكلة. وقد قاومها كأنه من الممكن إقامة أيّة عقبات في طريقها؛ ودافع عن نفسه كأن ذلك الدفاع قادرٌ على منحه أملًا في تفاديها أو في كبت ذلك الإحساس الغريزي الذي لم يلاحظ -حتى الآن- أيّة صلة واضحة بين الناس الذين أتوا مع السيرك وإحساس أهل المدينة الهستيري بالشرِّ الوشيك. على أن ذلك الأمل كان يصير واهيًا، أكثر

فأكثر، مع مرور كلِّ دقيقة، وذلك لأن صياح المدير الغاضب قد أدى إلى اجتماع الخيوط المختلفة للتجارب التي مرَّ بها فالوسكا حتى الآن، من كلمات كبير الطبّاخين إلى الرأي المتشائم لدى نادابان ورفيقيه، ومن الانزعاج الواضح لدى الناس المحتشدين في الساحة الذين تخشَّبوا بفعل البرد، إلى الاحتمالات التي يوحي بها ما يسمّونه «وحشًا»؛ وصار اجتماع هذه الخيوط موحيًا بشيءٍ مخيف ولو لمجرد أن فالوسكا وجد نفسه مرغمًا على الاعتراف بأنه كان مخطئًا عندما قلّل من أهمية توجس أهل المدينة -بل سخر منه في واقع الأمر، ذلك التوجّس الذي ازدادت حدّته كثيرًا خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية- وكانوا على حقٍّ. ومنذ اللحظة الأولى التي خطر له ذلك فيها خلال دمدمة الاحتجاج التي أعقبت كلمة المدير أمام الناس، كان فالوسكا قد نجح في الامتناع عن الوصول إلى الاستنتاجات المناسبة، وكان قد أسقط من حسابه أي احتمال لأن تكون الحقائق المتوفّرة كلها مؤيدة لهواجس أهل المدينة؛ ثم أتت تلك اللحظة في ساحة هونفيد عندما أدرك أن هناك، خلف مخاوفه المتعلِّقة بالسيد إيزتر، شكٌّ كامن في أن التوجّس العام «قد استولى عليه أيضًا»؛ ثم أتت اللحظة الراهنة التي جعلته يفقد حتّى قدرته على الحركة مبتعدًا عن الباب. لقد صار مرغمًا

على الاعتراف بأن حالة ارتخاء التوتر التي عادة ما تأتيه بعد موجات الخوف لن تأتيه هذه المرة، وأنّ ظِلَّ المعنى الكامن خلف هذه الظواهر كلها هو معناها الحقيقي بالفعل، وأنه لن يكون هناك -عما قريب- أي مهرب من الإحساس بحتمية حدوث ما يحدث هنا.

(ظلَّت المعركة دائرة خلف الباب المغلق، «إنه يقول لك: لا بأس، سوف يعمل لحسابه منذ هذه اللحظة. سيترك المدير ولن تكون له أيّة علاقة بالحوت. يقول إنه سيأخذه معه». «أنت؟!». أجابه العامل الضخم بطريقة لا مبالية. «سوف أذهب عندما يقول لي هذا. إنه يعني المال. المدير فقير. والأمير يعني مالًا بالنسبة إلى المدير». صاح المدير بالمترجم، «لا تحكِ لي عن الأمير، أنت أيضًا!»، ثم أضاف بعد لحظة: «قل له إنني لا أحبّ الإكثار من الكلام. سوف أتركه يخرج بشرط واحد، أريد أن يظلَّ فمه مطبقًا من غير أن يقول كلمة واحدة. عليه أن يكون صامتًا كأنه قبر»). نبرة كلماته المرهقة، تلك الكلمات التي كانت مدويّة كالرعد ثم تراجعت حتى صارت أنينًا مستاء، تركت فالوسكا مقتنعًا بأن المدير قد لقي الهزيمة. وبما أن فالوسكا عرف سبب الهزيمة، وفهم أن هناك شيئًا لدى صاحب الصوت المزقزق -شيئًا كان المدير المهزوم يريد الحصول عليه بأي ثمن- فما من شكٍّ في أن ما سيعقب ذلك، بالتأكيد،

سيكون واضحًا كل الوضوح. أحسّ فالوسكا مثلما تحسّ قطّة تجمدت وسط الطريق وقد أصابها بالشلل نور سيارة مندفعة صوبها: لم يعد قادرًا على تحريك عضلة واحدة من عضلاته، وظل يحدِّق مخدَّرًا، عاجزًا، في ذلك الباب الداخلي في تلك الشاحنة المتجمدة. عاد صوت المترجم: «يقول لك إنه لا يقبل أيّة شروط. سيحصل المدير على المال، وسيحصل الأمير على أنصاره. لكلّ شيء ثمن. وما من حاجة إلى المجادلة». جاء صوت المدير المرهق: «إن كان أولئك الرعاع قد دمّروا البلدات التي يمرون بها، فلن يبقى له مكان يذهب إليه بعد فترة. ترجم له هذا». جاءت إجابة المترجم الفورية: «يقول لك إنه لا يرغب في الذهاب إلى أي مكان. المدير هو من يحمله دائمًا. ويقول إنه لا يفهم ما تعنيه بعبارة 'بعد فترة'. لم يبقَ، أيّ وقت، حتى في هذه اللحظة. وهو يرى، بعكس المدير، أن لكل شيء معناه المميز له. المعنى موجود في العناصر المكوّنة، لا في الكل مثلما يتخيّل المدير». أجاب المدير بعد صمت طويل: «أنا لا أتخيَّل شيئًا. ما أعرفه هو أنه، إذا أثار ذلك الجمع من الناس بدلًا من تهدئته، فسوف يمزِّقون المدينة إربًا». قال الرجل الضخم مترجمًا الزقزقة التي غدت أكثر انفعالًا: «مدينة مبنية على الأكاذيب ستظلّ مدينة مبنية على الأكاذيب، ما يفعلونه، وما سيفعلونه،

كلاهما قائم على الأكاذيب وعلى الكبرياء الزائف. ما يفكِّرون فيه وما سيفكِّرون فيه لا يقلّ عن ذلك سخفًا. إنهم يفكِّرون لأنهم خائفون. الخوف جهل. يقول إن الأمر يعجبه عندما يتحطّم كل شيء. الخراب مكوَّن من أشكال االبناء كلّها: الأكاذيب والكبرياء الزائف مثل الأوكسجين في الجليد. البناء ليس إلا نصفًا: الخراب هو كل شيء. المدير مذعور، وهو لا يفهم، لكن أتباعه غير خائفين، وهم يفهمون». أجابه المدير بحدّة: «أخبره، من فضلك، وقل له إن نبوءاته ليس إلا كلامًا فارغًا. يمكنه بيعها لأولئك الغوغاء في الخارج، وليس لي. قل له أيضًا، بما أنك تترجم له، إنني أرفض مواصلة الإصغاء إليه، وإنني لا علاقة لي به بعد الآن ولن أكون مسؤولًا عن أفعاله. منذ هذه اللحظة أنتما حرّان، أيها السيّدان، فافعلا ما يحلو لكما... وأما إذا طلبتما رأيي...»؛ أضاف هذا وهو يتنحنح ليؤكد على كلماته: «... فإن من الأفضل لكما معًا أن تضع أميرك الصغير في الفراش، وأن تعطيه جرعة مضاعفة من الحليب، ثم أخرج كتبك لكي تتعلَّم اللغة الهنغارية جيدًا». قال الرجل الضخم بنبرة لا مبالية في صوته الذي طغى على الزقزقة المتواصِلة التي صارت شبه هستيرية، غير مبالٍ حتى بأن يخاطب مديره مباشرة، «الأمير يصرخ،

يقول إنه حرٌّ بنفسه دائمًا. إن موقعه بين الأشياء. وبين الأشياء يرى أنه، هو نفسه، مجموع الأشياء كلّها. وما ينتج عن جمع الأشياء كلّها هو الخراب، ولا شيء غير الخراب. هو 'الأمير' في نظر أتباعه. وأما في نظر نفسه فهو أمير الأمراء. يقول إنه وحده القادر على رؤية الكلّ، لأنه وحده قادر على رؤية أن الكلَّ غير موجود. وفي نظر الأمير، هكذا يجب أن تكون الأمور... كما يجب أن تكون دائمًا... يجب أن يرى بعينيه. سوف ينشر أتباعه الخراب لأنهم يفهمون رؤيته على أحسن وجه. يفهم أتباعه أن الأشياء كلّها كبرياء زائف، لكنهم لا يعرفون السبب. الأمير يعرف السبب، هذا لأن الكلَّ لا وجود له. يذهب المدير في حال سبيله لأنه لا يستطيع فهم هذا. لقد ضجر الأمير منه؛ وسوف يخرج». توقَّفت الزقزقة المندفعة مع توقف الصوت المزمجر كزمجرة دبٍّ؛ وما كان لدى المدير شيء يقوله. لكن، حتى لو كان لديه ما يقوله، فما كان لفالوسكا أن يسمعه، لأنه ابتعد عن الباب بعد تلك الكلمات الأخيرة كأن أذنيه كانتا تتراجعان -مجازًا- حتى لا تسمعاها فتجرّانه معهما. والواقع أنه تراجع كثيرًا حتى اصطدم بخطم الحوت المرتفع. وعندها -بطريقة ما- صار كل شيء من حوله متحرِّكًا. انزلقت الشاحنة من تحته، وكان الناس يجرون فيتجاوزونه، ولم يتوقَّف هذا الإحساس باندفاع الأشياء

كلّها، إلا عندما أدرك، وسط الحشد، أن صديقه الجديد لم يكن هناك (الصديق الذي أراد أن يكشف له أن ما سيُطلب منهم فعله شيء مخيف)، وأن الكلمات التي ينتظرون سماعها، حتى إذا كانت هي الكلمات التي انتظروا سماعها طيلة الوقت، لا ينبغي لهم أبدًا أن يصغوا إليها في أية حال من الأحوال. راح يجري بين المتجمِّعين حول النيران وقد طار صوابُه لشدَّة تشنّجه وراحت الكلمات تخرج منه («خداع...»، «شر...»، «عار...) بطريقة مختنقة مبهورة الأنفاس إلى حدٍّ يجعلها غير مفهومة من الناحية العملية. كان غير قادر على منع نفسه من مواصلة محاولة مساعدة الآخرين؛ على أن ذلك كان مسعى محكومًا عليه بالفشل، ففي حين كان مدركًا أن حصيلة ما عرفه -بعد تلك الفترة الأولى من الجهل والسذاجة- قد صارت فجأة مساوية لما يعرفونه، بل أكثر مما يعرفونه، فقد كان مدركًا أيضًا أن مجرَّد وجود الأمير يضمن أن ما من شيء يمكنه فعله، مهما كان ذلك الذي يريد فعله. أراد أن يقول: «هناك شيء مخيف يحدث»، لكنَّه لم يستطع جعل هذه الكلمات تخرج من فمه، وكان عاجزًا تمامًا عن تحديد المكان الذي يجب أن يذهب إليه بهذه المعلومات التي عنده.

كان السيد إيزتر أول من فكَّر فيه، فيمَّم وجهه شطر الجادة، لكنه غيَّر رأيه فجأة واستدار عائدًا، ثم توقَّف بعد

مسافة قصيرة كأنه أدرك أن وجهته الأولى كانت أكثر صحةً. وعلى الرغم من أن الحوادث كانت قد تباطأت وصولًا إلى تلك النقطة، فقد عاد كل شيء من حوله يندفع اندفاعًا جديدًا... من جديد: كانت الأضواء المنبعثة من النيران تدور من حوله، وكان الناس يجرون من جديد... حتى عندما كان يحاول تفاديهم، لاحظ أن صمتًا غريبًا قد خيَّم على الساحة ولم يعد قادرًا على سماع شيء غير صوت تنفُّسه اللاهث الذي كان يعلو من داخله قويًا صاخبًا: كان ذلك أشبه بمن ينحني مقتربًا من عجلة الطاحون الكبيرة أثناء حركتها. وجد نفسه في ساحة هونفيد؛ وفي اللحظة التي تلت ذلك، كان يدق باب المرأة. لكن، مهما كرر قول ذلك لنفسه قبل دخوله، ومهما أعاد نطق الكلمات («هناك شيءٌ مخيفٌ يجري، يا سيدة إيزتر! يا سيدة إيزتر، هناك شيء مخيفٌ يجري») فقد أخفق في أن يحظى بانتباه صاحبة البيت أو بانتباه ضيوفها. لم يبدُ عليهم أنهم يفهمونه. «إنه ذلك الذي يدعونه وحشًا، أليس كذلك؟ لقد أخافك، أليس هذا صحيحًا؟». ألقت عليه المرأة هذين السؤالين وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة واثقة. وعندما أجابها بإيماءة من رأسه وقد اتَّسعت عيناه لشدِّة خوفه، لم يكن منها إلا أن تنهَّدت وقالت: «شيء غير مفاجئ، غير مفاجئ». لكن ابتسامتها الواثقة سرعان ما اختفت وحل

محلها ملمح القلق. بعد أن قادت فالوسكا (المعترض اعتراضًا غامضًا) إلى مقعد شاغر ودفعته حتى ترغمه على الجلوس عليه، حاولت تهدئته بإخباره كيف أن «حتى هذه الحلقة الصغيرة من الأصدقاء المجتمعين هنا لم تكن محصَّنة من القلق إلى أن ظهر السيد هارر آخر الأمر حاملًا الأنباء الطيِّبة». كان معنى هذا أن في وسع فالوسكا أن يريح ذهنه، بعض الشيء، لأن من المؤكّد الآن («الشكر للربّ!») أن هذه الشركة المثيرة للمتاعب سوف تغادر البلدة في غضون ساعة واحدة: الحوت، والأمير، وكل شيء. لكن فالوسكا هزَّ رأسه هزًا عنيفًا وقفز واقفًا، وكرر الجملة التي كانت تدوِّي في رأسه طيلة ذلك الوقت؛ ثم حاول، بأحسن ما يستطيع، أن يشرح «شرحًا واضحًا جدًّا» كيف كان -من غير قصد- شاهدًا على مجادلة عنيفة تُثْبت، من غير ظلٍّ لأيِّ شكٍّ، أن الأمير لن يترك المدينة. قالت المرأة وهي تدفع فالوسكا دفعًا لتجلسه من جديد، «لقد طرأت تطورات جديدة»؛ استندت بيدها اليسرى إلى كتفه حتى «تحسّن» إدراكه للأمر. كانت مدركةً السبب الذي جعل مجرَّد وجود المجرم الذي يدعونه «الأمير» مخيفًا له، فذلك لأنه «إن لم أكن مخطئة...»؛ قالت هذا بابتسامة تفوُّقٍ وصوتٍ ناعم لطيفٍ،... «فأنت لم تدرك حقًّا إلا جوهر المسألة». واصلت مضيفتهم التي لا يهزُّ شيء كلامها:

«إن لم أكن مخطئة، فإنك لم تدرك إلا جوهر المسألة»، ثم رفعت صوتها حتى يسمعها الجميع (كان فالوسكا غير قادر على الحركة بسبب يدها الثقيلة على كتفه)؛ لقد فهمتً، لأنها مرَّت بالتجربة نفسها، فلم يعد مجهولًا لديها ما قد يحسّه الشخص عندما يواجه، أول مرة، الطبيعة الحقيقية لذلك السيرك الغريب المتنكِّر. انطلق صوت السّيدة إيزتر هادرًا في الغرفة الصغيرة: «منذ نصف ساعة فقط، بلغَنا ما يجعلنا نعرف خطط هذا المخلوق، هذا الخائن الذي يعمل في إدارة السيرك، أو هذا «الثعبان الذي وضعناه في حضننا»، بحسب كلمات مدير السيرك النزيه نفسه التي وردت في تقرير السيد هارر. ظننَّا أن ما من أحدٍ يستطيع فعل شيء في هذا الشأن، فكان لدينا من الأسباب في تلك اللحظة ما يجعلنا نعتقد بأن الأمر هكذا حقًّا؛ وأما الآن، فإن لدينا ما يحملنا على الاقتناع بعكس ما سبق، لأن الإدارة، منذ ذلك الوقت، أي عندما أدركت مسؤولياتها، قرَّرت التدخّل وقول كلمتها في الأمر، وسوف تحرِّرنا قريبًا من هذا «الحضور الشيطاني». وبفضل «المساعي المشكورة من قبل السيد هارر...»، تابعت السيدة إيزتر متحمسةً وقد كادت تأخذها النشوة بكلامها الذي كان موجَّهًا إلى مجموعة الأشخاص الحاضرين، ولكنه كان موجَّهًا إلى أهميتها نفسها (إلى أهميتها التي لا يمكن التشكيك

فيها)،... «لقد صرنا على علم بما هو مختبئ خلف غموضٍ قد نعترف بجرأة بأنه غموضُ ذلك الحشد البائس المخيف الذي نجد أنفسنا معرَّضين لتهديده، بل حتى على علم بما قد يتبع ذلك من أحداث استثنائية؛ لكننا، في أكثرنا، لم يعد لدينا ما نخشاه، وصار دورنا الآن مقتصرًا على انتظار الأخبار الوشيكة، أخبار رحيل السيرك. أقترح أن نكفَّ عن تعزيز شعورنا بالذعر، أي ما تفعله أنت...»، ابتسمت لفالوسكا، «... بهذه الحماسة كلها، لكي ننكّب -كلُّنا- على التفكير في توجُّهنا في المرحلة القادمة لأننا، بعد ما حدث هنا، لا نستطيع الامتناع عن التوصل إلى...»، نظرت هنا إلى العمدة المحدودب عند الزاوية، «... الاستنتاجات الصحيحة. لست أقول أبدًا إننا قادرون على حل المشكلات كلِّها حلًا فوريًا...»، هزَّت السيدة إيزتر رأسها نافيةً تلك الفكرة، «... بالطبع لا! سيكون ذلك تفكيرًا خاطئًا! على أيّة حال، وبما أن الأمور قد وجدت لنفسها حلًّا، لحسن الحظ، فقد نستطيع -على أقلِّ تقديرٍ- استنتاج أن هذه المدينة التي يظنُّ أكثرُ الناس أنها تعاني آثار لعنة أصابتها...»، (صاح هارر، صديق السّيِّدة إيزتر القديم، «هي لعنة العجز عن اتخاذ قرار!»)،... «لم يعد ممكنًا استمرار حكمها بالطريقة القديمة!». كان هذا الخطاب قد بدأ قبل وصول فالوسكا، وكانت بلاغته

المعتزّة بنفسها، وعمق معانيه وسموِّها، موضع تقدير المتحدِّثة الجبارة نفسها، لأنه خطاب رسمي مع كونه واضحًا بكل ما فيه من سحر ومنطقٍ صلبٍ؛ وكان واضحًا أيضًا أن الخطاب بلَغ ذروته لأن السيِّدة إيزتر، التي امتلأت عيناها بنشوة النصر، كانت راضية عن أثره فوصلت به إلى ختامه. كان العمدة يومئ برأسه إيماءات عنيفةً مؤيدًا كلامها، وقد ثبَّت عينيه على بقعة أمامه، وارتسم على وجهه تعبير حيرة واضح؛ لكن سحنته كلّها كانت ناطقة بأنه مستمر في تذبذبه، بين حالة الارتياح المرغوبة وحالة القلق الذي يفتك به. وأما آراء مدير الشرطة فقد كان واضحًا أن من الممكن تخمينها، على الرغم من كونه غير قادر على التعبير عنها في تلك اللحظة: رأسه مرتدٌّ إلى الخلف، وفمه مفتوح على اتساعه؛ كان الرجل لا يزال غارقًا في نومه على السرير، فكان هذا الشيء الوحيد الذي يحول بينه وبين إبداء قبوله بمنطق المتحدِّثة الذي كان موافقًا عليه من غير أي شك. وهكذا، كان الشخص الوحيد الذي ظلَّ قادرًا على الكلام والفعل، الشخص الذي كان موافقًا من كل قلبه على «الكلمة العاقلة التي تمسّ المشاعر» (لو استطاع قلبه وعيناه الكلام لعبروا عن موافقتهم بصوت أكثر ارتفاعًا)، وكان مستعدًّا دائمًا لإعلان إعجابه غير المشروط، إعجابه الذي يكاد يكون جنونيًا، بالسيِّدة

إيزتر، هو هارر الذي أتى بالأنباء الطيبة... هارر الذي كان واقفًا أمامهم مرتبِكًا محمرًّا، وقد ظهرت مشاعرُه القوية بقعًا على وجهه، كأنه لا يزال غير قادر على التآلف مع كونه قد صار مركز اهتمامهم جميعًا، ذلك الاهتمام الذي فاز به نتيجة «قوة» دوره في مجريات الحوادث. الآن، كان هارر جالسًا تحت مشجب المعاطف، وقد ضمّ ركبتيه معًا ضمًّا شديدًا؛ كانت في إحدى يديه علبة سردين فارغة يستخدمها منفضةً للسجائر، ويده الأخرى تنفض من غير انقطاع كميَّة الرماد الضئيلة المتجمعة في سيجارته، كأنه يخشى أن تسقط منها، في أية لحظة، ذرة أو ذرتان من رمادها على الأرض المكنوسة حديثًا. وهكذا راح ينفث الدخان وينفض السيجارة؛ وعندما حسب أنه قادر على المغامرة بالنظر إلى المتحدِّثة من غير أن تلتقي عيناه عينيها، ألقى نظرة سريعة في اتجاه السيّدة إيزتر من تحت أهدابه المسدلة، ولم يلبث بعدها أن أشاح بوجهه ونفض سيجارته مرة أخرى. كان واضحًا أن النظر في عينيها كان -بالضبط- ما يريده، على الرَّغم مما بدا عليه من محاولة تفاديه... كان واضحًا أنه راغبٌ في لقاء العيون الذي كان سيحدث بالتأكيد، عاجلًا أو آجلًا. فعلى غرار كل مذنب يقف أمام القاضي، كان مستعدًّا للتضحية بأي شيء حتى يتمكَّن من استجماع شجاعته والنظر إلى

وجه قاضيه مباشرة. والواقع أنه كان يعطي انطباعًا مقنعًا جدًّا بشخص يئن تحت وطأة ثقل فعل قاتم أقدم عليه، لكنه لا يزال غير مكتشَف بعد، ويتوق توقًا شديدًا إلى التخلّص منه... أمر كان يهمّه أكثر كثيرًا من الأوضاع السائدة حاليًا في ساحة السوق... أمر دفعه إلى «الموافقة من كل قلبه» على كل ما يمكن أن تقوله السيدة إيزتر. فلا عجب إذًا إن كان ذلك واضحًا عليه في الصمت الذي حل بعد جملتها الأخيرة، هو الذي كان «يتغذّى» على كلماتها بشغفٍ شديدٍ جائعًا إلى مزيد من تلك الكلمات؛ ولا عجب في أنه، عندما حاول العمدة تعكير الصورة الواضحة التي رسمتها السيدة إيزتر بإبداء ملاحظة مزعجة عن حالة النظام، لم يعتبر تلك المحاولة تشكيكًا في صدق المعلومات التي أتى بها، بل رأى فيها إهانةً فظّةً لكرامة مضيفتهم، فما كان منه إلا أن قفز واقفًا على قدميه، حاملًا سيجارته في يده، ناسيًا الفرق بين مركزيهما لشدّة احتدام غضبه، وأشار بيده إشارة لا لبس فيها تأمر العمدة بأن يطبق فمه. كان العمدة يقول في تلك اللحظة وهو يمرر يده على رأسه، من الحاجب إلى قمة ذلك الرأس، ثم نزولًا حتى الرقبة، «لكن، ماذا إن غيّر هذا الذي يدعونه ‘أميرًا’ رأيه وقرّر البقاء هنا؟ قد يقول لهارر أي كلام يريد قوله من غير أن يكون ذلك الكلام ملزمًا له بالضرورة. فمن عساه

يدري ما قد نواجهه؟ ألم نتعجّل قرارنا؟ الأمر الوحيد الذي يقلقني هو أننا قد أعلنّا انسحابنا -مع احترامي كلِّه- في وقت أبكر قليلًا مما يجب، وعلى نحو مفاجئ أكثر مما يجب...». أجابته السيدة إيزتر بعنفٍ يستحقُّه (ولما كان فالوسكا يحاول، مرة أخرى، أن ينهض عن الكرسي، فقد انحنت فوقه بطريقة أمومية مطمئنة كمن تحاول تهدئة طفل)، «الرسالة، تلك الرسالة الواضحة التي نقلها السيد هارر، حرفيًا، إلى المدير من الأفراد البارزين في المجتمع الذين لا يزالون حاضرين الآن ولم يتراجعوا قيد أنملة -اسمحوا لي أن أذكركم بهذا مرة أخرى- تشير إلى أن طلبه الحصول على مساندة من الشرطة، مهما تكن الوعود التي تلقَّاها من مدير الشرطة الذي هو مريض الآن، لم يكن مما نستطيع ضمان تقديمه». ثم شدَّدت المرأة على حقيقة واضحة هي أن عدد أفراد الشرطة المتوفِّرين (مهما تكن شجاعتهم)، لا يتجاوز اثنين وأربعين فردًا، وهذا يعني أن إصدار الأوامر إليهم بأن يضبطوا حشدًا كبيرًا قد يكون مستثارًا مضطربًا، ليس بالقرار الذي يمكن اتخاذه بخفّة. وهكذا فإن على المدير أن يفكّر جيِّدًا قبل أن يفعل أي شيء. وبما أن هذا، «كما أخبرنا السيد هارر»، قد جعله يفكِّر جيِّدًا، فإنها، السيدة إيزتر، واثقة ثقة تامّة من قراره بمغادرة المدينة فورًا، بعد أن تبدَّد كلُّ ما كان لديها من

شكوك نتيجة معرفتها، بحسب الإشاعات، بأن مدير السيرك قد واجه ظروفًا كهذه من قبل، وهذا ما يجعله مدركًا ما يمكن أن يحدث إذا لم يلتزم بكلامه. قال هارر متَّخذًا جانبها ومدافعًا عن كلامها، من غير أن يزعجه ما حمله ذلك الكلام من تشكيك في دوره، «لقد رأيت ذلك الرجل، وأنتم لم ترونه، إنه رجل ذو إرادة قويّة جدًّا؛ فحسبه أن يشير بسيجاره إلى شركته حتى تسير من خلفه مثلما تسير الخراف!». شكرته صاحبة البيت شكرًا جليديًّا على مساندته الحماسية لها، وطلبت منه في الوقت نفسه أن يعود إلى الموضوع المطروح وينقّب في ذاكرته علَّه يجد شيئًا نسيه مما قد تكون له صلة بلقائه مع المدير. أجابها بهدوء وقد مال إلى الأمام كأنه يحاول الإيحاء بالثقة، «حسنًا، أنتِ تعرفين كيف يتكلَّم الناس؛ لكنه يبدو كأن له ثلاثة عيون، وكأنه لا يزن أكثر من عشرين باوندًا». قالت له بصوت نابح، «شكرًا لك! لكن، دعني أطرح السؤال بطريقة أخرى لعلَّك تفهمه: هل قال لك المدير شيئًا آخر غير ما أخبرتنا به؟». أغمض المبعوث عينيه وقد استشعر خطر احتمال حدوث تحوُّل في سير الأمور، وراح ينفض رماد سيجارته نفضًا عصبيًا في العلبة المفتوحة. «حسنًا، لم يقل شيئًا». قالت المرأة بعد لحظة تردّد، «حسنًا، في هذه الحالة هذا ما أنصح به، أنت، يا سيد هارر، عليك

أن تخرج إلى السّاحة من جديد، وتعود لإخبارنا إن كان السيرك قد بدأ الحركة. وأما نحن، يا صاحب السمو، فمن الطبيعي أننا سنظلّ هنا. وأنت يا يانوس، لديَّ شيء شخصي أطلبه منك». في تلك اللحظة، أي بعد ما لا يقل عن ربع ساعة، تركت كتف فالوسكا وأمسكت بذراعه، وذلك أنه، لشدَّة خوفه من هارر والعمدة ومدير الشرطة والسيدة إيزتر، كان سيقفزُ من مكانه ويندفع فورًا في اتجاه الباب لولا إمساكها به. قالت له إنه -إذا كان يظنُّ أنه تجاوز صدمته- قالت هذا وهي تنظر إليه نظرة تشجيع وتميل فتقترب منه حتى كادت تلتصق به التصاقًا محرجًا، فإن هناك أمرًا مهمًا يستطيع فعله لأنها غير قادرةٍ على ترك موقعها، وغير قادرةٍ على الاهتمام به بنفسها -للأسف- مهما تكن راغبة في فعل ذلك.

(9) غراند غينيول: مسرح كان قائمًا في منطقة بيغال في باريس حتى سنة 1962، وكان متخصِّصًا في تقديم عروض الرعب.

قالت له إن مدير الشرطة -أشارت إلى السرير الذي تفوح منه رائحة كحول- الذي هو في حالة محزنة غير ناتجة كلّها، كما قد يبدو للمرء، «عن كمية الشراب التي استهلكها، بل عن الإنهاك بسبب ثقل المسؤوليات الملقاة

على عاتقه»؛ وذلك أن المدير، في هذا اليوم الاستثنائي، غير قادرٍ على القيام «بواجباته الأبوية». ثم أسهبت السيدة إيزتر في كلامها موضحةً أن ما كانت تحاول قوله أن ما من أحد في بيت المدير لكي يعتني بطفليه في هذا الوقت العصيب؛ وأنه لا بد من قيام أحد بإطعامهما، «فقد كاد الوقت يبلغ الساعة السابعة، ولعلهما خائفان الآن»؛ ولا بد أيضًا من وجود أحد معهما حتى يزيل عنهما خوفهما ويضعهما في الفراش لكي يناما... لهذه الأسباب، لم تجد السيدة إيزتر لهذه المهمّة أفضل من فالوسكا. هدلت في أذنه هديلًا رقيقًا قائلة إن هذا أمر صغير، لكنها أضافت مازحة: «إلا أننا لن ننسى حتى هذه التوافه»؛ وقالت له إنها ستكون في غاية الامتنان له إذا وافق على القيام بتلك المهمة -فهو يرى مدى انشغالها الآن-. كان فالوسكا، بكل تأكيد، مستعدًّا للموافقة على ذلك، ولو لمجرد أنه راغب في الابتعاد عنها. ولا شكّ في أنه كان سيجيبها بكلمة «نعم» حاسمة لولا أنه لم يظفر بفرصة لفعل ذلك؛ ففي تلك اللحظة عينها، هز النافذة صوت شديد الشبه بصوت انفجار قويٍّ. وبما أنه ما من شكٍّ في ما يتعلَّق بمصدر ذلك الصوت (فحتى قبل تلاشيه، أدرك كل من في الغرفة أن شيئًا قد حدث في ساحة السوق، وجعل الناس هناك يصيحون بتلك القوة)، فقد تجمَّد الجميع منتظرين -

بصمتٍ تامٍّ- أن يتلاشى الصوت، أو أن يتكرَّر مرة أخرى. كسر هارر الصمت الذي ران على الغرفة بعد الانفجار، «إنهم باقون!»، لكنه ظلَّ ساكنًا حيث كان تمامًا. قال العمدة بصوتٍ باكٍ، «إنهم باقون!»، ثم أقرَّ، بصوتٍ شديد الأسف، إنه عائد إلى بيته، وبأنه لا يعرف كيف يعود إليه لأن الطريق عبر حدائق البيوت الخلفية قد يكون الآن غير ممكنٍ. وفجأة، ذهب إلى السرير وهز سائقي النائم وصاح به: «استيقظ! استيقظ!». لم يفقد مدير الشرطة شيئًا من هدوئه المثالي على الرغم من ذلك الهزِّ الشديد (كان يصعب القول إنه أضاف شيئًا إلى جو التوتّر الذي ساد مناقشات اللجنة من خلال أيّة إثارة زائدة من جانبه)، بل جلس بحركة بطيئة واستند إلى الوسادة بمرفقيه، ثم راح ينظر إلى ما حوله بعينيه المتورِّمتين المفتوحتين قليلًا؛ ولم يلبث أن أجاب -مشددًا على كلماته بطريقة غريبة بعض الشيء- بأنه لن يفعل شيئًا على الإطلاق قبل أن تصل التعزيزات التي طلبها من مركز المقاطعة. وبعد ذلك، سقط على الفراش من جديد كأنه يحاول أن يستعيد، وبأسرع ما يمكن، مسار أحلامه المفقود الذي كان فرصته الوحيدة للتعافي مما هو فيه، (المسار الذي انقطع بطريقة غير مفهومة ومن غير أي سبب وجيه). ظلَّت السيدة إيزتر صامتة، وحدها. كانت نظرتها الصارمة موجَّهة صوب السقف؛

وكانت تنتظر. ثم، ببطء وعلى نحو مقصود، نظرت في عيني كل واحد من الموجودين وقد راحت تتراقص على شفتيها ابتسامة إثارة لم تكد تحاول إخفاءها. ثم تكلمت فقالت: «أيها السادة، هذه هي لحظة الحقيقة. وأنا مؤمنة بأننا موشكون على حل هذا الوضع!». ومن جديد، أسرع هارر إلى موافقتها، لكن العمدة بدا كأن لديه شكًا في الأمر (أو شكين اثنين)، فراح يعبث بربطة عنقه ويميل برأسه إلى هذا الجانب ثم إلى ذاك.

بدا أن فالوسكا وحده ظل غير متأثر بتلك المهابة الشعائرية في ما قالته السيدة إيزتر لأنه كان قد وضع يده على مقبض الباب؛ ولم يلبث أن انطلق عندما تلقى إشارة الذهاب وفي أعقابه السيد هارر متنفِّسًا أنفاسًا ثقيلة. صاح فالوسكا بصوتٍ متكسِّرٍ عبر الباب... («لكن، ماذا عن السيد إيزتر؟»)، ثم مضى وقد ظهر على وجهه تعبير من خيبة أمل يجعل المرء يظن أن العالم قد انهار من حوله. والحقيقة أن كل حركة من حركاته كانت موحية بأنه لم يذهب إلا لأنه ما عاد يطيق البقاء أكثر من ذلك. والواضح أنه كان ما عاد يعرف أين يذهب. لقد تهاوى عالمه بالفعل لأن الآمال التي عقدها، الآمال المضنية اليائسة، على السيدة إيزتر، وعلى اللجنة أيضًا، قد خابت خيبة كبرى: ألم يرتكبوا غلطة مأساوية عندما لم ينتبهوا إلى ترتيب ورود

التقريرين؟ (الجملة التي بدأت بها السيدة إيزتر كلامها «حسنًا، انتهى الأمر...». كانت هذه الجملة لا تزال تتردّد في رأسه) فظنّوا أن هارر قد أتى بعده، ثم لم يثقوا به وامتنعوا عن سماع شيء من كلماته. بل أكثر من هذا، فبسبب حالته المستثارة، لم يلقوا بالًا إليه إلى درجة أن السيدة إيزتر قد أسكتته في حقيقة الأمر! ألم يكن هذا يعني أنه خسر كل فرصة في الاعتماد عليهم من أجل مساعدته؟ في ظل هذا الوضع، لم يطل به الأمر قبل أن يدرك أن لا معنى لمحاولة ممارسة أي تأثير على التفكير المتهوِّر لدى صاحبة البيت المصممة على رأيها (لقد كرّست السيدة إيزتر جهدها كله لمهمة تهدئة مخاوف العمدة المبرَّرة تمامًا). صار عليه أن يتحمَّل وحده عبء التصرف بما يتناسب مع معرفته بالعواقب الوخيمة لما يحدث في ساحة السوق. وصار عليه أن يفعل كل شيء بنفسه، وحده! ولما كان مدركًا أن ما من أحد هناك كان مهتمًا بما قد يحدث لصديقه المقيم في جادة وينكهايم، فقد كان عليه أيضًا أن يهتم وحده بأمر السيد إيزتر. وكأنما لهذا السبب تحديدًا، خيم صمت ضخم في الغرفة كذلك الصمت الذي كان مخيمًا على الساحة من قبل... كان هذا بمعنى أنه قد رأى الناس يتكلمون من حوله لكنه لم يسمع شيئًا من كلامهم، وما كان راغبًا في سماع شيء منه: ما كان راغبًا إلا في أن

ترتفع تلك اليد الثقيلة عن كتفه آخر الأمر، فيتمكن من مغادرة هذه الغرفة التي أتى إليها من غير طائل، ويخرج ويشعر بالبيوت تندفع مارة به، حتى يستطيع أن ينسى إحساسه بالعجز، لمعرفته بأنه لا يستطيع الاكتفاء بالرضوخ للقوة غير المسؤولة في تلك الخطة التي استرق السمع إليها عند باب غرفة السيرك من غير أن تكون لديه أية فكرة عما يفعله في هذا الشأن. حقًا، لم يكن قادرًا على فعل شيء غير نسيان إحساسه بانعدام الحَوْل عندما «يشعر بالبيوت مندفعة، مارَّة به». إلا أنه توقف لحظة عند البوابة لكي يرجو السيد هارر ألا يذهب إلى الساحة (لكن هارر الذي بدا أنه قد صار أصمَّ أجابه بأن راح يكرر سريعًا: «يا لها من امرأة، يا لها من امرأة!»، ثم لم يلبث أن انطلق راكضًا في اتجاه ساحة كوسوث). عندها، شدّ فالوسكا سير حقيبته وأدار ظهره إلى ساحة السوق وإلى صاحب بيته المبتعد عنه سريعًا، ثم انطلق في الاتجاه المعاكس سائرًا على الرصيف الضيِّق. انطلق فبدأت البيوت وأسيجة الحدائق تمر به، لكنه كان يحسّ اندفاعها المحموم أكثر مما كان يراه، لأن عينيه كانتا غير قادرتين على رؤية أي شيء، ولا حتى بلاطات الرصيف المربّعة تحت قدميه. أشجار تمر به سريعًا، بجذوعها المائلة وأغصانها العالية المرتجفة خوفًا في ذلك البرد القاتل، وأعمدة المصابيح

تقفز مبتعدة عن طريقه: كل شيء يعدو، وكل شيء يفرّ حيثما يمَّم وجهه، لكن عبثًا... فلا البيوت، ولا بلاطات الرصيف، ولا أعمدة المصابيح، ولا الأشجار بأغصانها التي تتمايل محذِّرةً، ما كانت تريد أن تتوقَّف؛ وأكثر من ذلك، فبقدر ما كان راغبًا في إرغامها على أن تصير خلفه، بقدر ما ظلَّت تواصل الظهور له مرة بعد مرة وتتمكن -على نحو ما- من أن تصير أمامه من جديد حتى أحسَّ كأنه لم يتجاوز منها شيئًا. المستشفى أولًا، ثم حلبة التزلج على الجليد، ثم ظهرت أمامه النافورة الرخاميّة في ساحة إيركل، لكنه لم يستطع في فوضى الصور المتقافزة أمام عينه الداخلية أن يقرر، مهما حاول ذلك جاهدًا، إن كان موجودًا حقًا حيث بدا له أنه موجود، أو أنه لا يزال عاجزًا عن الإفلات والخروج من الجوار المباشر لبيت السيدة إيزتر. ثم، وعلى الرغم من ذلك كلّه، وكأنما أدرك رغبته في أن تفصله مسافة كبيرة مكان وجود الأمير في ساحة كوسوث، وفي أن يدخل مكانًا خاصًّا به بأقصى سرعة مستطاعة، وجد نفسه عند تقاطع جادة 1848 مع الطريق الرئيسي خارج المدينة، فصحا من المتاهة المخدِّرة التي كان يحاول الخروج منها، وأدرك إدراكًا ضبابيًا أنه واقف أمام مدخل بناء السيدة بلوف، وأنه يضغط على مفتاح الإنترفون الخاص بشقتها. صاح في الجهاز بعد أن

ضغط المفتاح مرات كثيرة، وفهم من خشخشة مكبر الصوت أن نداءه قد لوحظ لكنه أجيب بالصمت، «ماما، هذا أنا فحسب!... ماما، هذا أنا، ولا أريد إلا أن أقول لك...». عوى عليه الإنترفون بصوتٍ مرتفعٍ مفاجئٍ جعله ينسى ما كان يريد قوله: «ماذا تفعل في الشوارع في هذا الوقت؟!». «قلت لك، ماذا تفعل في الشوارع في هذا الوقت؟!». «تحدث أشياء مخيفة، يا ماما»... حاول أن يشرح لها ومالَ مقتربًا من المايكروفون... «وأريد أن...». أجابه صوتها بحدة، «أشياء مخيفة... وأنت تعرف بهذه الأشياء؟! وعلى الرغم من ذلك، تظلّ مصرًا على التجول في الشوارع ليلًا؟! قل لي، قل لي، ماذا كنت تفعل في هذه الساعة من الليل؟ أتريد أن تقتل أمّك؟ ألم تفعل بعد ما فيه الكفاية لتدميري؟!». قال فالوسكا في الإنترفون متلعثمًا، «ماما، ماما، اسمعي ما أقوله لك. اسمعي لحظة واحدة... حقًا... لا أريد إيذاءك... كنت أودّ فقط لو أنني أخبرتك بأن... بأن... بأن تقفلي بابك جيدًا و... ولا تسمحي لأحد بالدخول، لأن...». أجابته صائحة وقد خرجت عن طورها، «لقد كنت تشرب!!! لقد كنت تشرب من جديد على الرغم من أنك وعدتني بألّا تمس قطرة واحدة أخرى من الشراب، أبدًا! أنت تواصل الشرب. وعلى الرغم من أن لديك مسكنك الصغير، لكن ذلك ليس كافيًا بالنسبة إليك. لا،

لا، لا بد لك من التسكُّع في الشوارع! حسنًا جدًا، يا ولدي العزيز...». صار صوتها هسيسًا: «... لا بد من تغيير الأمور هنا! إذا لم تعد إلى بيتك فورًا، فلن أسمح لك بأن تضع قدمك هنا مرةٍ أخرى، هل فهمت؟».
«نعم، يا ماما». «اسمع إذًا، واصغ إلى ما أقوله إصغاء جيدًا. إذا سمعت -هل تفهمني- إذا سمعت مرة واحدة بأنك تتسكَّع في الشوارع وتبحث عن المتاعب، فسوف آتي إليك، وسوف أعثر عليك وأجرّك من شعرك، إن اضطررت إلى ذلك، وآخذك إلى مركز الشرطة، وسوف أجعلهم يحبسونك، أنت تعرف... أنت تعرف أين يحبسونك! لن أقبل بهذا -هل فهمت- لن أسمح لك بأن تسبّب لي الخزي من جديد!!». «لا، بالتأكيد لا، يا ماما. إنني ذاهب». وقد شرع بالذهاب فعلًا، تمامًا مثلما أخبرها عبر الإنترفون، لكنه لم يستطع جعل نفسه يتقبلْ فشله في جعلها تفهم مدى خطورة الوضع. ظل برهةً واقفًا هناك، ضائعًا في أفكاره، مصممًا على العودة والمحاولة من جديد، إلى أن أدرك أنه إن كان قد عجز حتى عن سرد ما عرفه للسيدة إيزتر، فما من فرصة عملية لأن ينجح في ذلك مع أمه. لن يستطيع أن يشرح لها شيئًا، لأنها لن تصدِّق كلمة مما يقوله عن الأمير، وعن الرجل الضخم، وسوف تفقد أعصابها من جديد.
أحسَّ فالوسكا بأن فقدان أعصابها لن يكون من غير

مبرر على الإطلاق، لأنه لا يستطيع القول إنها شخص متميز بسرعة الغضب. والحقيقة أنه سيكون أول من يشكك في قصته، أو في وجود شيء مستبعَد الوجود إلى هذا الحد، لولا أنه سمع هذا الكلام بأذنه. راح فالوسكا يسير في الشارع المهجور، على الرغم من ذلك كله، فإن الأمير موجود! وقد جعل وجوده مستحيلًا عليه أن ينظر نظرة عقلانية إلى أي شيء لأنه ليس في حاجة إلى إعلان نفسه مبعوثًا سماويًا حتى يكتسب مسحة صوفية زائفة، ولا إلى أثر رغبة غير إنسانية تسبّب الأذى حتى تغيّر شكل العالم من حوله: كان وجوده كافيًا في حدٍّ ذاته لإرغامه على ترك عادة الحكم على الأشياء وفق معاييرها نفسها وتشجيعه على الإيمان بأن هناك مبادئ تعمل عملها وتخالف رغبة هذا العالم في اعتباره نصّابًا لا مثيل له. في ذلك الوقت عينه، كانت ظاهرة وجوده في حد ذاته -واصل فالوسكا تجواله- مشتملة على عناصر من تلك الصوفية كلّها ومن تلك الرغبة غير البشرية، فضلًا عن الاحتيال والغضب الشديد والرغبة في إنزال الأذى... عناصر لم يعبأ بإخفائها خلال مواجهته مع المدير؛ لكن تلك العناصر لم تكن تشكّل شخصًا، بل كانت -ببساطة- العواقب المحتملة لوجود الأمير التي كان واضحًا أنه وجود مفزع خارق للعادة... وجود كان حجمه وأهميته الخبيئين (بمعزل

عما يمكن استنتاجه من جملة عابرة وحيدة) كامنين- هذا أمر طبيعي- فيما يتجاوز قدرة فالوسكا عن الفهم. سار في الشوارع متعثِّرًا، شارعًا بعد شارع. كانت كلمات الأمير تهتزّ في رأسه؛ وفي حين كان تصوير المدير لما يقوم به الأمير على أنه سلوكٌ شريرٌ قد ظلَّ طاغيًا على ذهنه، فقد كان واثقًا كل الثقة من أن هذا العضو في فرقة السيرك -أكثر أعضاء الفرقة غموضًا، من غير شك- ليس مجرد محتال واثق من نفسه عقد النية على الاستمتاع بالسلطة التي يمحضه إياها جمهور مفرط السذاجة. فخلافًا لرأي المدير، وجد فالوسكا في كلمات الأمير شيئًا مفزعًا جدًا، وكان ذلك الرنين الغريب كل الغرابة يجعلها أكثر إثارة للذعر بفعل حقيقة أنها قد ترجمت ترجمة متدرّجة من خلال وسيط لا يمكن القول إنه يجيد اللغة الهنغارية. كان إحساسه يقول له إن هذه الحقيقة قد زادت تلك الكلمات عمقًا، بل جعلتها كأنها قدر محتوم، أو إن تلك الكلمات كانت مشتملة على فكرة شيء مطلق الحرية لا يحدُّه قيدٌ، بحيث تصير كل محاولة لوضعه ضمن إطار واحدة من مدارس التفكير المنهجي عبثًا خالصًا. تصير المحاولة عبثًا لأن الأمير بدا كأنه منبثق من ظلال أشياء لم تعد تسري عليها أحكام العالم الملموس، كأنه منبعثٌ من مكان محاط بالاستحالة وانتفاء إمكانية الفهم، عالم يشع منه الأمير

قوة مغناطيسية بالغة القدرة؛ فحتى إن أدخل المرء في حسابه حقيقة تمتعه بتأييد من يعتبرهم «خاصّته»، فإن مكانته الحقيقية تتجاوز كثيرًا مكانة شخص عجيب في أي عرض جانبي من عروض السيرك. من هنا، كانت المهمّة عديمة المعنى، وعديمة الحظِّ! بدأت حركة البيوت والأشجار وبلاطات الرصيف تتباطأ؛ فبعد أن فهم أمرًا استثنائيًا إلى هذا الحد، صار واضحًا أن لا مناص من الاستسلام له -تذكَّر فالوسكا تعابير التوتر على الوجوه في ساحة السوق- وترك المدينة تُنهب بكلمة واحدة يطلقها صاحبها مثلما يطلق قائد أمرًا مخيفًا، وسوف يصيب هذا النهب بيت السيد إيزتر (لقد لفت انتباههم إليه بنفسه من غير أن يقصد ذلك) في حين يكون السيد إيزتر أعزل غير مشتبهٍ في شيء. أحسَّ أن من المستحيل أن يتغافل المرء عن هذه الفكرة ويقف من غير أن يفعل شيئًا عندما يحدث ذلك، تباطأ كل شيء من حوله ثم توقف تمامًا. بدا له أنه يسمع في رأسه من جديد تلك الأصوات الحادّة كأصوات الطيور، فغمره ذلك بموجة ذعر جديدة جعلته يقف في مكانه من غير أية حركة عارفًا أنه لا يستطيع فعل ما يتجاوز الحديث مع الناس وتحذيرهم: «أقفلوا أبوابكم، ولا تناموا». قرر أن يخبر الجميع، من السيد إيزتر إلى «أخوية الرجال» في حانة بيفيفر، ومن موظَّفي شركة السكة الحديدية عند

انصرافهم إلى بواب الفندق الليلي... الجميع، حتى «فرخ» مدير الشرطة الصغير لا بد من سماعه بالأمر. تذكَّر الطفلين فجأة، فنظر حوله وأدرك أنه لا يبعد عن بيتهما إلا كتلة بنايات واحدة.

استقر عزمه على البدء بالطفلين لأنه كان مكلَّفًا برعايتهما على أية حال. وبعدهما سيخبر رب عمله، ثم يوسّع نطاق الإنذار حتى يشمل البقية بعد أن يفرغ من ذلك. كانت البناية التي يسكنها مدير الشرطة غير متميزة عن غيرها كأنها تتظاهر بأن لا علم لها بأهمية ساكنها المختبئ بعيدًا في غرفة في الطابق الأول. كان الجصّ -عمليًا- قد اختفى عن الجدران؛ وكانت مسافة لا بأس بها من أنبوب تصريف مياه الأمطار مفقودة. وأما البوابة، فقد بدا أنها تمكَّنت من حل مسألة ما إذا كان عليها أن تظل مفتوحة أو مغلقة من خلال الاستغناء عن مقبضها. وما كان الاقتراب من البناية ممكنًا إلا بأن يشق المرء طريقه عبر أكوام من القمامة التي رماها السكان أمامها، في حين كان الممر الواصل بين الرصيف والمدخل مسدودًا بقطعة من سياج معدني منتزع من مكانه اتفق أن تركه شخص أمام المدخل تمامًا. لم تكن حالة الأشياء في الداخل موحية بأي تحسُّن عما عليه الوضع في الخارج؛ ففور دخول فالوسكا سلَم البناء، صفعه تيار هواء فظيع جعل قبعته ذات الرأس

المدبَّب تطير عن رأسه كأن ذلك تحذير له من حقيقة أن الطبيعة هي السيد في هذا المكان. بدأ يصعد الدرجات الإسمنتية، لكن تيار الهواء لم تتراجع شدته، بل صار توقّع تقلباته صعبًا: تمر لحظة يبدو فيها أنه قد توقّف تمامًا، ثم تأتي اللحظة التي بعدها فيهاجمه بعنف وشدّة متجددين، فلم يجد بدًا من خلع قبعته وإمساكها بيده والتركيز على التنفس من أنفه. وعندما بلغ الشقة المطلوبة آخر الأمر، وقرع الجرس، وانتظر فتح الباب انتظارًا قلقًا متوتِّرًا مثلما قد يفعل شخص ضربه إعصار حقيقي. لكنَّ أحدًا لم يفتح له الباب، وتلاشت أصداء رنين الجرس في البعيد. ثم سمع صوت خطوات أقدام مذعورة تتردَّد في داخل الشقة كأنها تجيب ذلك الصوت. وهكذا قرع الجرس مرة أخرى؛ ومن جديد، كان موشكًا على استنتاج أن في الداخل من يعاني مشكلة ما عندما سمع صوت دوران المفتاح في القفل. لكن صوت الأقدام الجارية بدأ من
جديد، ثم أعقبه صمت آخر. كانت الشقَّة دافئة، بل كانت حارة. رأى على ورق الجدران المزين بالأزهار بقع رطوبة منتشرة فوق الألواح الخشبية المغلِّفة الجزء السفلي من الجدار. سار بين المعاطف والصحف والأحذية الملقية هنا وهناك في ذلك الممر الضيق، فكان ذلك أشبه بسباق الحواجز. ألقى نظرة صوب المطبخ

وهو لا يزال يبحث عما يفسِّر غرابة ذلك الاستقبال، ثم بلغ غرفة الجلوس حيث استولت على جسده المتجمِّد حالة ارتعاش شديد جعلته غير قادر على الكلام. جذب سير حقيبته المعلّقة في كفته، وحاول إيقاف تلك الرعشة بأن راح يدعك أطرافه دعكًا سريعًا. وفجأة، انتابه إحساسٌ حادٌّ بأن هناك من يقف خلفه. استدار مذعورًا فاكتشف أنه ليس مخطئًا: هناك، عند باب غرفة الجلوس، رأى طفلين واقفين ينظران إليه من غير كلام، ومن غير حركة أيضًا. صاح فالوسكا: «أوه، لقد أفزعتماني حقًّا!». أجاب الطفلان وهما مستمران في التحديق فيه، «ظننا أن بابا عاد إلى البيت». «وهل تختبئان دائمًا عندما يعود بابا إلى البيت؟». لم يجبه الطفلان بشيء، لكنهما بقيا ساكنين ينظران إليه تلك النظرة الجادة. بدا أحدهما في السادسة من العمر، والآخر في الثامنة. كان الصبي الصغير أشقر الشعر؛ وكان للكبير شعر أسود؛ لكن كلًا منهما قد ورث عيني مدير الشرطة. وأما من جهة أخرى، فقد كانت ملابسهما قد آلت إليهما -على الأرجح- من أولاد الجيران الأكبر سنًا؛ وذلك لأن مظهر القميصين والبنطلونين، البنطلونين خاصّة، كان مظهر ملابس عاشت أيام غسل كثيرة، فبُهتت ألوانها كلها، بل سُلبت، فلم يبق منها شيء. قال فالوسكا موضحًا على نحو مرتبك إلى حد ما

لإحساسه بأنهما لم يكونا ينظران إليه فحسب، بل يروزانه أيضًا: «عليَّ أن أقول لكما إن أباكما سوف يعود متأخِّرًا، وإنه طلب مني أن... أن أضعكما في الفراش... الحقيقة أنني مضطرٌّ إلى الذهاب فورًا؛ لكنْ هناك أمرٌ مهمٌ جدًا...»، ارتعش من جديد... «ألا وهو أن عليكما أن تقفلا الباب بعد خروجي، وألّا تفتحاه لأي طارقٍ يأتي. لا تسمحا لأحد بدخول البيت. بكلمات أخرى...». أضاف هذا بقدر أكبر من الارتباك لأن الطفلين لم يتحرَّكا أبدًا... «يجب أن تذهبا إلى الفراش الآن». بدأ يزرِّر معطفه، ثم تنحنح من جديد غير عارف ما يفعله بالطفلين. وحتى يجعلهما يكفَّان عن التحديق فيه، حاول الابتسام لهما، فاستجاب أصغرهما لابتسامته بأن استرخى قليلًا واقترب منه وسأله: «ماذا في حقيبتك؟». كان هذا السؤال مفاجئًا للفالوسكا، ففتح الحقيبة ونظر فيها، ثم جثا على الأرض وجعل الطفلين يريان محتوياتها. «صحف، هذا كل شيء. إنني أوزِّع الصحف». أعلن الطفل الأكبر من موقعه عند عتبة الباب قائلًا بما يناسب سنه من انزعاج وازدراء: «إنه ساعي البريد!»؛ فأجابه أخوه: «هو ليس ساعي بريد أبدًا! يقول بابا إنه أبله». استدار صوب الزائر من جديد وراح ينظر إليه مرتابًا: «هل أنت حقًّا... أبله؟». هز فالوسكا رأسه، ونهض واقفًا: «لا، لست كذلك. يمكنك

أن تنظر إليَّ لترى أنني لست أبله». قلَبَ الصغير شفته خائب الأمل، وقال: «خسارة! أحب أن أكون أبله وأن أقول للملك بصراحة وصدق إن بلاده ليست أكثر من قمامة». كشَّر الولد الأكبر الواقف خلف أخيه تكشيرة فظيعة، فحاول فالوسكا كسب ودِّه أيضًا، وسأله: «لماذا؟ وماذا تريد أن تصير أنت؟». أجابه الصبي معتزًا، لكن بشيء من التحفظ كأنه غير راغب في كشف خططه المستقبلية كلها أمام شخص غريب: «أنا؟ أريد أن أكون شرطيًا جيدًا، وأن أضع الجميع في السجن...»؛ طوى ذراعيه على صدره واستند إلى إطار الباب...

«السكيرين كلهم، والبلهاء كلهم». قال الصغير موافقًا: «السكيرون، نعم...»، ثم صاح، «... الموت للسكيرين!»، وبدأ يقفز ويدور في الغرفة. أحس فالوسكا بأن عليه أن يقول شيئًا، فقد يطيعونه بعد أن كسب ثقتهم ويذهبون إلى الفراش. لكن شيئًا من هذا لم يحدث، فأغلق حقيبته ثم ذهب إلى النافذة ونظر منها إلى الشارع المظلم، ثم تذكَّر فجأة أنه يجب أن يكون منطلقًا إلى بيت السيد إيزتر ففقد صبره. رفع قبعته بيدين مرتجفتين، ومرَّر أصابعه في شعره. «يؤسفني أن عليَّ الذهاب». أعلن الصبي الأكبر كأنه يردُّ على ما قاله بعد أن رأى فالوسكا موشكًا على الذهاب: «إن لدي بدلتي الرسمية»، ثم انطلق في اتجاه الصالة مضيفًا: «إذا لم تصدقني،

فسوف أجعلك تراها!». راح الصبي الصغير يقفز في مكانه مقلِّدًا صوت السيارة، «وأنا أيضًا! وأنا أيضًا!». ثم انطلق في إثر أخيه. لم يجد فالوسكا مهربًا لأنه لم يسر في الممرِّ إلا خطوةً أو خطوتين قبل أن ينفتح الباب ويغلق من خلفه فرآهما واقفين وقفة استعداد وقد اكتسى وجهاهما ملمحًا غامضًا. كان كلٌّ منهما مرتديًا بدلة شرطة حقيقية: كان بنطلون الصبي الصغير يلامس الأرض، وأما بنطلون الصبي الكبير فيصل إلى ما تحت ركبتيه فقط. صحيح أن مظهرهما في تلك الملابس بدا مضحكًا -يستطيع أن يضع ثلاثة أولاد مثلهما في داخل سترة واحدة- إلا أن السترتين كانتا متناسقتين حسنتي التفصيل، وكان واضحًا أن ما عليهما إلا أن يكبرا حتى يملأ كلًا منهما سترته. «أقول... في الحقيقة...». تمتم فالوسكا معبِّرًا عن إعجابه، وكان موشكًا على مواصلة سيره للخروج، لكنَّ الصبي الصغير أخرج علبة كان يخفيها خلف ظهره ونظر إليه مضيِّقًا عينيه، ثم قال ببساطة: «خذ، انظر». وهكذا وجد فالوسكا نفسه مرغمًا على الإعجاب بالعصا المدببة التي قال له الصغير إنها «لوخز عيني العدو وفقئهما»، ثم كان عليه الإقرار بأن السكِّين السويسرية مناسبة تمامًا لحز حنجرة العدو، ثم أقرَّ أخيرًا أن شظايا الزجاج المطحون الموضوعة في زجاجة مغلقة، قادرة على «التخلص من

أي شخص» إن وضعت في شرابه. علق الأخ الأكبر مستخفًّا وهو واقف بباب المطبخ: «هذا لا شيء. أنا من أعطاه هذه الأشياء كلِّها. إنها من أجل الصغار في حضانة الأطفال! وأما إذا أردت أن ترى شيئًا يثير الاهتمام حقًّا...»، قال هذا وأخرج من جيبه مسدسًا حقيقيًا. وضعه على كفِّه، ثم أطبق أصابعه عليه ببطء، فلم يكد فالوسكا -الذي تراجع بحركة غريزية- يستطيع نطق الكلمات، «لكن، حسنًا... كيف حصلت على هذا؟!». هز الصبيُّ كتفيه وقال: «هذا ليس مهمًّا الآن»، ثم حاول إدارة المسدس حول إصبعه، لكنه لم ينجح إذ إن تلك الحركة جعلت المسدس يسقط على الأرض. قال فالوسكا مذعورًا وهو يهمُّ بالتقاط المسدس: «من الأفضل أن تعطيني إياه...»، لكن الصبيَّ كان أسرع منه فسبقه وأمسك بالمسدس ووجهه إليه مباشرة. رفع فالوسكا يديه وقال له: «هذا شيء خطير جدًا، لا يجوز أن تلعب به». بعد ذلك، ولأن المسدس ظلَّ مصوبًا إليه، ولأن الطفلين ظلا ينظران إليه تلك النظرة نفسها التي رآها عند دخوله غرفة الجلوس أول مرة، فقد راح يتراجع بحركة آلية إلى أن بلغ باب البيت. قال وهو يدير مقبض الباب من خلف ظهره: «لا بأس، لقد خفت حقًا. لكن... الآن...»، انفتح الباب... «أعد المسدس إلى مكانه، وإلا فسوف يغضب أبوك منك. اذهبا إلى الفراش

الآن، بهدوء...»، انزلق خارجًا من الباب، «... كونا عاقلين واذهبا لكي تناما». وأخيرًا، أفلح في إغلاق الباب من خلفه بعناية، وهو يتمتم لنفسه، لا شخص غيره: «أغلقا كل شيء، ولا تسمحا لأحد بالدخول...». سمع ضحكًا في الداخل، وسمع صوت المفتاح يدور في قفل الباب، فأمسك بقبعته وبدأ ينزل السلم وسط اندفاعات الهواء العنيفة من حوله. زوجان من العيون المحدِّقة فيه ظلا مثبتين عليه، فلم يستطع تخليص نفسه من أشعتهما الواخزة الثاقبة. لقد ارتجف في حرارة تلك الغرفة الفوضوية، لكنه بدأ الآن يرتجف بردًا بعد خروجه إلى الشارع. بدأ يرتجف بردًا في ذلك الجو الصقيعي الذي اخترقه حتى عظامه، لكنَّه أحسَّ أيضًا بالتجمُّد نتيجة فكرة كان -قبل هذه اللحظة- يراها مستحيلة: فكرة أن طفلين اثنين، وتلك الحماسة الجليدية التي لا رحمة فيها... أيمكن أن يكون هذا جزءًا من الفكرة نفسها؟ نقل حقيبته من كتف إلى كتف، وزرَّر معطفه شاعرًا أنه غير قادر على احتمال تلك الفكرة، وحاول ألا يفكر في المسدس الذي أمسكت به قبضة الصبي بإحكام، وفي الضحك الساخر من خلف الباب المغلق. أراد التركيز على مهمّة الوصول إلى جادة وينكهايم في أسرع وقت ممكن. حاول ألا يفكر فيهما، لكنَّ الصبيين المرتديين بدلتي الشرطة الضخمتين كانا

كأنهما يرقصان أمام عينيه، فأحس فجأة بوخزة ضمير لأنه تركهما هناك مع مسدس قد يكون محشوًا، وتساءل عما إذا كان عليه أن يعود أدراجه؛ لكنه سرعان ما تخلَّص من إغراء هذه الفكرة عندما انعطف من شارع آرباد فدخل الجادة الرئيسية ولاحظ، ليس بعيدًا جدًا، في مكان ما في اتجاه مركز المدينة، فوق سقوف البنايات مباشرة، ألقًا محمرًّا يرتفع في اتجاه السماء. فاجأته الفكرة المفزعة: «لقد بدأوا يحرقون الأشياء». وعلى نحو مفاجئ، اختفت مشاعر الشكِّ والذنب كلّها، فأمسك حقيبته بيده حتى لا تواصل اصطدامها بجنبه، وبدأ يجري مجتازًا جماعات القطط الشاردة، متَّجهًا إلى بيت السيد إيزتر. بلغ البيت جريًا، فوقف عند المدخل مادًّا ذراعيه، ثم أدرك (في لحظة الوضوح الوحيدة الباقية لديه) أنه سوف يثير فزع سيده غير المرتاب في شيء إذا اقتحم المكان عليه، فقرر أن يبقى في مكانه، وصمَّم على التصدِّي لأي شخص يمكن أن يحاول اقتحام المكان. لم تكن لديه أيَّةَ فكرة عن كيفية فعل ذلك. ظل برهة غير قادر على تفسير خوفه من هجوم غير متوقَّع إلا من خلال الذعر الذي أحسه نتيجة احتمال -مجرد احتمال- أنهم يحرقون الأشياء (لم تكن لديه وسيلة للتثبُّت من أن ما رآه كان كذلك حقًا). في تلك الأثناء، ظل لون

السماء محمرًّا، فراح فالوسكا يسير أمام البوابة جيئة وذهابًا مستعدًا للقتال.

كان يسير أربع خطوات إلى اليمين، ثم أربع خطوات إلى اليسار، ولا يزيد عدد تلك الخطوات أبدًا لمعرفته أن خطوة خامسة ستجعل نهاية البوابة البعيدة غير محروسة، لأنها ستصير غارقة في الظلام الذي كان في ازدياد. حدثت الأمور بسرعة كبيرة بعد ذلك، بل حدثت في لحظة واحدة! فعلى نحو مفاجئ، سمع صوت خطوات، صوت مئات الأحذية الثقيلة المقتربة منه، أقدام متعبة، مرهقة، تُجَرّ على الأرض جرًا. وقفت مجموعة رجال أمامه، وببطء، بدأت تحيط به. رأى أيديهم، ورأى أصابعهم المتجمِّدة، ولعله أراد أن يقول شيئًا! لكن صوتًا من خلفهم قال لهم: «انتظروا!». لم ير وجه صاحب الصوت، لكنه عرف المعطف الرمادي فأدرك على الفور أن الشخص الذي كان آتيًا في اتجاهه عبر حلقة الرجال المفتوحة لا يمكن أن يكون إلا صديقه الجديد الذي التقاه في ساحة السوق. همس الرجل في أذنه: «لا تخف، أنت آتٍ معنا»، ثم أحاط كتفيه بذراعه. لم يستطع فالوسكا أن يقول شيئًا، لكنه سار معهم. ولم يتكلَّم الرجل، بل ظلَّ محيطًا به، واستخدم يده الأخرى لكي يدفع بعيدًا شخصًا مبتسمًا حاول أن يدس نفسه إلى

جانب فالوسكا في الظلام. سمع مئات الأقدام المرهقة تتجرجر من خلفه على الأرض، ورأى القطط الشاردة عند قدميه وهي تتفرق مذعورة أمام جمهرة قضبان الحديد المرفوعة التي تتقدم منها صامتة. لكنه لم يشعر بشيء غير ثقل يد الرجل على كتفه وهي تقوده عبر ذلك الجيش من قبعات الفراء والأحذية الثقيلة. كرَّر الرجل قوله: «لا تخف». أومأ فالوسكا برأسه سريعًا، ثم نظر إلى السماء. نظر إلى السماء فانتابه إحساس مفاجئ بأن السماء لم تكن حيث يفترض أن تكون. رفع رأسه مذعورًا، ونظر من جديد، فتأكدت له حقيقة أن ما من شيء هناك، ما من سماء. خفض رأسه واستسلم لقبعات الفراء والأحذية الثقيلة مدركًا أن لا جدوى من البحث، لأن ما يبحث عنه قد ضاع... لقد ابتلعه هذا الاجتماع للقوى وللتفاصيل الكثيرة ولهذه الأرض ولهذه المسيرة.

«تتشكَّل الحصيلة شيئًا فشيئًا. عليك أن تهتم بصحّة التفاصيل، ركِّز على التفاصيل!»، هذا ما توصَّل إليه إيزتر من غير أي إحساس بالغضب، وكأنه ينأى بنفسه عن خراقته عندما أصابت المطرقة يده للمرة العشرين وهو يضع اللمسات النهائية على التحصينات المعقدة التي كان يقيمها عند هذا المنعطف الحاسم في حياته. أمسك بإصبعه النابض ألمًا، واستعرض بعينيه فوضى الألواح والعوارض الخشبية التي غطى بها النوافذ،

فوجد أنه غير قادر على فعل شيء في ما يخصُّ النواقص في هذا المشهد المؤسف. خلص إلى أنه، وإن كان قد أهمل فن استخدام المسمار والمطرقة إهمالًا مشينًا طيلة عقود كثيرة من السنين، فقد بلغ الآن -عمليًا- نهاية مهمته بحيث صار قادرًا على تجنُّب هذه التجارب المؤلمة، من الآن فصاعدًا. بعد أن جمع الأخشاب بنفسه من الفناء عند عودته إلى البيت -جمعها بعد استراحة استمرَّت بضع دقائق- وكوّمها بين رفوف الكتب، اختار الآن من بينها قطعة خشب قدّر أنها مناسبة إلى هذا الحد أو ذاك، وبدأ يفكر بعناية في التعديلات الصغيرة التي يمكن أن يقوم بها (اعتبارٌ منبثق من الانعدام الواضح لأي معنى في حقيقة وجوده هنا أصلًا، والذي بدوره كان تكملة طبيعية لسلسلة الأفكار التي كان يتابعها عند البوابة قبل ثلاث ساعات من الآن، أفكار جعلته يعيد النظر -ويعيد تقييم- في آرائه السابقة كلّها في هذا الأمر، تلك الآراء التي كان يعتبرها ذات طبيعة تكاد تكون ثورية)، ووضع القطعة الخشبية في المساحة التي لا تزال خالية في أسفل خليط الألواح الخشبية الذي يغطي النافذة الأخيرة. رفع مطرقته وعضَّ على شفته مصمِّمًا على السير بالأمر حتى نهايته بأمل -أمل بعيد- أن يتمكّن من ضرب رأس المسمار بالمطرقة بحيث يدخل كلّه مرة واحدة. لكنه لم يلبث أن خفضها مدركًا أن عنف

الإرادة وحده غير كافٍ لأن يكون ضمانًا لقوة الضربة ولا لصحَّة اتجاهها. «القوس التي لا بد لها من ضبط هي ما يحدِّد العلاقة بين رأس الأداة ورأس المسمار...»؛ قرَّر هذا، ثم تأمَّل تلك المشكلة بضع لحظات، وبينما كانت أفكاره تعود تدريجيًا إلى موضوع «التعديلات البسيطة»، استخدم كل ما بقي في يده اليسرى المصابة من طاقة حتى يضغط قطعة الخشب على إطار النافذة، ورفع المطرقة بيده اليمنى. لم ينتج عن هذا ضرر أكبر من الضرر الذي حصل قبله، كما أن المسمار دخل في الخشب قليلًا؛ وأما في ما يخص الفكرة التي كانت تبدو منطقية، فكرة توجيه بقايا انتباهه الذي صار مشتتًا إلى المهمة القيّمة فعلًا التي هي مراقبة ما دعاه «قوسًا»، فقد صرف النظر عنها. ففي نهاية المطاف، صارت المطرقة التي في يده تبدو غير مستقرّة (على نحو متزايد)، ولن تكون نتيجة ذلك الميل إلى التجربة إلا زيادة صعوبة توقّع ما سوف يحدث. وهكذا، بعد المحاولة الثالثة، وجد أن عليه الإقرار بأنه حقيقة كونه لم يخطئ المسمار ثلاث مرات متتالية على الرغم من انخفاض مستوى تركيزه، كانت، على الأرجح، أمرًا حدث بفعل الحظ وحده؛ أو، إذا استخدمنا صياغته هو، فقد كان ذلك ناجمًا عن «نعمة سخيَّة» وفرت له «لحظة تريث» قبل أن «يسحق أصابعه،

كعادته». والواقع أنه كان واضحًا من فشله حتى الآن أن حصر التركيز كلّه في المسار المرغوب للمطرقة هو -تحديدًا- الطريقة الأفضل لضمان حصوله على نتيجة لا يريدها؛ وذلك لأن (أضاف هذا) التحكُّم بمسار المطرقة يعني الشروع في عملية كان قد قلل من قيمتها حتى الآن، ثم أعاد تقييمها مع التحول الكبير في تفكيره، ألا وهي العملية التي كان يعبِّر عنها بما لديه من موهبة انتقاء الكلمات الصائبة بأنها «تشبه أن يجعل المرء نفسه يحلم أحلام يقظة ليجد نفسه في وضع غير موجود بعد، أو ليحدد مسار شيء لم يبدأ حدوثه بعد»، وذلك على نحو يكرر الغلطة النموذجية الواضحة ألا وهي أن ستين عامًا من التجول لم تجعله مهيأً لاجتياز الأمتار الأخيرة في طريق عودته إلى البيت. وفي تلك اللحظة، همس له شيء بأن من المؤكَّد أنه سيحسن صنعًا إذا استجمع قدرًا أكبر من الطاقات لحلِّ هذه القضية: قدرًا أكبر من الطاقات (هكذا قال في نفسه)، ولم يدر في خلده أبدًا أن نأيه بنفسه عن المعضلة الثانوية التي كانت قد استهلكت وجوده كله هو ما يجعله أقرب إلى حلها، وذلك أن انعدام المعنى الكلِّي لوجوده في هذا المكان، في هذه اللحظة، لم يكن ليمنعه من ممارسة التفكير العملي. بدأ ذهنه يركز -من جديد- على ما هو راهن. استقرّ رأيه الآن على أن، وإن كان يشعر بضعف في ركبتيه، ليس

له أن يهجر تمامًا فكرة التركيز على القوس لأن أسباب فشله، حتى الآن، كانت «أخطاء عائدة، من غير شك، إلى ضعف الطريقة، لا إلى قلّة المواد». وهكذا راحت عيناه تنتقلان بين المطرقة والمسمار، ثم تنقلان بينهما من جديد، وهو يمعن النظر في تلك، ثم في ذاك باحثًا عن نقطة في «فكرة القوس» ينبغي له أن يركز عليها اهتمامه كله بحيث يتحكم بالمسار المؤدِّي إلى التقاء النقطتين (المطرقة والمسمار). عند ذلك، أي بعد أن حدَّد سريعًا نقطتين محتملتين من ذلك النوع، لم يبق عليه غير أن يقرر أي النقطتين ينبغي أن يركَّز عليها. رفع رأسه إلى السماء وقال في نفسه متأملًا: «المسمار في لوح الخشب ثابت في حين أن موضع المطرقة متغير...»، وبدا له أن هذا التأمل يوحي له بأن عليه التركيز على المطرقة أولًا؛ لكنه تمعَّن

في المسألة أكثر، بذهن أكثر صفاء، وبعد أن انتبه إلى زاوية حركة المطرقة وهو يحاول خفضها في اتجاه المسمار، وجد نفسه مرغمًا على الإقرار -ويا للأسف- بأن فرصه في إصابة المسمار على رأسه لم تكن أكثر من واحد من عشرة في أحسن الأحوال حتى إذا تمكّن من جعل المطرقة مستقرّة في قبضة يده تمام الاستقرار. قال مصحِّحًا نفسه، «الأمر المهم هو المكان الذي أريد أن يحدث فيه اللقاء بين الاثنين... هو... هو ما أريد أن

أضربه بالمطرقة». كانت هذه فكرة مغرية... «الحقيقة هي أن هذا وحده ما له أهمية». وكما يحدث لشخص يعرف غريزيًا أنه اكتشف أخيرًا الإجابة الصحيحة، راح ينظر إلى «الهدف» حتى كادت شدة تحديقه تحفر ثقبًا فيه؛ ثم رفع يده وقد امتلأ ثقة بنفسه. أصاب الهدف إصابة دقيقة؛ وأكثر من ذلك، فقد لاحظ راضيًا أنها ما كان يمكن لها أن تكون أكثر دقة! وفجأة، بدت بقية المناورات المتصلة بالأمر واضحة له كأن هذا جاء تأكيدًا على ثقته في تحكمه باتجاه الضربة. أدرك أن إمساكه بالأداة قد كان خاطئًا تمامًا قبل ذلك، وأن إمساك قبضة المطرقة من طرفها كان أكثر راحة، بل أكثر راحة بكثير. صار يعرف الآن مقدار القوة اللازم تطبيقها في الضربة الواحدة، وكذلك المسافة التي يجب أن تبدأ منها الضربة حتى يتحقَّق الأثر الكامل لها؛ كما أن لحظة الوضوح هذه كشفت له أيضًا أنه -إذا أسند المسمار من أسفله مستخدمًا إبهامه- ليس في حاجة إلى الانهيال بثقل جسده كلِّه مع ضربة المطرقة. وبعد أن صار على هذا النحو متحكمًا بحركته وبإمساكه بالمطرقة، لم يجد عجبًا في أن لوحي الخشب الأخيرين صارا ثابتين في مكانهما بسرعة البرق. وعندما قام بجولة في البيت حتى يلقي نظرة على ما أنجزته يداه (قال في نفسه إن ذلك كان إنجازًا معتبرًا)، صحح

بضعة أخطاء غير صغيرة أبدًا، ثم عاد إلى الممر الغارق في ضياء المصباح الشحيح فأحس بالأسف إزاء تلك الحقيقة المحزنة، حقيقة أنه أنهى العمل لكنه لم يجد نفسه في موقعٍ يسمح له بالتمتُّع برائحة النجاح. كان راغبًا في متابعة التسمير بعد أن أسكرته «رائحة النجاح». ومع اكتشافه أنه تمكَّن من حلِّ المشكلة، بعد ساعات من محاولاته الخرقاء الفاشلة في ميدان المطرقة والمسمار والقوس، وإن كان قد توصَّل إلى ذلك الحلِّ في اللحظة الأخيرة. فضلًا عن هذا، فقد تفتَّحت له (في مكان ما قبيل نهاية جولته التفتيشية) بصيرة مفاجئة غير متوقّعة في كيف أن أسلوب العمل قد كان موجّهًا -على نحو فريد محيّر حقًا- لتقدُّمه ولتوصُّله إلى حلِّ «الفكرة الثورية» التي استولت عليه عند عودته من رحلته الصادمة فحولته إلى «إيزتر مولودٍ حديثًا، إلى إيزتر مبسَّط كليًا»، وذلك على الرغم من أنه لم يقتحم بعد إلا حواشي ذلك السرِّ الكبير. كانت تلك صحوة مفاجئة في حقيقة الأمر، لكنها، ككلِّ صحوة مثلها، لم تكن آتية من غير بشائر تنبئ بها؛ وذلك أنه لم يكن مدركًا قبل انطلاقه في جولته التفتيشية إلا الطبيعة المضحكة لجهوده التي كان أكثرها منصبًّا على الحيلولة دون هرس يده اليسرى، وتحطيمها، تلك المهمّة التافهة التي استخدم من أجلها كل ما لقدراته الذهنية المعتبرة من

قوة، ثم لم يلبث أن أدرك بعد هذا مباشرة أن ذلك ما كان يمكن أن يكون إلا مسعًى فاشلًا حتى لو كرس له قدراته البصرية كلها؛ وكذلك كان عليه، على الأقل، ومهما كان ذلك مضحكًا، أن يدخل في اعتباره تلك الطبيعة المضحكة لجهله السابق بالأدوات واستخداماتها؛ لكن هناك مسألة مطروحة (مسألة أكثر تعقيدًا وعمقًا)، ألا وهي المسألة التي جعلت أمرًا طبيعيًا أن يتمكَّن من إتقان فن دقِّ المسامير. استعاد في ذهنه مراحل مختلفة من جهوده المحمومة، وكذلك حقيقة أن حتى ما كان قد فرض نفسه عليه في ذلك الوقت فصار إطارًا عقليًا عامًّا، قد جعله يشك في أن أي حلٍّ نهائي لن يكون عائدًا كله إلى التفكير العقلاني في المسألة: شكٌّ صار الآن حقيقة بعد أن تخلّى عن «مدفعية ذكائه العقلية الثقيلة»، (أمر مألوف تمامًا في ما يخصه)، فقد صار الآن يحقِّق تقدّمًا أو صار يفرق، بحسب كلماته هو، بين «القوة النارية الظاهرية التي يستخدمها جنرال مصمِّم على النصر» و«السلسلة العملية من الأفعال وردود الأفعال»، فكان أن بلغ رتبة الإتقان لا من خلال تطبيق عملية تجريبية منطقية، بل عن طريق تعديلات مستمرة، عفوية تمامًا، بما يتّفق مع الطبيعة اللحظية للضرورات؛ وما من شك في أن تلك العملية كانت انعكاسًا لقدرته الذهنية، لكنه لم يتَّكل عليها. توصَّل إلى خلاصة مفادها

أن الدرس الواضح (احتكامًا إلى ما هو ظاهر) كان أن المسألة الخطيرة الكامنة خلف هذه المهمة التي تبدو لا مغزى كبيرًا لها من الناحية الظاهرية قد حُلت عن طريق هجوم مستمر كان تجسيدًا لموقف مرن من «التعديلات»، أي من الانتقال من «إخطاء النقطة الصحيحة» إلى «إصابة رأس المسمار»؛ فكان ذلك نجاحًا غير عائد، غير عائد أبدًا، إلى التفكير المنطقي المركَّز، بل كان عائدًا كله إلى الارتجال، أو إلى مجموعة دائمة التجدّد من التحركات الاستكشافية، أو أن هذا ما كان يفكر فيه عندما بدأ جولته التفتيشية في البيت حتى يتحقّق مما إذا كانت هناك ألواح سائبة لا تزال في حاجة إلى مزيد من التثبيت. ما كان هناك شيء يشير إلى أن آلية التحكُّم بالجسم، أي بذلك الجزء المتقن من العضوية البشرية الذي يركِّز على مبدأ الواقع (دخل المطبخ) قد أقحم نفسه بين العقل الذي يقرر وبين اليد التي تنفذ فظل خبيئًا، أو ظل مختبئًا، بحيث لا يمكن اكتشافه -كما عبَّر إيزتر عن الأمر- إلا بين «الشيء المتوهّم المدوّخ والعين التي ترى ذلك الشيء فتدركه، إن كان حدوث هذا الأمر ممكنًا، أي في وضع يشتمل على الإدراك الواعي للطبيعة الوهمية للشيء». بدا له أن هناك حرية اختيار حقيقية بين نفق من الأفكار المتنافسة، أي الاختيار الذي يحدِّد -في حقيقة الأمر- كلًا

من الزاوية والارتفاع والمسار التجريبي بين قمة القوس ورأس المسمار؛ ومن ناحية أخرى (تفحَّص النافذتين الصغيرتين في غرفة الخدم المجاورة للمطبخ)، فقد كان تطور سير التجربة قائمًا على الاستخدام التجريبي للخيارات المتاحة له، وعلى قدرته الميكانيكية على توجيه نفسه وسط مجموعة احتمالات شديدة الدقَّة؛ أو من الممكن التعبير عن الأمر بمزيد من البساطة والفجاجة والقول إن سيرورة التجريب نفسها، التي وجدت لنفسها حلًا (بنفسها) واستقرَّت على المجرى الصحيح من ضمن «الانتقاء الحر للخيارات الممكنة»، ذلك الانتقاء الذي لم يكن حرًا ولا كان يسمح بفعل الاختيار؛ فبمعزل عن التدخُّل في نظام الأشياء، كان الخيار الفعال الوحيد هو إدراك وتقييم ثمرة التجارب الكثيرة التي ما كان ممكنًا أن يستنتج المرء منها شيئًا («من أجل التمييز الدقيق...»؛ تأمَّل إيزتر هذا الأمر وأجرى تقييمًا دقيقًا لتلك السيرورة) غير أن العملية قد تجسَّدت على الفور بحيث إن المرء (كثيرًا ما يحدث هذا في أتفه الحالات التي من بينها دق مسمار، على سبيل المثال)، لا يتأخّر أبدًا عن إرجاع نجاحه في البحث عن حلٍّ إلى فكرة «رائعة» أو بصيرة «لامعة» لمعانًا متميِّزًا. لكن، لا... (واصل جولته فدخل غرفة فالوسكا في طريق عودته إلى غرفته) لسنا نحن من يتحكَّم

بالسيرورة، بل هي المتحكِّم بنا: هذه السيرورة التي لا تفعل أي شيء يمكن أن يلحق اضطرابًا بمظهر تحكُّمنا بها، على الأقل ليس عندما تكون رؤوسنا -رؤوسنا الممتلئة أفكارًا كبيرة الطموح- قد وفت بواجبها المتواضع من حيث الفهم والتقييم. وأما ما يبقى (أدار مقبض باب غرفته، وابتسم)، فهو غير موجودٍ ضمن نطاق رأس الإنسان (فكَّر في هذا فأحسَّ فجأة مثلما يحسُّ رجلٌ ضريرٌ صار، على نحو مفاجئ، قادرًا على الرؤية، فتبين العلاقة الحقيقية القائمة بين الأشياء؛ فظلَّ واقفًا في مكانه عند عتبة الباب وقد أغمض عينيه ناسيًا أين هو). كان مدركًا وجود ملايين الفرضيات، وجود كتلة لا تهدأ أبدًا من الحوادث المساهمة في حوار أبدي صارم في ما بينها بحيث تكون كل واحدة من ملًيون حادثة، كل واحدة من مليون علاقة متَّحدة مع غيرها في اندغام يجمع العناصر المتضادة كلّها، تلك العناصر التي «تقاوم لمجرد وجودها نفسه»، وتلك التي تسعى «بفعل كونها أنفسها»، إلى التغلب على تلك المقاومة. كان يرى نفسه جزءًا من هذا الاتساع الحيِّ المشبع، تمامًا مثلما رأى نفسه في الممر عندما كان واقفًا أمام النافذة الأخيرة، ففهم، للمرة الأولى، القوة التي جعل نفسه تستسلم لها، أو تلك الظاهرة الذي كان ممتصًّا فيها.
وذلك لأنه استوعب، في تلك اللحظة، القوة الدافعة خلف

هذا كله: الضرورة التي توفر الدفع من أجل الوجود، والدفع الذي يأتي بالاستعداد، والاستعداد الذي يمهِّد الطريق بدوره من أجل المشاركة، والمشاركة الإيجابية في العلاقات الموصوفة على هذا النحو، أي تلك النقطة التي يحاول فيها وجودنا نفسه اختيار ما هو مواتٍ من خلال مجموعة المنعكسات الاستكشافية المقرَّرة مسبقًا، وذلك بحيث يكون الإنجاز معتمدًا عليها؛ وأما السؤال عما إذا كانت هذه العلاقة موجودة حقًا، فقد كان من الطبيعي تمامًا أن يطرح نفسه عليه عند مروره هناك، سؤال معتمد على الصبر، وعلى الجزئيات الدقيقة ومصادفات الصراع، وهذا لأن نجاح المحاولة، والوصول إلى الإحساس غير المشخَّص بالوجود المحض (أقرَّ هذا الآن، بل رآه الآن) كان ذا مغزى واضح قاطع. راح يستعرض هذا المنظور الواضح، الحاد، اللانهائي، فهزه بما له من واقع حصريٍّ متعالٍ، هزه لأنه كان من الصعب كثيرًا رؤيةً أن هذا العالم المنتَج بفعل قلقه، عالم ذو حقيقة واقعية لا نهاية لرحابتها، كان لا بد أن يصل إلى نهايته -بالنسبة إلى بني البشر، على الأقل- وهي نهاية بالفعل على الرغم من حقيقة أن ما من نهاية أبدًا، وما من مركز أيضًا، ونحن (ببساطة) موجودون، نحن عنصر واحد من عناصر النبض المتواصل لفضاء يحتوي على مليون

عنصر آخر، عناصر نتناغم ونتفاعل معها بمنعكساتنا الموجِّهة كلِّها... إلا أن كل تفحّص للأمر يبيِّن -بطبيعة الحال- أن أيًّا من هذه الأشياء لا يستمر أكثر من لحظة واحدة، ومن ثم يختفي في طرفة عين فور تشظِّي الرؤية البرّاقة، التي هي لُحمته،؛ إنها تتشظّى وتنقص أهميتها فتصير مثل أهمية شرارة قد لا تستطيع شيئًا أكثر من تنبيهنا إلى نار تموتُ في الموقد وتتألّق في لحظة تحلّلها النهائي كأنما هي مدركة انعدام قيمة وجودها... تموت في التماعة نور وحيدة حتى وإن كان ذلك لكي تنير شدةُ توهُّجها الوجيز كل شيء مما رآه في طريق عودته إلى البيت، في قراره المصيري، في لحظة إصدار الحكم عند البوابة، كأنها «غلطة يحتمل أن تكون قاتلة». تقدّم في اتجاه الموقد، وتفحَّص جمراته، وفعل أقصى ما يستطيع فعله حتى يعيدها إلى الحياة من جديد، فرمى فوقها ثلاث قطع من الحطب، ثم سار خطوة في اتجاه النافذة، لكن ذلك كان رحلة لا معنى لها، فعلى الرغم من إمعانه النظر، لم يرَ إلا انعكاس صورته بدلًا من رؤية العوارض والمسامير.

رأى نفسه أمام مقهى «شي نو»، وعند شجرة الحور الساقطة مع القمامة عند قدميه، ففي هذا اليوم

الاستثنائي، في أول فترة بعد الظهر الدراماتيكية، عندما وجد نفسه مطرودًا، نعم، تلك هي الكلمة الصحيحة،

مطرودًا من بيته إلى الشارع، كانت تلك هي النقطة التي واجه عندها الهزيمة، النقطة التي صار عندها مرغمًا على الاستسلام، وكان عليه أن يقرَّ بأنه -مهما تكن أسلحته محشوة جاهزة، ومهما يكن تقييمه للموقف باردًا، ومهما تبلغ محاولاته لتطبيق ما يشار إليه عادة باسم «القرار السليم»، ومهما تكبر القوى التي استعان بها في مواجهة العقبات المحتشدة في وجهه- فقد كان مقدّرًا لذلك كله أن يفشل. كان الفشل الأول فشله في أن يفهم وعجزه عن التعامل مع مستوى التدهور؛ وقد أدرك هذا وأقر به أول مرة عند هذه النقطة («مثل شخص يعاني حالة وراثية من العمى...!»): على أن ما كان لا يمكن له أن يعرفه هو أن ما فعله عند ذلك (عند ذلك بالضبط) كان أوجَ مجد عجزه الفكري، كان هزيمته الحقيقية. فبعد فشله في ملاحظة كيفية أن «التداعي المتوقّع للصيغ التي كانت، منذ عقود من السنين، يعتبرها منخلعة» ما كان ينبغي أن يكون مفاجئًا، له خاصَّة، ثم إنه كان أيضًا يتفادى الإقرار (كان مما يسره أن يتَّفق في هذه المسألة مع رأيه السابق) بأن المحاولة كلّها لم تكن محكومة بالفشل فحسب، بل كانت قد انهارت فعلًا... ذلك التفادي الذي اتّخذ الصيغة التالية: كان قد قرر أن كل ما رآه في الشارع، مهما يكن ما رآه، لا يستحقُّ أن يكرِّس المرء له أدنى قدر من

الاهتمام، فإذا كانت المدينة نفسها، في أوضاعها التي تغيَّرت، قد اختارت بهذا الوضوح كلِّه أن تتجاهل كينونته القائمة على قيمتي «الذكاء العقلي والذوق السليم»، فإن المسار الوحيد المتاح له هو تجاهلها بدوره. لقد كان مقتنعًا قناعة لها ما يبررها تمامًا بأن هذا «التحضير الذي لا نهاية له» كان موجّهًا ضده على نحو صريح تمامًا، وذلك لأنه كان موجَّهًا صوب الإفناء التام لما كان لديه من مقاومة دائمة لكل ما هو سوقي ولكل ما هو هدام؛ إفناء سوف يسحق المحاججة المنطقية، ويسحق ذلك التعبير الحرِّ عن التفكير الواضح، وذلك بغية سلبه الملجأ الوحيد الأخير الذي يستطيع فيه أن يظلّ حرًا وأن يظلّ واضحًا. فكرة الملجأ الأخير هذه هي ما جعله يزداد اقترابًا من فالوسكا؛ ومن خلال اهتمامه القلق به، قرَّر أن يهدم الجسور المهزوزة القليلة العتيقة، نادرة الاستخدام، التي لا تزال موجودة بينه وبين العالم، وأن يطبق القواعد السابقة للنأي بنفسه عن مجتمع لا ينفك يزداد انفلاتًا بقدرٍ متزايدٍ من الصَّرامة، وأن يترك هذا الطبيخ المشؤوم يتعفَّن ذاتيًا، وأن ينسحب انسحابًا تامًا فلا يظل له صاحب غير صديقه. قرر إيزتر أن ينتقل إلى الجانب الآخر من النهر، إلى ما خلف السد؛ ومن خلال تفكيره في طرق تحويل بيته في شارع وينكهايم إلى قلعة حقيقية، كرس

قدراته العقلية كلّها لمهمة المحافظة على الأمان المطلق: المحافظة عليه، أو بالأحرى استعادة كل ما ألقت عليه القذارة الكابوسية والشوارع المهجورة والشجرة الساقطة ظلًا من شك، وذلك مع الإبقاء (بطريقة ما) على الأمل بأن تستمرَّ السيرورات التي يتكوّن منها، هو نفسه، سليمة من غير اضطراب. لكنه لم يفز بالأولى إلا على حساب الثانية لأن ثمن أمانه المطلق كان -على وجه التحديد- ألا يستمر مثلما كان... ألا يستمر لأنه لا يستطيع أن يستمر ولأنه خَبِر -في طريق عودتهما من تلك التجربة المرهقة عند نادي الياقات البيضاء- إحساسًا عجيبًا بشأن ما يمكن أن يكونه مستقبلهما المشترك، وبشأن «مسرّات الانسحاب البسيطة». كان ذلك كأن عبئًا فادحًا قد أزيح عن كاهله: أحسَّ بأنه صار أكثر خفّة، وأكثر خفة، وبعد أن فارق فالوسكا عند زاوية هيتفيزير باساج، أحسّ بتلك الخفّة تقوده، خطوة فخطوة، من غير أن يأسف على شيء، وتجعله يسمح لنفسه بأن يتركها تقوده مدركًا أن هويته، وأن إحساسه بنفسه، يذوبان -من غير أسف- في تلك العملية. وحتى يذوبا ويغرقا فلا يعودا أبدًا، كان هناك أمر آخر، أمر واحد، عليه أن يفعله: كان عليه أن يستخلص الاستنتاج النهائي الذي هو اتخاذ القرار بأنه -عندما يصل إلى الشاطئ الآخر ويصير في أرض السكينة المباركة- ينبغي له أن

«يعتبر نصرًا ما كان، في الواقع الفعلي، هزيمة مرة»؛ كان عليه أن ينسحب إلى نقطة من الأمان الداخلي ولو لمجرد أن العالم الخارجي قد صار محل تدهور مؤلم؛ وكان عليه أن يتجاهل ذلك الوخز، وتلك الرغبةً في التدخّل، لأن مغزى الفعل وغايته كانا يتآكلان نتيجة افتقار ذلك الفعل افتقارًا شاملًا إلى المغزى. وكان عليه أن ينأى بنفسه لأن الاستجابة الصحيحة الوحيدة للعقل السليم إلى هذه السيرورة كانت أن يحتج المرء عليها، أو أن ينسحب ويلغي كل صلة له بها ويبقى بعيدًا عنها (هذا ما فكَّر فيه إيزتر خلال عودته إلى البيت في ذلك البرد القارس)، وذلك مع الاستمرار -في الوقت نفسه- في الانتباه إلى تلك الحالة المتنامية، حالة فقدان المعنى في كل شيء، والنظر إليها نظرًا مباشرًا لأن إشاحة المرء بوجهه عنها لن تكون إلا جبنًا، مثلها مثل الاستعاضة عن سوء الفهم بالخضوع، ومثل الفرار من حقيقة أنه، مهما تكلّم ضد «عالم يفقد صلته بالقانون»، فهو لم ينقطع عن صلته به لحظة واحدة. لقد كان يتكلم ضدّه، ولم يتوقّف لحظة عن وضعه موضع التساؤل راغبًا في معرفة سبب كونه غير عقلاني؛ كأنه ذبابة تواصل طنينها في أذن العالم ولا يمكن أن تقبل إبعادها عن أذنه. إلا أنه استنفد ما عنده من طنين، استنفده كله، فما عادت عنده رغبة في مواصلته لأنه فهم أن تمرُّده ضد طبيعة

الأشياء وتشكيكه بها تشكيكًا لا يعرف الكلل ما كان لهما أن يجعلا العالم يلتحق بذكائه العقلي بقدر ما جعلاه ملحقًا بالعالم، بل جعلاه سجين هذا العالم، إن شئنا قول هذا. لقد كان مخطئًا!... قرَّر هذا قبل خطوات قليلة من وصوله إلى بيته؛ كان مخطئًا في افتراضه أن الفساد الثابت المستمر كان هو الجوهر في ذلك الوقت، لأن هذا القول يعني أن هناك بعض عناصر الصلاح الباقية فيه، في حين أن ما من دليلٍ لديه أبدًا على وجود تلك العناصر؛ وقد أقنعته هذه الرحلة بأن تلك العناصر ما كان لها أبدًا أن تكون موجودة، لا لأنها ضاعت، بل لأن «الحالة الراهنة للمنطقة» لم يكن لها في أي يوم مضى أدنى قدر من المعنى. لم يكن مقصودًا منها أن يكون لها معنى! وإن كان مقصودًا أن يكون لها أي شيء على الإطلاق فإن الغاية منه -بكلِّ وضوح- الإشارة إلى أن لا معنى لها... هكذا فكَّر إيزتر عندما أبطأ خطواته ثم توقَّف أمام المدخل. لم يتدهور العالم، ولم يتفكّك، تحت أي ضغط على الإطلاق، لأن تلك هي طبيعته ذاتها، ولأنها طبيعة أبدية تامّة، تامّة من غير أية إشارة إلى أيّة نيّة تخالف ذلك، كأن النظام الوحيد الملازم
له هو ذلك النظام الذي يجعله مهيأً للفوضى والخراب؛ من هنا، فإن توجيه المرء مدفعية ذكائه العقلي الثقيلة إلى العالم، وإمطاره بقذائفها يومًا بعد يوم رغبة منه في

القيام بفعلٍ ضد شيء لا وجود له، ضد شيء لم يوجد أبدًا، ومواصلته التحديق فيه إلى أن تؤلمه عيناه، ليس أمرًا مرهقًا فحسب (وضعَ المفتاح في القفل)، بل هو عديم المعنى كليًا. قال في نفسه وهو يلقي نظرة أخيرة إلى ما خلفه، «سأهجر التفكير؛ ومن الآن فصاعدًا، سوف أهجر كل تفكير هادئ مستقل كأنه أبشع نوع من أنواع الغباء.

سوف أنكر عمل العقل. ومن هذه اللحظة فصاعدًا، لن أعتمد إلا على البهجة الكبيرة لهذا الإنكار... عليها وحدها»؛ هذا ما راح إيزتر يكرره لنفسه، «كفى تظاهرًا، سوف أهدأ أخيرًا، وسأكون هادئًا تمامًا». كان قد أدار مقبض الباب ودخل، ثم أقفل الباب من خلفه. وكان ذلك كأنّه تحرر من ثقل فادح؛ وحتى قبل أن يعبر عتبة الباب، فاض في نفسه إحساس رائع بالانفراج: كان ذلك كأنه ترك في الشارع، في الخارج، ذاته القديمة وكل ما يتّصل بها، فاستعاد قوّته وثقته القديمة بنفسه مقررًا ألا يفقدهما بعد الآن... إلى أن -خطوة بعد خطوة- فقدهما من جديد وهو يثبت الألواح الخشبية على النوافذ؛ ثم لم يلبث أن ثبَّتها فاستعادهما (وإن كان ذلك في صيغة مختلفة) عندما كان عند نافذة غرفة المعيشة؛ لكنه لم يستعدهما كما يحدث بفعلٍ حكم صادر عن روح

متفوقة، حكم على «العيوب المخيفة في المشهد الذي في الخارج»، بل مثلما تفعل روح متواضعة الاستجابة عارفةٌ سبب كون الأمور على ما هي عليه... عارفة ذلك بالغريزة، أي عارفة ذلك معرفة تامة. فما معنى النظر إلى هذا باعتباره شيئًا ثوريًا، مثلما نظر إليه بالفعل بينما كان يتأمّل ما أحرزه من تقدُّم في مسألة تثبيت الأشياء بالمسامير، من التفاصيل الصغيرة حتى التعديلات النهائية والإدراك الاستثنائي الذي انبثق منها؟ لقد كان الاعتزاز، الإحساس الثوري الوحيد الذي عرفه، أو هكذا فكَّر وهو واقف بالعتبة، اعتزازه هو، اعتزاز لم يسمح له بفهم أن ما من اختلافٍ نوعيٍّ بين الأشياء، أو أنه كان ثقة متباهية زائدة بنفسه حكمت عليه بأن تنقشع أوهامه آخر الأمر، وذلك لأن العيش وفقًا لروح الاختلافات النوعية يقتضي خصالًا فوق بشرية. ومع هذا، ما كان هناك أي سبب حقيقي لانقشاع الوهم (مرت يده برفق على لوح من الألواح الخشبية)، أو أنه ما كان هناك سبب لانقشاع الوهم أكثر من العَجَب، على سبيل المثال: بكلمات أخرى، لم يكن هناك أي سبب في حقيقة الأمر! وأما حقيقة أن الذكاء البشري، الذكاء الذي لا يدرك نفسه، محروم من دخول ميدان «تعديل الطبيعة الحقيقية للعلاقات بين الأشياء»، فهي لا تتضمَّن بالضرورة أن يكون القلق العام المضمَر في الطبيعة

الحقيقية لهذه العلاقات مفتقدًا أي معنى؛ ولا كانت حقيقة أن الذات البشرية ليست أكثر من خادم مطيع للقلق الأبدي تتضمَّن بالضرورة خيارًا شديد الوضوح بين العَجَب وانقشاع الوهم. فإذا اختفى ميدان سحري متجمِّد في اللحظة التي تتلو لمعان الاستنارة، فإن أثره التالي لا يختفي... ظل واقفًا في تلك اللحظة الحية التي أعقبت إحساسه بالرؤية الهاربة التي نبضت فيه... وما كان ممكنًا وصف ما أحسَّه آنذاك بأنه انقشاع للوهم ولا بأنه عجب، فقد كان ذلك أشبه بأن يكون متلقِّيًا لإرث أتاه من غير أن يحتسب، أو أشبه بقبوله حقيقة أن طبيعة الرؤية تتجاوزه شوطًا كبيرًا... نوعٌ من الصبر، نوع من القبول بإرادة نعمة خاصة مكّنه من استيعاب ما كان قادرًا على استيعابه فحسب. فهمَ في تلك اللحظة أن القرار الذي بدا له عظيمًا، القرار الذي اتَّخذه وهو واقف بالعتبة، ما كان أكثر من جهالة طفولية، وفهم أن آراءه في الهوة المخيفة بين تطوُّر الأشياء وعدم قابلية الأشياء للفهم لم تكن قائمةً إلا على غلطة جسيمة، بل على غلطة ظلَّت تتراكم «نحو ستين عامًا»، ستين عامًا من العيش في حالة قصر نظر مجازية في عينيه منعته -هذا أمر طبيعي- من رؤية ما صار الآن يراه بهذا الوضوح كلّه؛ رؤية أن العقل (راح يتأمّل الخطوط المعقَّدة لعروق الخشب في واحد من الألواح) ليس ثغرة مؤلمة في نظام

العالم بقدر ما هو جزء منه لا انفصال له عنه، إنه ظل العالم. إنه ظل العالم لأنه يتحرّك، في حواره الأبدي الحار، ضمن توافق زمني مع الغرائز التي تحكم وجودنا، فتلك هي مهمته: ترجمة هذه الظاهرة، بكل رهافتها وبكل تعقيدها، بحيث لا يخبرنا شيئًا عن غاية ذلك الحوار، لأن الشيء الذي يخفيه في ظله لن يخبرنا شيئًا عن أي شيء غير طبيعة حركته نفسه. وحتى يكون المرء أكثر دقة (واصل إيزتر تأملاته)، فإن ذلك ليس أكثر من ظل في المرآة، المرآة التي تتلاقى فيها الصورة والمرآة تلاقيًا تامًّا على الرغم من محاولة الظل أن يفصل بينهما، أن يفصل بين شيئين هما شيء واحد، منذ الأزل، ولا يمكن الفصل بينهما أو قطعهما لكي يصيرا اثنين، فتضيع البهجة التي لا وزن لها، بهجة الانجراف مع الأشياء، وتُستبدل بها (قال هذا في نفسه وهو يخطو مبتعدًا عن نافذة غرفة المعيشة) أبدية صلبة مشتراة -عن علم- من أجل اللحن العذب، لحن المشاركة في الأبدية، لحن رهيف لا يكاد يُسمع، لحن أخف من ريشة. تحرَّك في اتجاه الباب وقد أطرق برأسه. هكذا سيكون الأمر... فمثل دعوة مسحوبة، ستجد عملية التفكير العقلي نفسها، كلّها، ستجد نفسها من خلال - تحديدًا من خلال- الاستغناء عن دور الذكاء العقلي، وستجد نفسها، بل ستجد شيئًا آخر يستمر وجوده على

الرغم من قلّة فرص استمراره، ستجد تلك النفس التي تترك من خلفها -عبر تجوالها ضمن متاهة طبيعتها الخاصة- تذكارات مشوَّشة تقف شهودًا على الدعوة وعلى سحب تلك الدعوة. هكذا سيكون الأمر... واصل إيزتر سيره متأمِّلًا: إن المحتويات غير الملموسة «للعالم» التي تنبثق عن هذا الحوار الذي هو -هو نفسه- مقاوم لأي تفسير، حوار يطرح السؤال الذي لا إجابة عنه، سؤال: «فما هي الغاية من ذلك، بعد كل حساب؟»»، تعمل بمثابة تحذير لشيء لا يعرف رضًا ولا إشباعًا، شبكة لاصطياد اللانهاية، لغة لالتقاط ما هو ذكي لامع؛ هكذا يصير الواحد اثنين، يصير الشيء في ذاته ومغزى ذلك الشيء. ذلك المغزى الذي يفعل مثلما تفعل اليد فيتلمَّس أولًا، ثم يجمع خيوط هذا المزيج الغامض التي تبدو عشوائيةً، ثم يمسكها معًا مثلما يمسك الملاط حجارة الجدار؛ لكن -وهنا ابتسم إيزتر وهو يحسّ الحرارة المنبعثة من الموقد مع اقترابه منه- حتى إذا أفلتت هذه اليد الخيوط التي جمعتها (مثلما تفعل يده هو)، فإن حوار القوتين المتضادتين يظل مستمرًا، ولا ينهار الجدار. لن ينهار الجدار، تمامًا مثلما لن ينهار هو نفسه، لكن عليه أن يترك كل ما كان متشبِّثًا به لأن هذا جزءٌ حيويٌّ من سيرورة الإدراك البسيط، إدراك أن المعرفة تقود إما إلى الوهم التام أو إلى حالة اكتئاب غير

عقلانية. وعندما عاد من غرفة المعيشة إلى الممر، لم يعد «يفكِّر» على هذا النحو، من غير أن يعني ذلك أنه «أقلع عن» التفكير أو «رجع عن» ما كان قد فكَّر فيه حتى هذه النقطة، بل هو يعني أنه صار مقرًّا بحقيقة أنه تحرَّر من هوى طرح الأسئلة التي تتخذ ممن يطرحها مرجعًا لها؛ ومن خلال هذا التحرر -على غرار التحرّر الذي تخلّى فيه عن الموسيقى في تلك الأمسية، عقب مواجهته مع فراكبرغر، لكنه قد يكون تحرَّرَ بطريقة فورية حقيقية هذه المرة- صار قادرًا على توديع الأوهام التي قادته إلى هذه الاكتئابات الفظيعة. هذا وداعٌ للحظات الوعي تلك التي لا حصر لعددها، عندما كان يفقد إلى الأبد المكانة التي كان قد حاول المحافظة عليها بأقصى قدر من العناد.

هذا وداع للضرورة البلهاء، ضرورة اتِّخاذ قرارات، فقد صار الآن قادرًا -أخيرا- على «تقدير» وضعه تقديرًا صائبًا. هذا وداعٌ لذلك كلّه الذي انتهى... هكذا قال إيزتر في نفسه... وفي هذه الأمسية الاستثنائية، إن كانت الحياة اندفاعة واحدة متواصلة قبل هذا، اندفاعة متجهة في كل اتجاه، اندفاعة «إلى الأمام» اندفاعة إلى «إنجاز» شيء من الأشياء، اندفاعة «للفرار» من شيء من الأشياء... أتم دورته التفتيشية ووصل إلى النقطة التي انطلق منها، إلى اللوح الذي ثبَّته بالمسامير، فاعتبر

أنه قد نجح في لجم تلك الاندفاعة «إلى الأمام»، وأحسَّ بأن قدميه قد استقرتا على الأرض أخيرًا، ولم تعودا ترتدان عنها من جديد، وأنه وصل أخيرًا، بعد تلك التحضيرات كلِّها، وصل على نحو مطمئِن إلى «مكان ما». وقف في العتمة النسبية مرخيًا ذراعيه إلى جانبيه، حاملًا المطرقة بيد مسبلة، وهو يشم «رائحة النجاح» الحقيقية وينظر إلى واحد من تلك المسامير المتميِّزة، أو إلى نقطة مضيئة مرحة صغيرة لعلها كانت ناتجة عن الضوء المتراقص الآتي من باب غرفة المعيشة المفتوح (كان قد أهمل إغلاقه) أو لعلها ناتجة عن الألق الخافت المنبعث من مصباح السقف الذي فوقه؛ نظر إلى تلك النقطة كأنها نقطة النهاية في آخر جملة من الجمل، فهي (هنا، الآن) تشير لا إلى نهاية جولته الدائرية فحسب، بل إلى نهاية سلسلة أفكاره الأخيرة، فبعد جولته الموسَّعة و«تخلُّصه النهائي من ثقل التفكير الفادح» صار عليه أن يجد نفسه حيث بدأ عائدًا إلى البيت وهو يحسّ خفة لم يعرفها قبل الآن أبدًا. فبعد أن حظي بنظرة إلى الطبيعة الحقيقية للعلاقات بين الأشياء، وبعد أن خَبِر -الآن فقط- مغامرة الاستيعاب والفهم، وبعد أن تعافى من الجهد الاستثنائي للتعرّف على الأشياء تعافيًا جاء بطريقة بعيدة كل البعد عن أن تكون محتملة وصل من خلالها إلى لحظة الاستنكاف الحاسمة، لم يعد هذا التألّق الفرح

الصغير لرأس المسمار يستحضر شيئًا غير إحساسه الغامض الذي لا ينسى، ذلك الإحساس الذي فاجأه في طريق عودته إلى البيت، الإحساس بأنه كان سعيدًا لمجرد كونه حيًّا (على الرغم من حالة المدينة التي كان واضحًا أنها ميؤوس منها)، سعيدًا لأنه يتنفَّس ولأن فالوسكا سرعان ما سيصير إلى جانبه... كان سعيدًا بالألق الدافئ المنبعث من الموقد في غرفة المعيشة، وبالبيت الذي سيكون بيتًا حقيقيًا من الآن فصاعدًا، بيته (نظر إيزتر من حوله) حيث يمتلك أصغر شيء فيه معنى؛ وهكذا وضع المطرقة على الأرض، وخلع عنه مريلة السيدة هارر وعلقها على المشجب الذي في المطبخ، ثم عاد إلى غرفة المعيشة حتى يستريح قليلًا قبل أن يشعل نار الموقد في غرفة فالوسكا. كان ذلك إحساسًا غامضًا، لكنه إحساس ناتج عن البساطة لا عن التعقيد: استعاد كل شيء من حوله مغزاه الأصلي بطريقة طبيعية جدًا، وصارت النافذة نافذة يمكنك أن تنظر منها إلى الخارج من جديد، وصارت النار نارًا تعطيك حرارة، وكفَّت غرفة الجلوس عن كونها ملجأ من «الخراب الذي يكتنف كل شيء»، كفَّت عن ذلك بالطريقة نفسها التي لم يعد بها العالم الخارجي مشهد «عذاب لا يحتمل». ذلك العالم الخارجي هو العالم الذي يتجوَّل فيه فالوسكا الآن، بل لعله يسير فيه مسرعًا (إن

كان يحفظ وعده)؛ وهكذا استلقى على فراشه ومدَّد جسمه عليه ببطء مذكِّرًا نفسه بأن المشهد خارج النافذة لم يعد مطابقًا للمشهد الذي رآه بعد ظهر ذلك اليوم، وبالتالي (ربما، أو لعل شيئًا همس له بذلك) فإن القمامة الكابوسية هناك، مثل رائحة كريهة أو سموم متصاعدة من «مستنقع سحريٍّ اسمه القنوط»، لم تكن إلا رؤية صاغها عقل مريض... رؤية عقل مريض وجد، بعد رحلة في الظلام استمرَّت طويلًا جدًّا، موضوعًا يستطيع أن يلقي عليه بخيالاته كله؛ وذلك أن المرء يستطيع أن يعتبر تراكم القمامة في الخارج شيئًا قابلًا للتنظيف والترتيب آخر الأمر (تمامًا مثلما قد يستطيع المرء النظر إلى مخاوف الجمهور الحائر غير العقلاني). لكن إمكانية التنظيف وإعادة الخلق هذه لم تكن إلا فكرةً لحظيةً عابرةً لأن غرفة الجلوس قد استحوذت على انتباهه كله: الأثاث، والسجادة، والمرآة، والشقوق التي في السقف، وألسنة اللهب المرحة التي تتراقص في الموقد. لم يكن قادرًا -مهما حاول- على تفسير إحساسه بأنه موجود في هذا المكان للمرَّة الأولى، وبأن هذا الملجأ من «الغباء البشري» قد صار فجأة جزيرة حصينة للسلام والرضا والعرفان التام. لقد أدخل كل شيء في حسابه: التقدُّم في السن، والإحساس بالوحدة، واحتمال الخوف من الموت، والإحساس بالتوق إلى ما

يتجاوز حالة الهدوء التام، وفكرة وقوعه في قبضة ذعر خانق عندما يرى تحقُّق توقُّعاته الرهيبة، وكذلك إمكانية أن يكون قد جنَّ، وأن تكون تلك الانعطافة في حياته تجسُّدًا لتراجع جبان أمام الأخطار الحقيقية الكامنة في مزيد من التفكير، بحيث يكون ذلك كلّه النتيجة التراكمية لكل ما سبق ذكره. لكن شيئًا من هذا لم يبد له -كيفما نظر إلى الأمر- سببًا كافيًا لتفسير حالته الراهنة؛ بل إنه راح يفكِّر في أن ما من شيء يمكن أن يكون أكثر توازنًا وصحوًا من الموقف الذي صار الآن ينظر إلى العالم من خلاله. أصلح وضع سترته المريحة ذات اللون الأحمر القاني، وشبك أصابع يديه خلف رقبته فسمع التكات الواهية الصادرة عن ساعة يده، وأدرك فجأة أنه قد أمضى حياته كلها هاربًا، وأن تلك الحياة كانت فرارًا متواصلًا... كانت فرارًا من انعدام المعنى إلى الموسيقى، وفرارًا من الموسيقى إلى الإحساس بالذنب، وفرارًا من الإحساس بالذنب والرغبة في معاقبة الذات إلى المناقشة المنطقية الخالصة، ثم كانت آخر الأمر فرارًا من ذلك أيضًا... كانت انسحابًا بعد انسحاب، كأن ملاكه الحارس كان يوجِّهه -بطريقته الخاصَّة به- إلى ما هو نقيض الانسحاب، إلى ما يكاد يكون قبولًا ساذجًا بالأشياء كما هي، ففهم عند تلك النقطة أن ما من شيء هناك حتى يفهمه، وفهم أنه إن

كان في العالم عقل، فهو عقل يتجاوز عقله أشواطًا كثيرة؛ حسبه إذًا أن يلاحظ -ويراقب- ما يمتلكه فعلًا. كان قد انسحب حقًّا «إلى حالة تكاد تكون قبولًا ساذجًا بالأشياء كما هي»، لأنه لم يعد الآن منتبهًا، عندما أغمض عينيه بضع دقائق، إلا إلى المعالم المخملية لبيته: العناق الحامي لجوانب السقف فوق رأسه، وأمان الغرف التي يستطيع التنقل بينها بحرية، والإنارة الواهية الدائمة في الممر الذي اصطفت الكتب على جداره، ذلك الممر الذي يحاكي -بأمانة- مخطط البناء المتَّخذ شكل زاوية قائمة، والذي يبدو كأنه ينقل هدوء الحديقة إلى داخل البيت: حديقة تبدو الآن مهملة، لكنّها ستزهر عندما يأتي الربيع. بدا له أنه قد عاد يسمع صوت خطوات -حذاء السيدة هارر المنزلي ذو الأزرار، حذاء فالوسكا الثقيل- أصوات انطبعت عميقًا في ذاكرته؛ بدا له أنه قادر على تذوُّق الهواء في الخارج وعلى شم الغبار في الداخل. كان منتبهًا إلى الانتفاخ الرقيق في الألواح الخشبية، وإلى السديم (كأنه قابل للأكل) من حول مصابيح الثريا. كان يعرف أن هذا كله، الطعوم والروائح والأصوات -الحلاوة السائغة لمأواه المحيط به إحاطة تامة- لا تختلف عن المباهج التي يستحضرها حلم سعيد إلا من حيث أن ما من حاجة إلى مواصلة استحضارها، لأنها لم تكن قد ماتت، ولأنها موجودة

وسوف تستمر موجودة (كان إيزتر واثقًا من هذا).
وهكذا غلبه النوم، ثم استيقظ بعد بضع ساعات من ذلك على دفء الوسادة تحت رأسه. لم يفتح عينيه فور استيقاظه؛ ولما كان يظن أنه لم ينم إلا بضع دقائق، مثلما كان قد اعتزم أن ينام، فقد ذكره دفء الوسادة بجو الحماية الذي أحسَّ أنه كان يكتنف البيت كله قبل أن ينام، وحسب أنه قادر على استئناف المراجعة الممتدَّة لثروته الدنيوية من النقطة التي تركها عندها. حسب أن لديه وقتًا لكي يغرق في الصمت العامر بالسلام، ذلك الصمت الذي احتضنه احتضانًا وثيقًا مثلما كانت البطانية محتضنة جسده... لكي يغرق في نظام الديمومة الحصين هذا حيث يظل كل شيء على حاله، وحيث ينتظر استقباله كلٌّ من المصباح والمرآة والسجّادة، وحيث سيكون هناك وقت لاستعراض أدق التفاصيل واكتشاف كل جزء مما صار الآن يفصح عن كونه كنزًا لا يفنى. راح يقدِّر -في مخيلته- المسافة بين موضعه الحالي والممر، مسافة بدت كأنها في زيادة مستمرة، لكنها لن تلبث أن يدخلها الشخص الوحيد الذي سيمنح هذا كله معنى: فالوسكا. كان كل عنصر من عناصر «الحلاوة السائغة» يشير إليه: كان فالوسكا العلّة والذات في كل سيرورة؛ وعلى الرغم من أن إيزتر كان يتوقّع شيئًا من هذا، إلا أنه لم يكن منتبهًا هذا الانتباه الحريص

كلّه إلى أن تلك الانعطافة الحاسمة في حياته لم تكن نتيجة حادثة غير مفهومة، بل هي نتيجة عمل الشخص الوحيد الذي كان يزوره على امتداد تلك السنين الكثيرة كلّها، الرجل الذي قام بدور ترياق غامض لإحساسه اليومي بالمرارة (ذلك الإحساس الذي كان يزداد رهافة)، الرجل الذي لم يستوعب إلا الآن قسمات وجهه الحقيقية وهشاشته المخيفة، لم يستوعب ذلك إلا في هذه الحالة الواقعة بين نصف نوم ونصف يقظة، لم يستوعب جوهرها المفاجئ، أو لعله اكتشف ذلك في وقتٍ سابقٍ من هذا اليوم عندما كان عائدًا إلى البيت من مقهى شي نو. اكتشفه في طريق عودته من هناك، لكنه اكتشفه أولًا (والحق يقال)، في هيتفيزر باساج بعد وقت قصير من رؤيته المقهى والشجرة الساقطة عندما هزّه ذلك المشهد، وظنَّ نفسه وحيدًا تمامًا، فلمعت في ذهنه فكرة أنه لم يكن وحيدًا في واقع الأمر: كانت تلك لحظة واحدة تكاد تكون جزءًا من ألف جزء من ثانية من الإدراك، لكنها غير متوقعة أبدًا، وكانت عميقة، فتحولت -على الفور- إلى قلق على رفيقه... عملية جرت بسرعة شديدة فاختفت الفكرة غارقة فيها... اختفت وغرقت في قلقه وفي قراره بالانسحاب عندما وجد نفسه في مواجهة اختلال التوازن غير المحتمل الذي رآه في المدينة فوفَّر له برهانًا قاطعًا على العناصر المجهولة لذلك الإدراك

من غير أية فكرة لديه عما يستسلم له عندما يفر هاربًا إلى خططه التي وضعها من أجل حياتهما معًا في المستقبل. لم يفارقه هذا الإحساس الغامض، الغائم، بل ظل يحوم فوقه في كل خطوة خطاها طيلة طريقه إلى البيت، وظل موجودًا في المشهد العام للحوادث التي جرت بعد الظهر وفي المساء: كان مختبئًا هناك كأنه تفسير سري لإحساسه بالجزع لحظة افتراقهما؛ كان أمرًا شهدت عليه «خفة القلب غير المسبوقة التي عرفها في طريق عودته إلى البيت»؛ لقد كان موجودًا في القرار الذي اتخذه عند البوابة، وفي كل تفصيل من تفاصيل الخطوات التي اتخذها لتحصين البيت، وفي جولة التفتيش ووضع اللمسات الأخيرة بعد ذلك؛ وأخيرًا، كان موجودًا في ثروة المعاني الجديدة التي سيكتشفها بقدرته الخاصة: في كل زاوية من زوايا البيت، وفي الضوء الشحيح في حلم يقظته، وفي المحور نفسه الذي دارت حوادث هذا اليوم الاستثنائي من حوله... كان فالوسكا هناك وقد صار الآن ظاهرًا كله، للمرة الأولى. أحس بأنه قادر على رؤية ما أثر في نفسه، وكان مقتنعًا بأنه التقطه على الفور، منذ البداية نفسها، التقط الشيء الذي صار الآن يواجهه كأنه صورة منقوشة في الصخر، ذلك أنها صورة واحدة تلك التي كانت تغذيه في حقيقة الأمر، صورة واحدة أدت إلى

تغيير مجرى حياته كلها. والحقيقة أنه فكر، عندما استعاد ذلك كله، في أنه ما كان قادرًا على منع نفسه من التعرف عليه، فعند ذلك، عند «لحظة الحدس الخاطفة»، ظهر له بقوة جارفة، ظهر له شيئًا لا سبيل إلى ضبطه، شيئًا صامتًا، شيئًا يدفعك إلى الأمام من غير أن تلاحظ ذلك. في تلك اللحظة عينها، بعد أن ترك مقهى «شي نو» خلفه، وبعد أن مر بالشجرة التي كان محزنًا سقوطها، في مكان ما بين المقهى ومتجر الفراء، توقّف، هو، إيزتر، وقد استولى عليه مزيج طاغٍ من السخط واليأس العجيب، فمد ذراعه وأوقف فالوسكا أيضًا. قال شيئًا، وأشار إلى القمامة كأنه يسأل رفيقه إن كان قد انتبه إليها بدوره، ولاحظ، عندما التفت إليه، ملمح الانتباه المتألق في وجهه -»الألق»، هكذا وصفه- الملمح الذي كان قد فارق فالوسكا في الآونة الأخيرة، لاحظ أنه عاد إليه الآن. أنبأته الغريزة بأن شيئًا قد حدث في اللحظة التي سبقت ذلك فاستثار ذلك الملمح، وراح يمعن النظر لكنه لم يجد ما يؤكد ذلك الحدس؛ وهكذا تابع سيره -وقد رضخ لفكرته غير الواعية- من غير أن يشكَّ في شيء: كان غير مشتبه في شيء، حقًا، لكنه توصَّل إلى حل كل شيء، هكذا فكّر وهو يستيقظ من حالة نصف الإغفاء فيصحو تمامًا، تجسَّدت تلك الحادثة كلّها مع فالوسكا على شكل لوحة فكانت ظهورًا مؤثرًا

لشدّة بساطته، وصار كل ما حدث بعد الظهر وفي المساء، صار أخيرًا، وبقوة، واضحًا كل الوضوح. ما أحسه آنذاك، رآه الآن: حاميه الموثوق واقف هناك، إلى جانبه، متهدِّل الكتفين، مطرق الرأس، وبيوت هيتفيزر باساج من حوله، بينما كان الآخر -صديقه العجوز الواهن إيزتر- يشير إلى القمامة؛ كان فالوسكا متهدِّل الكتفين، مطرق الرأس، لا في إشارة غامضة إلى هجمة كآبةٍ مفاجئة، بل لأنه كان يستريح (كاد إدراك هذا الأمر يحطِّم قلب إيزتر)... يستريح لأنه قد تعب، هو أيضًا، تعب لأنه كان مضطرًا (من الوجهة العملية) إلى حمل شخص لا يكاد يقوى على الوقوف على قدميه؛ كان يستريح خفية كأنه خجلٌ من اضطراره إلى الاستراحة، كأنه غير قادر على تخيل الأثقال على رفيقه بأن يعترف بضعفه أمام ذلك المعتمد عليه: صار إيزتر قادرًا على رؤية هذا من جديد، على رؤيته مثلما كان. رأى تهدّل الكتفين ومعطف ساعي البريد المتغضِّن على الظهر المحدودب، ورأى إطراقة الرأس وبضع خصل من الشعر التي أفلتت من قبعته وتدلت فوق عينه، ورأى الحقيبة معلّقة من كتفه... وفي الأسفل، رأى الحذاء الكبير المهترئ... وأحس بأنه يعرف كل شيء يجب أن يعرفه عن هذه الصورة المأساوية ففهم على أتم وجه، فهم كل شيء يمكن أن يُفهم. ثم أتته صورة لفالوسكا في

مناسبة سابقة منذ وقت طويل -هل كان ذلك منذ سبع سنين، أو حتى منذ ثماني سنين مضت؟ لم يستطع أن يتذكَّر هذا بدقة- عندما ظهر فالوسكا أول مرة في غرفة المعيشة في بيته -كانت تلك نصيحة السيدة هارر-:
«أقول لك، يلزمنا رجل هنا... شخص يحضر إليك وجبات طعامك!». كانٍ سائرًا خلفها، شبه ملتصق بها؛... وكم كانٍ خجولًا عندما شرح ما أتى من أجله، وعندما احتجّ قائلًا إنه لن يقبل المال المعروض عليه بل سيكون سعيدًا بأن يؤدّي، «من غير أجر»، أية مهمة يحب السيد إيزتر أن يعهد بها إليه، كالذهاب إلى المتاجر، أو وضع رسالة في صندوق البريد، أو -من وقت لآخر- ترتيب الفناء إن سنحت فرصة لذلك. وتذكر كيف أضاف بعدها، كيف أضاف بما يشبه الاعتذار وكأن صاحب البيت هو من يسدي إليه جميلًا، فقال إن من الممكن أن يجد الشخص مبرِّرات كافية لاعتبار هذا العرض غريبًا بعض الشيء، ثم أشار بيده كأنه يعترض على ما قاله، وابتسم ابتسامة كبيرة. وعلى هذا النحو، دخل حياته نوع من الخير البيّن بذاته؛ لم يدخل فناء بيته فحسب، بل دخل حياته كلها فصار معتمدًا عليه اعتمادًا تامًا؛ نوعٌ من الخير مستعد للتضحية، غير مرئي، لا يتزعزع، مجتهد أبدًا، دائم العناية والاهتمام: مثلما كانت السيدة هارر تعتني بنسيج البيت، كان فالوسكا يحمي

مخدومه من نفسه، وهو ينظر إلى حيّزه يموت أمام عينيه (قال في نفسه: هل كانت ست سنوات، أو سبع سنوات، أو ثماني سنوات؟ سبع سنوات، على الأقل). وإلى أقصى ما كانت قدرته تسمح له، كان فالوسكا يحفظه بوجوده وحده، حتى عندما لا يكون موجودًا هنا بالفعل؛ وذلك لأن معرفة إيزتر بأنه آتٍ في طريقه كانت تحميه من أكثر العواقب خطورة لميل عقله إلى تدمير الذات، أو، على الأقل، تريحه قليلًا من ذلك الميل وتجعل آثاره أقل إيلامًا، وتحرف اتجاه سلسلة أفكاره الكارثية المصوَّبة دائمًا إلى «العالم»، فلا تدمر الكائن المسكين الهارب الذي يحملها؛ بكلمات أخرى، كان ينقذه، كان ينقذ إيزتر الذي هو تمثيل حي لتلك الأفكار الثابتة (أفكار اليوم الثابتة) في عبثيتها قصيرة النظر، تلك الأفكار التي تود أن تعيد تعريف كل مؤسسة بشرية وتنهمك في تمزيق نسيج المدينة، بل في تمزيق نسيج البلاد كله (النسيج الذي يستحق مصيره استحقاقًا تامًا)، تلك الأفكار التي كان من شأنها أن تفعل ذلك حقاً لو أن فالوسكا («عبقري النظر بعينين متّسعتين») لم يوقظه هذا الصباح ولم يجنّبه دفع الثمن المر للدمار الذي أصاب الحياة بثرائه الذي يصعب تحديده وبآلية عمله العضوية القائمة على «العلاقات السارية بين عناصر الواقع»، الثمن الذي تدفعه المدينة، بل البلاد كلها، بل

الأفكار الثابتة كلها، الأفكار العبثية قصيرة النظر كلها، وكلّ تسلسل أفكار يصدر أحكامًا تريد أن تعاين «العالم» من وجهة نظرها المحدودة. لكن فالوسكا أيقظه، بالفعل، هذا الصباح، أو لعل ذلك لم يكن إلا إحساسًا جاءه أمام مقهى «شي نو» وصاحبَه حتى هذه اللحظة من لحظات الوعي الناعس؛ وفي أيّة حالة من الحالتين، كان في تلك اللحظة مرغمًا على فهم ما كان صمود صديقه وحبّه يحميانه منه؛ وكان عليه في تلك اللحظة أن يدرك أن قيمة وجوده لا تعادل قيمة جناح ذبابة، الوجود الذي قام حتى الآن على قيمتين توأمين، «الذكاء العقلي، والذوق السليم»، أي على ما يدعوه تفكيرًا مستقلًا واضحًا وعلى قدرة روحه على التحليق فوق ما هو دنيوي مبتذل، كما كان يعتقد في سره: كانت تلك هي اللحظة التي صار عليه فيها الاعتراف بأن شيئًا لم يعد يثير اهتمامه غير الحب الثابت لصديقه. ففي كل مرة فكر فيها بصديقه، على امتداد فترة طالت نحو سبع سنين، كان يراه دائمًا «تجسيدًا غير مفهوم للميدان الملائكي الهوائي عند النقطة التي يفيض فيها على ما هو دنيوي»، شيء أثيري كلّه، متحوّل كلّه إلى روح وإلى ضياء نقيٍّ؛ لا كائنًا من لحم ودم، بل وجودٌ غير مادي (يستحقّ أن يدرسه العلم)، وجودٌ يدخل مسكنه ويخرج منه كأنه جنّية طيبة؛ على أنه صار الآن يراه

بطريقة مختلفة: قبعته المستدقّة على رأسه، ومعطف ساعي البريد الطويل الذي يبلغ كاحليه، يدخل البيت قرابة وقت الغداء بعد أن يدقَّ الباب دقًا خفيضًا، ويلقي التحية، ثم يسير في الممر -بعد أن أنجز مهمته- يسير حاملًا علبة الطعام معلقة من كتفه، يسير على رؤوس أصابعه في حذائه الضخم الثقيل حتى لا يشوِّش هدوء غرفة المعيشة، ثم يبتعد ذاهبًا، فيبلغ البوابة بعد أن يكون قد أضفى قدرًا من الانفراج والخفة -حتى زيارته التالية- على جو البيت الذي أثقلته هواجس صاحبه، فيكون قد شفاه بحضوره الطيِّب، الخيِّر، الغامض ورعايته الحانية، و«بساطته» -شديدة التعقيد -، ومع أن تلك البساطة سخيفة قليلًا (قد تكون سخيفة قليلًا)، فإن رقَّتها المؤثرة التي تغمره هي ما يجعل (بالنسبة إلى فالوسكا) الاهتمام بحاجات سيده كلها أكثر الأشياء طبيعية في العالم كله، وهي ما يمكِّنه من تقديم خدماته بهذا الثبات العميق المطلق. في ذلك الوقت، كان إيزتر قد استيقظ تمامًا، لكنه ظلَّ في حالة سكونٍ تامٍّ على فراشه، فقد شاءت مخيلته أن يظهر وجه فالوسكا أمامه فجأة... وجه فالوسكا بعينيه الكبيرتين وحاجبيه المرتفعين وأنفه الطويل الأحمر كأنه شيء آتٍ من حكاية شعبية، وأما فمه فكان مبتسمًا ابتسامة لطيفة. بدا له أنه، تمامًا مثلما اكتشف العنصر الحقيقي «للمنزل»، ذلك العنصر

المختبئ خلف واجهة «بيته»، فقد اكتشف الآن، للمرة الأولى، أنه قادر على تبيُّن قسمات وجه فالوسكا الحقيقي من خلف وجهه الظاهري؛ عرف أن من خلف «الملمح السماوي» المنفصل عن الواقع الذي يراه المرء في قسمات فالوسكا، القسمات التي يمكن أن تتكثَّف إلى ألق «ملائكي» في تجواله المحموم، فإن هناك جانبًا «أرضيًا» حقيقيًا. وهذا بمعنى أنه، ببساطة، «موجود هنا»؛ وبقدر ما كان معنيًا بالأمر، فقد كان ذلك الوجه يعبِّر عن نفسه بابتسامة، أو يخرج من حالة مزاجية كئيبة فيتألق من جديد ويكشف عن حقيقة أنه ليس فيه شيء آخر يمكن التماسه: كانت الابتسامة كافية، وكان التألُّق والجدية كافيين؛ فهم إيزتر أن الجانب السماوي لم يعد هو ما يهمه حقيقةً، بل إن الوجه -الوجه وحده- هو ما كان مهمًا لديه: ما له أهمية هو وجه فالوسكا، لا نظرة فالوسكا إلى الكون! انتباه ذلك الوجه الذي يحمل تعبير اهتمام دائم بترتيب غرفة المعيشة وبحسن حالها، هي وشاغلها، الترتيب الذي كان شاغلُ الغرفة يشوّشه دائمًا...

فكر إيزتر في أن ذلك كان نموذجًا للحذر وصحو الضمير، وتعبيرًا عن الاستعداد الدائم للاهتمام بالمهمَّات الصغرى وبالتفاصيل الدقيقة؛ استعداد لم يكن، هو نفسه، متمتعًا به. فتح عينيه، وجلس في فراشه، ونظر من

حوله مفكرًا في ما يتعين عليه فعله تحضيرًا لعودة صديقه. كانت خطته الأصلية أن يتابع تحصين النوافذ وتدفئة الغرف، مع سد البوابة وإحكام إغلاق الباب الذي ينفتح على الفناء. لكن، ولما كانت أهمية التحصينات قد شهدت تغيُّرًا جذريًا (في لحظة واحدة) مثلما تغيَّرت نظرته إلى فكرة التحصين نفسها وإلى طريقة تنفيذها حتى الآن، وكذلك إلى بقية الأعمال المتَّصلة بحماية بيته و«تبطينه بالألواح»، فقد استحال الأمر كله إلى ذكرى مؤسفة عن بلاهته، وقرَّر الآن أن يكرِّس انتباهه كلّه لمسألة تجهيز غرفة لفالوسكا، أي إنه أراد أن يشعل الموقد فيها، وأن يرتِّبها إن كان ذلك ضروريًا، وأن يعدَّ السرير وينتظرَ عودة مساعده المتحمّس»،÷ الذي لا شك في أنه الآن يجوب المدينة منشغلًا بإنجاز («مهمته»)؛ سينتظر أن تخطر في ذهن فالوسكا فكرة العودة إلى البيت في جادة وينكهايم مثلما وعده. اعتبر أن من المضمون أن يفعل فالوسكا ما اعتاد فعله دائمًا، أن يسير في الشوارع في مكان ما، أو أن يجد طريقه إلى ذلك الحدث الذي وضعوا إعلانات عنه في هيتفيزر باساج، ولعلّه تأخّر نتيجة الزحام... لم يساوره أي قلق إلا عندما نظر إلى الساعة بضع مرات فأدرك أنه لم ينم دقيقة أو دقيقتين، بل أمضى قرابة خمس ساعات نائمًا؛ أدرك مصدومًا أنه نام قرابة خمس ساعات، فقفز من

فراشه للجري في اتجاهين معًا، الأول لكي يشعل النار في الغرفة المجاورة، والثاني (بسبب عدم وجود نافذة، أن ينطلق إلى البوابة وينظر إلى الخارج مترقِّبًا وصول فالوسكا). الحقيقة أنه لم يذهب في هذا الاتجاه ولا ذاك لأنه لاحظ أن نار الموقد في غرفة المعيشة قد خمدت، فكانت فكرته الأولى أن يعيد إشعالها، وهذا ما فعله إذ كوّم في الموقد كل ما استطاع تكويمه من حطب مع بضع قطع من ورق الجرائد وضعها تحت تلك الكومة. لكن النار رفضت أن تشتعل -كان عليه أن يباعد بين القطع الخشبية، وأن يحاول إعادة إشعال النار مرَّتين قبل أن يظهر اللهب ويمتد. وحتى بعد ذلك، فقد تبيَّن أن المهمَّة كانت بسيطة بالمقارنة مع المهمّة التي كانت في انتظاره في الغرفة المجاورة حيث أمضى ساعة كاملة في محاولات فاشلة لإشعال النار في تلك المدفأة من نوع «كالور غاز» التي لم يستخدمها أحد منذ سنين. حاول تذكّر الطريقة التي تستخدمها السيدة هارر في إشعال النار، لكن ذلك لم يفده لأن الخشب ظلَّ مصرًّا على إفشال محاولاته لإيقاد النار فيه. رتَّب الأخشاب على هيئة هرم، ثم ألقاها كيفما اتفق، وحاول فتح باب المدفأة، ونفخ بأشد ما استطاع، لكن شيئًا لم يحدث... ظلَّ كلُّ شيءٍ على حاله ولم ينتج عن محاولاته كلها إلا خيط من دخان كثيف؛ كان ذلك كأن المدفأة، قد نسيت وظيفتها

في تلك الفترة الطويلة من البطالة الإجبارية ولم تستطع تذكر ما يتعيَّن عليها فعله في هذا الوضع. لكنَّ «عش» فالوسكا العتيد كان قد اكتسى هيئة ميدان معركة: ملأت أرض الغرفة أخشاب متناثرة اكتست سخامًا، وانتشر الدخان في كلِّ مكان، وظلَّ إيزتر يكدح وسط الدخان فيهرب إلى غرفة المعيشة كل دقيقتين حتى يتنفس هواء نظيفًا، ويلقي نظرة سريعة خلال «واحدة من تلك الرحلات» على سترته الفضفاضة، وهذا ما جعله يتذكَّر على الفور المريلة التي تركتها السيدة هارر في المطبخ: فكرة ينبغي أن تأتيه بشيء من البهجة، لكن ذلك لم يحدث لأنه كان في طريقه إلى غرفة المعيشة عندما سمع زمجرة خفيضة لشيءٍ يشتعل، فعاد أدراجه وتأكد من أن نضاله لم يكن عبثًا كلّه، فقد بدا الوضع الآن وكأن أحدًا قد أزال سدادة من مدخنة المدفأة: صارت مدفأة «كالور غاز» تعمل من جديد! وبما أن إشعال المدفأة استغرق زمنًا طويلًا، فقد حسب إيزتر أنه لم يعد لديه وقت لإزالة الألواح الخشبية التي وضعها على النوافذ المطلّة على الشارع في هذه الغرفة أيضًا، فما كان منه إلا أن ترك الأبواب مفتوحة كلَّها وراح يشجِّع الدخان على التبدد عبر غرفة الخدم الصغيرة، ثم إلى المطبخ عبر الممر، وبعد ذلك حاول نفض السخام عن سترته لكنه لم ينجح إلا في جعلها أكثر اتساخًا. تخلّى

عن تلك المهمة بعد أن أهدر عليها بضع دقائق، ووضع عليه مريلة السيدة هارر وعاد إلى الغرفة حاملًا خرقة ومكنسة وقدرًا في إحدى يديه، وسلّة مهملات في يده الأخرى، عاد مسرعًا إلى غرفة فالوسكا حتى يزيل آثار الفوضى التي خلّفها فيها. إن كانت خزائن العرض الغاصّة بقطع البورسلان وأدوات الطعام والأصداف البحرية، وكذلك طاولة الطعام المحفورة، والسرير، قد كانت كلها تحت رعاية السيدة هارر حتى ذلك الوقت فاكتسب المكان مظهرًا أشبه بالمتحف، فإن ذلك المظهر قد صار الآن ملوَّثًا بالسخام، وبدا المتحف كأنه مكان غادرته فرقة الإطفاء قبل قليل، بل لعلها غادرته مستعجلة وذهبت مستجيبة لنداء آخر من أجل إبداء بطولات أعظم شأنًا. كان كل شيء في الغرفة قد اكتسى سخامًا ورمادًا؛ ولو لم يكن كذلك، فقد كان إيزتر كأنه أصيب بلعنة السيدة هارر. لقد لوث المكان بنفسه؛ صحيح أنه كان يعرف تمام المعرفة بأن الأمر لا علاقة له بلعنة السيدة هارر، بل إن حماسته المفرطة وقلة انتباهه كانا مسؤولين عما حدث لأنه كان مشتتًا غير قادر على التركيز على مهمته نتيجة اضطراره إلى الإصغاء المستمر، علّه يسمع تلك النقرات التي انتظرها طويلًا، نقرات فالوسكا على نافذة غرفة المعيشة، تلك النقرات التي كانت منسجمة مع ترتيبات متّفق عليها

بينهما لمعرفتهما أن البواب يقفل بوابة البناء في أول المساء. حاول نفض الغبار عن السرير، ووضع في المدفأة مزيدًا من الحطب، ثم قرَّر أن يصرف النظر عن المهمة الميؤوس منها، قائلًا في نفسه إنهما قد ينجزاها معًا في الصباح. عاد بعد ذلك إلى غرفة المعيشة حيث قرّب كرسيًا من الموقد وجلس عليه. ظل يلقي نظرات في اتجاه الساعة، ويقول لنفسه لحظة: «لقد تجاوزت الثالثة والنصف»، ثم يقول في اللحظة الأخرى: «لم تبلغ الساعة بعد أكثر من الرابعة إلا ربعًا». صار الوقت يبدو مبكِّرًا كثيرًا أو متأخِّرًا كثيرًا بحسب حالته الذهنية. ففي لحظة من اللحظات، يبدو له مؤكدًا أن صديقه ليس آتيًا، إما لأنه نسي وعده، أو لأنه قرَّر أن عدم قدرته على الوصول في موعده تجعل لزامًا عليه أن «يمتنع» عن إزعاج صديقه في منتصف الليل. وفي اللحظة التي بعدها، يتخيَّل أن فالوسكا لا يزال جالسًا عند مركز توزيع الصحف في المحطة، أو مع بواب فندق كوملو الذي لا يهمل أبدًا التعريج عليه خلال تجواله الليلي، فيبدأ حساب الزمن الذي سيستغرقه فالوسكا حتى يصل إذا خطر في ذهنه أن يتحرّك في هذه اللحظة. وبعد ذلك، كانت تأتيه لحظات يكفّ فيها عن التفكير في أنه قد بقي «ربع ساعة حتى...»، أو في أن «الساعة لم تبلغ الرابعة بعد...»، وذلك عندما

يظنّ أنه يسمع صوت نقر على النافذة فيسرع إلى فتح البوابة والنظر إلى الخارج في الضوء المنبعث من السيرك الغريب والسينما ومن الإنارة الشديدة لفندق كوملو حيث بدا له أن هناك تجمعًا كبيرًا لأشخاص واقفين من غير أن يفعلوا شيئًا، فيقرّر أن ما من أحد قد نقر على النافذة، ويعود أدراجه خائبًا، ويجلس في مكانه من جديد. فكَر أيضًا في أن من الممكن أن يكون فالوسكا قد أتى أثناء نومه فقرّر، عندما نقر على الشباك فلم يلق إجابة، أن يصرف النظر عن الأمر ويذهب إلى بيته... أو -راح إيزتر يخمِّن أيضًا- من الممكن أن يكون أحد الأشخاص (حدث هذا من قبل، وإن كان نادر الحدوث) قد ورَّط فالوسكا في الإسراف في الشرب؛ ولعل ذلك قد حدث عند السيرك، على الرغم من أن من المحتمل أكثر أن يكون قد حدث في حانة هاغلماير التي يزورها كل يوم، وبالتالي فقد خجل من المجيء إليه وهو ثمل. راح يفكِّر في تلك الاحتمالات المختلفة التي تبدو له واهية تارة ووجيهة تارة أخرى، ثم رقد، ثم نهض ووضع في النار مزيدًا من الحطب، ثم دعك عينيه وجلس -حتى يظل مستيقظًا- على الكرسي ذي الذراعين الذي يستخدمه فالوسكا عادةً عصر كل يوم. لكنه لم يستطع أن يظلَّ جالسًا: بدأ وركاه يؤلمانه، وأحسَّ كأن يده اليسرى المصابة تشتعل، فقرر سريعًا ألا ينتظره أكثر

من ذلك، لكنه لم يلبث أن غيَّر رأيه بعد دقائق معدودة، فقرر أن ينتظر إلى أن يبلغ عقرب الساعة الطويل علامة الثانية عشرة. إلا أنه استيقظ بعد ذلك فوجد أن الوقت قد بلغ تسع دقائق بعد السابعة، وبدا له أن هناك من ينقر على إطار النافذة حقًّا. نهض واقفًا، وحبس أنفاسه، وراح يصغي صامتًا لأنه أراد أن يكون هذه المرة واثقًا من أنه لا يتخيَّل شيئًا، ومن أن أعصابه المرهقة لا تخدعه. إلا أن دفعة ثانية من النقرات بدَّدت شكوكه كلها وأزاحت عنه إحساسه بالإرهاق نتيجة يقظته الطويلة. وهكذا أسرع خارجًا من غرفة المعيشة، وأخرج المفتاح من جيبه، وسار في الممر بخطوات واسعة. كان في حالة انتباه تام وروح معنوية ممتازة عندما خرج من غرفة المعيشة، وسحب المفتاح من جيبه، وسار في الممر مسرعًا، فبلغ البوابة وهو في حالة من الانتعاش والترقُّب الفرح، ولم يثنه البرد الخانق عن إدارة المفتاح في قفل الباب لأن ساعات الانتظار الطويلة التي بدت من غير نهاية قد صارت آخر الأمر شيئًا يستطيع أن يرويه لزائره الذي جاء بعد طول انتظار من غير معرفة منه أنه لم يعد زائرًا، بل مقيمٌ في هذا البيت. لكن خيبة أمله كانت كبيرة عندما لم ير فالوسكا، بل فوجئ بالسيدة هارر واقفة أمامه، ثم إنها كانت في حالة قلق واضح، وكانت تتصرف بطريقة

غريبة، فقبل أن يستطيع فهم أي شيء منها، ومن غير أي تفسير لما تدبّره في هذه الساعة، تجاوزته فعبرت البوابة وجرت داخلة الممر وهي تعصر يديها في طريقها إلى غرفة المعيشة، حيث فعلت شيئًا لم تفعله قبل ذلك أبدًا، إذ جلست على أحد الكراسي وفكّت أزرار معطفها ونظرت إليه وقد ارتسم على وجهها تعبير بؤس، جعلها تظهر كأنها فقدت لسانها وما عادت قادرة إلا على الجلوس هناك ناظرة إليه نظرة ناطقة بالذعر الذي تعانيه. كانت في ملابسها المعتادة، التنورة الإضافية الثقيلة، والوشاح ذي اللون الليموني، ومعطف قرميدي اللون؛ لكن هذا كله ذكّره بالسيدة هارر في الصباح السابق عندما كانت مطمئنة إلى أنها قد أدَّت عملها جيدًا، واستبدلت بحذائها المنزلي ذي الأزرار حذاءً مبطن الساق تنتعله دائمًا خارج البيت، واتخذت طريق الخروج، وصاحت عند اجتيازها الباب، «سأعود يوم الأربعاء». الآن، كانت إحدى يديها على قلبها، واليد الأخرى متدلية إلى جانبها من غير حول، وقد ظهرت دائرتان محمرّتان داكنتان تحت عينيها، ولاحظ إيزتر للمرة الأولى أن إزارها كان مزررًا بطريقة خاطئة. كان مظهرها كلّه يوحي بشخص حطّمته مصيبة فظيعة فهزّته حتى أعماقه... وذلك إلى درجة جعلتها غير عارفة أين هي ولا ما حدث لها بالضبط، أو كأنها في

حالة انتظار مرّ للحصول على إجابات عن هذه الأسئلة. «لا أزال مذعورة، يا أستاذ، يا سيدي...»، شهقت مبهورة الأنفاس، ثم هزت رأسها يائسة... «لا أزال غير قادرة على تصديق أنها لحظة النهاية، على الرغم...»، تكسَّر صوتها... «على الرغم من أن الجيش قد صار هنا بالفعل...». ظلّ إيزتر واقفًا عند الموقد، فلم يفهم كلمة مما قالته. وعندما رأى دموعها تنهمر من جديد، تقدَّم في اتجاهها خطوة حتى يهدِّئها، لكنه أحسَّ بأنه غير قادر على فعل شيء إذا كانت تريد البكاء، فصرف النظر عن الأمر وجلس على حافة سريره. «صدِّقني يا أستاذ، يا سيدي. لست أدري إن كنت ميِّتة أو حيَّة...»، نشقت بأنفها وأخرجت من جيب معطفها منديلًا متغضِّنًا... «لقد جئت إليك لأن زوجي قال لي إن عليَّ أن أفعل هذا؛ لكنّي لا أعرف حقًّا إن كنتُ قد مت...»، مسحت عينيها... «أو إن كنت حيَّة...». تنطَّح إيزتر وقال: «لكن، ماذا حدث؟». أشارت السيدة هارر بيدها متجاهلة سؤاله، «قلت لهم من قبل إن هذا سيحدث. قلت لك، يا أستاذ، يا سيدي، وأنت تذكر هذا عندما اهتز خزان المياه في حدائق غوندولز. لم يكن الأمر سرًّا». بدأ إيزتر يفقد صبره. من الواضح أن زوجها قد ثمل من جديد، ولا بدّ أنه سقط فاصطدم رأسه بشيء من الأشياء. لكن، ما علاقة

الجيش بهذا؟ ما معنى كلامها؟ وما الذي ينتج عن هذه الفوضى كلّها؟ كان راغبًا في أن يستلقي وينام بضع ساعات فقط إلى أن يأتي فالوسكا؛ وسوف يستيقظ وقت الظهر، في الوقت المعتاد لمجيئه. «حاولي أن تحكي لي ما حدث، منذ البداية، يا سيدة هارر». دعكت المرأة عينيها من جديد، ثم وضعت يديها في حجرها: «لا أعرف من أين أبدأ بالضبط، لا يمكنك أن تبدأ الحديث عن الأمر بهذه الطريقة لأنني لم أره أبدًا طيلة نهار أمس، من الصباح إلى الليل، فقلت في نفسي إن عليَّ أن أنتظر حتى يعود إلى البيت فأفهم منه كل شيء.

أنا واثقة من أن الأستاذ يفهمني، فكيف يفعل هذا وينفق كل قرش نحصل عليه في حين، أعني أنه رجل شريف بما فيه الكفاية، لكنّي أستنفد قواي كلها لكثرة العمل الذي أقوم به، لكن هذا ما يتوقّعه المرء من سكير -بالطبع- لا يمكن فعل شيء في هذا الشأن... أنتظره طيلة النهار حتى يأتي. أنظر إلى الساعة، السادسة، السابعة، السابعة والنصف، ثم الثامنة، ثم أقول لنفسي إنه قد ثمل الآن وصار في حالة سكر شديد، البارحة فقط كاد يموت نتيجة آثار الشرب، وأنت تعرف أن قلبه... قلبه ليس قويًّا... أنت تعرف هذا، لكنِّي أقول له، على الأقل، ألا يشرب في يوم مثل هذا اليوم... ليس عندما تمتلئ المدينة كلّها بأولئك المخرِّبين ذوي البشرة الداكنة،

ويكون من المؤكد أن شيئًا سيصيبه عند عودته إلى البيت مترنحًا، وفوق هذا كله هناك ذلك الحوت، أو مهما يكن الاسم الذي يطلقونه على ذلك الشيء الملعون. لا تنسَي هذا... أقول لنفسي! بالطبع، كان يمكنني تخمين ما سينجم عن ذلك! كنت جالسة في المطبخ أنظر إلى الساعة بعد فراغي من غسل الأطباق. قمت أيضًا بجولة مع المكنسة، ثم شغلت جهاز التلفزيون وجلست أتابع الأوبريت التي عرضوها قبل ذلك، لكنهم أعادوا عرضها من جديد نزولًا عند طلب المشاهدين؛ ثم ذهبت إلى المطبخ مرة أخرى لكي أنظر إلى الساعة فوجدت أنها قد بلغت التاسعة والنصف. عند ذلك، قلقت قلقًا حقيقيًا لأنه لا يتأخَّر أبدًا حتى هذه الساعة، حتى عندما يكون في حالة سكرٍ شديدٍ... في هذا الوقت، يكون قد عاد إلى البيت. أعنِي... عندما يسكر، يصير غير نافع لشيء، فيستلقي حيث يكون ويغرق في النوم، لكنه يبرد فينهض ويعود إلى البيت. لكن، لا... كنت جالسة هناك أتابع التلفزيون من غير انتباه إلى ما أراه لأنني أفكر فيه من غير انقطاع، فما الذي يمكن أن يكون قد أصابه؟ لم يعد شابًا، ولا بد أن يكون لديه عقل أكثر من أن يفعل هذا... كنت أقول ذلك لنفسي... لكي لا يتجول في الشوارع في هذه الساعة من الليل، فهناك أعداد كبيرة من المخرِّبين ذوي البشرة الداكنة ممن يقومون بأعمال

الشغب. كنت أعرف جيدًا ما سيحدث، كنت أعرف أن الأمور ستتَّخذ هذا المجرى. قلت إنها ستكون هكذا، ولا بد أن الأستاذ يتذكَّر ما قلته عندما اهتز خزان المياه. لكن، لا...». تابعت السيدة هارر كلامها وهي تعصر منديلها بين يديها... «صارت الساعة الحادية عشرة، ولا أزال منتظرة أمام جهاز التلفزيون؛ جاء النشيد الوطني، ثم انتهى، ثم بدأ الجهاز يصدر صوت الهسيس بعد انتهاء البث؛ إلا أنه لم يعد بعد. حسنًا... عند ذلك الوقت، صرت غير قادرة على احتمال المزيد، فذهبت وقرعت باب الجيران لأعرف إن كانت لديهم أية فكرة عما يحدث. قرعت الجرس، ودققت الباب، ونقرت على النافذة، لكن... كأنهم لم يسمعوني! لم تبدر عنهم أية حركة على الرغم من كونهم في البيت، أعني، أين يمكن أن يكونوا في هذا الطقس الذي يجعل أنفك يتجمّد ويصير حجرًا في هذا الصقيع الشديد. بدأت أناديهم بصوتٍ مرتفعٍ حقًا حتى أجعلهم يعرفون أنني واقفة ببابهم فيسمحون لي بالدخول. فتحوا لي الباب آخر الأمر، لكنِّي سألتهم فوجدت أنهم لا يعرفون عن زوجي شيئًا. ثم سألني جارنا -كأنه تذكَّر ذلك فجأة- إن كنت أعرف ما يجري في المدينة الليلة؟ أجبته: وكيف لي أن أعرف؟ حسنًا، هناك حالة اضطراب شديدة؛ هناك تمرّد حقيقي. إنهم يحطِّمون الأشياء في كل مكان. وأما أنا

فرحت أفكِّر في أن زوجي هناك، في الخارج. صدقني يا أستاذ، يا سيدي، ظننت أنني موشكة على الانهيار حيث كنت واقفة، هناك، أمام الجيران، كنت لا أكاد أقوى على الوقوف ولا أريد الذهاب إلا إلى البيت.
وعندما صرت في المطبخ كان علي أن أجلس فورًا على الكرسي. سقطت على الكرسي كأنني كيس، ووضعت رأسي بين يدي، وأحسست بأنني موشكةٌ على الانفجار. فكَّرت في أشياء كثيرة مختلفة من الأفضل ألا أقول لك عنها شيئًا؛ وكان آخر ما فكرت فيه هو أنه يمكن أن يكون قد عاد إلى البيت واختبأ في غرفة الغسيل حيث يعيش فالوسكا، فهذا ما فعله مرات كثيرة من قبل عندما التجأ إليها مختبئًا إلى أن يصحو قليلًا من سكره. كان فالوسكا يعتني به. لكن زوجي ما كان ليفعل ذلك أبدًا، وما كان ليذهب إلى هناك، لو عرف نتيجة ذلك... فهو رجلٌ شريفٌ في حقيقة الأمر، حتى إن كان يشرب ويتهرّب من واجباته البيتية... لا أستطيع إنكار هذا. ألقيت نظرة في تلك الغرفة، فتحت الباب فلم أجد هناك أحدًا. عدت إلى البيت، لكني أحسست بتعبٍ شديدٍ فقد عملت طيلة النهار، فضلًا عن القلق الذي كنت فيه.
ظننت أنني سأفقد
وعيي لشدة الإنهاك، ففكَّرت قليلًا، ثم قرَّرت أن أشغل نفسي بتحضير قليل من القهوة، فقد تجعلني أنتعش

بعض الشيء. الأستاذ يعرفني بعد هذه السنين كلِّها. لم أكن قط أتكاسل عند قيامي بأي عمل، لكن، صدقني، تعرف السماء أنني أمضيت نحو نصف ساعة حتى استطعت وضع تلك القهوة الملعونة على الموقد الغازي، ولم تعد لدي قوة كافية لنزع غطاء علبة البن. لم تعد ذراعاي تقويان على شيء أبدًا، وفوق هذا، كانت حركاتي خرقاء لأنني فقدت أي قدرة على التركيز، وظللت أنسى ما علي أن أفعله. لكنّي أفلحت أخيرًا في وضع الغلاية على الموقد وإشعال النار من تحتها. شربت القهوة، وغسلت الفنجان، وألقيت على الساعة نظرة أخرى، فرأيت أنها قد بلغت منتصف الليل، فقرَّرت أن أفعل شيئًا، لأن فعل أي شيء يظلّ أفضل من الجلوس في المطبخ والانتظار... الانتظار طيلة الوقت وهو لا يأتي... أنا واثقة من أن الأستاذ يعرف كيف يكون شعور المرء وهو ينظر إلى عقارب الساعة وهي تدور -هذا ما يحدث لي كثيرًا- فبقدر ما أستطيع تذكّره، لم أفعل الكثير غير ذلك منذ أربعين عامًا، تقريبًا، لم أفعل شيئًا غير العمل والنظر إلى الساعة والتساؤل إن كان سيأتي. الربُّ وحده يعرف ما فعلته حتى أستحق زوجًا كهذا الزوج، ويعرف أنني كنت قادرة على أن أحظى بمن هو أفضل منه. على أية حال، لم ألبث أن حزمت أمري، وارتديت بعض الملابس -هذه الملابس

التي تراني فيها الآن- لكني لم أسر إلا بعض خطوات قبل أن أرى، في مكان قريب مني، نحو خمسين شخصًا واقفين عند أقرب زاوية.

لم أكن في حاجة إلى من يخبرني شيئًا عن أولئك الناس، لأنني عرفت ذلك فور سماعي أصوات التحطيم المرتفعة، فلم ألتفت يمينًا أو يسارًا، بل عدت أدراجي على الفور، فدخلت البيت وأغلقت الباب من خلفي. قلت لنفسي إن عليَّ أن أطفئ الأنوار؛ صدِّقني عندما أقول لك إنني جلست هناك، في الظلمة الدامسة وقلبي يكاد ينفجر لسماع أصوات التحطيم تقترب مني أكثر فأكثر، ثم إنني لم أكن لأخطئ فهم الأصوات التي أسمعها. لا يمكنك تخيُّل ما مررت به في تلك اللحظة، يا سيدي، فقد كنت جالسة هناك، وكادت أنفاسي تتوقَّف...»، انفجرت السيدة هارر باكية من جديد،... «كنت وحيدة هناك من غير أحد يساعدني، جالسة في ذلك البيت الخالي؛
صرت غير قادرة حتى على الذهاب إلى الجيران، وكان علي أن أظلَّ جالسة وأن أنتظر لكي أرى ما سوف يحدث. كان الظلام هناك، وكان الموت هناك، لكني أغمضت عينيَّ أيضًا حتى لا أرى شيئًا، لأن سماع ما يحدث كان كافيًا، فقد حطموا نافذتَي الغرفة العلوية في بيتي، وسمعت تشظي الزجاج في الأسفل، أربعة ألواح

زجاجية كانت هناك، فقد وضعنا زجاجًا مزدوجًا للنافذتين اللتين في الأعلى، لكني لم أفكِّر آنذاك أنني عملت أسبوعًا كاملًا حتى استطعنا دفع ثمن ذلك الزجاج. بقيت جالسة هناك أتضرع إلى الرب طالبة منه أن يجعلهم يكتفون بذلك لأني كنت خائفة من دخولهم الفناء، فمن عساه يدري ما الذي يمكن أن يفكروا فيه بعد ذلك؛ ولعله كان ممكنًا أن يدمروا البيت كلّه إن أحبوا تدميره. لكن الربَّ سمع دعائي فانصرفوا، وبقيت هناك مع النافذتين المحطمتين، جلست أصغي إلى ضربات قلبي الصاخبة بينما كانوا يحطّمون نوافذ الجيران في ذلك الوقت. لكني لم أجرؤ على إشعال الضوء -فليكن الربُّ في عوني- ولم أتحرَّك ساعة كاملة بعد ذلك؛ ثم تحسَّست طريقي وذهبت إلى الغرفة فاستلقيت على السرير مثلما أنا، في ملابسي كلِّها، وبقيت مستلقية كأنني ميتة. كنت أصغي بانتباه، دقيقة بعد دقيقة، تحسُّبًا لعودتهم من أجل تحطيم النافذتين الباقيتين في الأسفل. ليست لدي كلمات كافية، وليس لدي الوقت، لكي أخبرك عن كلِّ شيء مما جال في ذهني... نهاية العالم، أبواب الجحيم وقد انفتحت، وذلك الكلام الفارغ كلّه، يعرف الأستاذ أكثر مني -كثيرًا- تلك الأشياء التي فكَّرت فيها؛ بقيت مستلقية هناك كأنني قطعة خشب، بقيت ساعات لا نهاية لها، لكني لم أغمض عينيَّ على الرغم من أن

النوم كان أفضل ما أستطيع فعله في ذلك الوقت، حتى لا تأتيني تلك الأفكار السخيفة وتدور في رأسي؛ ثم عاد زوجي إلى البيت آنذاك، فرأيت عند عودته أخيرًا قبيل الفجر، رأيت أنني لست في حالة مناسبة لكي أبتهج بعودته إليّ، ورأيت أنه لم يكن ثملًا، بل وقف عند السرير صاحيًا كأنه قاضٍ، ثم جلس على غطاء السرير (كما هو، بملابسه كلّها)، جلس بمعطفه وكل شيء، وحاول أن يريح بالي قدر ما يستطيع عندما رآني راقدة هناك من غير روح -كنت ميتة من الناحية العملية- فقلت لنفسي إن عليَّ أن أتماسك، لقد عاد إلى البيت الآن، وكلّ شيء على ما يرام، وسوف نواصل حياتنا على نحو ما. أتى لي بكأس ماء من المطبخ، وعندما شربت الماء بدأت أستجمع شتات ذهني، فأشعلنا الضوء في الغرفة بعد أن منعته من إشعاله قبل ذلك؛ لكن زوجي قال إن الوقت قد حان لكي أهدأ، وإن علينا أن نشعل الضوء لأنني لم أطفئ ضوء المطبخ أصلًا، فلماذا أسبِّب الصداع لنفسي بالتفكير في نافذتين محطَّمتين، سوف يدفع مجلس المدينة ثمنهما. لقد رآهما عندما عاد إلى البيت -رآهما، بالطبع- رأى شظايا الزجاج متناثرة في المدخل، أما أنا فلم أجرؤ على النظر إليها. لكنه قال لي بعد أن خرج فجمع شظايا الزجاج وعاد بها إلى المطبخ إن المجلس سيتعامل مع الأمر وسيدفع لنا

تعويضًا لأنه صار الآن صاحب نفوذ هناك. وبحلول ذلك الوقت، كنت قد استعدت قواي إلى درجة سمحت لي بالجلوس في السرير وسؤاله عمَّا حدث، وأين كان طيلة الليل... ثم، ألم تبقَ فيه ذرة إنسانية واحدة؟ مضيت أهاجمه لأنه تركني وحيدة في هذا البيت الخالي، بينما كان هو هناك، يتسكَّع في الخارج؛ قلت هذا على الرغم من أن ما كنت أريد قوله حقًّا هو أن أشكر السماء، أن أشكرها على عودته إليَّ... أشكرها على أعجوبة أن أيّ أذى لم يصبه، لكنك تعرف كيف يكون الأمر، يا أستاذ... الخوف، وأولئك المشاغبون من ذوي البشرة الداكنة، فضلًا عن الزجاج المزدوج في تلك النافذتين، الزجاج الذي خسرناه. لكن زوجي ظل جالسًا يستمع إلي، وظلَّ ينظر إلي بتلك الطريقة الغريبة. فسألته -بحق الربِّ- ماذا حدث؟ ما الذي يجري؟ كنت موشكة على إخباره بأمر النافذتين في الطابق العلوي، لكن زوجي قال لي إن ما حدث قد حدث، ثم رفع إصبعه وقال إن عليَّ أن أغيِّر نظرتي إليه من الآن فصاعدًا لأنه صار في مجلس المدينة -أو ذلك الشيء الذي لا أعرف الاسم الذي يطلقونه عليه- وفوق هذا، قال لي إنه سيحصل على وسام أيضًا! حسنًا، يا سيدي الأستاذ، لعلك حزرت أنني لم أستطع فهم كلمة واحدة من هذا كله، بل كنت أنظر إليه فحسب، وكان رأسه مطرقًا، ثم

قال لي إنهم أمضوا الليل كلَّه في المناقشات... لا، قال إنهم لم يكونوا في الحانة، بل في مقرِّ مجلس المدينة لأنه مشارك في شيء خاصّ، في شيء ما، في نوع من لجنة أنقذت المدينة من المخربين. أجبته بأن هذا كله حسن جدًا، لكنك كنت مجتمعًا معهم وكنت أنا معرضة لأخطار كثيرة لأنني جالسة وحدي في هذا البيت الفارغ، بل إنني لم أستطع حتى إشعال الضوء. لكنه أجابني قائلًا إن علي الكف عن هذا الكلام الفارغ: بقيت مستيقظًا طيلة الليل من أجلك ومن أجل سلامة الجميع! ثم سألني إن كان لدي شيء يشربه، لكني كنت في ذلك الوقت سعيدة بعودته إلى البيت من جديد، وبأنه كان بخير، وبأنه كان جالسًا على السرير إلى جانبي، فقلت له أين يستطيع العثور على شرابٍ، فذهب إلى غرفة المؤونة وأحضر زجاجة البراندي من خلف مرطبانات المربيات، من حيث خبأتها... يحزنني القول إنني مضطرة إلى إخفائها عنه. سألته عن أولئك الناس، الناس الذين في الشارع، فأجاب زوجي: إنهم قوى شريرة، لكننا أوقفناهم على أية حال. إنهم يحاصرونهم ويلقون القبض عليهم الآن... هكذا قال... لأن الجيش قد وصل وعاد النظام من جديد. شرب من الزجاجة جرعة كبيرة وقال: جنود في كل مكان، هل تتخيلين هذا؟ بل إن معهم دبابة أيضًا. وها هي متوقِّفة في درب

فرايرز، أمام الكنيسة. تركته يأخذ جرعة أخرى، ثم قلت كفى! وضعت الزجاجة على السرير، إلى جانبي. سألته، كيف وصل الجيش إلى هنا، فأنا لم أستطع تصور وجود دبابة في المدينة. قال لي إن السبب هو السيرك، فالسيرك مسؤول عما حدث كلّه. لو لم يأت السيرك، لما تجرّأ أولئك على مهاجمة المدينة؛ لكنهم هاجموها -هكذا قال زوجي- فرأيت جلدَه يتحبحب، مثلي، ورأيت ملامح وجهه تتغير... لقد هاجموا المدينة ونهبوا وأحرقوا بعض المباني؛ قال لي: تخيَّلي المسكينة يوتكا زابو وصديقتها التي تعمل في بدّالة الهاتف... لقد كانتا ضحيتين، لا بد أن الأستاذ يتذكَّر يوتكا زابو»،... امتلأت عينا السيدة هارر دموعًا،... «كانتا ضحيتين أيضًا. لكنْ، هناك أشخاصٌ ماتوا، هكذا قال زوجي؛ ومن جديد، لم أعرف إن كنت أنا نفسي حية أم ميتة، فبمعزل عن مكتب البريد، كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن احتلال الجنود لمبانٍ عامة؛ قال إنهم احتلّوا المحطَّة أيضًا، ووجدوا فيها امرأةً، تخيلي هذا، ونعم... وجدوا طفلًا أيضًا، لكني لم أعد قادرة على الإصغاء إلى المزيد من هذا، فسألته كيف كنت تدافع عنا مع تلك اللجنة على الرغم من حدوث هذه الأشياء؟ فأجابني على هذا بأنه لولا وجود تلك اللجنة، وخاصَّة زوجة الأستاذ التي -هذا ما قاله زوجي، على الأقل-

كانت في شجاعة الأُسُود عندما ساهمت في ذلك الصراع، أعني لو لم تكن هناك، ولو لم تنجح في إقناع اثنين من الشرطة بمحاولة الخروج من المدينة بالسيارة، لما كان الجيش قد أتى؛ وعند ذلك كان يمكن أن تكون الخسائر أكبر كثيرًا من نافذتين مكسورتين -قلت له إنها أربعة ألواح زجاجية- بل حتى عدد أكبر من القتلى والجرحى. وهذا لأن الشرطة -كانت لدى زوجي مرارة حقيقية إزاء هذا الأمر- لم تكن موجودة، فقد ذابت واختفت، هكذا عبَّر عن الأمر، ذابت واختفت ولم يكن العثور عليها ممكنًا باستثناء أولئك الشرطيَّيْن اللذين ذهبا بالسيارة إلى عاصمة المقاطعة؛ وقد كان هناك سببٌ واحدٌ جعل عناصر الشرطة يفقدون رؤوسهم، من غير مبالغة، لقد فقدوا رؤوسهم، شدَّد زوجي على هذا التعبير وهو ينظر إليَّ نظرة محمَّلة بالمعاني. لقد كان مدير الشرطة -وهنا، نطقها 'مدييير الشرطة'- الذي يكرهه كرهًا شديدًا، لست أعرف السبب، الذي جعله يكرهه منذ سنتين أو ثلاث سنين، يكرهه كثيرًا إلى درجة تجعلني لا أكاد أعرف وجه زوجي عندما يرد اسم مدير الشرطة عرَضًا في أي حديث، يظهر ذلك الكره على وجهه، لن تصدق هذا لأن أكثر الناس يقولون إنه على علاقة حسنة معه، إلا أنني لا أعرف حقيقة ذلك، ولا أعرف إلا أنه مصرٌّ دائمًا على إنكار حسن العلاقة بينهما.

بكلمات أخرى، يقول زوجي إن مدير الشرطة، أو ‘رأس الفرقة’ بحسب تعبيره، ليس في حقيقة الأمر - هكذا يوضح زوجي- إلا ذلك الرأس الذي فقدته الشرطة؛ وقد احمرَّ وجهه كثيرًا عند هذه النقطة، وكنت تستطيع أن ترى تمامًا مقدار شدّة كرهه له. قال زوجي إن مدير الشرطة كان ثملًا، بل كان ثملًا إلى حد جعله ينام طيلة النهار -تخيَّل هذا- ينام طيلة النهار. مع أنهم كانوا يوقظونه من حين لآخر، لكن من غير جدوى لأنه لم يكن صالحًا لأي شيء؛ وبعدها، في وقت ما قُبيل الفجر، خرج من اجتماع اللجنة، فظنَّ الجميع -بمن فيهم زوجة الأستاذ، كما هو واضح- أنه ذاهب لفعل شيء ما. لكن لا، أقرَّ الشرطيان اللذان جلبا الجيش معهما بأنهما شاهدا مديرهما فاقد الوعي لكثرة الشراب، ولا بد أنه استطاع الحصول على مزيد من الشراب لأنه، في ما يتعلَّق بالمصلحة العامَّة -هكذا عبَّر زوجي عن الأمر- لا يبالي بشيء أبدًا. وبالطبع، فهو نفسه يشرب أيضًا -هكذا قال زوجي- لكنه لا يمكن أن يفعل شيئًا كهذا إن كان الأمر متعلِّقًا بالمصلحة العامة، لأن لديه من الانضباط الذاتي قدرًا كافيًا لإدراك الأمر؛ وأما مدير الشرطة - لفظها ‘مدييير’ من جديد- فلا، إنه يسكر من جديد، هذا إن لم نقل شيئًا عن حقيقة أن أحدًا لا يعرف أين يمكن العثور عليه، ولم يكن لديهم غير الشرطيَّيْن اللذين قالا

إنهما وجداه في الطريق، فبدا لهما أنه ذاهب إلى بيته. وأنا... كنت مستلقية في السرير أصغي إلى تلك الأشياء المخيفة كلّها، لكن أسوأ الأشياء لم يأت بعد. كل ما سبَّبوه من دمار، وكل القمامة المرمية في كل مكان - هكذا قال زوجي- لا يعرف أحد عدد المصابين والمقتولين، بل لا يعرف أحدًا أين ذهب الناس. هزَّ زوجي رأسه وقد ضاق ذرعًا بهذا كلِّه، لأن... على سبيل المثال، عندما وصل الجيش وتوقَّفت الدبابة أمام الكنيسة، وغامر الناس بالخروج إلى الشوارع من جديد، عندها، هنا تمامًا، في الشارع الرئيسي، يا سيدي الأستاذ، تمامًا أمام محل القصَّاب نادابان، كان زوجي عائدًا إلى البيت حتى يطمئنني، فالتقى السيدة فيراغ التي بدت في حالة مزرية تمامًا. قالت له السيدة فيراغ إنها تبحث عن جارتها بعد أن أمضت الليلة كلِّها جالسة عند نافذتها تراقب تلك الحوادث المخيفة وطلبت من جارتها أن تعبر الشارع آتية إليها، فقد كانت شديدة الخوف من بقائها وحيدة؛ وهكذا جلستا معًا عند النافذة، لكن، مثلما قالت السيدة فيراغ، كان من الأفضل لهما لو أنهما لم تجلسا هناك، لأن الساعة تجاوزت منتصف الليل عندما أتت عصبة أخرى من أولئك المخرِّبين متقدِّمة في الشارع الرئيسي. كانوا يلوِّحون بالعصي وبأشياء لا يعرفها إلا الربّ، ويضربون حتى الموت القطط الشاردة

التي يصادفونها في طريقهم، هذا ما قالته السيدة فيراغ لزوجي. والظاهر أنهما شاهدتا فجأة ابن جارة السيدة فيراغ -تعمد زوجي ألا يذكر اسمه- لكنِّي لم أشك في أي شيء، تمامًا مثلما أراد زوجي، لأنه لم يكن يريد أن يجعلني أشكَّ في أي شيء؛ كان هذا كل ما قاله، ثم انحنى ومد يده عبر السرير في اتجاه زجاجة البراندي، لكنِّي قلت له لا تمس تلك الزجاجة الآن وسألته إن كان واثقًا من أن تلك كانت السيدة فيراغ نفسها. أجابني، أجل، إنها السيدة فيراغ. راح عقلي يفكِّر محمومًا، لكني لم أشكْ في شيء، ولم يخطر في ذهني شيء؛ تابع زوجي القول إنهما كانتا تنظران من النافذة لأنهما شاهدتا ابن جارة السيدة فيراغ، شاهدتاه وسط المخربين؛ قال لي، أنت لن تصدقي هذا، لا تحاولي أن تحزري، فلن تحزري، لقد آوينا ثعبانًا في حضننا! كنت أحدِّق فيه، وكنت لا أزال غير قادرة على فهم ما قاله، فمن ذاك الذي يعنيه؟ وهكذا سألته فقال لي إن السيدة فيراغ أخبرته بأن المرأة أصيبت بصدمة كبيرة لأنها لم ترَ شيئًا مثل هذا من قبل، فبدأت تصرخ وتقول إنها اكتفت تمامًا، اكتفت من ابنها، ولم تعد مهتمّة بأمره لأنه لم يفعل غير جلب العار لها ولا شيء غير ذلك. لم تعد قادرةً على الاحتمال فارتدت معطفها، كما قالت السيدة فيراغ، فلم تستطع أن تقول لها شيئًا...»، (انتبهت

السيدة هارر إلى تعبير الصدمة الذي ظهر على وجه إيزتر)... «انطلقت المرأة. كانت تصرخ وقد فقدت صوابها، كانت تصرخ قائلة إنها ستجرّه من شعره، إن احتاجت إلى فعل ذلك، وكانت السيدة فيراغ مذعورة فعلًا -هكذا قال زوجي- كانت مذعورة عندما وقفا معًا أمام محل نادابان، قالت له إن المرأة لحقت بهم، ذهبت خلفهم، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وهي لم تعد بعد، وتعلم السماء وحدها كم يبلغ عدد الأشخاص الآخرين الذين ذهبوا بهذه الطريقة... قال زوجي هذا وهو يتنهَّد. وبعد ذلك، ترك السيدة فيراغ وسار في الشارع الرئيسي مسافة... قال إن الفوضى كانت تعم شارع يوكاي -قال هذا وهو يجلس فوق كومة الملابس على السرير- كانت الفوضى تعمّ شارع يوكاي الذي انعطف إليه فصادف الجنود -قال لي إنه كان أمرًا طبيعيًا ألا يهتموا حتى بالنظر إلى أوراقه لأنه واحد من الناس الذين دعوا قوات النظام إلى المدينة- وقد جعلوه يرى قائمة فيها أوصاف لأشخاص وأسماء أشخاص رسمت حولها دوائر، ففي ذلك الوقت كانوا قد استجوبوا الشهود في مقرِّ مجلس المدينة، أشخاص كانوا شهودًا على ما جرى في الليل. شرح لي زوجي أن الجنود قد انقسموا إلى فرقٍ من أجل حفظ الأمن والبحث عن مثيري المتاعب؛ إلا أن القائمة التي جعلوه يراها في

شارع يوكاي -هكذا قال زوجي لم يكن فيها إلا اسم أو اسمان، أما البقية فكانت أوصافًا لأشخاص ليس من بينهم أحد من سكان المدينة... كانوا غرباء... مخرّبين. وأما هو فكان ينظر إلى القائمة ولا يريد تصديق الدليل الذي تراه عيناه، مثلما لم يرد تصديق ما قالته السيدة فيراغ. وعندما سأله الجنود إن كان يعرف أحدًا ممن وردت أوصافهم في القائمة، كان خائفًا جدًّا إلى حد جعله ينكر أنه عرف أحدًا، فقال لهم إنه لم يعرف أي شخص. وأنا بدوري كنت مستلقية على السرير فسمعت اسمه ولم أرد تصديق ما سمعته أذناي. أظن جنونًا قد أصابه، لكنه قال لي عند ذلك إننا لا نستطيع أن نضيِّع وقتًا لأنهم ذهبوا باحثين عنه، ويقول إن السبب الذي جعله يأتي إلى البيت هو أن يريح ذهني، لكن عليَّ الآن أن أرتدي ملابسي وأن أذهب، بأقصى ما أستطيع من سرعة إلى بيت الأستاذ لأن كليهما، هو والأستاذ، مدينان له بالشيء الكثير؛ لكنّي بقيت أنظر إليه متسائلة عما قد اعتزم فعله. أقول في نفسي إنني كنت أعرف ما سيحدث، كنت أعرف

ما سينتج عنه، قلت لهم ذلك عندما جاءنا أول مرة، قلت إن علينا ألا نأخذه عندنا لأن إيواء شخص مخبول لا يأتي إلا بالمتاعب، لكن زوجي -بالطبع- ما كان مصغيًا إلى كلامي؛ فما معنى -هكذا فكَّرت وقتها- إيواء معتوه

المدينة مقابل ذلك القدر البسيط من المال -اعذرني- لست ذاهبة إلى أي مكان، ولن أخطو خطوة واحدة، هكذا قلت له، لكني أنهض من السرير في الوقت نفسه وأرتدي معطفي كأنني صرت معتوهة، أنا أيضًا. وبعدها خرجنا من البيت وسرنا على الزجاج المتكسِّر في المدخل، وقال زوجي إنه ذاهب للبحث عنه، لكن عليه أيضًا أن يذهب إلى مقر مجلس المدينة من غير تأخير، لأن زوجة الأستاذ جعلته يعدهم بأن يكون هناك عند الساعة السابعة، كحد أقصى، أوه، إنني أرى، أعرف أنني سأكون وحدي من جديد عند الساعة السابعة، سأكون وحدي من غير أحد، لكنه يعترض على كلامي، ويقول إن الأمور يجب أن تكون هكذا، فبعد أن تمكَّن من البروز، ومن أن يصير شخصًا متميزًا، صار عليه أن يحافظ على وعوده، ثم إنه صار الآن صاحب نفوذ، وقد جعلوه يقسم على أن يكون هناك عند الساعة السابعة. رحت أرجوه وأتوسل إليه، وبلغنا في ذلك الوقت تقاطع الشارع الرئيسي مع شارع يوكاي، لكني كنت كأنني أكلم الجدار، وقال لي إنه سيمضي حتى المحطة ثم يعود أدراجه، وإن عليَّ أن أذهب إلى بيت الأستاذ لأرى أن كنت أستطيع أن أفعل شيئًا من أجله، وما كانت هناك فائدة من القول لنفسي إن هذا غير حسنٍ أبدًا، وإن علينا ألا نسير أية خطوة بعد ذلك، فقد كنت

حائرة مرتبكة وأتيت إلى هنا، على أية حال، سرت من غير أن أنظر يمينًا ولا يسارًا كأن العمى قد أصابني، ونسيت حتى أن ألقي التحية عند الباب، وهكذا فأنا لا أعرف ما يظنه الأستاذ بي. أعني، هل يقتحم الإنسان بيت أحد ما في أول الفجر ويستكثر إلقاء التحية عليه؟ لكني لم ألق التحية! لكن، ما الذي أستطيع فعله، يا أستاذ، يصاب عقل الإنسان بالشلل عندما يتهاوى كل شيء من حوله، فما ظنك في وجود الجيش هنا...»، خفضت السيدة هارر صوتها،... «وتلك الدبابة أيضًا...؟». ظلَّ إيزتر جالسًا على حافة سريره من غير أيّة حركة، فأحسَّت أن نظراته تمر من خلالها، كان مثل عمود من الملح؛ هكذا بدا لها عندما أنهت كلامها -هذا ما قالته لهارر عندما عادت إلى البيت قرابة وقت الظهر- وبعدها، لم تستطع أن ترى شيئًا غير أن ربِّ عملها قفز عن سريره قفزًا، ثم اندفع إلى الخزانة، حيث انتزع معطفه عن المشجب الذي فيها، وكان كأنه مسؤولًا عن كل شيء؛ ألقى في اتجاهها نظرة سريعة هاربة معذَّبة، ثم اندفع خارجًا من البيت من غير أن يقول كلمة واحدة. وأما من ناحيتها، فقد ظلَّت جالسة على ذلك الكرسي، ترفرف عيناها ذعرًا، وعندما سمعت صوت إغلاق البوابة المرتفع الغاضب من خلفه، ارتعشت كلها وانفجرت باكية من جديد. ثم فردت

منديلها وتمخطَّت فيها ونظرت من حولها في غرفة المعيشة. عندها فقط لاحظت الألواح الخشبية التي وضعها على النوافذ، نهضت واقفة بحركة بطيئة، ثم، ولأنها لم تستطع فهم ما تفعله تلك الألواح الخشبية هناك، سارت إلى النوافذ، وحدقت في تلك الألواح متعجِّبة وقد ارتسمت الدهشة على وجهها وانسحب منه لونه. مرَّت بيدها على واحد من تلك الألواح، وبعد أن أقنعت نفسها بأنه لوح خشب حقيقي، مست بقية الألواح كلها بيدها، وأدارت ظهرها كما يفعل خبير في هذا المجال، إلى ألواح الزجاج الأربعة، ثم اختتمت ذلك كله بأن تنهَّدت تنهدًا مرًا وغمغمت قائلة، «كان ينبغي دقَّ هذه المسامير من الخارج إلى الداخل، لا من الداخل إلى الخارج!». عادت إلى المدفأة فنظرت إلى النار ورمت فيها بضع قطع إضافية من الحطب، ثم هزَّت رأسها وأشاحت بوجهها عن الضوء المنبعث عن النار، وألقت نظرة أخيرة على غرفة المعيشة شبه المظلمة، ثم كرَّرت، «ليس من الداخل، بل من الخارج».

لم يكن الأمر مقتصرًا على الخروج من هذه البقعة المخرَّبة التي كان من الواضح أنها اجتذبت انتباههم نتيجة عدم وجود مظلات واقية عند اللافتة غير المألوفة، «اختصاصي تقويم الأقدام»، بل عودة إلى

«الأعماق القصيّة للجحيم الذي ظهرتم منه»،... هكذا قال لهم الرجل الواقف في الزاوية وقد جمدت نظرة عينيه أمامه على الرغم من استمرار فمه المتورِّم من الضرب في تكرار هذه الكلمات، «انقلعوا»، و«اخرجوا من هنا»، و«اذهبوا»؛ وأما هم -كأن هذه الكلمات الحانقة، تحديدًا، كانت إشارة إلى قرب النهاية- فلم يولوا صانع الأحذية الطِّبِّية المتسمِّر في مكانه أدنى قدر من الاهتمام، بل توقَّفوا هناك في ورشته المدمِّرة بذلك الإحساس، بالضبط، الإحساس غير المعبّر عنه بالكلام، إحساسهم بالوحدة الذي شقّوا به طريقهم بالقوة، فتوقّفوا الآن عما كانوا منهمكين فيه، وتركوا الخزائن المقلوبة الممتلئة قطعًا جلدية، واجتازوا الأرضية التي تناثرت فيها أحذية وأخفاف وجزمات طبيّة غارقة في البول، فصاروا -كل واحد منهم- في الشارع من جديد. وعلى الرغم من أن وضعهم لم يكن يسمح لهم برؤية الأمر، فقد جعلتهم ذكرى تفرّقهم الجماعي يحسون أن الآخرين -الموزِّعين ضمن مجموعات يقارب حجم الواحدة منها حجم مجموعتهم- كانوا هناك جميعًا، في الظُّلمة الحالكة، من غير أن ينقص منهم أحد... بل كانت تلك المعرفة هي ما أعدَّهم -غريزيًا- للفعل المستقلِّ الذي حكم تقدُّمهم في مسيرة التخريب تلك، وذلك لأن حنقهم التراكمي لم يكن يملي عليهم أهدافًا أو اتجاهات بعينها، بل كان كل

فعل آثم يرتكبونه يجعلهم يحسّون بأن عليهم أن يتجاوزوه بفعل أكبر منه. والآن، بعد أن انتهوا من صانع الأحذية الطبية، وبعد أن ظلَّت شهيتهم إلى مواصلة أفعالهم على حالها، انطلقوا خارجين للعثور على الهدف الملائم التالي (من غير أن يشكّوا بعد في أنه سيكون آخر أهدافهم)، فساروا في الشارع الذي تحفّ به أشجار الكستناء في مركز المدينة. كانت النار لا تزال مشتعلة في السينما، وشوهدت في الضوء القرمزي لألسنة اللهب التي كانت تعلو من حين لآخر ثلاث مجموعات على الرصيف، مجموعات من أشخاص واقفين كالتماثيل ينظرون إلى النار نظرة تقزّز؛ لكن، وكما سيحدث لاحقًا في الساحة عندما يلتقي رفاقهم حشدًا أكبر عددًا عند الكنيسة التي تشتعل فيها النار الآن، فسوف تسمح لهم ملاقاتهم بمتابعة تقدُّمهم عبر ما بقي من رحلتهم المفزعة التي لم تكتمل بعد، وسيكون ذلك ضمانًا لتناغم مسيرتهم البطيئة مع إيقاع السير الأكثر سرعة، الذي كان سائدًا طيلة المسافة من السينما إلى مدخل الساحة، ومن هناك إلى الصمت المهجور في شارع سان ستيفان الواقع خلف دار العبادة. لم تكن تسمع بينهم الآن أيّة كلمة... وحده التماع نار عود ثقاب، مع وهج سيجارة يَظهر بعده كأنه استجابة له، وعينا كلّ واحد منهم متعلِّقتين بظهر الرجل الذي

أمامه أو بالرصيف وهم يتحرَّكون حركة تكاد تكون غير واعية، كلٌّ في أثر الآخر في البرد المتجمِّد؛ ولما كانوا قد تجاوزوا النقطة التي بدأوا منها فخلفوها وراءهم بمسافة كبيرة، ولما كانوا هم أنفسهم مذعورين أيضًا، فراحوا يحطِّمون صفوفًا بأسرها من النوافذ حتى يروا ما خلفها، فقد تركوا أشياء كثيرة من غير أن يمسَّها أحدًا منهم إلى أن بلغوا أقرب زاوية حيث مروا بالبناء الذي لفت انتباههم منذ البداية، ورأوا البوابة الحديدية المطلية بلون أزرق، تلك البوابة المفضية إلى حديقة متجمِّدة غزتها نباتات ضارة، حديقة فيها بنايتان داكنتا اللون. وباستخدامهم قضبان الحديد، كانت بضع ضربات كافية لتحطيم القفل واجتياح الغرفة الصغيرة التي هجرها البواب وفرَّ منها قبل وقت طويل، لكنهم اجتازوا واحدًا من الممرَّات المتاحة أمامهم فوجدوا مهمَّة اقتحام البناء الأول أكثر صعوبة، وذلك لأنهم وجدوا أنفسهم، بعد اجتياز البوابة الخارجية، في مواجهة بابين آخرين لم يكتف شاغلو المكان بإقفالهما -بعد أن سمعوا، من غير شك، الأنباء الآتية من المدينة، وخافوا حدوث ما هو أسوأ، أي إنهم توقَّعوا هجومًا من هذا النوع بالضبط- بل دعموهما أقصى تدعيم ممكن مستخدمين الطاولات والكراسي التي كوَّموها خلف البابين، كأنهم توقَّعوا أن يضطروا إلى فعل كل ما في وسعهم من أجل مقاومة

هذا القوَّة المقتربة منهم؛ على أن نجاحهم في ذلك كان محدودًا لأن المهاجمين تمكَّنوا من اجتياح السلم وصعوده. كانت الممرّات المدفَّأة الممتدة على طول الطابق الأول المرتفع عن الأرض غارقة في ظلام دامس لأن الممرضة الليلية التي سمعت الضجة، وكانت تحاول الهرب في آخر لحظة عن طريق الباب الخلفي مع مساعديها، الذين لا يزالون قادرين على الحركة، قد أطفأت حتى المصابيح الليلية الصغيرة في الأجنحة المختلفة بأمل (أمل غريب)، أن تضمن سلامة ما هو في عهدتها عن طريق إغلاق الأبواب وإطفاء المصابيح، فعلى الرغم من كلِّ ما يشير إلى العكس، لم يكن أحد يرغب حقًّا في تصديق أن الشر الذي انطلق من عقاله في الشوارع يمكن أن يتَّخذ شكل هجوم غادر على المستشفى. لكنّه اتّخذ هذا الشكل فكان الأمر وكأن صمت المرضى هو ما خانهم وفضح أمرهم؛ فبعد تمكُّنِ المهاجمين من فتح الباب الأخير عنوة ومن العثور على مفاتيح الإنارة في الممر، كان المختبئون تحت بطانياتهم في الأجنحة الأولى الواقعة إلى جهة اليمين أول من عُثر عليهم وأُخرجوا من أسرَّتهم؛ لكن الحشد الغوغائي كان قد استنفد أخيرًا ما لديه من أفكار، ولم يعرف أحد ما يفعله بأولئك المرضى الذين راحوا يتلوون على الأرض: أحسَّ المهاجمون بتشنُّج في أذرعهم عندما

أرادوا مسَّهم، ولم تبق في أرجلهم قوة كافية لركلهم، وهكذا، كأنهم أرادوا إظهار أن قوَّتهم التدميرية لم تعد قادرة على تحديد هدف لها، فقد صارت أفعالهم التخريبية أكثر سخافة، وصار عجزهم أكثر وضوحًا. ولأنهم، في آخر المطاف، كانوا يريدون النأي بأنفسهم عمَّا أتوا لفعله، فقد اكتفوا بعبور المكان محطِّمين المصابيح الجدارية في طريقهم، وملقين على الجدار نفسه كل ما طالته أيديهم من أجهزة طبيَّة تطن أو تتكتك أو تلمع، فضلًا عن رمي الأدوية التي وجدوها في الخزائن ونثروها على الأرض، ثم راحوا يدوسون بأقدامهم الزجاجات ومقاييس الحرارة، بل حتى الممتلكات الشخصيّة البريئة، ثم أتبعوا ذلك بتحطيمٍ شاملٍ للخزائن الزجاجية والصور العائلية، بل لم يوفِّروا حتى البقايا الذابلة من فاكهة متروكة في أكياس ورقية. كانوا ينقسمون تارة إلى وحدات أصغر حجمًا، ثم يجتمعون من جديد، ويتقدَّمون على شكلِ موجاتٍ وقد شوَّشتهم مواجهة ضحيّة عزلاء تمامًا، فلم يفهموا أن الخوف الشديد وانعدام المقاومة التام الذي سمح لتلك الضحية بأن تحتمل هذا الهجوم كان يجرِّدهم من القوة على نحو متزايد... لقد واجههم هذا الاستسلام غير المشروط فصاروا راغبين في التراجع، على الرغم من أن هذا ما كان، حتى ذلك الوقت، قد منحهم متعةً كبرى.

وقفوا تحت أضواء مصابيح النيون المرفرفة في الممرِّ عند حدود الصمت نفسها (كان صراخ الممرضات البعيد لا يكاد يُسمع من خلف الأبواب المغلقة)، ثم، وبدلًا من الانقضاض على فريستهم من جديد، حانقين مرتبكين، أو مواصلة اجتياحهم الطوابق العليا، فقد انتظروا انضمام آخر مجموعاتهم إليهم، ثم خرجوا من المبنى مترنِّحين مثل جيش مهلهل فَقَدَ كلَّ انضباط، وشقّوا طريقهم عائدين عبر الحديقة، حتى بلغوا البوابات الحديدية، حيث وقفوا دقائق طويلة متردِّدين في أول إشارة واضحة إلى فقدانهم العزيمة وقوة الاندفاع، حتى وإن لم تعد لديهم أيّة فكرة عن المكان الذي ينبغي الذهاب إليه، أو عن سبب ذهابهم، فقد كان ذلك ناتجًا عن حقيقة أن مهمتهم الجحيمية (مهما يكنْ صعبًا إدراك هذه الحقيقة والإقرار بها)، كمثل مهمة المجموعات المرهقة الأخرى أمام السينما والكنيسة، قد بلغت منتهاها لأنهم -ببساطة- استنفدوا ما لديهم من طاقة قاتلة. وفجأة، صار لمعرفتهم أنهم اندفعوا اندفاعة فجَّة خشنة على كل شيء وفشلوا في مهمتهم، تلك المهمة التي اضطلعوا بها بعد إشارة واحدة لهم من زعيمهم بأن يمسحوا كل شيء، ثقل فادح عليهم؛ وعندما خرجوا من بوابات المستشفى بعد برهة من التأمّل الحائر، كان واضحًا أن إمكانية تنفيذ المشروع كلّه، بما في ذلك أفعالهم التخريبية

التدميرية عديمة الرحمة، قد كانت أمرًا بعيدًا عن العقل، فتشوشوا تمامًا، وفقدت خطواتهم ما كان لها من إيقاع موحَّد صارم، بل إن «روح الجماعة» نفسها تراجعت بينهم على نحو ما.

صارت التشكيلات ذات الانضباط القاتل في حالة مهلهلة تدعو إلى الرثاء، واختفت القوة الرابطة بينهم، قوة الكراهية التي لا ضابط لها، فتركت خلفها نحو عشرين أو ثلاثين فردًا مضعضعين حائرين، نصف عارفين، نصف شاكّين، لكنهم غير عابئين بما سيحدث بعد ذلك لأنهم دخلوا مجالًا خاليًا، خاليًا من غير نهاية، مجالًا لم يصطدهم فحسب، بل كان أيضًا يمنعهم حتى من تكوين أيّة رغبة في الفرار. حطموا ورشة أخرى (كانت اللافتة التي عليها تحمل عبارة «جناح الغسيل» التي فقدت بعض حروفها)، لكن حركاتهم، حتى عندما كانوا يحطِّمون القضبان المعدنية ويكسرون الباب، كانت ناطقة بأنهم قد شرعوا في الانسحاب لا في موجة جديدة من الدمار: كان ذلك كأن كل واحد منهم قد أصابته رصاصة قاتلة فصار نصف متهاوٍ وراح يبحث عن مكان استراحته الأخير حيث يمكنه الوصول إلى نهاية عذابه؛ والواقع أنهم أضاؤوا المصابيح بعد اجتيازهم العتبة، وجالت عيونهم في المكان كله، في ذلك المكان المزدحم بآلات غسل الملابس -بدا لهم المكان أشبه

بمصنعٍ منه بورشة لغسل الملابس- ولم يبقَ في عيونهم شيء من نظراتهم السابقة التي ما كانت فيها رحمة ولا شفقة؛ فبعد أن صاروا سجناء أفعالهم نفسها، وبعد أن صاروا محبوسين في ملتجأهم نفسه، أحسّوا بأنه لم تعد هناك أية أهمية للمكان الذي يكونون فيه، وظلّوا وقتًا طويلًا يصغون -من غير أي تعبير على وجوههم- إلى صرير الباب الذي تركوه متأرجحًا من خلفهم، ولم يبتعدوا عن العتبة إلا عندما مات صوت صفارة الإنذار وتلاشى في واجهة العرض الفارغة المتجمِّدة. واحد منهم، كأنما عاد فجأة إلى وعيه ضمن حالة الغثيان العامّة، أو كأنه أدرك للمرة الأولى خطورة الحالة التي أصابت رفاقه، استدار على عقبيه وقد تقلَّصت شفتاه ازدراء، وقال شيئًا بصوت كالهسيس («... أغبياء!»)، وخرج إلى الشارع بخطوات قويّة صاخبة في محاولة منه لتسجيل احتجاج من نوع ما، وفي تأكيد على حقّه في الاستسلام بشكل فردي، إن طُلب منه الاستسلام؛ وبدأ واحد آخر يضرب آلة من آلات غسل الملابس المصفوفة أمامهم بانتظام دقيق عسكري الرتابة، راح يضربها بقضيب حديد فنجح، بعد أن استهدف أكثر أجزاءها حساسية، في انتزاع محرِّكها من غلافه البلاستيكي المهشَّم، وحطم ذلك الجزء إلى فتات متطاير؛ وأما الآخرون، على الرغم من عدم اكتراثهم

بما فعله الأولان، فلم يمسُّوا شيئًا بل ساروا متردِّدين في واحد من الممرَّات الضيِّقة بين صفوف آلات غسل الملابس، ثم انبطحوا على الأرض المغطَّاة باللينوليوم راغبين في أن تفصل كل واحد منهم مسافة كبيرة عن الآخرين. لكن العثور على المسافات الكافية، أو التفرق ضمن هذه الغابة من آلات غسل الملابس، على نحوٍ يجعل كلًا منهم غير قادر على رؤية الآخرين، كان أمرًا مستحيلًا استحالة تامة (على الرغم من رغبتهم الشديدة فيه)، إلا بالنسبة إلى قلة منهم؛ لكن فالوسكا لم يكن ـ بالتأكيد ـ واحدًا من هذه الأقلية، فقد كان واثقًا (على الرغم من أن هذا ما عاد مهمًا أبدًا) من أن ذلك هو السبب الذي جعل الناس يظلّون قريبين منه، ومن أن هذا هو السبب الذي يجعل، على سبيل المثال، واحدًا منهم ينتصب جالسًا على بعد صفين منه، وينظر أمامه وقد ارتسم على وجهه تعبير استياء شديد وهو منشغل في كتابة شيء في دفتر صغير... ففي آخر المطاف، لا بد أن يسجِّل أحدٌ أن أكثرهم قسوة على الإطلاق، حارسه المخيف، الذي كان قد انصرف لتوه تاركًا خلفه ذكرى جسده الضخم ومعه قبعته ومعطفه الثقيل وحذاءه المرتفع، وتاركًا أيضًا ضحيته التي صارت حرّةً... ذلك الضخم الذي لعله هو نفسه الرجل «الذي أنقذ نفسه».
لكن فالوسكا لم يكن مهتمًّا بما يعتزمون فعله به؛ فسواء

لديه إن قرروا إنهاء أمره في ذلك المكان وفي تلك اللحظة، أو في ما بعد، لأنه لم يبق لديه أيّ خوف ولم يحاول الهرب، وذلك لأن اكتشافه أنه ما من رغبة لديه في الهرب من تلك القوة التي سكنت هذه الليلة القاتلة الشافية كان أمرًا كافيًا لجعل الهرب مستحيلًا؛ كان من الممكن تمامًا أن يهرب من مجموعة بعينها، فقد سنحت فرص كثيرة لفعل ذلك، لكنه ما كان قادرًا على الهرب من العبء الفادح الذي حمله، فما كان هناك مهرب من ذلك بعد الآن، هذا بقدر ما كان ذلك العبء محسوسًا لشخص أصابه العمى التام في اللحظة الحاسمة الصادمة الأولى من ولادته الجديدة التامة. وذلك لأن العجز الفظيع الذي أحسَّه أمام بيت السيد إيزتر عندما أنقذه صديقه الذي تعرف عليه في ساحة السوق (قبل لحظة استثارته في وقت
مضى)، فوضع ذراعه من حوله، وسارا في الشارع الرئيسي محاطين «بوقع الأحذية الثقيلة وحفيف البنطلونات»؛ ثم، بعد نحو مئة يارد في ذلك الشارع، وعند صدور أمر ما، أمر صامت، بدأ هجومهم على البيوت؛ فيا للذعر الذي أحسَّه عندما التقط عزم اندفاعهم اليائس فصار اندفاعًا له، وعندما أراد المضي إلى المقدِّمة فأحسَّ بأن تلك اليد الرفاقية القويّة الممسكة بكتفه، تلك اليد التي كانت تشتدّ قبضتها عليه مرات

كثيرة، كأنها تحذِّره، هي ما كانت تمنعه من الاندفاع. هذا العجز والذعر المحض أمام المعضلة التي واجهها عندما تمنّى، من ناحية أولى، أن يدافع عن الشخص الذي يتعرَّض للضرب، وأراد من ناحية أخرى أن يكون هو الشخص الذي يضربه... عجزٌ وذعرٌ حالا دون أيّة مقاومة أو هرب، ولم يسمحا له بأن يرى في عقود السنين تلك كلّها، ولا في غابة الأوهام بأسرها، أنه هو من ينبغي اعتباره غبيًّا غباء لا يغتفر، أي إنه هو نفسه الشخص الذي كان لا بد أن يقع عليه اختيار هذه الليلة الجحيمية من غير أية رحمة به. لم يعد فالوسكا يعرف أين كانوا ذاهبين، ولم يدرك وعيه إلا تحطيم باب آخر، وللمرة الأولى منذ بدء مسيرتهم، راحوا يكسرون النوافذ كلّها ويحطِّمون المصابيح المنصوبة فوق البوابات، ثم شقُّوا طريقهم إلى داخل واحد من البيوت. وفي وجود مرافقه الناضح شرًّا إلى جانبه، مرافقه الذي كان يدفعه إلى الأمام بسرور واضح، وجد نفسه منقادًا مع جمهرة الغوغاء إلى بناء صغير حيث بدأت الأمور تحدث بحركة بطيئة بطئًا استثنائيًا: حتى الأصوات صارت بطيئة عندما ظهرت أمامهم امرأة عجوز وراحت تصرخ عليهم، فتقدّم منها اثنان ارتسم على وجهيهما المشوَّهين تعبير ناطق بلا مبالاة غير محتملة.

كان لا يزال قادرًا على رؤية قبضة واحد منهم تهوي - مرتاحة- في حين حاولت المرأة التراجع إلى الخلف لكنها لم تستطع أن تتحرَّك إنشًا واحدًا (لا يزال قادرًا على رؤية هذا)، عند هذا، وبجهد فوق بشري كأنَّ كلّ حركة تعادل تحريك ثقلٍ هائلٍ، أشاح بوجهه بعيدًا وثبت عينيه على زاوية الغرفة الصامتة صمت الموت. ما كان في تلك الزاوية شيء غير ظلٍّ متدحرج غامض استقر آخر الأمر عند التقاء الألواحِ الخشبية الحادة، لم يكن شيء من الأثاث المعتاد يغطِّي تلك المنطقة، لا سرير، ولا خزانة، بل مساحة عارية ذات رائحة حامضة، لا يمكن لشيء غير زاوية غرفة أن يبدو خاليًا هكذا، وأن تكون رائحته حامضة هكذا! إلا أن تلك الزاوية كانت في عيني فالوسكا مليئة بالذعر كأنها قد تشرَّبت كل ما حدث، أو كل ما يمكن أن يكون قد حدث: كان ذلك أشبه بالتحديق في عينيّ وحشٍ متأهب للافتراس لم يكن فالوسكا، قبل ذلك، مدركًا وجوده. ما كان قادرًا على تحويل عينيه عن ذلك المكان: فمهما دُفع في أرجاء الغرفة، كانت عيناه معلَّقتين دائمًا بتلك النقطة وما كانتا تريان شيئًا غير تلك الزاوية، بأدقّ تفاصيلها، مع ذلك الظلّ غير المتحرّك فيها، الظلّ الذي كان شديد الشبه بقزمٍ جاثمٍ متولّد من ظلمة ومن أبخرة كثيفة. أعماه ذلك

الظل، واخترق وعيه اختراقًا حارقًا؛ ظل متشبِّثًا بعينيه كأنه قيّدهما بسلسلة قوية؛ في ذلك الوقت، ما عادت هناك أي أهمية لخروجهم من المكان، فقد ظلَّ يجر ذلك الظل خلفه حيثما ذهبوا. كان يتحرَّك معهم حيثما تحركوا، ويتوقف معهم حيثما توقَّفوا. لكنه ظلَّ غير واعٍ شيئًا من ذلك كلّه، ولعله لم يكن مدركًا أي شيء مما فعله أو أي شيء مما فُعل به، ثم ظلّ زمنًا طويلًا مسحوقًا تحت ظل الصمت الذي خيم عليه على الرغم من الصخب الذي كانوا يحدِّثونه أمامه أو من حوله. وعلى امتداد ساعات، ساعات ما يمكن قياسها بالدقائق، ولا بالقرون، ظلّ يجرجر هذه الصورة المخيفة معه أينما ذهب، وكان غافلًا تمامًا عن كل شيء يعانيه؛ وبحلول هذا الوقت، ما عاد قادرًا على معرفة ما كان أكثر قوة، السلاسل التي تربطه أم توقه المعذَّب وهو متعلّق بها. وفي لحظة من اللحظات، بدا له كأن أحدًا رفعه عن الأرض، لكن القوة غير المتناسبة التي استخدمها ذلك الشخص الآخر في هذه العملية جعلته يفقد توازنه: «ما الذي يجعله خفيفًا هكذا؟»، دمدم الشخص الآخر بهذه الكلمات غاضبًا وأنزله من جديد، أو لعله دفعه عنه حانقًا؛ ثم، بعد ذلك بوقت، حسب أنه كان مستلقيًا على الرصيف وأنهم راحوا يسكبون في فمه شرابًا كحوليًّا قويًّا فجعله ذلك ينهض من جديد. ومن

جديد، كانت تلك اليد على كتفه، أو تحت ذراعه، تلك اليد التي يفترض أنها منعته من الفرار، أكثر من مرة، اليد التي كانت الآن ممسكة به إمساكًا محكمًا لم تعد هناك حاجة إلى استمراره، فحتى لو لم تكن لديه أية فكرة عن أنه يمكن أن يستيقظ فيجد نفسه في حالته الراهنة، فإن فداحة ثقل الصورة التي حملها معه والدلالات الفارغة لزاوية تلك الغرفة، كانت مستمرَّة في ممارسة تأثيرها عليه: كان ذلك كل ما يراه حيثما ذهب، أو حيثما دُفع، أو حيثما جُرف؛ وكان كل شيء آخر يمرّ أمام عينيه مرورًا خاطفًا، شخص يجري، نار تضطرم، كان كلّه غارقًا في ضباب رقيق. على أن النسيان كان مستحيلًا، فمهما حاول أن يحرِّر نفسه من هذا فقد كان يتذكَّره من جديد، يتذكّره كلما نسيه، ولم تعد هناك أهمية لمكان وجوده، في هذا المكان أو ذاك، لأنه ظل أسير القوّة المخدرة لجاذبية تلك الصورة. وفجأة، غمره إرهاق قاتل، وبدأت أصابع قدميه نصف المتجمِّدة تؤلمه في حذائه البارد كالصقيع فرغب في الاستلقاء على الرصيف (هل فعل هذا من قبل؟).

لكن الرجل صاحب المعطف الثقيل -لم يتمكّن فالوسكا بعد من رؤيته باعتباره وجودًا موجِّهًا له- دعك ذقنه غير الحليقة وأنّبه تأنيبًا مازحًا. كانت تلك هي الكلمات الأولى التي اخترقت دائرة وعيه، فذكرته السخرية في

صوت الرجل، السخرية التي لم تكن غير مستحقّة تمامًا («ماذا حدث، يا قليل العقل، هل تريد مزيدًا من البراندي؟»)، بمكان وجوده وبهوية أصحابه؛ وكأن تلك الزاوية المخيفة برائحتها الحامضة التي لا تزول قد استحالت إلى خشبة مسرح ذات إضاءة كابوسية، خشبة مسرح تشتمل على تلك الليلة المخيفة كلّها، فقد تمكّن الآن، للمرة الأولى، من رؤية الملامح المشوهة المخيفة لوجه «معلمه». لا، لم يكن يريد براندي -إن كان قادرًا على أن يريد أي شيء- بل أراد النوم! أراد أن يسقط نائمًا وأن يتجمَّد حتى الموت على الرصيف بحيث لا يعود مضطرًا إلى فهم التجربة التي بدأت تكتسب في ذهنه معالمَ أكثر وضوحًا؛ أرادها أن تنتهي كلّها، ولا شيء غير ذلك! ومن حسن الحظّ، كانت طريقة طرح السؤال، ونبرة الصوت، قد تركتاه واثقًا من أن عليه أن ينسى هذه الفكرة سريعًا؛ وعلى افتراض أن السؤال كان -على نحو ما- يريد معرفة رغبته الحقيقة، فقد هز رأسه هزًا عنيفًا ونهض واقفًا، وتحرك إلى الأمام طائعًا فسار إلى جانب رفيقه واعترته ارتعاشة عنيفة عندما أحسَّ بيد رفيقه تستقرّ على كتفه من جديد. راح يقارن وجهه بالزاوية المُعميَة القاتمة التي خلّفها وراءه، فلاحظ أنفه الذي يشبه أنف الحدأة، والشعر الكثيف القصير النابت على ذقنه، وأجفان ورموش عينيه الملتهبة، والجلد

المكشوط تحت وجنته اليسرى، فلم يكن الشيء المعقَّد المخيف أنه وجد نفسه عاجزًا عن سبر غور بئر الخوف التي لا قرار لها في ذلك الوجه، بل التشابه بينه وبين الوجه الذي التقاه يوم أمس في ساحة السوق. كان عليه استيعاب أن الرجل الذي قادته إليه نوبة القلق المفاجئة التي أصابته في ساحة كوسوث بعد مفارقته السيد إيزتر لم يكن -بالتأكيد- هو نفسه الشخص الذي يقوم الآن بدور الموجه له في مهرجان الكراهية هذا، الشخص الذي يتصرف -ربما على نحو عفوي كليًا- كأنه جرّاح يشق حياته من غير رحمة فيفتحها كلها. ما كان هناك شيء يخفي حقيقة أن هذه الملامح المفزعة كانت ملامح الرجل الذي كان هناك في اليوم السابق، وفي اليوم الذي سبقه أيضًا، وهكذا دواليك، وصولًا إلى وجهٍ أصليّ بريء كل البراءة؛ وأن الأثر التراكمي لهذه الوجوه كلّها كان أثرًا باردًا مخيفًا، لكن الوجه ظلَّ يحمل تعبيرًا بشريًا تمامًا، تعبيرًا تتوهَّج فيه ثقة مبهرة بقوته المطلقة الواعدة بأشكال جديدة مبتكرة من القسوة؛ وكان واضحًا أنه هو الذي يوجِّه كل حركة في هذه المسيرة التي لا يستطيع شيء مقاومتها، بما في ذلك المشقَّات والمصاعب التي كان فالوسكا يواجهها وهو يسير متعثرًا عبر المحطات اليائسة لانهياره التام؛ على أن شيئًا في هيئته كان موحيًا بأن الدراما التوجيهية القاسية

التي يبسطها أمام فالوسكا وهو يجرّه من ذراعه كان مقصودًا منها، بطريقة ما، أن تكون نوعًا من علاجٍ شافٍ، نوعًا من علاج مشتمل على قدر بعينه من المعاناة التي لا بد منها (فلا مسرَّة من غير ألم)، وأنه كان مستمتعًا بهذه الحال استمتاعًا واضحًا. نظر فالوسكا إلى الوجه وبدأ يفهم، مع تملِّيه في تفاصيله، أن التعبير «البارد إلى حد مفزع» كان يصير أقل غموضًا وإلغازًا لأن قناع القسوة لم يكن إلا مرآة كاشفة لشيء لعله لم يكن قادرًا على رؤيته (خلال خمسة وثلاثين عامًا من خبله واعتلال عقله)؛ هذا ما فكر فيه فالوسكا، لكنه سرعان ما غيّر كلمة «لعل» فجعلها «لا، بل بكل تأكيد»، وذلك بحيث لا تظل غير محفوظة في ذهنه تلك الحركة الحاسمة عندما أفاق، آخر الأمر، من نومه الذي طال كثيرًا فعثر على هويته التي ضاعت منذ زمن طويل. تكسَّر الصمت البليد، وانطفأ الضوء الذي يعمي الأبصار من خلف آسره، فانطفأ معه ظلّه الذي لا يتحرَّك، وبان له عندما نظر من حوله حيّزٌ صغير، حديقة، حديقة ودرب، ثم بانت له مجموعة بوابات معدنية فلم يعد يشعر بأية دهشة في أن يكون هو وحده، في عماه الذي لا يغتفر، وليس الحشد المجتمع حول المستشفى، هو وحده الكائن الغريب هنا. لم يبق شيء من تلك الدهشة، ولم تكن هناك أدنى ضرورة للهرب،

لأن الخواء الذي ارتعش عبر كيانه في تلك الدقائق القليلة الأولى قد أفناه، هو أيضًا: كانت أجزاء منه تتدحرج بعيدًا، إلى الأبد، في كل اتجاه؛ وكان قد اختفى في التماعة واحدة فصغُر حتى صار لا شيء، فلم يعد الآن مدركًا أي شيء غير طعم الواقع المرِّ الحارِّ في فمه، والألم في ساقَيْه... في ساقه اليسرى خاصة. انقشع الضباب الذي هو ليس من هذا العالم، الضباب الذي خرج منه في جادة وينكهايم وكلاءُ الظلمة البشعين، هذه الكائنات العجيبة ذات القدرة التدميرية التي تحمل جاذبية مغناطيسية؛ والآن، عندما نظر إليهم بعينين جديدتين اكتسبتا وضوح رؤية مفاجئًا، تذكَّرهم عندما كانوا مجتمعين بالمئات، فبدا له واضحًا تمامًا أن لا شيء فيهم (ولا شيء كان فيهم أبدًا) من عالم آخر، ولا شيء غريبًا، وأدرك أنهم -ومعهم زعيمهم «المدمر صاحب الجاذبية المغناطيسية»- قد فقدوا طبيعتهم «الشيطانية». الحقيقة هي أن القشور التي كانت لا تنفكّ تكبر وتزداد قتامة عبر سنين من النظر إلى الأشياء بطريقة خاطئة قد سقطت عن عينيه الآن، سقطت مرة وإلى الأبد، فعرف نفسه بعد أن انقشعت عنه الأوهام، عرف نفسه التي تحرَّرت من الراحة الزائفة التي كان ضعف عقله قد حكم بها عليه (حكمًا يستحقّه) من خلال إخفاء «الطبيعة الحقيقية للواقع» عنه. كان استيقاظه سريعًا،

ممزِّقًا، يشبه كثيرًا تلك الصاعقة في سماء صافية التي يضرب بها المثل: ما عاد موجودًا الرجل الذي كان يظنّ أنه هو؛ وهكذا، عندما غادرت المجموعة التي تبنَّته موقعها عند بوابات المستشفى والبيوت وأعمدة التلغراف بعد فترة طويلة من التردُّد، وعاد كل حجر من حجارة الشارع إلى مكانه القديم، فهم فالوسكا، فهم هذا كشيء واضح بذاته كل الوضوح، أن عقله، «العقل الراغب في إعادة تعبئة نفسه»، ما عاد يندفع مذعورًا إلى مراكمة أي شيء، كيفما اتفق، بل صار الآن يستعد لاستقبال نظرة مستقرّة لا مبالية تجاه الأشياء، وما عاد قادرًا على الامتناع عن النظر إلى الركائز التي تحمل العالم المؤقت الزائل إلا باعتبارها أعمدة متكسِّرة. انهارت صباحات ونهارات، انهارت مساءات وليالٍ، تداعى كل منها وانهار في الآخر، واكتسبت القوى التي كان يتخيَّل -حتى يوم أمس- أنها موجودة ضمن توازن أبدي (توازن صامت كمثل توازنِ آلة شديدة الإتقان تعمل عملها الدقيق خفية عن الأعينِ) مظهرًا قاحلًا فجًّا باردًا منفرًا إلى حدٍّ غريبٍ، على الرغم من كونه شديد الوضوح: البيت الذي كان يحبُّه حبًّا شديدًا ساذجًا، ذلك البيت في الحديقة، فقد آخر ما كان يراه فيه من سحر رخيصٍ؛ والآن، عندما نظر إليه بعين عقله لحظة لاَ مبالية أخيرة، لم يبد له أنه قد بقي فيه شيء غير

مجموعة جدران عفنة وسقفٍ معوجٍّ غير مستوٍ، غرفة غسيل لا تخصُّه هو، بل تخصّ هارر؛ ما من طريق مؤدٍّ إليها الآن، وما من طريق مؤدٍّ إلى أي مكان غيرها، فبقدر ما كان هذا «الجوّال ذو الذهن الشارد» معنيًا بالأمر، صارت كل فتحة، وكل ثغرة، وكل باب، مسوَّرة بجدران مرتفعة بحيث بات هذا «المريض الذي يتماثل الآن إلى الشفاء» يجد لنفسه، بسهولة دائمة التزايد، «المداخل الحقيقية المخيفة إلى قلب العالم».
سار متعثِّرًا في تلك الظلمة الكثيفة بين سترات العمل والمشمَّعات المَطَرية، سار محدِّقًا في الرصيف تحت قدميه، مفكِّرًا في حانة بيفيفر والمستودع وفندق كوملو، مدركًا أنها صارت كلّها أماكن لا سبيل له إليها، ومدركًا أن الشوارع كلَّها، والساحات كلّها، وكل منعطف وزاوية، قد تفكَّكت وذابت على نحو ما، لكنه كان في الوقت نفسه قادرًا على رؤية المسلك القديم لما كان طريق تجوُّله الأفعواني؛ ظلَ قادرًا على رؤيته بوضوح أشد، وبقدر أكبر من الاكتمال كأنه يراه على خريطة؛ لكن، لما كانت الأرض التي من تحت تلك الخريطة قد اختفت، فقد أحسَّ بأنه غير قادر على أن يخطو خطوة واحدة في ذلك الشيء الذي حلَّ محلَّها -ليس بالطريقة التي اعتادها، على الأقل- فرأى أن من الأفضل أن ينسى كل ما كان موجودًا في هذه المدينة الكالحة التي لم

يألفها، المدينة التي وصل إليها كأنه طفلٌ مولودٌ حديثًا، وصلها بقدمين غير ثابتتَين، وصلها... ربما يوم أمس... أو قبل ذلك، أو في أي وقت كان.

لقد نسي الصباحات: طعم الأحلام التي يتذكَّرها نصف تذكُّر، والاستيقاظات البطيئة، وشاي يتصاعد منه البخار عندما يصبّه في الفنجان المرقَّط قبل خروجه من البيت؛ نسي كيف ينبسط الفجر فوق سكَّة القطار، ورائحة الصحف الجديدة في المستودع الجاثم وسط ضباب أزرق باهت، وصناديق البريد التي يجول عليها من السابعة صباحًا حتى ساعةٍ واحدة قبيل انتصاف النهار، الأبواب كلّها، وإطارات النوافذ كلّها، وصناديق البريد في المداخل، ومئة حركة مختلفة كانت تضمن، يومًا بعد يوم، وصول الصحف كلّها إلى تلك الأبواب وإطارات النوافذ وصناديق البريد وعُلبِه -صحيفتان كان يضعهما تحت الحصير الذي أمام العتَبة في بيتين اثنين- صحف تصل إلى مشتركيها. ولسوف يمحو من ذاكرته السؤال الذي كان يطرحه على السيدة هارر (بطريقة تكاد تكون دينية)، سؤال عما إذا كان قد حان وقت الظهر وصار عليه أن يبدأ رحلته، وسيمسح أيضًا ذكرى قعقعة القدور في مطبخ السيد إيزتر، وصفّ الانتظار الطويل عند فندق كوملو، سيترك البيت الذي في جادة وينكهايم ينهار من حول صاحبه، وسوف ينسى البوابة والممرّ

والنقرات الحذرة على النافذة، وسيترك باخ والبيانو يذهبان إلى الجحيم أخيرًا، وسيسمح لضوء غرفة الجلوس الشحيح بأن يخبو ويغيب في ظلمة أبديّة. لن يفكِّر بعد الآن في السيد هاغلماير، ولن يؤدِّي مشهد كسوف الشمس أمام أحد بعد الآن، أبدًا. لن يستعيد ذهنُه طاولة البيع في الحانة، ولا الكؤوس الرخيصة، ولا غيمة دخان السجائر المنداحة فوق موجات من أحاديث دائرة بين الجالسين، ولن يذهب أبدًا لرؤية خزان المياه بعد إغلاق الحانة... انجرف سائرًا وراء الآخرين على وقع «جرجرة الأحذية الثقيلة»؛ وما إن اجتازت الجماعة التي أصابها الوهن قناة كوروس فبلغت سياج البناية التي تقيم فيها أمّه في ساحة ماروثي، حتى وجد أن الإنترفون الذي عند المدخل ما عاد يعني له شيئًا، وأن البيت نفسه، مع فنائه وأشجاره العارية والغرفتين ونصف الغرفة المؤجَّرة خلف تلك الأشجار، صارت تعني له أقل -بل أقل كثيرًا- من أن يفعل شيئًا أكثر من أن يشيح بوجهه بعيدًا عنها كلّها. ما كان يريد رؤيتها، وما كان يريد شيئًا مما سكن هواجسه في زمن سابق؛ لكنّه، عندما كان سائرًا متأخِّرًا خطوة واحدة عن سيِّده المخيف، اكتشف أن استعراضه الوداعي للماضي قد توقَّف فجأةً: هنا، في ساحة ماروثي، خلافًا لكل ما توقعه، استولى عليه شعور مفاجئ بأنه، إذا واصل هذا،

سيلقى هزيمة ساحقة على يد إحساسٍ خدَّاعٍ بالمرارة؛ ألمٌ خطيرٌ، غامضٌ، عنيفٌ، كان مرجحًا أنْ يوحي له (مع إنكاره مدى تعقيد تلك العملية) بأن أي «تقييم موضوعي» حقًّا ليس إلا عملًا منطويًا على مخاطرة عميقة. رفض فكرة أن تشتمل مواجهة هذا «الألم الخطير، الغامض، العنيف» مواجهة مباشرة على «نسيانٍ» مقصودٍ لأيِّ شيءٍ على الرغم من الضآلة الشديدة لاحتمال وجود هذا الخطر، وهذا لأنه، «هو القادر على دحر الأوهام الزائفة»، هو الذي لم يكن أحد ينتظر منه هذا التصميم الحازم كلّه، هو الذي ما عاد مثقلًا بأيّة أفكار عن الألم والخطر، كان الضمانة الموثوقة لذلك كلّه: لقد حفظ دروسه المخيفة عن ظهر قلبٍ وصار الآن قادرًا على إعلان نفسه شخصًا «مثل الآخرين تمامًا». لو لم يكن متعبًا هذا التعب القاتل، لما كان يفضِّل شيئًا على أن يعلن أمام الآخرين أن لهم أن يكونوا في غاية الاطمئنان في ما يتعلَّق به لأن «قلبه ميت»، ولأن لا معنى الآن لمناكفته بالقول إنه «تعلَّم كيف يقف على قدميه ويفهم كل شيء»: لم يعد مؤمنًا بأن العالم «مكان مسحور» لأن القوة الوحيدة الموجودة حقًّا هي «القوَّة التي تفصح عنها قوة الذراعين»؛ ومع أنه لم يكن قادرًا على إنكار أنهم أفزعوه أول الأول، فقد صار الآن يحسُّ نفسه قادرًا على التلاؤم مع أساليبهم،

ويحسّ أنه صار «ممتنًا للامتياز الذي قُدِّم إليه، امتياز النظر إلى حياتهم». وهكذا مضى معهم فتجاوزوا ساحة ماروثي، وظل منتظرًا بصبر أن يستعيد قواه فيصير قادرًا على أن يشرح لهم كم كانت أفكاره ساذجة طفولية عندما كان يواسي نفسه بوهم مفاده (على الرغم من أن الكون واسعٌ لا تمثِّل الأرض فيه إلا شذرة صغيرة جدًا)، أن القوة التي تحرِّك ذلك الكون هي -في نهاية المطاف- ـ قوة الفرح: الفرح الذي «أغرق كلَّ كوكب، وكل نجم، منذ فجر الزمان»، وأن عليهم أن يعتبروه شخصًا كان يظنُّ هذا كله حسنًا، وكان يظن فوق ذلك أن لهذا كلّه جوهرًا سرِّيًا، أو نقطة مركزية ليست هي المعنى على وجه الضبط، بل هي نوعٌ من مادة أو كتلة أخفّ وأكثر رقَّةً من نسمة، نقطةُ مركزٍ لا يمكن -عقلًا- أن ينكر أحدٌ أَلَقَهَا الذي لا يُنسى، بل لاً يمكن أن يجهل ذلك الألق إلا من يمتنع عن النظر إليه. فقط... لو أن إرهاقه الفظيع قد خبا مثلما خبت هواجسه!... لأنه أراد أيضًا إخبارهم بأنه قد صحا صحوًا تامًّا بعد انقضاء ما كان بالنسبة إليه ليلة مخيفة. سيقول لهم: عليكم أن تتخيَّلوني رجلًا عاش حياته كلّه مغمض العينين، وعندما فتحت عينيَّ، اختفت ملايين النجوم والكواكب هذه، واختفى الكون الذي هو من فرح، اختفى بكل بساطة، رأيت بوّابات المستشفى، ورأيتً البيوت والأشجار على

الجانبين، ورأيتكم جميعًا من حولي، فعرفت على الفور أن كلَّ شيءٍ موجودٍ حقًّا قد وَجد فيَّ مكانًا له. نظرتُ بين سطوح البيوت إلى الأفق الذي لا يكاد يُرى فلم يختف ذلك الكون السرّي وحده، بل اختفيتُ معه أيضًا مثلما اختفى الجزء الأكبر من ثلاثين عامًا أمضيتها مفكِّرًا فيه؛ وكيفما أدرت رأسي، لا أرى شيئًا لأن كل شيء قد اتّخذ هيئته الحقيقيّة. كان ذلك مثلما يحدث في السينما «عندما تُنار أضواؤها» هذا ما كان سيقوله لهم، وكان سيقول أيضًا إنه أحسَّ مثلما يحسُّ شخصٌ انتقل من الحيِّز الضخم «لكرة أرضية إلى زريبة عارية منخفضة أخافته أول الأمر؛ انتقل من حلم مصاب بالمرض، لكنَّه فرح بهيج، إلى يقظة في صحراء حيث لا يكون لأيِّ شيءٍ غير محسوس مباشرة أي وجود واقعي، وحيث لا يكون لأيِّ عنصرٍ من عناصر المشهد أن يعلو فوق نفسه؛ وذلك لأنه أدركً -سيقول هذا أيضًا- أدرك أخيرًا أن ما من وجود لشيء عدا الأرض والأجسام المنتشرة فوق قشرتها، ما من وجودٍ فعليٍّ لشيء غير هذا؛ وأما من ناحية أخرى، فإن لكلِّ ما هو موجود على هذا النحو وزنًا فائقًا مشبعًا بقوة فائقة وبمعنى يتداعى وينهار على نفسه، وهذا ما لا يتطلَّب أي تصديق عليه من جانب قوّة خارجية.

وسيطلب منهم تصديقه لأنه صار يعرف الآن، يعرف

مثلهم، أن «ما من جنّة أو جحيم»، وذلك لأن المرء لا يستطيع إجراء مقارنة على أي شيء غير ما هو موجود فعلًا. سيقول لهم إن الشرَّ وحده هو ما يتطلَّب تفسيرًا، وليس الخير؛ وبالتالي، «فما من خير وما من شرٍّ»، وإن هناك قانونًا واحدًا، قانونًا واحدًا فقط، هو قانون الأقوياء الذي ينص على أن «القدرة الأقوى هي القدرة المطلقة». لا تستطيعون -وفي الواقع، لستم في حاجة إلى ذلك- استنتاج أيّ شيء من هذا كله، ولا حتى استنتاج أن «الإنسان الذي هو عبد لمشاعره، هو الإنسان الذي يمكن أن يخسر كلَّ شيء»... على الإطلاق! هذا ما سيقوله لهم لأنه هو نفسه، وللمرة الأولى، لم يعد يرى وجود أيّة مشاعر فاعلة؛ ليس في حاجة إلا إلى وقت قصير -لا إلى أيِّ تأجيلٍ، بل إلى وقتٍ قصيرٍ فحسب- قبل أن يبدأ العقل المريض الذي في رأسه العَمل على نحوٍ طبيعيٍّ لأنه، في هذه اللحظة، ليس قادرًا إلا على النبضِ والطرق المؤلمَين، فهو غير قادر على فعل ما يتعيّن عليه فعله؛ وذلك من قبيل -على سبيل المثال- التوصّل إلى السبب الذي يجعل كلّ شيء مما يجب أن يكون واضحًا بنفسه (لو كان كلُّ شيء منقوشًا في الصخر) يبدو محيّرًا إلى هذا الحد، السبب الذي يجعل الأشياء التي ينبغي أن تكون واضحة، وأن تكون نهائية، تفقد معالمها كلّها. بكلمات أخرى، كيف

يمكن للّيل، ولكل ما حدث فيه، أن يكون واضحًا إلى هذا الحد مع بقائه غامضًا في الوقت نفسه... ومع الوقت الذي بلغ فيه هذه النقطة من تفكيره، لم تعد الجماعة سائرةً في الشارع الرئيسي، بل دخلت متجر السيد سايبوك وجلس أفرادها بين آلات غسيل الملابس في متجر تيرافيل؛ لكنه، نتيجة «الجهد الذهني المضني» الذي كان يبذله لم يعرف أبدًا كم مرَّ عليهم من الزمن في ذلك الزمان. كان راعيه قد اختفى منذ بعض الوقت، وكان الرجل الذي حلّ محلَّه قد كاد ينهي كتابة الصفحات الأخيرة من دفتره، فقدر فالوسكا أن ساعة قد انقضت، على الأقل؛ وبعد ذلك، عندما قرَّر أن الأمر «لا أهمية كبيرة له في حقيقة الأمر»، عاد إلى ما كان فيه قبل أن يستيقظ من حلمه، ألا وهو دعك قدميه المتجمِّدتين. خلع حذاءه الثقيل وهو مستندٌ إلى إحدى آلات غسيل الملابس، ثم جلس هناك مثلما يجلس شخصٌ قرَّر أن ينتقل إلى هذا المكان انتقالًا نهائيًا، ويتَّخذ مكانه بين بقية الآلات في تلك الصالة منخفضة السقف. نظر بعض الوقت إلى الرجل صاحب الدفتر، ثم انتعل حذاءه من جديد وربطه جيدًا، ولأنه أحس بأن الأمر يمكن أن يكون خطيرًا، فقد جرَّب كل طريقة يعرفها لمنع نفسه من الغرق في النوم في غفلة منه. راح يشجع نفسه ويقول، لا، بالتأكيد لن ينام. سوف ينتهي

هذا الإعياء الطاحن في أطرافه، وسوف يتوقّف هذا النبض المؤلم في رأسه، سوف يتوقَّف آخر الأمر فيصير قادرًا على الكلام من جديد لأن عليه، بكلِّ تأكيدٍ، أن يكلِّم الآخرين ويخبرهم بأنه، لو أنه أصغى من كانوا يتحكّمون بقدره، لما كان هنا، ولما كان هذا الصداع ينبض في رأسه؛ لكن، فوق هذا كله، ما كان عليه -وهو ممتلئ ثقة بنفسه- إلا أن يقبل النصائح الحسنة التي كانت تنهمر عليه انهمارًا. سيخبرهم عن أمه التي، فضلًا عن تقريعها المستمرِّ له، نبذته إلى الأبد، نبذته بغية تحذيره (اتضح أنه تحذير لا فائدة منه)؛ وسيخبرهم كيف أنها أنذرته -في الليلة السابقة- أنها ستمسكه من شعره، ما لم يعتمد نمط حياة طبيعيًّا، وتهزه إلى أن يصير مستعدًا لفهم «كيف تسير الأمور» في حياتها؛ وبالطبع، سيخبرهم أيضًا عن السيِّدة إيزتر التي امتنع -يا لغبائه- عن اتّباع مثالها... السيدة إيزتر التي لم تكن مثلما ظنّها، بل كانت شخصيّة قاسية ذكيّة عديمة الرحمة تسحق كلَّ من يقف في طريقها؛ وذلك لأنه رآها أول مرة بهذا الوضوح كلّه وفهم أخيرًا مقدار أهمية مدير الشرطة، والصوت المدوّي، وحقيبة الملابس. فهم أيضًا أنه ما كان ينبغي له أن يضعف ويتهاوى مثلما فعل، بل أن يتعلّم منها ـ يوم أمس، في غرفتها في هونفيد باساج، -على سبيل المثال ـ عندما تغلّبت على معارضة اللجنة

كلّها وأفسحت المجال، نوعًا ما، أمام الحشد المجتمع في ساحة السوق. لكن، أهم من هذا كله، عليه أن يخبرهم عن السيد إيزتر الذي ظلَّ سنوات طويلة يخبره، بصبر منقطع النظير، أن ما يراه غير موجود، وأن كل ما يفكِّر فيه زائف، لكنه كان غبيًّا إلى حدٍّ جعله لا يصدِّقه، ولأنه وقع ضحية خطأ جسيم في حين كان هو نفسه الضحية والخطأ؛ عليه أن يتحدَّث عنه، عن الشخص الأبرز بينهم جميعًا، على السيد إيزتر، الذي يرى الأمور بوضوح أكثر من أي شخص آخر: لا عجب، في حقيقة الأمر، في أن يكون الثقل الحزين لمعارفه قد أدَّى إلى ذلك المرض المشؤوم! فكم من مرَّة جلس فالوسكا على ذلك الكرسي مصغيًا إليه يقول أشياء من قبيل، «كلّ من يعتقد أن العالم تحفظه قوّة من أجل الخير أو الجمال، يا صديقي، محكوم عليه بأن تنقشع أوهامه في وقت مبكر»، لم يكن يمضي يومٌ من غير أن يعلِّمه السيد إيزتر، «انظر إليَّ! إنني نتيجة عدم التعلّم من التجربة... مثل أيّ شخص آخر»؛ لكنه لم يفهم أي شيء من هذا، وكان أصمَّ أعمى غير قادر أبدًا على سماع كلمات التحذير تلك؛ وهكذا فإنه الآن، عندما يتأمَّل تلك السنين التي أمضياها معًا، يصاب بالدهشة من أن الضجر لم يصب السيد إيزتر بسبب ثرثرته المتواصلة عن الضوء والفضاء و«الآليات الساحرة في الكون».

وأما من ناحية أخرى -هكذا راح يفكر- فإن معلّمه العجوز، لو استطاع رؤيته الآن (أو بعد لحظات معدودة من الآن بعد أن تعود إليه قواه)، لفوجئ حتمًا باكتشاف أن الكمية الاستثنائية من الزّمن الذي أنفقه على تعليم فالوسكا، وتلك المئات من المواعظ التي ألقاها على مسامعه، لم تذهب هباء كلّها، وذلك لأنه سيكون قادرًا على أن يرى بنفسه أن تلميذه صار الآن لا ينظر إلى العالم إلا بموجب «ما تعلمه في غرفة المعيشة»؛ وعندما -تحديدًا عندما- تسنح فرصة للسيد إيزتر لرؤية هذا كلّه، هذا كلّه الذي لم تكن لديه أيّة فكرة عنه، لأن لا شيء الآن، بالنسبة إليه، قد ظلَّ باقيًا من ذلك البيت في جادة وينكهايم بعد أن صار منتميًا إلى هذا المكان انتماء نهائيًا: نعم، لقد سُوّي الأمر كلّه، أومأ فالوسكا برأسه («لقد تقرَّر الأمر») وهو يدعك عينيه الملتهبتين، ويرفع قدمه فيضعها فوق آلة غسيل الملابس التي في مواجهته، لأنه أحسَّ فجأة كأن الأرض الباردة كالجليد تميل وتنزلق بعيدًا. في تلك اللحظة، انتبه انتباهًا غائمًا إلى شخصٍ يأتي إلى راعيه الجديد فيأخذ منه دفتره ويقلب بضع صفحات فيه ثم يسأله: «ما هذا؟». سؤالٌ أجاب عنه حارسه مغمغمًا: «الربُّ وحده يعرف... إنه وصيتك الأخيرة، شهادتك الأخيرة»؛ ثم ابتسم كل منهما للآخر ابتسامة عريضة... رمى الرجل الآخر بالدفتر

بعيدًا... وسمعه يقول: «شيء وجيز لامع»... وسمع شيئًا عن «صقيع شديد...»، وأخيرًا سمع: «كُفَّ عن الكتابة، أيها الوغد الذكي». كان هذا آخر شيء لأن الأرض الباردة كالجليد راحت الآن تميل مَيَلانًا شديدًا جعله يبدأ الانزلاق عليها، يبدأ الانزلاق والتدحرج إلى أن سقط في حفرة لا قعر لها، وواصل سقوطه فيها زمنًا طويلًا جدًّا وهو يتلوّى عاجزًا إلى أن لمس الأرض الصلبة آخر الأمر، فوجد نفسه على تلك الأرض نفسها من جديد، على الأرض الباردة كالجليد، وفي تلك اللحظة فتح عينيه. لم يعد مستندًا إلى آلة غسيل الملابس، بل راقدٌ على الأرض إلى جانبها، متكوِّرًا على نفسه بشدّة، وأحسَّ ببردٍ شديدٍ ارتجفت له كل ذرّة في جسمه. لم يكن صعبًا عليه إدراك أن الأرض لم تمِدْ به حقًّا، بل هو إرهاقه ما جعله يشعر بأنها تميد به، ولم يكن صعبًا عليه فهم أنه لم يسقط في تلك الحفرة، بل سقط نائمًا. لا، ما كان فهمه صعبًا حقًّا (بعد أن جرَّ جسمه جرًّا حتى تمكَّن من الجلوس من جديد) فهو أنه وجد نفسه في متجر السيد سايبوك، وحيدًا. راح يجري هنا وهناك بين صفوف لا نهاية لها من آلات غسيل الملابس، لكنه اضطرَّ سريعًا إلى الإقرار بأنه ليس مخطئًا: لقد ذهبوا وتركوه هنا فصار ـ حقًّا وحقيقة ـ بمفرده. لكنه لم يستطع أن يفهم كيف حدث ذلك، فوجد

نفسه يسأل نفسه بصوتٍ مسموع: «وماذا الآن؟»، فتردَّدت أصداء صوته في تلك الصالة الخالية. وعندها، أبطأ خطواته حتى يهدِّئ نفسه، بل أرغم نفسه على التحول إلى خطوات مشي عادية، فأحس حقًا بأنه صار أكثر هدوءًا بعد بضع دقائق من هذا. صار أكثر هدوءًا لأنه فكَّر في أن ما من شيء يستطيع إبدال حقيقة أنه صار واحدًا منهم، حتى إن لم يكونوا هنا؛ لقد صارت الرابطة بينهم متينة لا تقبل انفصامًا؛ وهكذا قرَّر أن يستريح قليلًا إلى أن يعودوا، على أن يمضي الوقت في استعادة كل ما تعلّمه منهم، في استعادته في ذهنه مرّة بعد مرّة إلى أن يفهمه فهمًا أفضل. هذا ما جعله يعود إلى آلة غسل الملابس التي كان عندها فجلس مستندًا إليها من جديد، ومد ساقيه وهمّ بأن يبدأ شيئًا من التفكير الجدّي عندما رأى على الأرض، على مسافة مترين منه، غير بعيد عن المكان الذي كان راعيه الجديد جالسًا فيه، رأى شيئًا مألوفًا. أدرك على الفور أن ذلك الشيء هو الدفتر الذي قُذف به هناك؛ وعندما فكَّر بالأمر داهمته دفقة حماسة مفاجئة لأنه لم يستطع تخيُّل أن يكون صاحب الدفتر، الذي كان يكتب فيه، قد تخلَّى عن دفتره هكذا وتركه لمصيره كأنه شيء لا يستحقّ الاحتفاظ به... كان فالوسكا واثقًا من أنّ الرجل تعمَّد ترك الدفتر له حتى يقرأه. ذهب إلى الدفتر فالتقطه عن

الأرض ومسّد صفحاته المتغضّنة، ثم عاد إلى مكانه فوضع الدفتر في حضنه ونظر إلى الحروف الحادَّة المدبّبة في تلك الكتابة، ثم بدأ القراءة فنسي كلَّ شيء من حوله... راح يقرأ بانتباه جدّي يقظ.

... وعندها، لم تكن هناك أهمّية لأن نذهب يمينًا أو يسارًا، فتدفَّقنا في كل شارع وفي كل ساحة لأن شيئًا واحدًا، شيئًا واحدًا لا غير، كان يدفعنا إلى الأمام ويوجِّهنا عند كل منعطف، إحساسٌ خاوٍ بالخوف يمازجه تسليم ترك لدينا بعض الأمل في الرحمة؛ لم تكن هناك أيّة أوامر، أو أيّة كلمات توَجِّهنا، أو أيّة محاولة لحساب أيِّ شيءٍ، أو أيّة مغامرة، أو أيّة أخطار، لأنه لم يبق لدينا ما نخسره، لأن كلَّ شيء صار غير محتمل، صار لا يطاق، تجاوز كلَّ حدٍّ؛ كلَّ بيتٍ، وكلَّ سياجٍ، وكلَّ لوحةٍ إعلانيةٍ، وكلَّ عمودِ تلغرافٍ، وكلَّ متجرٍ، وكلَّ مكتبِ بريدٍ، بل حتى الروائح الآتية بخفة من المخبز، صارت كلها لا تطاق؛ وصارت غير محتملة أيضًا كل قواعد القانون والنظام، وكل واجب تافه، وذلك الإنفاق اليائس المتواصل للطاقة في محاولة للإيحاء بأنه يمكن أن يكون لهذا كله شيء من المعنى بدلًا من أن نجد أنفسنا في مواجهة عدم قابليّة الأشياء للفهم، عدم قابليّة الفهم الشاملة الصلبة اللامبالية؛ وصارت

غير محتملة أيضًا قواعد السلوك البشري الأساسية العصيّة على التفسير. ما كان لأي قدرٍ من الصراخ أن يساعدنا في العثور على ثغرة في درع الصمت الضخم الذي خيّم علينا ببطء، فسِرنا من غير أن ننطق بأيّة كلمة، ولم نكن نسمع غير صوت خطواتنا المتقدِّمة فوق الصقيع الحادِّ الهشِّ اللّامع؛ كانت أعصابنا مشدودة حتى نقطة الانقطاع، وما كان لشيء أن يستطيع إيقافنا، فسِرنا في تلك الشوارع القاتمة التي لا هواء فيها، سرنا ولم نرَ أحدًا آخر، ولم نتوقَّف حتى ينظر أحدنا إلى الآخر، وإن توقَّفنا فلكي ننظر إلى يدٍ أو إلى قدمٍ لأننا صرنا كلنا جسدًا واحدًا له زوج واحد من العيون؛ صرنا في شوقٍ إلى فعلٍ واحدٍ من أفعال التخريب، إلى نبضةٍ قاتلةٍ واحدةٍ، وصرنا محصنين ضد أي توسل أو استعطاف. حقًا، ما كان لشيء أن يوقفنا: كانت الحجارة الثقيلة تطير في الهواء من غير جهدٍ فتُحَطِّم واجهات المتاجر والنوافذ القذرة التي تلمع لمعانًا مبهرًا في البيوت الخاصّة، في حين كانت القطط الشاردة تقف متسمِّرة في أماكنها بفعل الضوء المُعمي الصادر عن العواكس التي معنا، وكانت تعاني صامتة ونحن نخنقها من غير أن تحرّك عضلة واحدة من عضلاتها؛ وكانت الأشجار الفتية تترك نفسها ناعسة للاقتلاع من جذورها الممتدّة في أحواض التربة المتشقِّقة. لا شيء كان قادرًا على

تهدئة الغضب اللاواعي لفهمنا الجديد، لفهمنا المأساوي، ولا لإحساسنا بأننا قد خُدعنا، ولا لخوفنا... وذلك لأننا لم نكن قادرين، مهما بحثنا، على العثور على موضوع مناسب لتقزّزنا وقنوطنا، فرحنا نهاجم كلَّ شيءٍ في طريقنا بالحماسة اللانهائية نفسها: حطَّمنا المتاجر، ورمينا من النوافذ كل ما كان قابلًا للحركة، فطحنّاه طحنًا تحت أقدامنا في الخارج، وما لم نستطع تحريكه، حطَّمناه بالقضبان الحديدية وبألواحٍ انتزعناها من مصاريع النوافذ؛ ثم أتبعنا ذلك بمجفِّفات الشعر، وقطع الصابون، وأرغفة الخبز، والمعاطف، والأحذية الطبيّة، وعلب الطعام، والكتب، والحقائب، وألعاب الأطفال، ووطأت أقدامنا نتفًا وأجزاء ما عاد التعرف عليها ممكنًا، وقلبنا سيارات متوقِّفة إلى جانب الطريق، ومزَّقنا اللافتات الفارغة ولوحات الإعلانات، واحتللنا مركز الهاتف وحطمناه لأن شخصًا ترك أنواره مضاءة، ثم لم نترك ذلك المبنى إلا لكي ننضمّ إلى الحشد المتدافع قرب البوابات عندما داست الأقدام أيضًا عاملتين في مركز الهاتف، ففقدتا الوعي وانزلقتا على الجدار مثل ممسحتين، انزلقتا من غير حياة وقد استرخت أيديهما في حضنيهما، بينما تدلّت من الطاولة التي اكتست دمًا لفافات متشابكة من أسلاك هاتفية، وارتمت لوحة بدّالة الهاتف على الأرض، فصارت حطامًا من غير ملامح

وحجبت الرؤية. رأينا الآن أن لا شيء مستحيلًا، واقتنعنا بأن المعرفة اليومية الشائعة لا فائدة منها، وفهمنا أن ما فعلناه كان عديم المعنى لأننا لم نكن إلا ضحايا اللحظة في حلبة شاسعة لا نهاية لها، وفهمنا من ذلك الوضع المتغيِّر سريعًا أن ما من سبيل إلى تقدير الحجم الدقيق لذلك الاتساع لأن قوة السرعة المحض غير قادرة على معرفة شيء عن طبيعة شذرة من غبار مندفع، فالحركة والجسم غير قادرَين على أن يعي أحدهما الآخر. حطَّمنا وكسرنا كل شيء وصلته أيدينا، وواصلنا فعل ذلك إلى أن عدنا إلى حيث بدأنا، لكننا لم نتوقّف، ولم نهدأ، فقد حفَّزتنا متعة التدمير التي تعمي العيون إلى تجاوز أنفسنا مرة بعد مرة، فرحنا نواصل سحق كل شيء، دائمًا غير راضين، دائمًا صامتين، فوق بقايا مجفِّفات الشعر وقطع الصابون، وأرغفة الخبز، والمعاطف، والأحذية الطبية، وعلب الطعام، والكتب، والحقائب، وألعاب الأطفال، حتى نوفِّر مادّة دائمة التزايد نرميها فوق القمامة التي على حافة الطريق، تلك القمامة التي امتدَّت الآن حتى شملت المدينة كلّها، واندغم كل درب قمامة بدرب قمامة آخر، وحتى نخرق مستنقع الخضوع والاستسلام الزائف التافه الساعي إلى الدفاع عما لا يمكن الدفاع عنه. وجدنا أنفسنا وقد عدنا إلى الشوارع المؤدّية إلى الكنيسة،

وجدنا أنفسنا وقد أحاط بنا من كل جانب ليل لا تُخترق ظلمته، وكانت طاقتنا تستَعِرُ منفلتة دموية في داخلنا. أحسسنا بخفّة خطيرة في قلوبنا، وانتبهنا إلى النبض المُسكِر للمقاومة؛ كان كلُّ شيء تحدِّيًا كأنه ثقل خانق لا بد لنا من إلقائه عنا. كانت هناك نقطة يتلاقى عندها عدد من الشوارع والأزقة الجانبية في موضع انضمامها إلى الشارع الرئيسي، وفي النهاية القصيَّة لواحد منها، استطعنا رؤية ثلاثة أشخاص في الظلمة (الخطوط العامّة الغامضة لرجل وامرأة وطفل كما اتضح لنا بعد بضع خطوات من ذلك). كانوا قد لاحظوا الحشد الموحي بالخطر متقدِّمًا منهم فشلّهم خوفهم، ثم حاولوا التراجع مقتربين من الجدار أملًا في الاختفاء في الظلمة الكثيفة: لكنّهم تأخّروا كثيرًا، وما عاد على وجه الأرض شيء يستطيع مساعدتهم؛ فحتى لو نجحوا في إخفاء أنفسهم في الزوايا الظليلة، حتى تلك اللحظة مما قد تكون رحلة عودتهم إلى البيت، فقد صاروا الآن من غير ملجأ، وصار مصيرهم مقرّرًا، وذلك لأنه ما عاد لهم مكان في أروقة العدالة عديمة الرحمة التي نتحرّك فيها، فقد كنا واثقين من أن إطفاء الجمرات المحتضرة للعائلة والموقد والبيت كان مهمّتنا، ومن أنهم سيموتون على أية حال، ومن أن كلّ فكرة عن «ملجأ» قد صارت فكرة نافلة لا رجاء منها. كان بحثهم عن مكان اختباء

مسعى من غير معنى، وكانت الثّقة بالمستقبل من غير معنى؛ كل فرحة، وكل ضحكة طفل، وكل مواساة زائفة من تضامن أو لحظات من حسن نية... صارت كلها غائمة، مجتثَّة، إلى الأبد. مباشرة، انطلق خلفهم نحو عشرين أو ثلاثين ممن كانوا في الصّفِّ الأول. وعندما بلغنا الساحة المستطيلة المغلقة أمام الكنيسة وتمكنّا من النظر جيدًا إلى مجموعة الهاربين تلك، بدأنا سيرنا إليهم فوق أكوام الأنقاض والقمامة؛وعلى الرغم من أنهم كانوا يحاولون الفرار إلى أمان الشوارع الجانبية، فقد كان واضحًا من هيئتهم المتيبِّسة أنهم في أمسِّ الحاجة إلى الاستنجاد بكل ذرّة من ثقتهم المتضائلة سريعًا حتى لا ينطلقوا في جريٍ يائسٍ، وحتى يظلُّوا محتفظِين بمظهر بشر عائدين بهدوءٍ إلى بيتهم. كنا قادرين على بلوغهم ببضع خطوات سريعة، إن أردنا ذلك حقًا، لكن ذلك كان من شأنه أن يعني التخلي عن هالة السحر أو الغموض (غير المعروفة بعد)، من شأنه أن يعني التخلِّي عن تلك الحالة الممتلئة مفاجآت مغرية ومغامرات ومخاطر، من شأنه أن يعني التخلِّي عن المطاردة التي هي سحر يسكن الصياد وهو يقتفي أثر الغزال، طريدته، بكل صبرٍ، الصياد الذي يظل ممتنعًا عن تبديد ذلك السحر إلى أن يصيب الإرهاق الحيوان فيستسلم لمصيره، فيصير كأنه يقدِّم إليه نفسه بنفسه. لهذا لم ننقضّ عليهم فورًا، بل

تركناهم يظنّون أنهم قد يتجنبّون الخطر وقد يفلحون في الفرار من الأثر المُفْني لمراقبتنا اللصيقة: سيكون ذلك مثل الاستيقاظ من حلمٍ بشعٍ! في اللحظة الراهنة، لم يكونوا قادرين على تقريرٍ إن كنا خطرًا عليهم أو أن الأمر ليس أكثر من سوء فهم بحت مثير للضحك، ولعلهم ظلّوا في الحالة الذهنية تلك بضع دقائق قبل أن يدركوا أن ما من غلطة أبدًا، وما من سوء فهم، قبل أن يصيروا على يقين من أنهم كانوا -في حقيقة الأمر- موضوع تهديد لم يزل غير واضح بعد على الرَّغم من زوال أيِّ شكٍّ لديهم في أننا نتعقَّبهم، أيّ شكّ في أنهم هم، ولا أحد غيرهم، الهدف الذي استقرَّت عليه هذه الجماعة العنيدة الصامتة... لأننا، بمعزل عن تحطيم أبواب هذه البيوت البرجوازية ذات الجدران الثخينة والسكان المرتعشين خوفًا، لم نستطع العثور على أحد غيرهم في طريقنا، لم نستطع العثور على غير هذه الخراف التي ضلَّت عن القطيع. فبفعل حظٍّ عاثرٍ غريبٍ، كانوا وحدهم من يستطيعون إرضاء، وفي نفس الوقت زيادة، جوعنا المخيف إلى عقاب تعويضيٍّ كافٍ. تشبّث الطفل بأمه وتشبَّثت الأم بالأب الذي واصل الالتفات إلى الخلف، مرات متزايدة العدد، وبقلق متزايد دائمًا، وظلَّ يزيد سرعة سيره. لكن هذا كان من غير جدوى لأن المسافة الفاصلة بيننا وبينهم لم تزدد أبدًا؛

وإن كنا نبطئ في سيرنا حينًا، فلكي نقترب منهم أكثر في حين آخر لأننا -أمر غريب حقًا- كنا نحس إثارة جامحة لمعرفتنا بأنهم لا بد يتقلَّبون بين موجات متلاحقة من الأمل وانقطاع الرجاء. انعطفوا في أول شارع جانبي إلى اليمين؛ وبحلول هذا الوقت، كانت المرأة التي صارت الآن متشبِّثة بزوجها تشبّثًا ناطقًا باليأس، وكان طفلها يواصل الالتفات إلى الخلف ناظرًا إلينا بعينين ممتلئتين ذعرًا أعمى، لقد وجدت نفسها مضطرَّة إلى الجري حتى لا تتأخَّر عن الرجل الذي صار يسير أسرع فأسرع ولم يكن بعدُ، بطبيعة الحال، قد استقرَّ رأيه على الجري بدوره لخشيته من إرغامنا على الجري خلفه إن هو جرى بحيث لا يعود لديه أيّ أمل في إنقاذ أسرته، ولا في إنقاذ نفسه، في اللحظة التي لا بد أنها كانت، بالنسبة إليهم، لا تزال لحظة التقاء يصعب تخيّله. المتعة المرّة، الشريرة، في رؤية هذه الظلال المتوحِّدة الثلاثة تتمايل أمامنا عاجزة غير عارفة ما نخبِّئه لها، كانت متعة حتى أكثر من قوة سحر مشهد المدينة المحطمة، وكانت تعني ما هو أكثر من الإحساس بالرضا الناتج عن كل تلك القطع من أشياء لا فائدة لها تحت أقدامنا، ففي ذلك التأجيل اللانهائي، في مسرّة التأخير وحدها، في ذلك الإرجاء الجحيمي، كنا نستمتع بشيءٍ ساخرٍ، بشيءٍ غامضٍ عتيقٍ أكسبَ أدنى حركة

من حركاتنا مهابةً مخيفةً، أكسبها ذلك النوع من الاعتزاز الذي لا يطاله شيء، الاعتزاز الذي يكون لدى القطعان البربرية كلّها حتى عندما تكون عارفة أنها قد تتفرّق شذر مذر في اليوم التالي، قطعان غوغائية لا سبيل إلى وقف اندفاعها لأنها استحوذت حتى على فكرة موتها هي، إن قرّرت أن تصلَ إلى نهاية، أن قرّرت أن مهمتها قد تحقَّقت، إن قرّرت أنها قد اكتفت اكتفاءً نهائيًا من الأرض والسماء معًا؛ فمع الحزن وسوء الطالع، ومع الخوف والاعتزاز، وأيضًا مع ذلك العبء الأوَّلي المغري الذي لا يسمح للمرء بالتخلِّي عن عادة التوق إلى الحرِّية. سُمع في مكان ما، في البعيد، صوت تمتمة خافت لم يلبث أن تلاشى سريعًا. وأمامنا، كانت بضع قطط شاردة تنسلُّ عبر ثغرات في سياج مبنى المحكمة الصامت. كان البرد شديدًا، وكان الهواء جافًا إلى درجة تجعله يجرح الحلق. بدأ الطفل يسعل. وبحلول هذا الوقت (كان واضحًا أن مسارهم قد قادهم في اتجاه الخروج من المدينة، لا في اتجاه البيت). كان الرجل قد أدرك أيضًا أن وضعهم يصير ميؤوسًا منه بشكل متزايد؛ وكان يتردَّد أحيانًا عند واحد من المداخل المألوفة، لكنه لا يتردَّد إلا لحظة لأنه لم يكن صعبًا عليه حساب أن الوقت اللازم لكي يأتي أحدٌ فيفتح الباب بعد سماع قرعهم عليه، أو بعد سماع صوت الجرس، وحتى

يدخلوا البيت لتفادي مطارديهم، لن يكون كافيًا حتى لا نلحق بهم...

هذا فضلًا عن حقيقة أنه كان لا بد لهم من قبول أن هذا الحلَّ الطفوليَّ المفضوح لن يحلّ شيئًا، فقد اضطر الرجل أخيرًا إلى إدراك أنهم ضاعوا، مهما فعلوا، ومهما حاولوا. لكن، مثلما يستمرّ حيوان مطارد في المضي حتى النهاية، ظلّ الرجل أيضًا يرفض أن يستسلم. وكان المرء قادرًا على رؤية أن الأب المثقل بعبء حماية الشخصين المعتمدين عليه كان يبتكر يائسًا استراتيجيات متجدِّدة دائمًا مع كل أملٍ يتوهَّج ثم يخبو سريعًا بعد أن يملي عليه مناورة غير واثقة لا يلبث أن يتركها بعد أن يرى انعدام نفعها... كل خطّة فشلت، وكل أمل كان زائفًا. وفجأة، انعطفوا انعطافًا حادًّا في اتجاه اليمين صوب شارع ضيِّق؛ لكننا صرنا على معرفة كافية بالمدينة (الواقع أن بعضنا كان من سكان المدينة نفسها) على نحو يسمح لنا بإفشاله: ركض خمسة أو ستة منا فالتفوا من حول المبنى، وعندما وصلوا إلى الشارع الرئيسي، كنا قد سددنا الطريق المتجه إلى مركز الشرطة مما لم يترك لهم بديلًا غير التوجّه إلى محطة القطارات وقد بدا عليهم قدر أكبر من الضيق، وقدر أكبر من الخوف من الشرذمة الصامتة المصرّة على ملاحقتهم. كان الرجل قد حمل الطفل المرهق، ثم أعاده

إلى المرأة عند الزاوية التالية، أعاده بحركة سريعة وهو يصيح بهما. غابت المرأة في شارع آخر، غابت بضع لحظات، ثم عادت مسرعةً إلى زوجها كأنها أدركت أنها غير قادرةٍ على أن تحمِلَ وحدها مسؤولية الفرار مع طفلها؛ كان واضحًا أنها مستعدةً لاحتمال أي شيء غير الفراق الأبدي عنه. كانت حقيقة ما بدا علينا من أننا ندفعهم في اتجاهٍ بعينه، في اتجاه مهلك، قد أربكتهم إرباكًا تامًّا، وكان هذا هو السبب الوحيد لتخلِّيهم عن فكرة الانعطاف في اتجاه قد يكون صالحًا للهرب والعودة في اتجاه المدينة؛ ولعلَّهم كانوا يأملون في أن يكون وصولهم في محطة القطارات سالمين كفيلًا بأن يضمن عثورهم على ملجأ آمن هناك. كنا نتبعهم بثباتٍ وقد شحنتنا تلك المطاردة بطاقةٍ كبيرةٍ بينما كانوا يزدادون تعبًا، فصرنا ببطء قادرين -حتى في الظلمة- على تبيُّن شكل ظهر الرجل المنحني والأهداب الطويلة لوشاح المرأة الثقيل وحقيبة يدها التي ظلَّت تتأرجح وتصطدم بردفها، وكذلك واقيتي الأذنين الفرائيتين في قبعة الطفل بعد انفكاك رباطهما من تحت ذقنه... كنا نراهما تعلوان وتنخفضان مع هبّات الريح الصقيعية كلما التفّوا ونظروا إلينا فرأونا، في التفاتهم تلك، رؤية واضحة... بمعاطفنا الثقيلة وأحذيتنا الملطَّخة بالطِّين، يروننا كتلة ضخمة متقدِّمة صوبهم، وبيننا، هنا وهناك،

بعضٍ من علّقوا من أكتفاهم قططًا ميتة أو حملوا بأيديهم قضبانًا من حديد. ومع بلوغهم الساحة الخالية أمام المحطة، لم يكن يفصلنا عنهم أكثر من عشر خطوات أو اثنتي عشرة خطوة، فكان عليهم أن يندفعوا عبر الأمتار القليلة الباقية حتى يفتحوا الباب الحديدي الثقيل ويدخلوا الصالة المهجورة الصامتة، التي كانت نوافذ البيع فيها عمياء مجلَّلة بالستائر. لكن، ومهما يكن ذلك الأمل الذي تعلَّقوا به، فقد تحطّم وتهاوى سريعًا لأنهم لم يروا أحدًا هناك: كان على كلِّ بابٍ وكلِّ نافذة قفل ثقيل، وكانت غرفة الانتظار علبة فارغة تتردَّد فيها الأصداء؛ ولو لم يلاحظوا المصباح الواهي المضاء في غرفة العاملين لكانت قصّتهم وقصّتنا قد بلغت نهايتها المحتومة في ذلك المكان وفي تلك اللحظة، لكن النهاية ما كانت لتتأخَّر كثيرًا، فما إن سمعنا صوت انفتاح نافذة إلى جانب البناء ورصدنا ظل رجل يجري حتى يطلب النجدة (كان هذا مؤكّدًا، تقريبًا)، فيعبر قضبان السكّة الحديدية ويختفي تحت واحدة من عربات قطار بضائع طويل محاولًا أن يضيع منا تحت أنوفنا مباشرة، حتى ترك ثلاثة منا الآخرين فكسروا قفل باب غرفة العاملين الصغير وانطلقوا يجرون خلف الرجل. بلغوا مجموعة البيوت الصغيرة المتناثرة خلف خطوط السكّة، فتفرقوا هناك وأطبقوا عليه من ثلاث جهات دفعة واحدة. كان صرير

حذائه، وكذلك انزلاقه المستمر على الأرض، فضلًا عن تنفُّسه الصافر المرتفع، مؤشِّرات كافية للدلالة الدقيقة على موضعه فلم تكن محاصرته شديدة الصعوبة بعد اجتيازنا المباني التي بدت لنا متجمِّدة في نومها، وبعد بلوغنا الأرض المحروثة من خلفها. كان الرجل نفسه قد أدرك أنه وقع في الفخ؛ واصل فراره مسافة قصيرة على امتداد أثلام الحراثة التي كانت باردة قاسية كالفولاذ لكنه كان في تلك اللحظة كمن اصطدم بجدار حجري لم يترك له طريقًا غير طريق العودة فاستدار كأنه يستند بظهره إلى سماء الليل من خلفه، وواجَهنا...

واصل فالوسكا تقليب صفحات المربّعة المربوطة بسلك حلزوني وهو يلتهم محتوياتها حتى بلغ آخرها، وقلب الدفتر فوجد أنه عاد إلى بدايته حيث تذكَّر ذاته التي تشعر بالذنب إلى حدٍّ مخيفٍ في الليلة الماضية ورأى شخصه اليوم، الشخص الذي صار مخيفًا، رآه في شذرة من ذلك النص الذي بدا كأنه يعود إلى بدايته؛ فما كان منه إلا أن بدأ القراءة من جديد معتقدًا أن ما لم يفهمه فهمًا صحيحًا في القراءة الأولى يمكن أن «يمتَّصه امتصاصًا تامًا» في القراءة الثانية: كان أكثر ما رآه مهمًّا هو أن يتوصَّل إلى القدرة على التغلُّب على الجانب الذي لا يزال منفرًا إلى درجة مخيفة في تلك القصّة كلِّها، وأن يصل إلى الجوهر الذي بدا له كامنًا في

الانطباع الذي كان لا يفتأ ينبعث من كلِّ جملة؛ والأمر الثاني هو أنه كان، مثل مهر يجري في محاولة مواكبة خطوات أمّه، يريد أن يربط نفسه بها ربطًا وثيقًا، إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ، أن يربط نفسه إلى الاندفاع السريع لذلك السرد القاتم المتدفِّق؛ وأخيرًا، كان يريد أن يتمكّن من فهم المعنى العميق فهمًا أكثر اكتمالًا لأنه كان موجّهًا إليه تحديدًا، ولأن من شأن ذلك أن يضاعف قوته فيصير قادرًا على الانضمام إلى رفاقه في «الحرب المستعِرَة في الخارج». أعاد قراءة الدفتر مرتين، لكنه اضطرَّ إلى تعليق قراءته عند تلك النقطة لأن سطور الكتابة بدأت تتداخل تداخلًا متزايدًا، ثم إنه كان متأكِّدًا أيضًا من أنه، إذا لم يستطع «التغلّب على تقزّزه» تمامًا، ولم يتمكّن من «العثور على القوة» في هذه التجربة، ليس بشكلٍ كامل، وليس في هذه اللحظة وحدها، فقد توصَّل على أيّة حالٍ إلى تحديد «المغزى» الخبيء في الجزء اليسير الذي فهمه فهمًا دقيقًا. وهكذا وضع الدفتر في جيبه ودعك ذراعيه وساقيه، ثم نهض واقفًا لأنه أراد ضبط

ارتجافه المعنِّد الذي ما كان أي قدر من التصميم والإرادة قادرًا على تخفيفه، نهض وسار بين آلات غسيل الملابس رغبة منه في السيطرة على هذا الارتجاف. لكنَّه تخلَّى عن هذا المشروع بعد اكتشافه أنه

لم يفده كثيرًا، فذهب إلى المدخل وفتح الباب ورفع ناظريه إلى مستوى أسطح المباني، وحدَّق في الفضاء الخاوي من فوقها. حدَّق في اللاشيء، في الفجر المختنق الذي لم يكن ضياؤه النديّ متدفِّقًا بقدر ما كان غارقًا في السماء الشرقية، ولم يبال بأنَّ هذه علامة على بداية يومٍ جديدٍ، بل كان تركيزه منصبًّا على فكرة واحدة: «ثمّة حرب جارية هناك، ولا يستحق الأمر أن يستيقظ المرء عند موت الليل إلا إذا كان مستعدًّا لأن يكون من غير رحمة أبدًا»؛ وهي حرب -ظلّ ينظر إلى قمم المباني- حيث ينخرط كلُّ شيءٍ في صراع لا قواعد له؛ حرب يتعيَّن فيها على أحد الجانبين محاصرة الجانب الآخر من غير انقطاع؛ حربٌ يكون التصويب فيها على أيِّ شيءٍ غير النصر أمرًا عديم المعنى. كان ذلك صراعًا لا تكون فيه القوّة التي تظلّ واقفة إلا تلك التي لا تلتمس سببًا، إلا تلك التي تقتنع بقبول أن الأمر كلّه ينبغي أن يظلّ من غير تفسير، وذلك لأن -تذكر هنا نصيحة الأمير- لا وجود لأيِّ تفسيرٍ؛ عندما فكّر في هذا، أدرك للمرة الأولى مدى الإنصاف في قناعة السيد إيزتر بأن الفوضى، في حقيقة الأمر، هي الحالة الطبيعية للعالم، وبما أن الأمر هكذا دائمًا، فإن من غير الممكن أن يتنبّأ المرء بمجرى الحوادث. بل إن الأمر لا يستحق المحاولة حتى، هكذا قال فالوسكا في نفسه

وحرّك أصابع قدميه المتألِّمة في حذائه البارد؛ التنبؤ أمر لا معنى له، مثله مثل إطلاق الأحكام، فحتى كلمتا «فوضى» و«نتيجة» ليستا إلا كلمتين زائدتين تمامًا لأن ما من شيءٍ يمكن وضعه نقيضًا لهما؛ وهذا ما يشتمل أيضًا على أن فعل إطلاق التسميات نفسه ليس كافيًا لأن يفي هاتين الكلمتين حقّهما لأن «هناك، ببساطة، شيئًا ملعونًا بعد شيء ملعون آخر» -هذا منقوش في معنى الكلمتين- فكلّ صلة يمكن أن يبدو أنها موجودةٌ بين الكلمتين تكون قائمةً كلّها على سلسلة من التناقضات المحيّرة. كان واقفًا بالباب المفتوح يحدِّق في ضياء الفجر الوردي، ورأى بنفسه كيف أن كلَّ شيءٍ هناك كان، في واقع الأمر، «شيئًا ملعونًا مكوّمًا فوق شيء ملعون آخر»: الطبقة السفلى مؤلَّفة من الإنترفون عند باب أمِّه، والحوت، والستائر في بيت السيد إيزتر، والأوعية التي كان يحمل الطعام فيها، والمسدَّس، والسيجار الذي ينبعث منه الدخان، والمرأة العجوز التي لم تستطع التراجع، وطعم البراندي الرخيص، وصوت الأمير الزاعق الحادّ؛ ويأتي في الطبقة الثانية سريره في بيت السيّد هارر، ثم الممرّ ومقبض الباب النحاسي في البيت الكائن في جادّة وينكهايم؛ وعلى قمَّة الكومة، معطف ثقيل من الجوخ، وفجر، وأسطح المباني هذه، وهو نفسه مع الدفتر الذي في جيبه؛ كل شيء يتحطَّم في

مكبسٍ عملاقٍ، وينطحن طحنًا، ويُمضغ مضغًا، ويمزق بعضه بعضًا إربًا، كل شيء حقيقي، كل شيء غير قابل للتوقّع. إنها حربٌ واحدة، معركة واحدة، نزاعٌ واحد، واحدٌ بعد الآخر، حالة -نظر فالوسكا إلى المنطقة المسحوقة أمامه- يكون فيها كلُّ حادث بيّنٌ بنفسه، ولم يبدُ له أن في هذا شيء مفاجئ أبدًا، لأنه كان قادرًا على قبوله بشكل طبيعي تمامًا حتى عندما (كأنما لتتويج كومة الفوضى هذه كلّها) ظهرت دبابة ظهورًا مفاجئًا ومعها جماعة تضمّ نحو اثني عشر جنديًا. كان قد انتبه إلى هدير محرِّكها منذ بضع دقائق، لكنه لم يرها إلا لمحة خاطفة عندما أزاحت من طريقها، بلطفٍ، كشكًا لبيع الصحف، وذلك لأنه تراجع من فوره مبتعدًا عن عتبة الباب وعاد أدراجه إلى ما بين آلات غسل الملابس. ثم اتّجه سريعًا -بعد أن فكّر لحظة-، قاصدًا النهاية البعيدة لتلك الصالة حيث دفع بابًا خلفيًا كان خفيفًا إلى حدٍّ جعل فتحه سهلًا، حتى عليه، فوجد نفسه في الفناء الذي خلف المتجر. قد يقول بعض الناس إن تلك الدبّابة الخرقاء أخافته، لكن فالوسكا لن يصدِّقهم لحظة واحدةً، لأن الحقيقة هي أنه لم يشعر بأن استعداده كان كافيًا، ثم إن قراره المفاجئ هذا كان من شأنه أن يتيح له فرصة لالتقاط أنفاسه.

«ينبغي أن أكسب وقتًا»... كانت هذه الفكرة تهدر في رأسه مثلما تهدر الدبّابة هناك، في هاي ستريت. كان عليه أن «يجهِّز نفسه للمهمّة» لأنه، إذا نجح في هذا الأمر آخر المطاف، لن يجد ما يقف في طريقه ويحول دون مشاركته في الصراع الأبدي الجاري هناك! وقد يقول بعض الناس إنه الآن، لحظة تسلّقه بوابة الفناء واندفاعه راكضًا في زقاق ضيِّق، إنه كان شديد الشبه بالشخص الموصوف في دفتر ذلك الرجل، وقد يقدِّمون دليلًا على ذلك من خلال تعبير الطريدة والإعياء اللذين كانا واضحين في كلِّ حركة من حركاته مما أكسبه مظهر شخص مسحوق تمامًا؛ ولعلّه كان يجيبهم بالقول، «لا، على الإطلاق»، هذه لم تكن إلا مظاهر فقط، وهو لم يكن مسحوقًا أبدًا، ولم يكن هاربًا من أي شيءٍ؛ كلّ ما في الأمر، في هذا الوقت، هو أنه يتفادى المواجهة المكشوفة. حتى يوم أمس، عندما كان لا يزال مستمرًّا في القيام بجولاته التي لا نهاية لها، لم يكن يعرف أبدًا - لأنه لم يكن في حاجة إلى معرفة شيء أبدًا- أين يكون على وجه التحديد في توقيت بعينه؛ وأما الآن فقد كان منتبِهًا تمامًا إلى موضعه، وبالتالي فقد كان منتبِهًا أيضًا إلى وجهته، أشياء حسبها بعد الانتباه جيّدًا إلى كل ما هو حوله، وعلى هذا النحو، خرج من الزقاق الضيِّق إلى

شارع صغير، فكان هذا هو القرار الصحيح، ثم صار هذا مبدأ الاختيار منذ تلك اللحظة فصاعدًا: تفضيل الأزقة والشوارع الضيِّقة وعدم الخروج أبدًا إلى الطرق العريضة، بل حتى تجنّب الاقتراب منها؛ وإذا كانت هناك ضرورة مطلقة لاجتياز واحد منها، فقد كان يفعل ذلك بالطريقة التي تستخدمها القطط عندما تتجوَّل حول أعمدة الإنارة في الليل، فتكمن في أماكنها، وتجري تقديرًا للموقف، ولا تعبر الطريق انسلالًا إلا بعد ذلك كلّه. تابع سيره، متمهِّلًا حينًا، مندفعًا حينًا، فتتباطأ خطواته غير واثقة، ويكون مستعدًّا للتوقف عند أدنى إشارة خطر. وعلى الرغم من أنه كان دائم الانتباه إلى موقعه وإلى ما يتعيَّن عليه فعله عند التقاطع التالي، فإنه لم تكن لديه «وجهة نهائية» لأنه لم يكن يرى أنه يفرّ من أي شيء خلفه ولا -هذا هو الأمر الأكثر أهمية- في اتجاه أي شيء أمامه. بكلمات أخرى، قَبِلَ تمامًا تلك المفارقة الكامنة في استنتاج أن حركاته كان لها اتجاه، لكن من غير هدفٍ تسعى إليه. كما أنه لم تكن لديه أيّة نية أبدًا في تضليل نفسه في هذا الصدد، بل إنه قبِلَ ضرورة تلك الأشياء كلّها طالما أنها أشياء موجودة ضمن حالة الفوضى الطبيعية الخاصّة بها، بمعنى أن عليه هو أيضًا أن يتصرف وفق الضرورات وأن يفعل ما يتعين عليه فعله، تمامًا مثلما سيفعله قريبًا، بعد وقت

قصير، بعد وقت قصير جدًا، بمجرد أن تتاح له فرصة «التنفس عميقًا»، وبمجرد أن يستعد جيِّدًا؛ إلا أن الشيء الوحيد الذي كان يقلقه هو أن تلك الفرصة كانت موضع إرجاءٍ مستمرٍ بسبب اضطراره الدائم إلى الزحف والجري والإبطاء مما لم يترك له لحظة راحة واحدة. كان سيرفض تصديق أنه طريدةٌ ملاحَقة، أو حتى إنه واحد من طرائد كثيرة ملاحقة؛ لكنه كان لا بد له من الإقرار بأن سوء الطالع كان يلاحقه حيثما ولى وجهه، يلاحقه بكل تأكيد، لأنه ظلَّ يصادفهم مهما حاول تجنّب مصادفتهم؛ لم يستطعِ التخلّصِ منهم أبدًا، فقد كانوا يقطعون طريقه عاجلًا أو آجلًا، فصار يحسّ آخر الأمر كأنه يجري في متاهة لا مخرج منها. بدأ هذا في مركز المدينة حين ظل يجري نصف ساعة فصادفهم ثلاث مرات: الأولى في شارع يوكاي، ثم في شارع آركاد، وأخيرًا عند الجادة التقاء الجادّة الثامنة والأربعين وساحة بيتوفي. وفي كلِّ مرة، كان الحظ المحض ينقذه، فإما أن يجد مدخلًا عميقًا يختبئ فيه، أو، كما حدث في ساحة بيتوفي، يدخل فناء المخبز؛ وسرعان ما صار لديه حضور الذِّهن الكافي لتفاديهم من خلال الالتجاء إلى أقرب مخبأ مناسب فور رؤيته لهم، فكان هذا يسمح له بإقناع نفسه بأن ما يفعله برهان على «عقله البارد» وعلى قدرته على التكيُّف من غير أن يرفَّ له جفن

عندما يمرُّ به الجنود ودباباتهم. عاد مقتفيًا أثر خطواته فبلغ نقطة التفرُّع عند كورفين باساج، ثم انعطف يمينًا، ثم دار دورةً كبيرةً من حول مبنى المحكمة (والسجن)، وكاد يصل بر الأمان الذي هو شبكة من شوارع ضيقة تمتد شرقًا اعتبارًا من مصنع اللحوم حين سمع فجأة، سمع من جديد، صوت الصرير والهدير النابض الصادر عن محرك قريب، ورأى جماعة جنود عند نهاية شارع كالفين أمام الصيدلية؛ وقد كان من نتيجة حسن حظّه، بكل بساطة -هذا ما كان عليه الإقرار به مع شيء من الاعتزاز بالنفس- وكذلك من نتيجة تحسُّن ردود أفعاله، أنهم لم يروه عندما استرق النظر إليهم من فوق حافّة نافورة تزيينية عند نهاية الشارع. لم يروه لأنه خفض رأسه سريعًا والتصق بتلك النافورة وكاد يكفّ عن التنفس تمامًا تحسبًا لاحتمال أن يقرِّروا التوغّل في ذلك الاتجاه (الربّ وحده يعرف ما يمكن أن يجعلهم يتوغَّلون في ذلك الاتجاه) أي في شارع كالفين. وبعد ذلك، جرى بأقصى ما استطاعته ساقاه، جرى صاعدًا عبر الشوارع الجانبية وقرّر أن يدخل الحي الروماني القديم حيث كان يأمل في العثور على مكان يلجأ إليه بعض الوقت: خطّة بدت له جذّابة حقًّا إلى أن كاد يصطدم بالوحش المعدني عند زاوية الشارع التالي. كانت تلك هي النقطة التي بدأ عندها يشعر بأن لا أهمية للاتجاه الذي يختار المضي

فيه لأن الدبابة قادرة على قراءة أفكاره بحيث تتنبّأ باتجاهه دائمًا، لكنه لم يكن مستعدًّا لأن يستسلم للاستنتاج المباشر الذي كان يلحّ عليه، ألا وهو أن هذه دلالة أكيدة على أنهم يلاحقونه: هو ليس «الرجل المذكور في الدفتر»، و«مصيره غير محتوم»، ولا هو -قالها في ذهنه محتجًّا- نوع من «غزال يلاحقه صيادون»، صيادون هم الجنود ودبابتهم. قال في نفسه إن ما من حاجة إلى البرهنة على هذا، ثم عاد أدراجه مارًّا بمقبرة الثالوث الأقدس. لم يكن في الأمر شيء يقول إنه يواجه أيّة صعوبة في تقرير ما إذا كانوا «خطرًا حقيقيًا أو مجرّد سوء فهم يدعو إلى الضحك»، لأنه لم يكن «يتردّد من حين لآخر» قبل «مدخل مألوف له»، بل كان ينصب أذنيه كل حين وآخر حتى يصغي مترصِّدًا صوت المحرك، ثم يتابع السير مرهقًا... مرهقًا، هذا صحيح، لكن ليس «مذعورًا» ولا «مستسلمًا»، والأهم من هذا أنه لم يكن يشبه «طريدة»، «طريدة بائسة عاجزة». على أنه كان مضطرًّا بالفعل إلى الإقرار بأن زمنًا قد انقضى منذ المرّة الأخيرة التي استطاع فيها الإقدام على أي اختيار واعٍ في ما يخصُّ وجهة سيره، فبدلًا من الاقتراب من مكانٍ قد يكون صالحًا للاستراحة، بدا له أنه يزداد ابتعادًا عن ذلك المكان؛ وما كان هناك أية فائدة من إنكار أن شيئًا مقلقًا كان ماثلًا في

الحقيقة (التي لا أهمية لها غير ذلك) القائلة إن ذلك المكان الذي كان يقترب منه في واقع الأمر هو محطّة القطارات؛ لكنّه قال في نفسه إن التشابه مع قصة الدفتر ينتهي هنا، وبالتالي فقد قرّر ببساطة، عندما رأى أن هذه الأفكار غير المواتية مستمرة في إزعاجه، أن يرمي الدفتر لأن من شأن إهدار أي جزء من الطاقة الباقية لديه أن يكون غلطةً جسيمةً. كان في هذا الوقت قد صار على مسافة نحو مئة ياردة من المحطة؛ وحتى بالمقارنة مع إحساسه قبل ذلك، صار الآن يبدو في حالة سيئة حقًّا: صار حذاؤه يؤلم قدميه كثيرًا، وكان الألم شديدًا إلى حدٍّ جعله مضطرًّا إلى وضع القسم الأكبر من وزنه على ساقه اليسرى حتى يقي نفسه من ازدياد هذا الألم الممضِّ؛ وكان صدره يؤلمه كلّما تنفّس؛ وكان رأسه ينبض صداعًا لا يطاق؛ وكانت عيناه تحترقان؛ وكان فمه جافًّا. ولأنه كان قد أضاع حقيبة ساعي البريد (من عساه يعرف متى وأين)، فقد صار غير قادر على التمسّك بها التماسًا للراحة، فلم يكن مفاجئًا أبدًا أن يقول في نفسه، بعد أن أصابه الإرهاق والدوار إلى هذا الحد، إنه يتخيَّل الأشياء تخيُّلًا، أو إنه يسمع صوت شبح يخاطبه، عندما أتاه صوت السيد هارر هامسًا من خلف ظهره منبعثًا من مدخل كان قد عبره في تلك اللحظة.
الحقيقة أن هارر لم يقل شيئًا، لكنه أصدر صوتًا بسيطًا،

«بست، بست!»، ثم راح يشير لفالوسكا بأن يقترب منه، وجذَبه جذبًا عنيفًا إلى ذلك المدخل وألقى إلى الخارج نظرة سريعة في اتجاه المحطّة، وظل واقفًا هناك، صامتًا، من غير حركة، نصف دقيقة كاملة، أو نحو ذلك. «يا صديقي العزيز، أنا لا أستطيع مساعدتك، أنا لم أرك، وأنت لم ترني، لم نلتقي، وإذا ألقي القبض عليك، فينبغي أن تقول لهم إنك لم ترني ولم تسمع عني شيئًا منذ الأمس؛ لا تحاول أن تجيبني الآن! أومئ برأسك إذا كنت تفهم ما أقوله لك، على الرغم...».

ألقى هارر بهذه الكلمات كلِّها في أذنه بعد هنيهة قصيرة في حين كان فالوسكا يظن أنه يرى شبحًا، لكن رائحة أنفاسه بدت له مألوفة على نحو غريب، ولم يستطع معرفة سبب ذلك... همس له الشبح: «نعرف تمامًا ما كنت تفعله، ولولا تلك المرأة الطيبة، السيدة إيزتر، السيدة حقًا، فليباركها الرب، لكنت واقعًا في مشكلة كبيرة لأن اسمك وارد في اللائحة، وسوف يعني هذا أن كلَّ شيء قد انتهى لولا السيدة الطيبة وقلبها العطوف. هناك أشياء كثيرة يجب أن تشكرها عليها، بل يجب أن تشكرها على كل شيء. هل تفهمني؟». أدرك فالوسكا أن عليه أن يومئ برأسه، لكن الحقيقة كانت أنه لم يفهم شيئًا، فهز رأسه نفيًا... «إنهم يبحثون عنك! وسوف يشنقونك!! أنت قادر على فهم هذا، أليس كذلك؟». فقد

السيد هارر صبره وبدا عليه أنه شديد الرغبة في الانصراف في أسرع وقت ممكن... «استمع! قالت لي السيدة الطيبة أن أخرج وأعثر على ذلك البائس المسكين، تعنيك أنت؛ وعلى الرغم من أنها لم تكن متأكِّدة آنذاك من أن اسمك وارد في القائمة، فإن توقّع ذلك لم يكن أمرًا شديد الصعوبة نظرًا لأن الجميع يعرف أنك أمضيت الليل كلّه متجولًا في الشوارع معهم. قالت لي اعثر عليه لأن الجنود لن ينتظروا سماع أعذاره إن وصلوا إليه قبلك، فسوف يشنقونه، بكل بساطة. هل تفهم هذا؟». أومأ فالوسكا برأسه إيماءة غير واثقة... «أخيرًا! تماسكْ إذًا، واخرجْ من هنا، اخرج إلى أي مكانٍ، شمالًا أو جنوبًا...». راح هارر يشير بيده إشاراتٍ غامضة في اتجاه البعيد... «اختف عن أعينهم، أسرع، اختف من المدينة، الآن، فورًا، وكن شاكرًا لها، للسيدة إيزتر، فليباركها الرب. اذهب الآن. كن حذرًا عند المحطة، لكن عليك أن تسير مع سكة القطار وأن تكون على مقربة من القطارات لأنهم لا يراقبونها. هل فهمت؟». أومأ فالوسكا برأسه مرّة أخرى... «جيد، آمل أن تكون قد فهمت. مهمتك هي الوصول إلى سكة القطار. ولا أريد معرفة شيء عن البقية. بل إنني لست هنا الآن، وأنت لم ترني! اذهب إلى سكة القطار، ثم تابع السير، ولا تعبث هنا وهناك، ولا تتأخَّر، بل واصل

السير مع السكَّة. هل فهمت؟ ابتعد إلى أقصى قدر تستطيعه، ثم التجئ إلى حظيرة من الحظائر، أو أي مكان، ثم نرى ما نستطيع فعله، هكذا قالت السيدة الطيبة». همس فالوسكا: «سيد هارر، ليس عليك أن تقلق من ناحيتي فأنا الآن في أحسن حال... ما أعنيه هو أنني أعرف كل شيء. سوف أذهب وأبتعد وأنتظر كلمة منكم... لكنّني أريد القول إنني متعب قليلًا، وإنني في حاجة إلى شيء من الراحة في مكان ما، لأن...». قاطعه هارر: «عن أي شيء تتحدّث! استراحة! أتريد الانتظار هنا حتى يلفوا الحبل حول عنقك! استمع، شخصيًا، أنا لا يهمني الأمر فافعل ما تريد... لم ير أحدنا الآخر، لا تقل أية كلمة عن لقائنا، لا تقل إننا التقينا! هل فهمت؟ أومئ برأسك إذا فهمت! اذهب الآن!»؛ ومع تلك الكلمات الأخيرة، خرج الشبح من المدخل وكأنه يقول تلك الكلمات لنفسه، ثم اختفى قبل أن ينتبه فالوسكا إلى ذهابه. الحقيقة أن هذا السيد هارر كان مختلفًا كثيرًا عن هارر الذي عرفه من قبل، وأن ظهوره كان أشبه بتجسُّد روح أتت فجأة. أدرك فالوسكا أن هذا ليس شيئًا مما ينبغي أن يثير استغرابه («هناك حرب جارية، بعد كل حساب»)، لكن ذكرى الكلمات المهموسة، «سوف يشنقونك»، أطلقت في نفسه ذعرًا مفاجئًا زاده كونه قد صار وحيدًا. ساءه ذلك كثيرًا، ساءه

هذا إلى حد جعله -عندما خرج من ملجأه في ذلك المدخل وانطلق في اتجاه المحطة- مضطرًا إلى الإقرار بأن حذره قد صار بعيدًا كل البعد عما كانه، بل إنه صار منخفض السوية إلى حدٍّ خطيرٍ. أحسّ بالدوار من جديد، وسار بضع خطوات متمايلًا، إلى أن بدأت الكلمات القاسية المدوية من حول رأسه («سوف يشنقونه») تخبو وتتلاشى؛ ثم توقّف وأزاح صورة الدبابة التي يتكرّر ظهورها في ذهنه، وصب تركيزه كلّه على سكة القطار، وقال في نفسه (لم يعد الآن قادرًا على قول هذا للسيد هارر، «سيكون كل شيء على ما يرام. سيكون كل شيء على ما يرام»)، تابع سيره - سيكون كلُّ شيء على ما يرام- متَّجهًا إلى المحطة، لأن كل شيء، بالتأكيد، سيسير مثلما قال السيد هارر: يخرج من المدينة على الفور، ليس إلى الأبد، بل إلى أن يُستعاد النظام، يسير مع سكة القطار، يسير مبتعدًا عن الجنود. بلغ الساحة

التي بدت له مقفرة تمامًا، فالتصق بالجدار وراح يتفحّص كل زاوية بحذر أشد من المعتاد؛ وبعد أن قرّر أن اللحظة صارت مواتية، عبر الساحة جاريًا حتى يدخل الشارع المقابل الذي يستطيع بعده أن يلتفَّ من حول صندوق الإشارة ويبلغ السكة نفسها. نجح في عبور الساحة، وكان واثقًا تمامًا من أن أحدًا لم يره،

وكان موشكًا على مواصلة الجري من جديد عندما سمع في مكان قريب منه، لعله تحته، سمع من عند أسفل الجدار القريب منه صوتًا صغيرًا ضعيفًا يخاطبه خجلًا خائفًا («سيدي... نحن هنا...»). لم يكن في ذلك الصوت أي شيء موحٍ بالخطر، لكنه كان غير متوقّع أبدًا، فجعله، غريزيًا، يقفز إلى الخلف، فيخرج إلى الطريق من جديد. ومع خروجه، علقت قدمه بحافة الرصيف فكاد يسقط على وجهه. تمكّن من البقاء واقفًا على قدميه، بصعوبة كبيرة بعد أن لوح بيديه في كل اتجاه، ثم استدار ونظر: صحيح أنه لم يعرفهما أول الأمر، لكنه لم يصدق عينيه عندما عرفهما، بل ظن - خلافًا لما تمخض عنه لقاؤه مع السيد هارر أن هذين شبحين حقًا. كان طفلا مدير الشرطة واقفين عند الجدار، مرتديين بنطلونين كبيرين عليهما، متجمِّعَيْن عند كاحليهما، وسترتَيّ الشرطة اللتين ارتدياهما من أجله في تلك المناسبة التي لن ينساها أبدًا. الآن أيضًا، كانا ينظران إليه، يحدقان فيه، ولا يقولان شيئًا؛ ثم صدر عن أصغرهما صوت نحيب فرفع الأكبر يده غاضبًا حتى يسكته، أو حتى يموّه حقيقة خوفه، هو نفسه. إنها ملابس الشرطة نفسها، وهذان هما الصبيان نفسيهما، لكنهما لا يشبهان الصبيين اللذين تركهما ليلة أمس في الشقة زائدة التدفئة. على أنه اقترب منهما، ولم

يسألهما عن شيء، بل قال لهما ببساطة أن يذهبا إلى البيت... «الآن، فورًا». فورًا، كررها فالوسكا وكانت نبرة صوته وحدها هي ما جعلهما يفهمان أن ما من وقت لأي شرحٍ أو تفسير؛ قال هذا وأمسك بكل منهما من كتفه، محاولًا -بكل لطفٍ- أن يحركهما؛ لكنهما قاوماه، ورفضا التحرَّك قيد أنملة، كأنهما لم يفهما ما قاله. ظلَّ الصغير يشهق ويبكي، بينما أجابه الكبير بصوتٍ مختنقٍ قائلًا إنهما غير قادرين على مغادرة هذا المكان لأن أباهما أيقظهما عند الفجر وجعلهما يرتديان هذه الملابس، ثم أطلق نار مسدسه باتجاه السقف وأمرهما أن ينتظراه أمام محطة القطار، وراح يصيح قائلًا إن الجميع جواسيس أو خونة، وإن هناك تطهيرًا يجري الآن، ثم أغلق الباب بعنف من خلفهما قائلًا إن عليه أن يدافع عن البيت طالما ظلّ قادرًا على ذلك. قال الكبير معوِلًا، «لكننا بردنا الآن كثيرًا. كان السيد هارر هنا من قبل، لكنه لم يعرنا أي اهتمام. أخي الصغير يرتجف ويبكي دائمًا، وأنا لا أعرف ما أفعله به. لا نريد الذهاب إلى البيت. فخذنا معك، من فضلك، إلى أن يعود والدنا إلى رشده». نظر فالوسكا إلى السّاحة مليًّا، ثم جالت عيناه في الشارع، ثم استقر نظره أخيرًا على الرصيف، عند قدميه. اكتشف، على مسافة بضعة إنشات من رأس قدمه، حصاة بنّية صغيرة بدا له أن

الإسمنت قد تقشّر عنها تمامًا فصارت من غير شيء يمسكها. دفعها بجانب حذائه فتدحرجت بعيدًا، ثم استقرت على جانبها المسطح بعد دورة أو دورتين. لم ينحن لالتقاطها، لكنه لم يستطع رفع عينيه عنها. سأله أصغر الولدين ناسيًا لحظة أن ينشق بأنفه: «أين حقيبتك؟». ثم تابع النشق من حيث تركه. لم يجبه فالوسكا، بل ظلّ ينظر إلى الحصاة، ثم قال بصوت هادئ: «اذهبا إلى البيت»، وأشار في اتجاه البيت بحركة بسيطة من رأسه ولوح بيده آمرًا إياهما بالذهاب. انطلق في الاتجاه المعاكس، ولم يعد يشعر بالخواء، بل بالكآبة؛ التفت بعد أن تجاوز صندوق الإشارة لكي يقول لهما ألا يلحقا به، ثم تجاهلهما... وهكذا، سار الثلاثة معًا فتجاوزوا كوخ الحراسة، واحد ينشق بأنفه، والثاني يجرّه حتى لا يتأخرا عن الثالث الذي يسبقهما بعشر خطوات، وهو يعرج على قدمه اليسرى، وكلهم في صمت تام.

كانوا يهزُّون رؤوسهم بصمتٍ كأنهم حائرون، أو كأنهم خجلون، وقد أسبلوا عيونهم كأن هناك سرًّا من الأسرار في حقيقة أنهم يعرفونه؛ وحتى عندما كانوا يقولون له كلمة أو اثنتين: «في هذه الأنحاء، لا... لا»، فقد ظلَّ الصمت العميق يواجهه كلما سأل أحدًا وهو واقف أمام

محل الملابس الرجالية، فلمعت فكرة في ذهنه: ألأنهم لا يريدون أن أعرف، ولا يجرؤون على الإقرار الصادق بأنهم يكذبون عليَّ؟ فانتابه غضبٌ عاجزٌ لأنهم رفضوا حتى أن يخمِّنوا مكان وجوده، وهذا ما كان مزعجًا أكثر من أي شيء آخر. هذا الادعاء الغبي بمعرفة كل شيء، وهذا الرفض الضمني الذي يعبِّر عنه سلوكهم العام وعيونهم التي تتحاشى النظر إليه، ونظرة النفور الغريب غير المموَّه، والنظرة الاتهامية التي تكشف كل شيء عدا ما كان يريد معرفته حقًّا. راح يسألهم من باب إلى باب، ومن عمود إلى عمود، متنقِّلًا بين ضفتي الشارع الرئيسي، لكنهم لم يقولوا شيئًا على الرغم من كثرة السؤال، فبدأ يشعر أن هناك جدارًا بينه وبينهم يمنعه من الانعطاف يمينًا أو يسارًا.

كان صمتهم تحديدًا هو ما أوحى إليه بأنه يبحث في المكان الصحيح؛ لكن، مع تزايد أعداد الأشخاص الذين يجرؤون على الخروج من بيوتهم، صار واضحًا له أنهم سيرفضون جميعًا الإجابة عن سؤاله؛ لن يتمكَّن أبدًا من اكتشاف ما حدث، لن يعرفه منهم! كانوا ينظرون جميعًا إلى ساحة السوق؛ وعندما بلغ سيارة الإطفاء المتوقِّفة أمام السينما وحاول أن يكلِّم رجال الإطفاء، أبعدوه عنهم بصبرٍ نافدٍ وهم يحملون خراطيم المياه في أيديهم؛ وكان الجنودُ أيضًا يشيرون إليه بأن يواصل سيره كأنهم

يوجِّهون حركة السيارات؛ وهكذا كفَّ أخيرًا عن طرح سؤاله على الناس، فقد بدا له الآن شبه مؤكّد أن الرجل الذي يبحث عنه موجود هناك... موجود هناك بطريقة مخيفة! فكَّر في هذا فشدَّ معطفه على جسده، وراح يمشي تارة، ويهرول تارة، ويمضي كيفما تقاذفته الطرق؛ مر بفندق كوملو، ثم عبر جسر كوروس الصغير، وتجاوز صفين من وجوه يبدو عليها الذعر، مضى إلى أبعد ما استطاع المضي، لكنه لم يصل إلى ساحة كوسوث لأن جماعة جديدة، أكثر عدوانية، من الجنود كانت تعزل الساحة عن الشارع الرئيسي. كانت ظهورهم إليه، وبنادقهم الآلية موجَّهة إلى السّاحة، عندما حاول التسلّل بينهم خلسة، التفت إليه جندي في الصف الأمامي وقال له شيئًا؛ وعندما رأى أن ما قاله لم يجدِ نفعًا، استدار إليه فجأة وأرخى عتلة الأمانِ في بندقيته ودفعه بماسورتها في صدره، ثم عوى قائلًا: «ارجع، أيها العجوز! لا شيء هنا تراه!». تراجع إيزتر خطوة خائفة إلى الخلف، وهمَ بشرح ما كان يريده هناك، إلا أن عدم استجابته للأمر أثارت ريبة الجندي وجعلته يظن أن هناك خطرًا، فاتخذ -بحركة عصبية متوترة- وضعية قتالية وهدَّده ببندقيته الرشاشة من جديد، وراح يزمجر على نحو أكثر وعيدًا (إن كان هذا ممكنًا):

«تراجع! الساحة مغلقة! لا أحد يعبرها! اذهب من هنا».

جعلته نبرة التهديد الشديدة يرى أن لا فرصة له في قول أيّ شيء، وأقنعه هذا الاستعراض للجاهزية القتالية العالية -استعداد في غاية التوتر- بأنه، إذا لم يستجب للأوامر ويبتعد عن الجندي، فإن من شأن حركة واحدة في غير محلِّها أن تجعله يضغط على الزناد، استدار عائدًا في اتجاه جسر كوروس، لكنه لم يلبث أن حاد عن تلك الوجهة من جديد لأن الحاجز العسكري لم يُخِفْه بقدر ما زوَّده بنوعٍ من التصميم اليائس، جعله لا يرى في العقبات إلا شيئًا عليه أن يحاول اجتيازه مرة ثانية، من اتجاه آخر، ثم من اتجاه آخر وآخر إلى أن تنجح المحاولة. اتجاه آخر -نزولًا في شارع هاي، هكذا قال في نفسه مستثارًا- ثم بدأ يجري بأقصى سرعة سمحت بها ساقاه ورِئتاه، ونزل إلى حافّة القناة، ثم دار من حول الساحة لاهثًا وقد امتلأ رأسه طنينًا وهو يفكِّر أنه قادر (إذا فشلت كل محاولة أخرى) على اجتياز صفوف الجنود لأنه أحسَّ الآن بأن عليه أن يدخل الساحة ويتأكَّد بنفسه بأن صديقه ليس هناك؛ أو لعله يكتشف أنه هناك، مما يعني وجوب التفكير في الاحتمال الأسوأ، الأكثر تطرُّفًا، الأكثر إثارة للذعر... شيء لم يكن يطيق التفكير فيه في تلك اللحظة. جرى، أو سار مترنِّحًا إلى جانب القناة، وظلَّ يقولُ في نفسه حتى لا يصيبه الذعر إن الانضباط هو الشيء الصحيح، وإن الذعر الذي

تشبَّث بقلبه لا ينبغي له أن يستولي عليه؛ وكان يعرف أن السبيل إلى تحقيق ذلك ليس إلا فعل ما كان يفعله، من غير وعي، حتى تلك اللحظة، ألا وهو أن يقول لنفسه: لا تنظرْ يمينًا ولا يسارًا، بل تابع السير إلى الأمام.

كان هذا صحيحًا: لما كان قد اندفع مغادرًا بيته من غير قبعته ومن غير عصاه، وانطلق إلى المدينة، فقد كان مدركًا حجم التخريب في الخارج، لكنَّ شيئًا لم يكن قادرًا على إقناعه بالالتفات والنظر إلى ذلك التخريب، لا لأن المشهد في حدِّ ذاته هو ما يخيفه (فهو لم يكن مباليًا بذلك، ولم يكن مهتمًّا إلا بفالوسكا)، بل لأن تفكيره جعله يدرك احتمال أن يرى شيئًا بين الركام، شيئًا يتيح له أن يفهم كل شيء حدث فيكتشف ما أصاب فالوسكا. كان يخشى العثور على قبّعة مدبّبة الرأس عند أسفل أحد الجدران، أو على قطعة زرقاء داكنة من نسيج معطف ساعي البريد مرميّة على الرصيف، أو فردة حذاء واحدة على الطريق، أو حقيبة تركها صاحبها وقد انفكَّ ابزيمها وانزلقت منها بضع صحف ممزَّقة مثلما تنزلق أحشاء قطّ دهسته سيارة. ما كانت البقية تهمه، وبدقَّة أكبر، كان غير قادر على استيعاب الظروف التي هو فيها ولو لمجرَّد أن نقطة بعينها مما روته السيدة هارر قد كفَّت عن الاستيلاء على ذهنه، فصار في رأسه متّسع

للسؤال الواضح وحده دون غيره، السؤال عن السبب لا عن النتيجة، لا عما تمَّ تدميره ولا عمَّن دمَّره؛ وذلك لأنَّ أية محاولة لمعرفة ما حدث خلال الليل، أو حتى أيّة محاولة لتخمين ما حدث خلال الليل، كانت أبعد من قدرته على التركيز التي بلغت أقصى حدود طاقتها. أقرَّ لنفسه بأن حالته العقلية لا تكاد تكون شيئًا بالمقارنة مع حالة المدينة؛ وقبل فكرة أن الضرر الواقع كان ذا طبيعة وبائية لا تسمح بأن تكون «الأغنية التي استولت على لبه» -السؤال عن فالوسكا، وعن مكانه، وعما أصابه- صالحة لأن تثير اهتمام أحد غيره. وأما بالنسبة إليه، مهما يكن مقدار عدم استعداده الذي لا يُغتفر، فقد كان ذلك هو الأمر الوحيد المهمِّ، الأمر الذي كان مستوليًا عليه كلّه أينما ذهب: بدا كأن ذلك قد ربطه بسلسلة إلى ضفة القناة، وقد أرغمه على الاندفاع قُدُمًا، كأنه حبسه ضمن حالته تلك؛ وحتى إن كانت هناك شقوق بين قضبان سجنه، فما كانت لديه قوَّة للنظر بين تلك الشقوق. لقد كان في الأمر مسألة أكثر عمقًا، سؤال ضمن سؤال، عبء كان عليه أن يحمله معه من مكان إلى مكان: ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن السيدة هارر ضلَّلته، أو لو أن زوجها أخطأ في غمرة تلك الفوضى المخيفة، وماذا لو أن من أنبأها بالشؤم عند الفجر -من غير ذنب منها- كان مخطئًا في ما يخصّ مصير الساكن

عنده. كان هذا شيئًا يجب أن يجد حلًّا له، مع مواصلته، في الوقت نفسه، إسقاط رواية المرأة واعتبارها مستحيلة، فأن يكون المرء موجودًا عند حدوث هذه الأعمال البربرية، وأن يكون شاهدًا على تلك الاعتداءات الوحشية، بل أن يكون مشاركًا في هذه المهزلة غير البشرية، وأن يكون مراقبًا حيًّا لها ثم يظل يتجوَّل في الشوارع، في مكان ما، من غير أن يصيبه أذًى، فهذا -هكذا أحسَّ- ما يرقى إلى مرتبة المعجزات. أو أنه -على الأقلّ- بعيد الاحتمال مثلما كان نقيضه بعيدًا كل البعد عن أن يُطاق. وذلك أن «استيقاظه متأخِرًا» لم يتوقَّف لحظة عن إقلاقه لأنه جعله غير قادر على الدفاع عن صديقه، بل ربما جعله يفقده إلى الأبد. وإذا كان الأمر هكذا، فإن من كان فائزًا بكل شيء، قبل بضع ساعات فقط، يصير «من غير شيء على الإطلاق».

فبعد ليلة كانت حاسمة الأثر على الآخرين مثلما كانت حاسمة الأثر عليه، في هذا الصباح الذي كان منتَظرًا أن يشهد الفصل الأخير من «انسحابه التام»، لم يعد له الآن شيء من فالوسكا، وما عاد يريد شيئًا غير أن يستعيده، على الرغم من أن عليه أن يتصرَّف بطريقة أكثر تعقُّلًا إن هو أراد تحقيق هذا، وذلك من خلال -هكذا راح يفكِّر وهو يسير متعثِّرًا صوب شارع هاي صاعدًا من عند ضفة القناة- تغلّبه على «الدافع المخيف لديه إلى تحطيم

كل شيء وسحقه»، وقدرته على أن يستعيد ضبط النفس، وامتناعه عن أن «يخترق طوق الجنود» باستخدام «أي فعل من أفعال العنف». لا، قرَّر أن يتصرَّف بطريقة مختلفة، من الآن فصاعدًا: لن يطلب، بل سيسأل ويستعلم، وسوف يصف فالوسكا أولًا بحيث يتعرَّفون عليه، ثم يطلب منهم أن يكلِّم الضابط المسؤول ويشرح لهم من كان فالوسكا، وكيف أن حياته كلّها برهان على براءته، سيقول له إن عليهم ألا يعتبروه «شخصًا» متعاونًا في أي شيء، بل شخصٌ ابتلعه مجرى الأمور، فلم يستطع الإفلات منه؛ سيقول لهم إن عليهم أن يعتبروه ضحيَّة وأن يصفحوا عنه فورًا، وذلك لأن العنصر الجوهري في أيّة تهمة -في هذه الحالة- سيكون انعكاسًا لحالة سوء فهم، أو سيكون شيئًا زائفًا. باختصار، عليهم أن يعطوه فالوسكا باعتباره «ملكيّةً ضاعت منه» لأن أحدًا غيره لا يريده -سوف يشير إلى نفسه عند هذه النقطة- لا أحد يريده غير إيزتر نفسه. بذهابه بعيدًا إلى هذا الحدِّ في اختيار الاستراتيجية الملائمة، وفي اختيار الكلمات أيضًا، لم يخطر في ذهنه بعد ذلك أنه لن يجد صديقه هناك؛ وهكذا كانت صدمته عظيمة عندما تحدَّث مع مجموعة الجنود الذين يحرسون ساحة كوسوث، وأعطى رجال المدفعية هناك وصفًا دقيقًا لفالوسكا، فهزَّ الرجل رأسه وقال: «لا احتمال

لوجوده أبدًا، يا سيدي! ليس لدينا من تنطبق عليه هذه الأوصاف. إن هؤلاء الأوغاد جميعًا يضعون قبعات من الفراء. معطف ساعي البريد؟ قبعة مدبّبة الرأس؟ لا». أشار إلى إيزتر ببندقيته إشارة بأن عليه أن ينصرف،... «ليس لدينا هنا واحد من هذا النوع، هذا مؤكَّد». رفع إيزتر يده مبيِّنًا أنه مستعدٌ تمامًا للطاعة والانصراف فورًا: «هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالًا آخر؟ أهذه هي نقطة التجميع الوحيدة لهم... أم إن هناك غيرها؟». زمجر الجندي بنبرة احتقار،: «الرعاع القذرون كلّهم هنا. وأنا واثق تمامًا من أن بقيتهم قد فروا، أو ماتوا بعد أن أطلقنا النار عليهم». «ماتوا؟». كرر إيزتر هذه الكلمة وقد أصابه دوار، ثم انطلق قُدمًا متجاهلًا الأمر بالانصراف، سار متمايلًا قليلًا فمرَّ من خلف صف المدافع، لكن الرجال كانوا طوال القامة، وكانوا شبه متلاصقين، فلم يستطع أن يرى شيئًا من خلالهم، ولا من فوق رؤوسهم. وهكذا استولى عليه هاجس التفكير في العثور على نقطة مناسبة للنظر. استدار وعاد أدراجه إلى النهاية الأخرى لساحة السوق، ثم توقَّف أمام مدخل صيدلية «القارورة الذهبية» المحطم حيث لاحظ قاعدة تمثال قريبة أسقط عنها تمثالها -كان لا يزال في حالة تشبه حالة السائر في نومه- كانت قمّة تلك القاعدة تبلغ معدته، لكن كبر سنه، خاصّة الآن بعد أن بدت قواه كلها

كأنما هجرته، جعل فكرة تسلق تلك القاعدة بعيدة عن السهولة كل البعد؛ وأما من ناحية أخرى، فقد رأى أن ما من بديل آخر إن هو أراد أن يثبت لنفسه (كان عليه أن يفعل هذا) أن الجندي قد أخطأ وأن فالوسكا موجود هناك بالتأكيد («ينبغي أن يكون هنا، فأين يمكن أن يكون غير هنا؟»)؛ وهذا ما جعله يميل بجسده على القاعدة فينجح، بعد بضع محاولات فاشلة، في وضع ركبته اليمنى على قمَّتها. ثم استراح قليلًا بعد ذلك، ثم استخدم قدمه اليسرى فدفع بها الرصيف بقوة، وتشبثت يده بحافّة قمّة القاعدة من الجهة الأخرى. أفلح آخر الأمر، وبلغ القمّة بجهد كبير بعد أن انزلق مرتين. كان لا يزال يشعر بدوارٍ جديدٍ؛ وبعد هذا الجهد كلّه، كان طبيعيًا أن يبدو له كلّ شيء، لا الساحة وحدها، ملتفًّا بنوع من الظلمة النابضة، وصارت فرصة تمكِّنه من البقاء واقفًا على قدميه موضع شكٍّ شديدٍ؛ إلا أن الأمور بدأت تتضح شيئًا فشيئًا، بعد ذلك،... رأى صف الجنود المزدوج الذي كان على شكل نصف دائرة، ومن خلف الجنود، إلى أحد الجانبين، إلى جهة اليسار، بين شارع يانوس كاراسوني والكنيسة المحترقة، رأى بضع سيارات جيب وأربع شاحنات مغطاة، أو خمس شاحنات مغطاة، وأخيرًا رأى عددًا من الأشخاص المتجمِّعين ضمن دائرة، وقد شبكوا أيديهم خلف رقابهم: جمعٌ من

الأشخاص الساكنين الصامتين تمامًا. من الطبيعي أنه كان مستحيلًا عليه أن يميِّز من هذه المسافة أيّ شخص ضمن تلك الكتلة الكثيفة من قبعات الفراء وأغطية الرأس الريفية، لكنه لم يشك لحظة واحدة في أنه كان سيجد فالوسكا لو أنه موجود هناك: كان قادرًا على العثور على إبرة في كومة قش لو أن تلك الإبرة كانت فالوسكا، لكنه ليس في هذه المجموعة التي رآها، لأنه شعر، فور بدئه «تمشيط» كتلة الأجساد تلك، بأن «ملكيته الضائعة» لم تكن هناك بالفعل؛ وعلى الرغم من أن إجابة الجندي كانت كافية لتشويشه، فقد كانت كلمة الجندي الأخيرة هي الكلمة الأخيرة بالنسبة إليه.
صار كأنما نبتت له جذور في تلك النقطة، ولم يعد قادرًا على فعل شيء غير الوقوف والنظر إلى ذلك الجمع على الرغم من معرفته تمام المعرفة أن ذلك كان جهدًا لا معنى له. أراد أن يتحرَّك، وأراد أن ينزل عن قاعدة التمثال، لكنه كان خائفًا من فعل ذلك، لأن فكرة الانصراف ومواجهة حقيقة لا يستطيع احتمالها كانا أسوأ من بقائه في مكانه، وهو ينظر مكتئبًا إلى أشخاص لا تهمّه هويتهم، لأن فالوسكا غير موجود بينهم. ظلَّ دقيقة كاملة واقفًا هناك متأرجِحًا بين البقاء والذهاب: كلما أتى بأدنى حركة من أجل الذهاب، يسمع صوتًا يهمس له، «لا تذهب!»؛ ولحظة يطيع ذلك الصوت،

يهمس له صوت آخر، «اذهب!»؛ فلم يدر أنه اتخذ قرارًا في هذا الشأن إلا بعد أن وجد نفسه على مسافة عشرين ياردة من تلك القاعدة التي سقط تمثالها عنها. لم تكن لديه أدنى فكرة، ولا حتى أقل قدر من التحكم بالوجهة التي يريد الآن أن يقصدها؛ ثم إنه كان واثقًا كل الثقة من أنَّ أيَّ سبيلٍ آخر، لو أنه اختار سبيلًا آخر، سيقوده إلى فالوسكا. أحسَّ بأن كل ما يستطيع فعله هو فعل ما فعله من قبل، بكلمات أخرى، أن يسير من غير أن ينظر يمينًا أو يسارًا، وأن تظل عيناه مشدودتين إلى الأرض عند قدميه. لكن، ما الغاية من هذا؟ رفع رأسه، ولو حتى لكي يعرف أن لا بد له آخر الأمر من اكتشاف أن هذا النوع من السير (السير كما يسير الأعمى) لن ينقذه من أي شيء؛ وراح ينصح نفسه بأن عليها أن تكون مستعدَّة لأن مضار هذه المماطلة المستمرّة في مواجهة ما هو مؤكد أكثر من منافعها؛ وأسوأ من هذا كله أنها مماطلة سخيفة! لكن هذا التصميم كله لم يتمخّض عن شيء عندما اجتاز مجموعة الشاحنات وسيارات الجيب، وألقى ما كان يريد له أن يكون نظرة عابرة في اتجاه شارع يانوس كاراسوني، فرأى ما فيه من خراب وفوضى. رأى في الناحية القريبة من الشارع كومة عظيمة من السترات والمعاطف والبنطلونات، رآها كلّها ملقية على الرصيف أمام واجهة متجر والنر

للملابس، وبعد ذلك بعدة بيوت، رأى ثلاثين أو أربعين شخصًا ممن اعتقد أنهم خرجوا من المداخل الكثيرة المجاورة، رآهم واقفين في مجموعة محيطة بشيء لم يستطع تبيّنه؛ لكنه، ومهما يكن ذلك الشيء، نسي على الفور أن يتصرَّف بما اعتزمه من احتراس، فجرى مجتازًا حواجز المعاطف والسترات والبنطلونات الملقاة في الطريق، جرى وهو يميل هنا وينزلق هناك، جرى بتهوّر، جرى من غير وعيٍ، جرى منقطع الأنفاس، جرى كأن المكابح في جسده قد لفظت أنفاسها فجأة، ولم يكن مدركًا أن ذلك الصوت الزاعق في رأسه لا يمكن أن يسمعه أيُّ شخص غيره، ثم ازداد قنوطه عندما بدا له أولئك الناس -عند اقترابه- غير مستعدين لأن يفسحوا له طريقًا، ولو قليلًا، لكي يعبر من بينهم. وكأنَّ هذا كلّه لم يكن كافيًا! فقبل أن يبلغ النقطة التي ظنَّ أنه قد يتمكَّن من النفاد منها واجتياز ذلك الطوق البشري المتجمِّع كيفما اتفق، ظهر من داخل الحشد رجل يحمل حقيبة طبيب، رجل قصير بدين، فأمسك بذراع إيزتر، وجعله يتوقَّف في مكانه، ثم بدأ يجرّه بعيدًا عن مكان التجمّع مشيرًا برأسه في اتجاه الجهة الأخرى من الشارع، كأنه يوحي له بأن عليه أن يقول له شيئًا. كان اسم الطبيب بروفاجنيك؛ ولم يكن مظهره المرتجل مفاجئًا لإيزتر على الإطلاق، على الرغم من كونه مظهرًا غير متوقّع،

وذلك ليس لأنه مقيم غير بعيد عن بيته، بل لأن هذا المظهر بدا لإيزتر دلالة لا تخيب؛ على أن أسوأ مخاوفه وهواجسه قد تحقَّقت. كان ذلك المظهر برهانًا على الأفكار التي هو موشكٌ على رؤيتها في الواقع، وكان مطابقًا تمامًا لتلك الصورة التي تجعل وجود الطبيب في غير حاجة إلى أي تفسير... وذلك لأنه، في آخر الأمر... ما الذي يمكن أن يفعله طبيب غير الدوران في الشوارع مع الجنود لعزل الجرحى عمن كانت السيدة هارر في وقت سابق قد وصفتهم بتعبير «الضحايا». توقَّف بروفاجنيك بعد اجتيازهما ما قدَّر أنه مسافة كافية تفصلهما عن الآخرين، ثم هزَّ رأسه وقال،: «لو كنت مكانك، لما رغبت في النظر.

هذه المشاهد ليست من أجل من هم مثلك، صدّقني...»، قال هذا بكل ما يكون لدى شخص خبير من ثقة موضوعية، الخبير الذي يعرف أن الإنسان العادي يزداد ميلًا إلى ردات الفعل الهستيرية كلَّما قلّ فهمه ما يراه من هذه المشاهد؛ إلا أن الخبرة أنبأته أيضًا بأن التحذير المسبق، مهما بلغ من لطف، غالبًا ما يثير أكثر أشكال السلوك بعدًا عمَا هو مُراد. كانت الحالة هنا كذلك بالضبط لأن نصيحته حسنة المقاصد لم تردع إيزتر على الإطلاق، بل على العكس تمامًا في واقع الأمر، فحتى لو كان قد بقي لدى إيزتر أدنى حدٍّ من

القدرة على ضبط النفس، فإن الجملتين الأخيرتين ذهبتا به لأنه راح يحاول تحرير نفسه من قبضة الطبيب حتى يندفع إلى الحشد مباشرة ويقتحم الحلقة بالقوة، إن كان هذا ضروريًا؛ ولما كان بروفاجنيك غير مستعدٍ لإرخاء قبضته عنه بهذه السهولة، فقد قام بعدة محاولات واهنة لتخليص نفسه، ثم لم يلبث أن تخلَّى عن ذلك النضال، وخفض رأسه، ولم يقل إلا شيئًا واحدًا، «ما الذي حدث؟». أجابه الطبيب بوقار بعد تفكير قصير: «لا أستطيع حتى الآن أن أقول لكَ أي شيء مؤكَّد. يبدو الخنق احتمالًا مرجحًا، هذا ما يبدو أن الدلائل المتوفِّرة الآن تشير إليه. الضحية المسكينة»، أرخى قبضته وفتح
ذراعيه على اتساعهما ساخطًا... «يبدو أنها صرخت، فكان على القتلة أن يخمدوا صوتها»، لكن إيزتر صار أكثر بعدًا من أن يستطيع سماع نهاية الكلام، فقد اتّجه من جديد صوب الأشخاص المتجمّعين، فلم يحاول بروفاجنيك منعه (كان راضيًا عن نفسه لتمكّنه من تهدئته بعض الشيء)، واكتفى بأن لوَّح بيده مستسلمًا ثم سار من خلفه؛ صحيح أن إيزتر لم يكن هادئًا تمامًا، لكنه فقد تلك القوة المتهورة التي كانت لديه: لم يجر، بل بلغ حلقة الناس المجتمعين فلم يدفع أحدًا حتى يزيحه من طريقه، بل اكتفى بأن مسَّ أكتاف بعض منهم حتى

يتمكَّن الطبيب من المرور عبرهم. التفت الناس إليه، ثم تنّحوا صامتين، وسرعان ما تشكّل في الحلقة المتراصة ممر تمكّنا من المرور عبره، ثم أغلق ذلك الممر على الفور، فلم يبق له طريق للخروج. صار حبيسًا بين الناس كأنه واقع في فخ، اضطر إلى النظر إلى الجسد المطروح على الأرض فاتحًا ذراعيه على اتساعهما، وفاتحًا فمه، وأما العينان فكانتا شديدتي الجحوظ في الرأس المتدلِّي من حافة الرصيف فوق مجرى المياه التي تحتها. كان مرغمًا على ملاقاة نظرة العينين الثابتة الفزعة التي ما كانت قادرة على الإفصاح عن هوية مرتكب هذا الفعل، وما كان الرأس قادرًا على الكلام، بل بدا كأنه مكتفٍ بالإصغاء بعد أن تحوَّل إلى حجر مثلما تحوّل رأس إيزتر الذي لم يعد قادرًا على تحديد ما وجده صادمًا أكثر من غيره: رؤية وفهم معنى «مغادرة حياة شخص جسده إلى الأبد» بتلك الطريقة المفزعة، أو اكتشاف أن ما كان أمامه ليس ما توقّع أن يجده (مع أن «الشيء» الذي رآه أمامه في تلك اللحظة تحديدًا كان مألوفًا جدًا). لم يكن على الجثة معطف، بل فستان من الفانيلة وكنزة خضراء صارت مشوَّهة الشكل تمامًا. ولما كانت معرفة الزمن الذي انقضى على وجودها هناك أمرًا مستحيلًا، فقد بدا من المحتمل تمامًا أن تكون مشرفة على التجمّد، إن لم تكن قد تجمدت بالفعل، لكن

بروفاجنيك كان الشخص الوحيد المؤهَّل للبت في هذا الأمر. تجنَّب الطبيب إيزتر، وانهمك من جديد في الفحوصات التي يفترض أن وصول إيزتر قد قاطعها، واقترب الناس المجتمعون أكثر من ذي قبل حتى يتابعوا حركات الطبيب، ثم راحوا يعبِّرون عن توقعاتهم فيما يخص احتمال أن تنكسر الساق أو اليد أو الرقبة في حال تحريكها، كأن مناقشة مسألة إمكانية نقل الجثة أو عدم إمكانيتها كانت هي السؤال الأكثر أهمية. نتيجة هذا، ازداد الحيِّز الفارغ في الوسط تقلُّصًا، فما كان من حارسَيّ الجثة، اللذين كانا جنديين منشغلين بمحاولة الحديث مع امرأة بدا أنها غير قادرة على الكلام، إلا أن قطعا استجوابهما وصاحا بالواقفين محذِّرين إياهم من أن عليهم أن يتراجعوا وإلا «فسوف يفرقانهم»؛ وبينما كان الناس يتراجعون تراجعًا تدريجيًا، تخلَّى الجنديان عن محاولة جعل المرأة الشاهد تنطق بضع كلمات غير واضحة، تلك المرأة التي كان وجهها كله -على أية حال- شبه مختفٍ من خلف المنديل الذي تذرف فيه دموعها؛ وبدلًا من ذلك راحا ينظران إلى بروفاجنيك وهو يحرِّك فك الجثة بحركة لطيفة، ثم ينتقل إلى ثني أطرافها. لم يكن إيزتر واعيًا لشيء من هذا كله لأن طاقته كلّها كانت مستنفدة في محاولة انتزاع عينيه من عيني الجثة المخيفتين، ولم يتمكَّن من تفادي هذه

الصورة المتحجِّرة للموت إلا عندما تحرَّك الطبيب من حول الجثة، فصار جسده بينها وبين إيزتر مدة دقيقتين. منذ تلك اللحظة فصاعدًا، لم يعد أحدًا غير بروفاجنيك موجودًا بالنسبة إليه، وصارت عيناه مسمَّرتين إليه حتى لا يضطر إلى مواجهة تلك الصورة مرة أخرى، ولا حتى لحظة واحدة؛ ولما كان واثقًا من أن هذه اللحظة العابرة لم تسئ فهمه مثلما ضللته عن قصدٍ من قبل، فقد راح يدور معه حول الجثة إلى أن جثا الطبيب حتى يتابع الفحص، فوقف إيزتر خلفه وقال له: «فالوسكا، يا دكتور! قل لي، هل وجدت فالوسكا؟»، عند ذكر هذا الاسم كف المحتشدون عن الكلام فجأة، وألقت المرأة نظرة مذعورة تجاه الجنديين، فنظر كل منهما إلى الآخر كأن هذا الاسم كان، هو عينه، موضوع الكلام بينهما. هزَّ الطبيب رأسه من غير أنٍ يرفعه ويلتفت في اتجاه إيزتر، (ثم همس له كأنه يحذِّره، «لكن، مما سمعته، فإن الحديث عن هذا الأمر الآن ليس فكرة حسنة»).
أخرج أحد الجنديين من جيبه ورقة راح يتتبَّع سطور الكتابة فيها بإصبعه، ثم أشار إلى نقطة فيها وجعل زميله يراها، فما كان من ذلك الزميل إلا أن نظر إلى إيزتر وسأله: «يانوس فالوسكا؟»؛ التفت إيزتر إليهما، «صحيح، إنه الشخص الذي أعنيه، الرجل نفسه».
وعند ذلك، طلبا منه أن يخبرهما بكل ما يعرفه «عن

الشخص المذكور»؛ وبما أنه فهم من ذلك أن الجنديين سوف يزوِّدانه الآن بالمعلومات التي رفض بروفاجنيك البوح بها، فقد أجابهما بأن طرحَ عليهما سؤالًا: «ما أريد معرفته هو، هل هو حيٌّ؟». ثم بدأ كلامه الذي أعدّه وراح يعرض عليهما تفسيراته المعقدة دفاعًا عن فالوسكا، لكنه لم يستطع الاستمرار طويلًا. سرعان ما جعله الجنديان يدرك أن عليه أن يكفَّ عن الكلام فورًا، لأنهما، أولًا، الطرف الذي يطرح الأسئلة في هذا المكان، وثانيًا لأنهما غير مهتمَّين بـ«الكائنات الملائكية، أو بمعطف ساعي البريد، أو بحذائه»؛ وأما إذا كان يريد تشتيت انتباه السلطات، فإنه لن يستفيد شيئًا من «هذا الكلام الفارغ»؛ كل ما كانا يريدان معرفته هو مكان فالوسكا، أين هو؟ لكن إيزتر أخطأ الفهم، فأجاب قائلًا إنهما يستطيعان الاطمئنان تمامًا لأن الرجل الذي يبحثان عنه لن يجد مكانًا أفضل من بيته. عند هذه النقطة فقد الجنديان صبرهما ونظر كل منهما إلى الآخر نظرة غاضبة، ورأى إيزتر أن من المستبعد أن يحصل على إجابة شافية في هذا المكان أيضًا. أكد لهما أن عليهما ملاحظة أن موقفه هو موقفهما نفسه، إلى هذا الحد أو ذاك، فهو يرى أيضًا أن من واجب المرء أن يبذل قصارى الجهد لضمان أن يكون أي قرار يتّخذه مواتيًا لمصالح الناس عامة، وقال إنهما يستطيعان

الاعتماد عليه في هذا الأمر، لكن عليهما أيضًا أن يفهما أنه لن يتمكَّن من مساعدتهما إلا إذا قالا له الحقيقة عن فالوسكا؛ ولما كان يرى أنهما لا يريدان إخباره شيئًا عن هذا الأمر ذي الأهمية الكبرى بالنسبة إليه (مع أن واجبهما يدعوهما إلى فعل ذلك)، فإن عليهما ألا يجدا أيّة مفاجأة في رفضه الإجابة عن أيّة أسئلة أخرى قبل أن يحصل على إجابة مباشرة عن سؤاله. لم يستجب الجنديان لهذا بأيّ شيء: نظر كلٌّ منهما إلى الآخر، ثم أومأ أحدهما برأسه وقال، «حسنًا، سأظل هنا»، وأمسك زميله بذراع إيزتر ولم يقل له أكثر من «فلنذهب، أيها العجوز»، ودفعه أمامه، فقاده عبر الوجوه المحدِّقة. لم يبدر عن إيزتر أيُّ احتجاج لأنه ظنَّ أن هذا المنعطف المفاجئ في مجريات الحوادث يعني أن الجنديين قد رضخا لتهديده وقبلا الإنذار النهائي الذي وجَّهه إليهما. ولما كانت هذه المعاملة الخشنة لا تغيِّر شيئًا من جوهر الأمر، فإنه لم يجد غضاضة في كونها تشبه الأساليب المتَّبعة في معاملة المساجين. سارا نحو ثلاثين أو أربعين ياردًا قبل أن يصيح به الجندي طالبًا منه الانعطاف يسارًا، فوجد نفسه مضطرًا إلى ترك شارع كاراسوني والسير في اتجاه القناة. صحيح أنه لم يكن يملك أيّة فكرة عن وجهة سيرهما، لكنه كان مسرورًا بأن يطيع الأمر ظنًا منه أن هذا، مهما تكن طبيعته،

(سوف يتضح) عند وصولهما. تابعا السير، وكان قد قرّر عدم متابعة الكلام في الأمر في الوقت الحاضر، لكنه لم يستطع مقاومة إغراء المحاولة مرة أخرى عندما بلغا ضفة القناة، («أخبرني، على الأقل، إن كان حيًّا!»)، لكن مرافقه أسكته بخشونة جعلته يدرك أن من الأفضل له تأجيل أسئلته ومواصلة التزام الصمت، ثم استمر ذلك إلى أن صدر إليه الأمر باجتياز القناة مرورًا بالجسر الحديدي، ثم بالمضي في ممرٍ قصيرٍ، فجعله ذلك يعتقد بأن وجهتهما يجب أن تكونَ شارعَ هاي، مرحليًا على الأقل. وأما أين يذهبان بعد ذلك، فقد كان أمرًا لا يستطيعٍ تخمينه لأن أي بناء عام يمكن أن يصلح لأن يكون سجنًا أو مستودع جثث في الحالات الطارئة؛ ولم ينتج عن هذه التوقُّعات التي لا طائل منها شيء غير عودة صورة الرعب السابقة إلى تعذيبه، لكن المسألة هذه المرة لم تكن مسألة «أسفل جدار بين الركام» بل مشرحة مؤقتة. ومثلما ظن، بلغا شارع هاي آخر الأمر، فقرر عند تلك النقطة أن يكفَّ عن التخمين وأن يركّز قواه كلها إلى إبعاد تلك الصور وترتيب أفكاره التي كانت تدور من حولها دورانًا مجنونًا: سوف يستعرض انطباعاته، وينظر فيها مليًا، ثم يقرّر ما كان منها حقيقة وما كان مجرد إحساسٍ مبهمٍ، وسوف يزن كل كلمة وكل نظرة وكل تفصيلٍ قد يبدو قليل الأهمية تحسبًا لأن

يكون تفكيره الدقيق قد أخطأ شيئًا... أي شيء يمكن أن يجابه هذا الإحساس بالفناء، فلعل هناك شيئًا في ما قالته السيدة هارر أو ما قاله د. بروفاجنيك والجنديان، شيئًا قد يوحي بأن فالوسكا سجين فحسب، وبأنه جالس في مكان ما -جالس مذعورًا غير مدرك شيئًا، لكنه غير مصاب بأذى- ينتظر إخلاء سبيله. لكن، كيفما نظر إلى الأمر، كان أمله في استعادة صديقه سالمًا يبدو أملًا غير ملموس، لأن شيئًا لم يكن يؤيّد ذلك الأمل، بمعزل عما قالته السيدة هارر، فوجد نفسه مضطرًا إلى الإقرار بأن الكلمات والتفاصيل التي استطاع استعادتها قد جعلته في شكٍّ عميقٍ، أو أنها أودت بأي أمل لديه (وهنا عادت إلى ذهنه صورة الجثة التي في الشارع). ومع مرورهما بمقر مجلس المياه، وانعطافهما في شارع مجلس المدينة، كان قد بدأ يتمنّى لو أنه لم يقدم على تلك المغامرة الخطيرة، مغامرة «ترتيب أفكاره»، فقد ظلّ يعود إلى صورة الجثة مهما حاول تفادي تلك العودة، ثم إن صورة الجثة صارت تبدو كأنها اتخذت مغزى شخصيًا فائقًا.

كان عليه أن يستعيد هوية الجثة، مرة بعد مرة؛ وكان عليه أن يواجه حقيقة أن معرفته شخص الضحية عندما كان في شارع كاراسوني (بمعزل عن إحساسه المخجل

بالارتياح على الرغم من رعب النظر إلى الموت)، قد أكسبت أفكاره وجهة لا تدعو إلى الاطمئنان أبدًا: كان هذا يثقل عليه، وكان يخيفه، لأن هذا الاعتداء الإجرامي القاتل -أو، هكذا بدا له- لم يكن موجَّهًا إلى هدف عشوائي، لم يكن كذلك على الإطلاق، بل كان موحيًا بما قد يجدانه، بما قد أعد نفسه له، عندما يبلغان وجهتهما. لقد كان الفعل العنيف الذي أدى إلى مقتل تلك المرأة على صلة وثيقة بفالوسكا، على صلة وثيقة إلى حدٍّ غير مريح أبدًا؛ وحتى إذا لم يكن قادرًا على تتبّع الأسباب الكامنة وراءه تتبعًا دقيقًا، فقد أحسّ بأن مصير الشخص الأول لا بد أن يكون مؤشّرًا على مصير الشخص الثاني، وما عاد قادرًا على تجاهل حقيقة أن الرأس الذي كان متدليًا من حافة الرصيف لم يكن إلا رأس السيدة بلوف، والدة فالوسكا، مما يعني أن ما من شيء يمنعه من إسقاط صورة الصبي على جسد أمه المتيبّس الذي واجه ذلك المصير الوحشي. لم يستطع أن يشرح لنفسه ما كانت المرأة تفعله هنا في منتصف الليل، هذه المرأة خاصّة، السيدة بلوف، التي كانت بالتأكيد ومن غير أي شك عارفة بما يجري (خلافًا له)،... امرأة كان أمرًا طبيعيًا ألّا تحب الخروج من بيتها بعد حلول الظلام، مثلها مثل بقية نساء المدينة (كان واثقًا من هذا على الرغم من قلة معرفته بها). لم يستطع فهم هذه النقطة،

ولا فهم ما يمكن أن يكون قد جعلهم يجرُّونها إلى الخارج (في حال الاحتمال الآخر، ألا وهو أنهم قد اقتحموا البيت عليها)، فقد كان هذا كلّه شديد الغرابة، كما كان السبب الذي يجعل الصلة الرابطة بين مصيري الأم والابن واضحة بذاتها أمرًا شديد الغموض أيضًا. ما كان لديه شيء يبرر ثقته في هذا، لكن عقله لم يشك أبدًا في أن عليه تبريره لأن غريزته طالبته بفعل ذلك، وقد كان واقعًا كلّه في أسر غرائزه على الرغم من محاولاته غير المجدية للتظاهر بأن الأمر ليس هكذا. كان يعرف أن محاولته تحرير نفسه من عدم اليقين الذي يعذّبه كانت محاولة ناجحة تمامًا، وأن ليس من شأن حساب الاحتمالات إلا أن يفضي إلى إلغاء أي احتمال على الإطلاق. ما عاد مؤمنًا بأن هناك نتيجة محبّذة، ولم يحاول إراحة نفسه -خلال سيرهما الخطوات القليلة الأخيرة- بالتفكير في أنه سيحظى بأية راحة أو مواساة من هذا النوع: لقد كان مسلّمًا نفسه تمامًا لكلّ ما قد يحدث، وكان يقاوم أيّ أمل هستيري بالوصول إلى أية نتيجة؛ وعندما عوى الجندي قائلًا له: «إلى اليمين»، انعطف طائعًا، فدخل بوابة مقر مجلس المدينة دخول رجل مروَّض محطَّم؛ ثم، في أسفل أحد السلالم، انضم إليهما جندي آخر، فقاده الاثنان إلى الأعلى حيث كان عليه أن ينتظر عند أحد الأبواب محاطًا بمجموعة من

أهل المدينة، في حين دخل الجندي الذي أتى به عبر ذلك الباب، ثم لم يلبث أن عاد سريعًا وطلب منه دخول قاعة ضخمة قالوا له فيها أن يجلس على كرسي عند الباب إلى جانب أربعة أشخاص آخرين. أدّى مرافقه التحية وانصرف عند انتهاء مهمته، فجلس إيزتر طائعًا على الكرسي الذي خُصِّص له، ولم يقم بأيّة محاولة للنظر إلى ما حوله، بل وضع رأسه بين يديه كأنه لم يبق لديه قوة لرفعه، وكان يشعر بتعبٍ شديدٍ كالذي شعر به بعد الظهر، ولعلَّ ذلك كان نتيجة الاختلاف الكبير بين الدفء الشديد في الداخل والبرد القارس في الخارج، أو لعلّ الرطوبة هي ما فعل به ذلك... ولعل الأمر كله ـ الآن، بعد أن جلس أخيرًا ـ كان احتجاج جسده على تلك المسيرة الطويلة التي أضنته تمامًا. اقتضى الأمر دقائق كثيرة حتى زال عنه إحساسه بالضعف والدوار، وحتى استعاد بعض قواه؛ ثم لم تمض إلا بضع ثوانٍ قبل أن يدرك ويفهم أنهم لم يأتوا به إلى حيث كان يفترض أنهم سيأتون به، وأن ما ينتظره لم يكن ما توقَّعه، وأن قلقه كلّه، وتخميناته كلّها، وكلّ ما كان لديه من أملٍ وقنوطٍ، قد كان نافلًا، أو أنه كان زائد التعجل، على أقل تقدير: هذا ليس سجنًا، ولا مستودعًا للموتى؛ ولن يتلقَّى هنا أيّة إجابات... بل مزيدٌ من الأسئلة! والحقيقة أن ما من معنى لأي كلام إضافي،

ولا حتى لوجوده هنا، لأنه نظر حوله فلم ير فالوسكا، لا حيًا، ولا ميتًا. كانت النوافذ الضخمة قبالته، في الناحية الأخرى من الصالة، مجلَّلة بستائر ثقيلة؛ وكانت الصالة ذات الإنارة الرديئة والباب المرتفع تبدو مقسومة إلى نصفين متساويين كأن خطًا غير مرئي يفصل بينهما: كان في النصف الذي جلس فيه عند الجدار رجل على وجهه كدمات كبيرة، وكان واقفًا في وسط المساحة مرتديًا سترة مبطَّنة وحذاء كبيرًا خشنًا؛ وعلى مسافة خطوة منه، وقف جندي شابّ عقد يديه خلف ظهره (كان الشاب ضابطًا، بحسب ما رأى إيزتر)؛ ومن خلفهما، في الزاوية الأخرى، رأى زوجته، نعم زوجته، التي كان واضحًا أنها غير مهتمة بما يحدث أبدًا، وأنها تمعن النظر في النصف الآخر من القاعة، حيث لم يكد يستطيع رؤية شيء غير الظلمة -للوهلة الأولى-، على أية حال، وحتى بعد ذلك، لم ير إلا خيالًا غير واضح لمقعد مرتفع الظهر عليه زخرفة تزيينية. كان ظهر المقعد في اتجاههم، وكان ذلك المقعد -بقدر ما استطاع إيزتر أن يتذكر- مستخدمًا «لتعزيز مكانة» كلّ عمدة للمدينة منذ بدء الزمان. وفي صف الكراسي إلى يساره مباشرة، كان جالسًا رجل بدين إلى حد مدهش، رجل سمين سمنة تكاد تكون خارقة للطبيعة، وكان ذلك الرجل يصدر أصواتًا صافرة مع تنفُّسه كأنه يريد أن

يجعل الهواء نفسه، الهواء الذي يستنشقه، ثقيلًا مثله؛ وكان يأخذ أنفاسًا من سيجار معطّر فتهزّه، من حين لآخر، نوبات سعال مخيفة، لكنه يواصل النظر من حوله بحثًا عن منفضة السجائر التي لم يستطع العثور عليها مما اضطره -آخر الأمر- إلى إسقاط رماد سيجاره على السجادة. وكان الثلاثة الآخرون الجالسون إلى يمينه يتململون قلقًا من غير انقطاع؛ وعندما عرفهم إيزتر وحياهم تحيةً صامتةً، أجابوه بإيماءات سريعة من رؤوسهم، ثم تظاهروا بأنهم ليسوا الأشخاص الذين التقاهم يوم أمس أمام نادي الياقات البيضاء التابع لمصنع الجوارب، ليسوا الأشخاص نفسهم الذين ما كانوا يريدون مفارقته: كانت رؤوسهم الآن ملتفتة إلى السيدة إيزتر، وكان انتباههم منصبًّا عليها وعلى الضابط الواقف في الناحية الأخرى من الصالة المظلمة؛ وكانوا يناقشون بهمسات يسمعها من حين لآخر من منهم ينبغي أن يكون الأول في الكلام إذا -كما عبّر السيد فولنت- نجحوا في تحطيم ذلك المجرم الوقح، وسمح لهم «الملازم» بالكلام. لم يكن صعبًا اكتشاف الشخص المعني بهذه العبارة التي تكرّرت كثيرًا على الرغم من أن تيقّنه المرّ من أن مصير فالوسكا قد قتل أخمد كل ما كان في نفسه من فضول إزاء ما هو الآن بين يديه؛ وكانت عيناه أيضًا مركّزتين على الشخص الواقف في

وسط الغرفة، ذلك الشخص الذي تلقّى ضربًا شديدًا، وعلى الضابط الذي يستجوبه من غير أيّة محاولة لإخفاء نفاد صبره. كان واضحًا، من نظرة واحدة، أن ما يزعج معارفه الثلاثة الجالسين كان، في حقيقة الأمر، «وقاحة الرجل صاحب السترة المبطنة»، فانطلاقًا من «وقاحته» المتواصلة، كان الاستجواب (لا بد أنه استجواب)، الذي رآه أشبه بمبارزة منه باستجواب، يبدو بعيدًا كل البعد عن الوصول إلى نهايته. كان «الملازم» قد اضطر إلى قطع مجريات عمله، قطعًا مؤقتًا، بسبب وصول إيزتر، وذلك إلى أن جلس إيزتر في مكانه بعد زوال الدوار الذي اعتراه؛ وكانت عيناه مثبتتين على الجالسين، فلم يقل شيئًا، بل انحنى إلى الأمام وقد تقلَّص وجهه وراحت عيناه تلتمعان بالوعيد، انحنى محدِّقًا في عيني الآخر كأنه واثق (لعدم تمكّنه من تحقيق أي تقدّم بأية طريقة أخرى) من أن نظرته الفولاذية الخارقة قادرة على إجبار خصمه على الخضوع، بل على إفنائه إفناءً تامًا. لكن الرجل لم يأبه لشيء من ذلك،
بل بادله النظرة نفسها كأنه يقول له إنه غير قادر على إخافته بهذه النظرات، ولا بأي شيء آخر. والحقيقة أن ذلك الملمح في وجهه المتكدِّم كان موحيًا بنوع من الازدراء العابث العنيد إزاء الضابط؛ وعندما أحسّ الضابط بأنه ضاق ذرعًا بهذا، واستدار غاضبًا مشيحًا

بوجهه عنه، لم يستجب الرجل لذلك إلا بابتسامة عابرة صغيرة جدًّا، فقد كان واضحًا أنه غير مهتم البتة بالنياشين اللامعة المصفوفة على صدر الضابط، ولا بالقدرة الإفنائية لنظرته «الفولاذية»، ولا بما استقر عزمه -لشدة انزعاجه- على فعله. راح إيزتر يتساءل إن كان الضابط قد اعتزم «التعامل» معه شخصيًا، أم أنه سيرسله لكي «يتعامل» معه الآخرون الذين فشلوا حتى الآن في تليينه بأي مقدار من الضرب (رأى إيزتر أن هذه لن تكون المرة الأولى التي يختار فيها الرجل هذا الخيار، وذلك احتكامًا إلى حالة وجهه)... فقد يفلح أولئك في إقناعه بالاعتراف عن طريق -هنا طغى صوت فولنت في وعي إيزتر- «تحطيم مقاومته الغبية». رجع الضابط خطوة إلى الخلف، ثم انفجر غضبًا وصاح بسجينه: «لماذا لا تفتح فمك؟». فأجابه الآخر كأنه يبصق عليه: «لقد قلت لك، أعطني مسدسًا محشوًا، واخل القاعة، وسوف أتكلم...»؛ ثم رفع كتفيه كأنه يقول: «لن أدخل معك في أيّ مساومة»؛ كان هذا كل شيء، لكنه كان كافيًا للإيحاء بما كان يجري قبل وصول إيزتر، فقد كان هدف المبارزة جعل الرجل صاحب السترة المبطَّنة يتكلم ويكشف عما كان كل واحد من الجالسين عند الجدار تواقًا إلى سماعه، على الرغم من أنهم كانوا جميعًا يموتون رغبة في الكلام. كان هناك

شيء عن مجريات الليلة الماضية أرادوا معرفته من هذا الرجل الذي لعل الجنود اختاروه اختيارًا عشوائيًا من بين «الرعاع القذرين» في ساحة السوق؛ أرادوا سماع التفاصيل، وأرادوا ما كان الملازم نفسه قد طلبه بعد ردِّه الحاسمٍ على الاقتراح المشروط الذي تلقّاه (قال للرجل: «إذا، عليك أن تموت من تلقاء نفسك»)؛ كانوا يريدون سماع «الحقائق، والملابسات، والتفاصيل الدقيقة»، فقد يصيرون قادرين بالتالي، بعد حصولهم على هذا كلّه، على تكوين صورة لما جرى، تكون صورة شاملة، عامّة التطبيق، ومطمئِنة -بشكل عام- للجميع، للجنود وللمواطنين على حد سواء. وأما من ناحية أخرى، فقد كان إيزتر غير راغب في معرفة شيء من هذا، أو لعلّه كان غير راغب في معرفة أي شيء، لأنه كان مقتنعًا بأن «تلك الحقائق والملابسات والتفاصيل»، مهما تكن واضحة، لا تستطيع أن تفعل شيئًا -في أسوأ الأحوال- أكثر من الدوران من حول سؤاله عن فالوسكا، ومن المؤكّد أنها لن تقوده إليه.

وهكذا كان قد أصمَّ أذنيه عندما بدأ الطرفان، بعد أن قررا الوفاء بمقتضيات الاقتراح المشروط، جلسة أسئلة وإجابات متوتِّرة سريعة كان الملازم فيها يقذف بالأسئلة قذفًا، فيقدّم إليه السجين إجابات وقحة باردة ببرودة غير بشرية، إجابات تتعمّد استفزازه، فكان ذلك حوارًا بدا،

بعد الصمت الطويل الذي سبقه، تبادلًا رشيقًا لامعًا على نحو معتبر.

-اسمك؟
فيمَ يهمّك هذا؟
-قل لي اسمك!
نسيت اسمي؟
-مكان إقامتك!
هل يعقل أنك تريد معرفة اسم أمي؟
-أجب عن السؤال الذي طرحته عليك.
دعك من هذا، أيها العصفور أحمر الساق.
-أنت لا تهينني بهذا، أنت تهين السلطات.
إلى الجحيم بالسلطات.
- اتفقنا على أن تجيب، وأما إذا تابعت على هذا النحو، فلن أعطيك مسدسًا. سوف أقطع لسانك بدلًا من ذلك. لست أمزح. قف منتصب القامة. ما هدف مجيئك إلى المدينةجئت حتى أمضي وقتًا طيبًا. أنا أحب السيرك. لقد أحببته طيلة عمري.
- من هو الأمير؟
لا أعرف أي أمير. لا أعرف أحدًا.
-لا تكذب عليَّ.
لم لا؟

-لأن هذا مضيعة للوقت. لقد مر عليّ أشخاص مثلك من قبل.
حسنًا، إن كنت تقول هذا! فلنتابع. هل هذا المسدس الذي في القراب الذي معك هو نفسه المسدس الذي ستعطيني إياه؟
-لا. هل قال لكم الأمير أن تطلقوا النار على رؤوسكم فتقتلوا أنفسكم إذا تم إخماد التمرد؟
لا يصدر الأميرٍ أية أوامر.
- فماذا يفعل إذا؟
ماذا تعني؟ هذا أمر لا علاقة لك به.
- أجبني!
- لن تفهم شيئًا على أية حال.
- أود تحذيرك من أنك لن تفلح في إثارة انزعاجي، مهما حاولت. متى بدأت متابعة مجريات السيرك؟
لست أبالي بإنذارك أبدًا.
- متى رأيت الأمير أول مرة؟
لم أر الأمير إلا مرة واحدة. إنهم يلفونه دائمًا بمعطف من الفراء عندما يخرجونه من الشاحنة حتى نراه.
-ولماذا يلفُّونه هكذا؟
لأنه يشعر بالبرد.
-تقول إنك رأيت وجهه مرة واحدة، صفه لي؟
أصفه لك. أنت لست غبيًا فقط... أنت تثير ضجري.

-أين هي عينه الثالثة؟ هل هي في المؤخرة؟ أم في حاجبه؟

لماذا لا تأتي به إلى هنا. إن كنت تجرؤ على ذلك. عندها، سأريك عينه الثالثة.

-ولماذا أخاف منه؟ أتظنّه سيحوّلني إلى ضفدع؟

وما الغاية من تحويلك؟ أنت ضفدع كبير منذ الآن.

- قد أغيِّر رأيي وأجعل دماغك يتناثر على الأرض.

حاول أن تفعل هذا، أيها العصفور أحمر الساق.

- ما عليك إلا أن تنتظر. في أي وقت ظهر الأمير من الشاحنة يوم أمس؟

في أي وقت؟ قلت لك إنك لا تفهم شيئًا.

-هل سمعت شخصيًا ما قاله؟

لم يسمعه إلا من كانوا واقفين على مقربة منه.

-فكيف تعرف ما قاله إذًا؟

إن المساعد العام يفهمه. وهو يترجم كلامه دائمًا ترجمة جيدة بصوت مرتفع.

-ماذا قال لكم مساء أمس، على سبيل المثال؟

قال إن الضفادع من أمثالك غير ذات فائدة لأحد.

-لقد أمركم بأن «تحطموا كل شيء». هل هذا صحيح؟

الأمير لا يصدر أوامر أبدًا.

-قال لكم: «ابنوا عالمًا جديدًا فوق الأنقاض!»؛ هل هذا صحيح؟

أنت على اطلاع حسن، أيها العصفور أحمر الساق.

-ما معنى هذا؟ اشرح لي هذه العبارة: ابنوا عالمًا جديدًا فوق الأنقاض؟

أأشرحها لك؟ لا فائدة من هذا.

-لا بأس، ما هو عملك؟ أنت لا تبدو متشرّدًا.

لماذا؟ أتظن أن مظهرك أحسن من مظهري؟ وما هذه الزينات السخيفة التي على صدرك؟ لا يمكن أن أتجول بملابس مثل ملابسك؟

-سألتك عن عملك؟

إنني أحفر الأرض من أجلكم.

-أنت لست فلاحًا.

لا. لكنك فلاح.

-تتكلّم كأنك حظيت بشيء من التعليم.

أنت تسير في درب خاطئ. حقًا، أنت لست أكثر من موظف صغير.

-هل يعني هذا أنك لا تبالي إن أطلقت النار عليك مثلما أطلق النار على كلب شارد قذر؟

تخمينك ذكي.

-لماذا؟

لأنني لم أعد راغبًا في حفر الأرض من أجلكم.

-ماذا تعني بهذا؟

وأنت أيضًا تقلب التربة، تقلبها مثلما تفعل دودة الأرض

اللعينة. أنت تحفر وتحفر ـ أنت تستمتع بالحفر أيضًا. أما أنا فلا!

-هل هذا نوع من شيفرة تستخدمها في كلامك؟

بالتأكيد! أنا رجل متعلّم، هل تتذكَّر هذا؟ صحيح، إنها شيفرة...

-أجبني: تركتم الساحة جميعًا عندما أعادوا الأمير إلى الشاحنة. من أمركم بترك الساحة، صفهم لي. من قال لكم أن تفعلوا هذا؟ وعندما وصلتم إلى مركز البريد، من الذي اقترح توزّعكم إلى جماعات صغيرة؟

يا لهذا الخيال الذي لديك!

-أعطني اسم الرجل الذي أصدر الأمر؟

ليس لدينا غير زعيم واحد. وأنت لن تلقي القبض عليه.

-كيف تعرف أنه فر؟ هل أخبرك بالمكان الذي فر إليه؟

لن تمسكوا به أبدًا!

-هل الأمير شيطان آت من الجحيم؟

أوه، الأمر ليس بهذه البساطة. إنه من لحم ودم، لكن لحمه ودمه مختلفان.

-إن كان لا يهمك شيء، فاشرح لي كيف جعلكم واقعين جميعًا تحت تأثير سحره؟ هل أميرك هذا موجود حقًا؟ وما سبب مهاجمة المدينة؟ لماذا أتيت إلى هنا؟ هل أتيت من أجل التخريب؟ هل أتيت تخرِّب المدينة بيديك العاريتين؟ ماذا تريد؟ لست أفهمك؟

لا أستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة كلها دفعة واحدة.
-إذًا، قل لي، هل شاركت في أعمال القتل؟
شاركت، لكن ليس بالقدر الكافي.
-ماذا؟
لقد أجبتك. ليس بالقدر الكافي.
-لقد قتلت طفلًا عند المحطة. وأنا أسألك لا بصفتي محققًا بل سؤال رجل لرجل، أما من شيء مقدّس بالنسبة إليكم؟
سأخبرك، رجلًا لرجل، لا شيء مقدَّسًا. متى تعطيني ذلك المسدس؟
-أظنني أفضِّل أن أكسر رقبتك. ببطء شديد.
لا علاقة لي بالطفل. لكن، هيا، اكسر رقبتي.
-هل هؤلاء الناس الذين في الساحة، أولئك المئات... هل هم جميعًا مثلك؟ وكيف عرفوا هذا؟
أشعر برغبة في التقيؤ. يبدو أنك فقدت صبرك في آخر المطاف. لماذا تقلص وجهك كله؟ أين هو انضباطك العسكري؟
-قف باستعداد!
إنني واقف. لقد قيَّدتم يديَّ، وأنفي يحكّني.
-انتهى الاستجواب. سوف أسلمك إلى المحكمة العسكرية! اذهب إلى الباب.
قلت لي إنك ستعطيني مسدسًا.

-قلت لك أن تذهب إلى الباب!!!
صبي جندي ذكي مثلك... ثم تكذب! محكمة عسكرية، أين أنت؟ ألم يقل لك أحد إن لا فائدة من أي شيء؟ ثم تحدّثني عن المحكمة العسكرية.
-قلت لك أن تتحرّك. اذهب إلى الباب!
لقد صرت أحمر اللون حقًّا، أيها العصفور أحمر الساق. هذا الاسم مناسب لك. لكني لست أبالي بشيء. إلى اللقاء، أيها العصفور أحمر الساق.
كان بالباب جنديان واقفان أمسكا بذراع الرجل ذي السترة المبطنة عندما بلغهما، ثم جرّاه إلى خارج القاعة وأغلقا الباب من خلفهما. كانت أصوات خطواتهم لا تزال مسموعة، ثم ساد الصمت بعد ذلك. أصلح الملازم هندامه، وراح الآخرون ينظرون إليه متسائلين إن كان سيستعيد السيطرة على أعصابه. كان واضحًا من هو المعتمد على ذلك تحديدًا، لكن، على أية حال، بدا أن من في الصالة كلهم -كلهم عدا شخص واحد- ينتظرون أن تبدر عن الملازم عبارة موجَّهة إلى واحد منهم، شيء يمكن أن يكون من أثره أن يشدّهم بعضهم إلى بعض بحيث يصيروا قادرين على التعبير عن إحساسهم بالغضب الشديد. كان إيزتر هو الشخص المستثنى من ذلك الإحساس لأن أثر الاستجواب عليه كان مختلفًا تمام الاختلاف؛ وذلك أن ما عرفه من الرجل ذي اليدين

المقيَّدتين خلف ظهره، في سياق الأسئلة والإجابات، لم يثر غضبه، بل تركه في حالة من التعاطف فاقت ما كان قبلها لأن ما سمعه أكد أسوأ مخاوفه: من المؤكَّد أن فالوسكا (بعد أن اختلط بأشخاص من هذا القبيل) لن يبق حيًا حتى يقص عليه ما جرى. لم يكن معنى هذا أنه لم يعد راغبًا في تفسير أي شيء بنفسه، بل إنه ما عادت لديه قوة لفعل ذلك، بل إنه حتى ما عاد قادرًا على حشد طاقة كافية للمشاركة في الكلمات الغاضبة التي بدأت بعد أن استعاد الملازم هدوءه وغفل عن توجيه أية «عبارة لأحد منهم» -أية عبارة من شأنها استدراج عرض حماسي للمشاعر المشتركة- لم يوجه الملازم أية عبارة إلى الجالسين عند الجدار، أولئك الذين كانوا في توقٍ شديدٍ إلى التعبير عن رأيهم؛ إلا أن إيزتر ما كان مهتمًا إن كان «الرجل وغدًا حقيقيًا»؛ وما كان مهتمًا إن كان «من غير الممكن قتل أولئك الناس بالبنادق». ولما همس له جاره الأقرب، السيد فولنت الذي كان واضحًا أنه توقَّع منه نوعًا من الموافقة: «الموت أفضل ما يستحقه هذا الخنزير الذي لا يعرف الربّ، ألا تظن هذا؟»، استجاب لهذه المفاتحة الودية بإيماءة صغيرة جدًّا من رأسه من غير أن يتحرّك أي حركة، فكان عنصرًا صامتًا غير منسجم مع جوقة الهامسين، إذ واصل النظر أمامه وقد ارتسم على وجهه تعبير انزعاج

عميق، حتى بعد أن سكت الآخرون فجأة. انفتح الباب، لكنه لم يسمعه، ومرّ شخص أمامه بهدوء، لكنه لم يرفع رأسه ولم يلاحظ أن الملازم استدعى واحدًا من الجالسين عند الجدار إلى وسط الغرفة. وعندما رفع رأسه كادت تصيبه دهشة كبيرة لأنه رأى جاره البدين واقفًا في المكان الذي كان يشغله السجين قبل قليل؛ كما دُهش أيضًا عندما رأى هارر واقفًا في زاوية في آخر الغرفة، وبدا له أنه يبذل محاولات محمومة لإبلاغ إيزتر بشيء ما. إلا أن إيزتر لم يُظهر أي قدر من الدهشة التي اعترته، فقد فشل هذا التغيير المفاجئ في مجموعة الممثلين فشلًا تامًا في إخراجه من حالة اللامبالاة؛ وهذا ما جعله لا يرى مغزًى خاصًا في حقيقة أن هارر (بعد أن تركته المرأة في الزاوية وذهبت إلى مقربة من الملازم كأنها تريد إعطاءه معلومة مفيدة)، غمز له بعينه أول الأمر، ثم حاول محاولة واضحة إبلاغه شيئًا ما من خلال بضع إشارات مطمئِنة من يده. لم تكن لديه أيّ فكرة عما يجري، ولا عن غاية ذلك الغمز وتلك الحركات الواضحة في الزاوية المقابلة، إلا أن المراد من ذلك كله، مهما يكن المراد منه، جعله في حالة برود تام؛ ثم إنه أشاح بوجهه بعيدًا مما سبب لهارر انزعاجًا واضحًا. راح ينظر إلى الضابط الذي كان يومئ برأسه إيماءات وهو مصغٍ إلى ما تقوله

السيدة إيزتر. وأما موضوع الحديث فقد ظلَّ لغزًا إلى أن كافأ الملازم القصة المهموسة التي سمعها منها بنظرة موحية بالسرّية. قطع الملازم الاستجواب الجديد الذي لم يكد يباشره، ودار على عقبيه، ثم سار إلى الكرسي الرئاسي فوقف وقفة الاستعداد، ثم قال: «سيدي العقيد! لقد عاد الرجل الذي أرسلناه. يقول إن مدير الشرطة لا يزال موجودًا في شقّته، لكنه لا يزال تحت تأثير الكحول، وهو ليس صاحيًا إلى الحد الذي يسمح له بالمجيء». أجابه صوتٌ حادٌّ غاضب كأن صاحبه أُخرج بطريقة فظة من حالة من حالات التأمل العميق، «ما معنى هذا؟». «إنه في حالة سكر شديد، يا سيدي. الشرطي الذي نبحث عنه ثمل جدًّا، غير واعٍ، ولا يستطيع أحدٌ إيقاظه». أجهد إيزتر عينيه بعض الوقت محاولًا اختراق العتمة العامة التي كانت أكثر كثافة في تلك الناحية البعيدة من الصالة، لكن محاولاته كانت من غير طائل؛ لقد كانت رؤية أي شيء من المكان الذي أجلسوه فيه، ثم ظل جالسًا فيه منذ وصوله، أمرًا مستحيلًا. على الرغم من هذا، كان يعرف أن الكرسي - كرسي كان مصنوعًا للعمالقة، بالتأكيد- لا بد أن يكون جالسًا عليه الآن شخص مختفٍ خلف ظهره المرتفع. ثم تمكَّن أخيرًا من رؤية يد في الظلمة، تمامًا عندما هبطت ببطء واستقرَّت على ذراع الكرسي اليمنى ذي النقوش

التزيينية. قال الصوت من جديد: «يا للغباء! واحد فقد رشده، والآخر خائف خوفًا شديدًا يجعله يظلّ في بيته ولا يأتي على الرغم من وجود من يرافقه! ما رأيك في ما يتعين علينا فعله مع أبناء الحرام الجبناء أولئك؟!».
أجابه الملازم: «على المرء أن يخرج بالاستنتاج المناسب، يا سيدي العقيد». «صحيح، كبِّلهما بزوجٍ من الأصفاد، وأحضرهما معًا!». «حاضر، يا سيدي!».
قال الملازم هذا ودق كعبًا بكعب، ثم نقل الأمر إلى الجنديين الواقفين خارج الباب، ثم سأل: «هل أتابع الاستجواب، يا سيدي؟». «بكل تأكيد، يا غيزا، يا بني، بكل تأكيد»؛ هكذا كانت الإجابة، وكانت نبرة الصوت موحية -بالنسبة إلى إيزتر- بنوع من الألفة الفاترة الواهنة: كان شاغل الكرسي الخفيّ مدركًا ضرورة الإجراءات السليمة، لكنه أراد في الوقت نفسه الإيحاء بأنه منزعج شخصيًا من اضطرار ملازمِهِ إلى أداء مهمات أدنى من مركزه بشكل واضح. وأما إلى أي مدى كان إيزتر مصيبًا في استنتاج هذه الحالة الذهنية لدى العقيد، أو مخطئًا، (كان إيزتر قد استعاد، للمرة الأولى، أثرًا من قدرته على تجاوز حالته الذهنية المحبَطة)، فهو أمر ما كان له أن يتَّضح إلا بعد زمن، وأما في اللحظة الراهنة، عندما بدأ يتفحص -بأفضل ما استطاع- الظروف الغامضة التي بدا له أنها تواجهه، فقد

كان كلُّ ما استطاع اكتشافه هو أن هناك، إضافة إلى الكرسي الذي في وسط الصالة العارية، ذلك الكرسي الذي لم يكن مجرَّد مقعدٍ للرجل الذي كان راغبًا في البقاء في خلفية الصورة مع استمراره في الإشراف العام على التحقيق، بل ربما على العمليات العسكرية كلها... وهناك أيضًا لوحةً ذات إطار مذهب تغطي -عمليًا- الستائر الخضراء الداكنة في القاعة رفيعة المستوى؛ وكانت تلك اللوحة تصوِّر مشهد معركة ملائمًا للمكانة التاريخية لهذا المكان. كان هذا كلّ شيء، ولا شيء غيره، كلّ شيء استطاع ملاحظته في تلك الدقيقة الأولى، وحتى هذه الانطباعات نفسها بدت له فرضيات غير مؤكّدة، أكثر من كونها حقائق؛ وهذا على الرغم من أن أي مزيدٍ من الأسئلة في ما يخص هذا القائد بعينه من قادة جيش التحرير، أسئلة متعلّقة بقلة الإنارة، على سبيل المثال («لعل هذا لأسباب أمنية...»)، أسئلة من قبيل السبب الذي جعلهم -بعد أن أسدلوا الستائر- يمتنعون عن إضاءة الثريتين المعلّقتين من السقف، وكذلك عن العقيد الجالس على الكرسي مديرًا ظهره إلى الناس، لكنه في مواجهة المشهد التاريخي الذي في اللوحة، يفعله في مقر قيادته المؤقت المعتم هذا... لم تكن هذه الأسئلة واقعة ضمن قدرته الحالية على الإجابة، ولو لمجرد أن هارر انسلّ في تلك

اللحظة وأتى إليه من زاويته البعيدة وجلس في المقعد الذي شغر قبل قليل وراح يتظاهر -بعد أن عاد الملازم- بأنه غير مهتم إلا باستجواب جار إيزتر السابق، ذلك الاستجواب الذي جرى قبل قليل؛ لم يرفع عينيه عن الملازم والشاهد، لكنّه سعل قليلًا وحاول إخبار إيزتر أنه انتقل إلى مقربة منه لعله ينجح في إبلاغه شيئًا فشلت غمزاته وإشاراته كلّها في إيصاله إليه قبل قليل. همس هارر: «إن أحواله على ما يرام ـ أنت تعرف من أعنيه- »؛ كانت عيناه لا تزالان متعلّقتين بالملازم، وكان انتباه الجميع، بمن فيهم الرجال الثلاثة الجالسين إلى جانبه، فضلًا عن الملازم نفسه، منصبًا كلّه على وسط الغرفة. «لكن، لا تقل أيّة كلمة، يا أستاذ! أنت لا تعرف شيئًا! إذا سألوك قل لهم إنك لم تره منذ يوم أمس. هل تفهم ما أقوله لك؟». نظر إيزتر إليه وقال: «لا. فما الذي تتحدَّث عنه؟» حذَّره هارر: «لا تلتفت في اتجاهي»، وكان غير قادرٍ تقريبًا على إخفاء قلقه من احتمال اضطراره إلى ذكر اسم الشخص المعني، فراح يكرِّر كأنه يشرح الأمر لطفل: «هو، وجدته عند المحطّة، وأرشدته إلى الاتجاه الذي يذهب فيه حتى يفرَّ. ينبغي أن يكون الآن على بعد أميال من هنا. ليس عليك إلا أن تنكر كل شيء إن سُئلت!». وبعد أن قال هذا، رفع رأسه ناظرًا إلى فولنت، فلاحظ أن بقية الحاضرين

يبدون منتبهين إلى الهمس، فاكتفى أن أضاف: «كل شيء!». كان إيزتر ينظر أمامه غير فاهم شيئًا: («ما الذي لديّ حتى أنكره؟ ماذا... هو؟»). وفجأة، سرت فيه دفقة من إحساسٍ حارٍّ، فرفع رأسه منتبهًا من غير أن يولي تحذير هارر الصارم أي اهتمام -لكنه كتم رغبته في الصياح عاليًا- وسأل هارر بصوت كان مرتفعًا إلى الحدِّ الكافي لجعل كلِّ عينٍ تنظر إليه: «أهو حيٌّ؟!». ابتسم الآخر مرتبكًا تحت وقعِ نظرة الملازم الحانقة، ثم فتح ذراعيه بحركة موحية بالاعتذار كأنه يريد إبعاد المسؤولية عنه، أو كأنه يحاول الإيحاء بأن من غير الممكن اعتباره مسؤولًا عما يفعله الرجل الجالس إلى جواره؛ إلا أن ابتسامته اليائسة الموجَّهة إلى الضابط لم تفلح إلا في جعله أكثر غضبًا، بل بدا من المحتمل أيضًا أن الضابط لن يترك الأمر يمرّ هكذا، فظنّ هارر أن من الأكثر حكمة أن ينهض على الفور ويسير بحذر على رؤوس أصابعه، حتى لا يعكِّر مجرى الاستجواب بصوت حذائه، ويعود إلى مكانه خلف السيدة إيزتر التي لم ترفع عينيها عن زوجها. كان إيزتر يودّ أن يلحق به، لكن الملازم صاح بصوت عاوٍ: «صمت!»، عندما قفز واقفًا لكي يفعل ذلك، فأرغمه على الجلوس من جديد. وسرعان ما أدرك -بعد أن فكّر في الأمر بسرعة البرق- أن لا معنى لطرح الأسئلة

على هارر، لأنه لن يفعل شيئًا غير تكرار ما قاله قبل قليل بطريقته المواربة تلك. لا، لم يكن في حاجة إلى سماع كلامه لأن ما عناه بكلمة «هو» وكلمة «المحطَّة» كان واضحًا وضوح الشمس، كما أن التعبير الذي استخدمه «صار الآن على مسافة أميالٍ» كان لا يقل عن ذلك وضوحًا. إلا أن خشيته من أن يخيب أمله جعلته ينتبه إلى ضرورة المحافظة على هدوئه وعدم السماح لمعنى تلك الكلمات بالدخول إلى وعيه مباشرة: راح يرتشفها ارتشافًا، بحذر وانتباه، فخلص إلى أن عليه أن يتحرّى مصداقية المعلومات بأقصى ما يستطيعه من شمول، إلا أن الأنباء السارّة أفلحت في اختراق حواجز تشكّكه المهتزة، فاكتسحت مخاوفه كلّها وألقت بها بعيدًا وجعلته يتخلَّى عن فكرة تحرّي صدق قصة هارر. وذلك لأن ما سمعه جعل القصة التي روتها له السيدة هارر تعود إلى ذهنه، فعرف في تلك اللحظة أن تلك المعلومات لا بدّ أن تكون صحيحة في كلّ تفصيل من تفاصيلها، لقد أكّدت الأنباء الجديدة صدقية ما سمعه في الفجر، كما أكّد ما سمعه في الفجر صدقية الأخبار الحالية من غير أيّ ظلٍّ من الشكِّ. وبالتماعة ذهنية واحدة، رأى هارر ذاهبًا إلى المحطة، ورآه يكلّم فالوسكا، ثم رأى صديقه خارج نطاق المدينة، فأحسَّ فجأة بإحساس فائق بالارتياح كأن حملًا هائلًا قد انزاح

عن كتفيه، كأن الثقل الذي حمله منذ اللحظة التي خرج فيها من بيته في جادة وينكهايم قد اختفى فجأة ولم يبق منه شيء. كان ما أحسّه ارتياحًا حقيقيًا؛ وفي الوقت نفسه، استولت عليه حالة جديدة من الحماسة؛ فبعد أن فكر في الأمر مليًّا، أدرك سريعًا أن الحظ -بل سوء الفهم- الذي أتى به إلى هذا المكان، ما كان يمكن أن يأتي به إلى مكان أفضل منه؛ فهو موجود الآن حيث، بل بالضبط حيث، يستطيع تسوية أمر صديقه... وحيث يستطيع، إن كانت قد وُجِّهت إلى فالوسكا تهمة ما عن طريق الخطأ ـ أن يقنع السلطات بإسقاط التهمة. لم يبق فيه أي أثر من إحساسه السابق بالعجز والقنوط؛
والحقيقة أنه وجد نفسه متقدِّمًا قليلًا على الأهداف التي كانت أمامه. إلا أنه استجمع شتات نفسه عندما أحسَّ بأنه بدأ يضيع في تفاصيل عودة فالوسكا، فراح يذكِّر نفسه بالحاجة إلى الانتباه والصحو، وركّز تركيزًا شديدًا في محاولة لمواكبة ما يحدث في القاعة ومتابعة مجريات الاستجواب الجاري في وسطها، وذلك بعد أن خلص إلى أن الطريقة المثلى لتكوين صورة واضحة عن كل ما جرى هي جمع المعلومات من الشهود المختلفين، ثم الخروج بالنتائج الصحيحة. أبعد كل أمر آخر عن وعيه؛ وبعد بضع جمل، صار واضحًا له، مثلما صار واضحًا للجميع، أن الشاهد الحالي، الرجل

الضخم الذي كان جاره، ليس إلا مدير السيرك نفسه، أو «المدير العام»، مثلما ظلّ الرجل -الذي ذكر إيزتر بواحد من أصحاب الأطيان البلقانيين- يؤكّد بلطف للملازم بأسلوبه المتميز بدرجة رفيعة من المجاملة، وذلك لأن الملازم الذي كانت في يده وثائق ينظر إليها من لحظة لأخرى كان مصرًا على استخدام اللغة الواردة في «تصريح العمل» وعلى الإشارة إليه، على الرّغم من محاولات الرجل الرامية إلى تصحيح هذا التعبير، باعتباره «الشخص الذي يرأس الشركة»؛ وذلك كلّما أفلح الملازم في إقحام سؤال في سيل الكلمات المتواصل الخارج من فم الشاهد. لكن محاولاته كلّها، على الرّغم من تكراره القول للرجل بأن «يجيب عن السؤال المطروح عليه فقط»، لم تكن تلقى كبير نجاح على الإطلاق، بل صار الإرهاق ظاهرًا عليه. كان إيقاف هذا التدفق الكلامي مستحيلًا لأن المدير، على الرغم من تقبله كل إنذار من الملازم بانحناءة خفيفة وبعبارة «طبعًا، بالتأكيد»، ما كان ليتزحزح لحظة واحدة، وذلك أنه كان يستأنف كل جملة من حيث قوطعت بالضبط، ولم يفقد مرة واحدة التسلسل المنطقي للحجج التي كان يأتي بها؛ بل كان صوته يعلو أكثر فأكثر كأنه يريد مخاطبة الناحية القصيّة من القاعة، فيشدد على أهمية «مساعدة الضباط الحاضرين في

الوصول إلى فهم أكثر وضوحًا لمبادئ الفن، ولمبادئ فن السيرك خاصّة». حدّثهم عن مبادئ الفن، وحدثهم عن آلاف السنين من الإهمال الذي أدى إلى أفكار مغلوطة عن الحرّيات التي ينبغي أن يحظى بها («كما هو الأمر في حالتنا»)، ورسم دائرة كبيرة بسيجاره المطفأ بين أصابعه وهو يشرح أن من غير المتوقّع، وأن الصادم، وأن الاستثنائي، كان على الدوام وجهًا من وجوه الفن، لا سبيل إلى تفاديه مثله مثل «عدم استعداد الجمهور»، و«عدم إمكانية التنبؤ بردّات فعله»، عندما يجد نفسه في مواجهة تغيُّرٍ فنّيٍّ ثوريٍّ، وكيف أن الطبيعة الاستثنائية للإنتاجٍ المسرحي (أومأ برأسه وهو يحدِّث الملازم الذي كان يهم بمقاطعته)، لا بد لها من الاصطدام بجهل الجمهور؛ لكن من الواضح أن هذا لا يعني التوصّل إلى الاستنتاج الذي بدا أن الشهود السابقين مصرّين عليه، ألا وهو أن على المبدع الذي يعمل جاهدًا من أجل إثراء العالم بابتكارات جديدة أن يتنازل أمام جهل الجمهور، أو أن يتساهل معه؛ وذلك لأن -هنا أشار المدير إلى سنوات خبرته الطويلة، قائلًا إنها هي ما يسمح له بأن يكون واثقًا كل الثقة عندما يقول هذا الكلام- لأن الجمهور، فضلًا عن جهله، يجد قيمة كبيرة في الجديد، فكلما ازدادت الجدة كلما كان ذلك أفضل، فالشيء الذي يتعامل معه الجمهور بهذه الطريقة

المزاجية النزوية هو عينه الشيء الذي يطالب به مطالبة ملحة.
وعبَّر المدير عن شعوره بأنه واقف بين أشخاص يستطيع أن يعبّر أمامهم بحرّية عما في ذهنه؛ وبالتالي، ومع البقاء ضمن حدود السؤال الذي طرحه الملازم، لا بدّ من قول شيء آخر، جملة واحدة لا أكثر، يمكن أن تبدو غير ذات صلة بالموضوع: مهما يكن فعل هذا صعبًا عليه، فإن عليه الإقرار بأن الأمل قليل في التوصُّل إلى حلٍّ مرضٍ للنزاع، المشار إليه آنفًا، بين الفنان الذي يحرِّر الناس وبين قلّة استعداد من يتوجه إليهم بعمله، وذلك على الرّغم من أنه لا يريد أن يبدو كلامه متشائمًا موحيًا بالخطر؛ وذلك لأن «الخالق كأنما ثبّت كلًا من الطرفين في مكانه إلى الأبد»، فعامّة الجمهور متجمّدة في حالة عدم الاستعداد مما يجعل كلّ من يضع ثقته في قوة المَشاهِدِ والعروضِ الاستثنائية الخارقة محكوم بأن يصل إلى نتيجة حزينة. نهاية حزينة... كرّرها المدير بنبرة صوت رنانة -وهنا، خفض سيجاره بإيماءة احترام وجّهها صوب الضابط- فإذا كان الملازم يسأله إن كان عمل زملائه المتواضعين (لكن، المخلصين تمامًا لمهمتهم)، إضافة إلى عمله، عملًا بطوليًا أم عملًا سخيفًا في ظل هذه الظروف، فإنه يفضّل ألّا يعبر عن أي رأي، وما من شكٍّ في أنهم

سيتفهمون هذا، أو أنه يعتقد أن ما من مزيدٍ يستطيع إيضاحه وشرحه، وذلك في ضوء التوتّرات التي بيَّنها قبل قليل، وكذلك في ضوء النقطة التكميلية التي أضافها بعد ذلك الشرح؛ وذلك لثقته بأن البراءة الواضحة لشركته، في ما يخصُّ الحوادث المؤسفة التي جرت خلال الليلة الماضية، أمر يمكنه تأكيده تأكيدًا جازمًا، بل يمكنه تأكيده بصوتٍ مرتفعٍ؛ وذلك على الرّغم من شهادات السكّان المحليين الّذين تُبين اتهاماتهم مقدار ضيق أفقهم (على الرّغم من معرفته بأنه يبذل الآن هذا الجهد عبثًا، فسوف يطلبون منه السكوت لحظة يفتح فمه). ولعله يستطيع البدء بالقول- وهنا أشعل ما بقي من سيجاره- إن العرض الذي يقدّمه منحصر ضمن فنّ السيرك، ولا علاقة له بأيّ شيءٍ آخر؛ وهكذا فإن الجزء الأول من الاتهامات، ذلك الجزء القائل بأنّ كلّ محاولة لجذب الناس، وكلّ ما كان واردًا في الإعلان ليس إلا واجهة لشيء آخر، ليس إلا تهمة زائفة، بكل تأكيد؛ ثم إنه، هو، مدير هذا المشروع الإبداعي المشترك وأبوه الروحي، لم يكن لديه قط، ولن يكون لديه، أي طموحٍ يتعدَّى مقابلة الجمهور المتزايد دائمًا «بعرضِ كائنٍ خارقٍ، غير معتاد»؛ ففيما يتّصل به -إن سمحوا له بتحويرٍ محزن للجملة، وإن يكن تحويرًا مسليًّا- فقد كانت هذه النتيجة كافية في نظره. وإذا كانت

التهمة الأولى مفتقرة إلى المنطق هذا الافتقار كلّه، فما بالكم بالتهمة الثانية التي تقول (هذا ما فهمه من كلمات السكّان المحليين الهستيرية في مستهل هذا الاستجواب)، إن أحد أفراد شركته، الشخص المعروف باسم «الأمير» -نفث الدخان من فمه، ثم لوّح بيده فدفع به صوب وجه الملازم- متهمٌ بأنه المحرِّض الأول على الشغب الذي جرى في الآونة الأخيرة؛ وهذا ليس أمرًا مستحيلًا فحسب (إن سُمح له بقول هذا)، بل هو في غاية السخف أيضًا، ولو لسبب وحيد ألا وهو أن هذا الاتهام موجه -تحديدًا- إلى شخصٍ لديه أسباب كثيرة تحمله على أن يخشى أيّة تطورات عنيفة من هذا النوع لأن الناس لا يعرفونه إلا من خلال دوره الملتبس في عمل الشركة؛ إنه الشخص الذي أصابه فزع شديد عندما رأى أن قلق المدير كان في محلّه، وأن الجمهور يخلط بين الواقع والدور المسرحي فيصير، سهل التأثّر بالعبارات النارية المثيرة للمشاعر... لقد أصابه ذعر شديد من أن عاطفة الجمهور المستثارة قد تنصبّ عليه (خلافًا لأي منطقٍ معقولٍ، وعلى الرغم من كونه بعيدًا كل البعد عن ممارسة أي دور قيادي)؛ وهكذا فقد تدبَّر أمر هروبه، بمساعدة من زملائه، فور اندلاع العنف.

بعد هذا كلّه، وضع المدير يده خلف ظهره عندما وجد نفسه مضطرًا إلى إسقاط رماد سيجاره من جديد على

الأرض، وقال إن من يجرون هذه الاستجوابات، مع احترامه الشديد لهم، يستطيعون اعتبار الموضوع منتهيًا، فقد صار واضحًا وضوح ضوء النهار أن الاتهامات الموجّهة إلى السيرك ليست إلا اتهامات زائفة لا أساس لها؛ كما أن على «المؤدّين» ذوي الحماسة المفرطة أن يحاولوا العودة إلى هدوئهم، والرجوع إلى ما يعرفون جيّدًا كيف يقومون به، الرجوع إلى أشغالهم؛ وأما بقية الأمر، أي التحقيق في الحوادث التي جرت، وتحديد المذنبين، فمن الأفضل تركه لمن هم مؤهّلون أكثر من غيرهم لإنجازه، أي لأولئك الذين ينحني، بطبيعة الحال، لسلطاتهم واختصاصهم، ويطيعهم في كلّ أمر. لكنَّ ضميره يوجب عليه، في الوقت نفسه، أن يكشف كل شيء أمامهم؛ ولذلك فإنه، هو الذي تضرّر كثيرًا مما حدث، سوف يقدِّم -على سبيل الوداع- مساهمة حاسمة الأهمية في النجاح الأكيد لهذا التحقيق. إنه يريد قول شيء عن أولئك العشرين، أو الثلاثين، من المخرِّبين العتاة الذين تمكَّن الحاضرون -لدهشتهم جميعًا- من رؤية واحد منهم هنا، أمامهم، قبل قليل... ليس أكثر من عشرين أو ثلاثين وغدًا يائسًا كانوا، حتى منذ بدء السيرك في السهول الجنوبية، يندسُّون بين الجمهور في كل خطوة، من قرية إلى قرية، ومن عرضٍ إلى عرضٍ، وكانوا يحاولون دائمًا جعل كل

عرض تقدّمه الشركة محفوفًا بالمخاطر. استغل هؤلاء الناس المساندة المعقولة، حتى الآن، التي تقدِّمها الشركة، مساندة معقولة فقدت الليلة الماضية كل ضابط لها نتيجة الاضطرام الذي أصاب مخيلتهم، ونتيجة لما لديهم من سذاجة وقابلية للتأثر تتجاوزان كل حدٍّ منطقيٍّ، التأثر بالإشاعات التي انتشرت -والتي لا تزال تنتشر في حقيقة الأمر_ الإشاعات القائلة أن «زميلنا الرائع، لم يكن يمثل دور أمير، بل كان أميرًا بالفعل، نوعًا من أمير الظلمات» -ابتسم المدير مشفقًا لاستخدام هذا التعبير- أمير يجوب العالم كأنه قاضٍ منتقمٌ ويتقبّل قيام أنصاره بدور منفّذي أحكامه... وكأن ذلك الرجل، قال المدير هذا وهو يرفع ذراعيه صوب السماء بحركةٍ معبِّرة عن سخطه الشديد، وكأن هذا الرجل الذي حظي بكل ما تستلزمه مهنته من موهبة (وهنا خفض المدير ذراعيه ببطء مغيِّرًا، خفيةً، طبيعة انزعاجه وسخطه) - رجل «مصابٌ بعجز جسدي فظيع يجعله معتمدًا على الآخرين اعتمادًا تامًّا لتزويده بضرورات الحياة الأساسية التي يصير عاجزًا عجزًا مطلقًا من غيرها»- وكأن هذا الرجل يمكن أن يكون قادرًا على فعل شيء من هذا القبيل! سيكون هذا كافيًا لإقناعكم، (قال المدير هذا وهو يحدّق في الملازم تحديقًا شديدًا)، بمدى وضاعة تلك العصبة من الأشخاص، وبمدى ولعها

بالأذى، وبمدى افتقارها الفظيع إلى كل شيء، تلك العصبة التي ليس لديها «شيء مقدَّس»، مثلما سمعنا قبل قليل؛ هذه حقيقة كان يعرفها تمام المعرفة، بصفته مديرًا، منذ بداية جولة السيرك، وقد كان حريصًا، في كلّ مكان قدَّموا فيه عرضهم، على طلب مساندة السلطات المحلّية بغية ضمان خلوّ الأمسية من أي حادث. لقد كفلت له السلطات هذه المساندة في كلّ مكان حلُّوا فيه؛ وبالتالي، فقد كان طبيعيًا أن يطلب ذلك هنا. وكعادته دائمًا، كان مركز الشرطة محطّته الأولى؛ وفي هذه المرة، كان القرار الذي يضمن أمن فنانيه -بل أمن الفن نفسه، في واقع الأمر- قد قدَّم إليه من مدير الشرطة، لكنه لم يكن يعرف أبدًا أنه يتعامل مع رجل غير قادر على القيام بمهماته. قال إن هذا خيّب أمله كثيرًا، وأصابه بدهشة كبيرة، لأنه لم يكن هناك إلا عشرين أو ثلاثين، من الأشخاص المارقين الذين لا بد من ضبطهم... وها هو الآن واقف هنا وقد انهارت شركته، و«تفرّق زملاؤه المذعورون في أنحاء الأرض»، وصار لا يعرف أبدًا من سيعوّضه عن الخسائر المادية (وأهم منها الخسائر المعنوية) التي تكبَّدها نتيجة ذلك. قال مستدرِكًا إنه، بطبيعة الحال، يدرك أن هذه اللحظة ليست هي اللحظة المناسبة لتناول التظلّمات الشخصيّة، لكنه واثق من أن هذا الأمر سيعالَج

سريعًا؛ وإلى أن يأتي دوره، فسوف يظلّ في المدينة إن سمحوا له بالبقاء فيها؛ وهو لا يطلب الآن إلا أن يتعامل الضباط القائمون على التحقيق مع المجرمين تعاملًا لا رحمة فيه؛ وعلى أمل هذا، فإنه سيذهب الآن بعد أن يسلِّم الضابط نسخة من التصريح الرسمي، فلعله يستفيد منها، فهو مستعدٌ لتقديم كلِّ معونة يستطيعها، مهما تكن بسيطة، بغية مساعدتهم في جلاء الأمر كله واكتشاف الأشخاص المذنبين حقًّا. وبالفعل، انتهى حديث المدير أخيرًا، وأخرج ورقة من جيب داخلي في معطف الفراء الضخم، فقدّم «تصريح الموافقة على تقديم العرض» إلى الضابط الذي أسقط في يده، والذي كان شبه عاجز عن مواصلة الوقوف على قدميه لشدّة إرهاقه. وبعد ذلك، أومأ برأسه إيماءة سريعة وجّهها صوب الناحية البعيدة من الصالة، وفي اتجاه الشهود المتجمّعين وهو يحمل سيجاره الذي انطفأ مؤخرًا مبعدًا إياه عنه بعض الشيء، ثم سار إلى الباب حيث التفت لحظة عند عتبته وأضاف: «إنني مقيم في فندق كوملو»، وذهب تاركًا المستجوِبين والمستجوَبين بُكمًا لا ينطقون، فبدوا عاجزين مثل جيشٍ مهزومٍ في أعقاب هجوم قطعان الفاتحين. كان هارر وفولنت والجميع في الحالة نفسها: غير مقتنعين بقدر ما هم مسحوقين بفعل الثقل المحض لكلمات المدير المتدحرجة التي لا سبيل إلى الوقوف في

وجهها، وبفعل قوة ذلك المزيج الذي اشتمل على حججٍ وتصريحات ومناشدات ومصارحات، كانوا، في واقع الأمر، كأنّهم دفنوا في أماكنهم تحت ذلك الركام، فأصبحوا في حاجة إلى من يأتي لمساعدتهم فينتشلهم منه؛ ولم يكن مفاجئًا في شيء أن زمنًا قد مرَّ عليهم قبل أن يستعيدوا ملَكاتهم كلّها ويزول عنهم، زوالًا بطيئًا، ذلك الخَدَر الذي استولى عليهم. كان ذلك قبل أن ينطلق الملازم، مجروحًا، مستشيطًا غضبًا، لاحقًا بالخطيب الذي تولّى تقرير مصيره بنفسه؛ إلا أنه نظر إلى الوثيقة التي في يده فتوقّف من جديد، في حين كان كلٌّ من هارر والسيدة إيزتر مكتفيَين بتبادل النظرات؛ وكان ذلك أيضًا قبل أن ترتسم علامات عدم التصديق على وجوه فولنت ورفاقه الذين بدوا كأنهم تحوّلوا إلى تماثيل حيّة وهم يصغون إلى ما قاله الرجل... لوَّحوا بأيديهم، وبدأوا يتكلّمون كلّهم معًا. ظل إيزتر في منجى من الهرج والمرج اللذين سادا المكان فكشفا -ـ على أقل تقدير- عن الحالة الذهنية لكلّ شخصٍ؛ وذلك أنه كان بعيدًا كل البعد عن إطلاق أحكام على أي شيء، كان يتعلّم من كل شيء، ويمتصّ كل شيء كأن الخطبة وردّة الفعل عليها كانتا على مستوى واحد من الأهمية. وعلى أية حال، فقد بدا له أن من المستحسن تقديم طلبه بطريقة تناسب مزاج لجنة التحقيق، وأن عليه خاصّة أن يحاول

تحديد الحالة الذهنية للرجل الذي بدا أن من المحتمل كثيرًا أن يكون هو من يتّخذ القرار في ما يخص فالوسكا، وذلك في ضوء الشهادة التي أدلى بها المدير والمشاعر التي أثارتها تلك الشهادة. لكن قول هذا كان أسهل من فعله، فعندما ذهب الملازم إلى رئيسه (كان واضحًا أنه لم يستطع حسم أمره)، ودق كعبيه معًا ثم سأله: «هل أجعلهم يعيدونه، يا سيدي؟». استجاب له رئيسه بتلويحه ضجرة من يده كانت إشارة إلى لا مبالاته أو إلى استيائه الشديد. ثم أجابه بعد صمتٍ طويلٍ وبصوت بدا في ذلك الوقت مفعمًا بمرارة لا تخطئها الأذن: «قل لي، يا غيزا، يا ولدي العزيز، هل نظرت إلى هذه اللوحة جيّدًا؟». ردًّا على هذا السؤال، وحتى يموِّه ارتباكه، أجاب الملازم بنبرة رنانة: «اسمح لي بالقول إنني لم أنظر إليها، يا سيدي». أجابه الصوت الحزين: «إذًا، تلطَّف بالنظر إليها! انظر إلى ترتيب المعركة في قمّة اللوحة! هناك، في الزاوية اليمنى. المدفعية، الخيالة، المشاة...». ثم صاح فجأة... «هذا ليس ترتيبًا من صنع سفاحين لا يستحون، بل هو فن الحرب!». «نعم، يا سيدي». «انظر إلى الخيالة الخفيفة، هناك، في الوسط. انظر هناك، هل تراهم؟ انقسمت كتيبة الفرسان إلى قسمين، وقامت بحركة التفافية لتطويقهم، كالكمَّاشة! انتبه إلى مكان الجنرال،

هناك، على التلة، ينظر إلى الجنود في الميدان، وسوف تلاحظ الفرق بين الحرب الحقيقية وهذه الزريبة القذرة!». «نعم، يا سيدي، سوف أستأنف الاستجواب على الفور».

«لا تهتم أيها الملازم، من فضلك! لا أستطيع إرغام نفسي على الإصغاء إلى أيِّ مزيدٍ من هذا الضجيج المزعج أو إلى أيِّ مزيدٍ من هذا الكلام السخيف في هذه الحفرة القذرة. كم واحدًا بقي عندك؟». «سوف أكون سريعًا، يا سيدي». أجاز له رئيسه ذلك بطريقة كئيبة إلى أقصى حد، «نعم، أسرع، يا غيزا، يا ولدي. افرغ من هذا الأمر!». لم يكن مرئيًا منه غير يده، حتى هذه اللحظة. إلا أن إيزتر صار واثقًا تمامًا مما كان هذا الرجل يفعله تمامًا: بما أنه أعلى الضباط الموجودين رتبةً، فهو ملزمٌ بحضور التحقيق كلّه؛ ولما كان نافذ الصبر -هذا ما قرره إيزتر- فقد كان واضحًا أنه يسلّي نفسه بالنظر إلى المشهد النبيل المرسوم أمامه في ذلك الضوء الخافت الذي يحجبه عن الأعين، مع بقائه مدركًا تمامًا أن انعطافة الحوادث التي أتت به إلى هذا المكان كانت انعطافة غير منصفة، على نحو ما. وقد استنتج إيزتر من هذا أن من الأفضل له أن يجعل طلبه ذا صياغة مختصرةٍ، وأن يكثِّفه إلى جملتين أو ثلاث جمل؛

وسوف يحظى بالقبول إن وضعه على هذا النحو. لم تكن غلطته أن الأمور لم تسر على هذا النحو، وأن أي قدر من الاختصار ما كان قادرًا على جعله يحظى بالتّعاطف عندما يستمعون إليه، وذلك لأن الرجال الثلاثة الذين قبله سرعان ما دمَّروا كل أمل كان لديه عندما لبّوا دعوة الملازم وانطلقوا، كل في كلامه. كانت الكلمات الأولى التي نطقوها عن أنهم يودُّون «إلقاء ضوء جديد على الأمر» قد جعلت وجه الضابط يرتجف، وجعلته يلقي نظرة سريعة في اتجاه الكرسي الرئاسي، لكنهم مضوا إلى القول كلهم إنهم «يشجبون تمامًا المزاعم الافترائية في حق مدينة تعيش حالة حداد، فهي مزاعم رجل كان، هو نفسه، مسؤولًا عن الحوادث المخزية التي وقعت». فما كان ممكنًا أبدًا إلقاء أي شك على أن السيرك وأهله يشكّلون كُلًّا خفيًا واحدًا، وما من شكّ أيضًا في أن كلّ ما في العالم من مياه (هذا ما قاله السيد ماداي زاعقًا) غير كافٍ لغسل تلك اليد القذرة وعصبة اللصوص التي معها؛ وقد كانت مناورةً شريرةً فاشلة محاولة ملء رؤوس الناس بادعاءات «صاحب الحوت» بالبراءة، لأن من غير الممكن خداع هذه الرؤوس التي شاب شعرها، لأن أصحابها أصحاب خبرة مصنوعون من مادّة صلبة، وهم قادرون على رؤية الحقيقة عبر «نسيج الأكاذيب المهلهل هذا».

راحوا يصيحون متجاوزين أوامر الملازم البائسة (توقّع الملازم حدوث أسوأ من هذا)، ويقولون إن كل هذا كذب، وإن عليهم أن يعتمدوا على الحقائق وحدها،... راح أحدهم يقاطع الآخر قائلًا إن هذا كذب، وإن الكارثة المخيفة التي وقعت لا يمكن أن تكون ناتجة عن حفنة من العناصر المشاغبة المندسّة بين الناس، فقد كانت واضحة وضوح الشمس هوية من أطلق هذه الهجمة الجهنمية باسم «يوم القيامة». وذلك أنه في التحليل الأخير (كان احتجاجهم هذا أكثر غموضًا)، فإن من أبشع أنواع الهراء ذلك التأكيد على أن «الساحر الشرير» لم يلعب دوره في هذا كلّه (هذا على الرغم من أنهم لم يلاحظوا في غمرة حماستهم الاحتجاجية هذه أن شاغل الكرسي الرئاسي تخلّى عن احتجابه السابق، ونهض واقفًا، وبدأ يسير في اتجاههم بخطوات واسعة منذرة بالشؤم)، ففي التحليل الأخير -هذا ما استمروا في قوله- يعرف كل امرئ أنهم لم يكونوا «عشرين أو ثلاثين مشاغبًا مخرّبًا» بل أشخاصٌ اختارهم الشيطان نفسه فاجتاحوا المدينة العزلاء، ويعرف كل امرئ أن علاماتٍ ونذرًا لا يحصى عددها قد ظهرت في الشهور السابقة. وأما التفاصيل... وماذا؟... فإن لديهم تفاصيل كثيرة «عن انهيار خزان المياه الناجم عن تأثير بعيد المدى، وعن ساعات الكنيسة التي ظلّت متوقفةً قرونًا

من السنين، ثم بدأت تتحرّك من تلقاء نفسها، وعن أشجار اقتُلعت من جذورها»، وكانوا يعلنون في الوقت نفسه أنهم، على أقل تقدير، «مستعدون لخوض المعركة لمواجهة القوى الشيطانية»، وأنهم يقدِّمون «كل عون تستطيع أذرعهم الضعيفة تقديمه للقوات النظامية، قوات القانون والنظام». لكن الوقت كان قد فاتهم لأن قائد القوات النظامية المذكورة آنفًا، وصل إلى حيث كانوا واقفين وصاح فيهم بوضوح لم يكن السيد ماداي نفسه عاجزًا عن فهمه: «كفوا عن هذا، أيها الحمقى المعتوهون! فكم من الوقت تظنون...». قال هذا وانحنى فوق شخص السيد نادابان الذي كان يتقهقر مذعورًا،... «كم من الوقت تظنّون أنني قادر على الإصغاء إلى هذا الكلام الفارغ! فمن أنتم لكي تعبثوا بصبري! كان عليَّ أن أجلس منذ الفجر مستمعًا إلى هذا الهذر المتخلّف، ثم تحسبون أنكم تستطيعون المواصلة على هذا النحو من غير أن يطالكم عقاب؟! أتحسبون أنكم تستطيعون أن تفعلوا هذا بي، أنا من قام يوم أول أمس، في تيليغريندااس، بحبس كلِّ أحمقَ معتوهٍ في مصحّة الأمراض العقلية! أتظنون أنني سأستثنيكم؟ لا تخدعوا أنفسكم. فسوف أضع هذا المكان المقرف خلف القضبان، هذه الحفرة القذرة التي يتصرّف كلّ أبله فيها كأنه مركز الكون، وكأنه المسؤول عن حفظه... لعنة

الرب عليكم! كارثة! بالطبع! يوم القيامة! هذا كله خراء! أنتم هي الكارثة، وأنتم هو يوم القيامة، لأن أقدامكم لا تسير على الأرض، أنتم يا حفنة السائرين في نومهم. ليتكم متّم جميعًا. ما رأيكم في رهان؟...»، وهنا أمسك بالسيد نادابان من كتفه وهزه: «فلنتراهن على أنك لا تعرف حتى ما أتحدّث عنه الآن!! هذا لأنك لا تتكلَّم، بل ‘تهمس’ أو ‘تدلي بدلوك’؛ أنت لا تسير في الشارع بل ‘تتقدّم مسرعًا’؛ وأنت لا تدخل مكانًا بل ‘تجتاز عتبته’؛ وأنت لا تشعر بالبرد ولا بالحر، بل ’تجد أنك ترتجف‘ أو ’تشعر بالعرق يتصبب منك’. لم أسمع كلمة واضحة واحدة منذ ساعات، فأنتم لا تتقنون شيئًا غير الخوار والمواء؛ وإذا ألقى مخرِّبٌ حجرًا على نافذتكم، فإنكم تظنون يوم القيامة قد أتى. هذا لأن أدمغتكم فاسدة ليس فيها غير البخار، ولأنكم لا تفعلون شيئًا غير أن تعطسوا، ثم تنظرون، ثم تصيحون ‘هذا سحر!’ إذا ما أدخل أحدهم أعوادًا في أنوفكم. ما سيكون سحرًا حقيقيًّا، أيها المنحطّون، هو أن يوقظكم أحد فتدركون أنكم لا تعيشون على القمر، بل في هنغاريا، وتعرفون أن الشمال يكون إلى جهة الأعلى، والجنوب إلى جهة الأسفل، وتعرفون أنكم في مكان يكون فيه يوم الاثنين أول أيام الأسبوع وشهر كانون الثاني أول شهور السنة! ليست لديكم أدنى فكرة عن أيِّ شيء. وأنتم لستم قادرين

على معرفة الفرق بين مدفع الهاون وثلاث بنادق هوائية، لكنكم ماضون في الثرثرة عن ‘الجائحة التي تنذر بنهاية العالم’، أو قمامات أخرى من هذا القبيل. تظنّون أن ما من شيء أفعله أفضل من السير على الطرق بين سنوغرات وفيستو مع مئتي جندي محترف حتى أدافع عنكم وأحميكم من ثلة من الرعاع! انظروا إلى هذا النموذج...»، قال هذا مخاطبًا الملازم وهو يشير إلى السيد فولنت، ثم قرَّب وجهه من وجه ضحيته... «في أي سنة نحن، هاه؟! ما اسم رئيس الوزراء؟! وهل نهر الدانوب صالح للملاحة؟! انظر إليه...». التفت إلى الملازم من جديد... «لا يعرف شيئًا، وكلّهم مثله، المدينة البائسة كلّها مثله، وهذه البؤرة المجذومة مليئة بهم! يا غيزا، يا ولدي...»، قال هذا وقد لوّنت صوته المرارة واللامبالاة...، «دعهم يقطُرون شاحنة السيرك إلى المحطة، وحوّل القضية إلى المحكمة العسكرية؛ اترك أربع أو خمس فصائل في الساحة، وتخلّص من هذه الكائنات الرقيقة لأنني... لأنني أريد الانتهاء من هذا
الأمر!!!». كان الوجهاء الثلاثة واقفين أمامه كأن صاعقة من الجحيم أصابتهم إصابة مباشرة، فلا هم قادرون على التنفس ولا هم قادرون على نطق كلمة واحدة. وعندما استدار العقيد مبتعدًا، وجدوا أنهم لا

يستطيعون تحريك عضلة واحدة من عضلاتهم؛ ففي ظل هذه الظروف، لم تكن شديدة الصعوبة رؤية أن أيًّا منهم بات غير قادر على فهم ما يتعيَّن عليه فعله من غير مساعدة خارجية؛ فما كان من الملازم إلا أن أشار إليهم إشارة حازمة صوب الباب، ثم قادهم إلى الخارج بسرعة مضاعفة، كأنما ذلك هو العون الوحيد الذي يلزمهم، وكأنما هم قادرون على العثور على طريق العودة إلى بيوتهم. لكن إيزتر لم يذهب على الرغم من أن آماله بالاستماع إليه وقبول طلبه كانت قد تحطَّمت بعد الانفجار غير المتوقَّع لغضب العقيد. لم يعرف ما يلزمه فعله، ولم يعرف إن كان عليه أن ينهض أو يجلس، أن يبقى أو ينصرف. ظل غير مبالٍ بأي شيء عدا التفكير في الطريقة الأمثل لتبرئة فالوسكا؛ وأما بعد ما حدث كلّه، فقد صارت الصياغة الوجيزة الدقيقة التي فكر فيها تبدو له غير واعدة على الإطلاق، فلم يفعل شيئًا غير البقاء جالسًا مثلما يجلس شخصٌ يهم بالنهوض والذهاب. ثم راح ينظر إلى العقيد ذي البنية المتينة والوجه الأحمر وهو يفتل شاربه العسكري، وإلى ملازمه سائرًا من خلفه. ورأى العقيد يذهب غاضبًا إلى الزاوية التي كانت السيدة إيزتر تنتظر. لم تكن في بنطلونه العسكري، ولا في سترته، أية ثنية على الإطلاق؛ وبدا وجوده كله كأنه مكوي على نحو ما، كأنه

مكوي من الداخل ومن الخارج. كانت خطوته الواثقة، وقامته المنتصبة، وطريقة كلامه الجارحة المباشرة، قد اجتمعت كلها لإنتاج هذا الأثر، هذا النموذج المثالي؛ وكان رضاه عن النتيجة واضحًا في نغمة صوته، في ذلك الجهاز الصارخ المدوّي المصمَّم لإصدار الأوامر، الجهاز الذي خاطب به السيدة إيزتر فقال لها: «قولي لي يا سيدة إيزتر، كيف لامرأة عملية واعية مثلك أن تطيق هذا سنة بعد سنة؟». لم يكن هذا سؤالًا في حاجة إلى إجابة، لكن المرء كان قادرًا على رؤية أن السيدة إيزتر، التي رفعت عينيها إلى السقف كأنما تفكِّر في إجابة ما، كانت راغبة في قول شيء، في قول شيء مقدَّرًا له ألّا يُقال، لأن العقيد التفت في هذه اللحظة صوب الجدار البعيد فرأى واحدًا من الشهود قد نجح -على نحو فضائحي- في البقاء هناك. تغضَّن حاجباه، وصاح بملازمه: «قلت لك أن تتخلّص من الجميع!».

قال إيزتر وهو ينهض عن كرسيه: «أود الإدلاء بشهادة تخصّ يانوس فالوسكا»؛ وعندما رأى العقيد يستدير مشيحًا عنه ويشبك ذراعيه على صدره، كثّف كل ما كان يريد قوله في جملة واحدة، وقال للعقيد بصوت هادئ: «إنه بريء تمامًا». عوى صوت العقيد نافد الصبر: «ما الذي تعرفه عنه، هل كان واحدًا

منهم؟». أجابه الملازم: «هو واحد منهم، بحسب أقوال الشهود المتطابقة. وهو لا يزال حرًّا طليقًا». أجابه العقيد: «إذًا، محكمة عسكرية له أيضًا!». لكن السيدة إيزتر تدخَّلت في الأمر قبل أن يتمكَّن العقيد من اعتباره أمرًا مقضيًا ويستأنف حديثه معها. «دعني أقل شيئًا مختصرًا، أيها العقيد». «سيدتي العزيزة، تعرفين أنك الشخص الوحيد في هذا المكان الذي يسعدني أن أستمع إليه... باستثناء نفسي، بالطبع»، أضاف هذا مع ابتسامة كبيرة جدًا حتى يلفت النظر إلى النكتة التي قالها، ثم ضمَّ ضحكته إلى ضحكتها الصادحة التي أعقبت كلامه فردّدت جدران الصالة أصداءها وكأنه يريد التأكيد على دهشة الحاضرين من أنه، هو الذي كان السيد المطلق للوضع كله، شخص قادر على إثارة دهشتهم الكبيرة، لا بما عنده من ضبط كبير للنفس، بل بظرفه أيضًا. قالت السيدة إيزتر بعد أن هدأ الضحك وانتهى: «الشخص المعني لا تصح محاسبته». «ماذا تعنين بقولك هذا، يا سيدتي؟»، «أعني أنه ناقص العقل». رفع العقيد كتفيه وقال، «في هذه الحالة، سوف أحتجزه في مصحَّة الأمراض العقلية. فعلى الأقل، سيكون هناك من أستطيع احتجازه»، أضاف هذا وارتعش حاجبه بفعل ابتسامة مكبوتة، فنبّه الحاضرين إلى أن هذه نكتة رائعة أخرى لا سبيل إلى مقاومتها... «هذا على الرغم من أن

المدينة كلّها مدينة مجانين...». كان انفجار الضحك عند هذه النقطة أمرًا محتومًا، وقد انفجر بالفعل؛ وبينما راح إيزتر ينظر إليهم، منتبهًا إلى زوجته خاصّة، زوجته التي لم تلق نظرة واحدة في اتجاهه، أدرك أن كل شيء قد تقرَّر، وأدرك أن ما من سبيل لديه لإقناع هذه الجماعة الضاحكة بإجراء تقييم للحقائق يكون أكثر ملاءمة؛ وأدرك أن مغادرة المكان والعودة إلى بيته أفضل ما يستطيع فعله. قال في نفسه: «فالوسكا حيٌّ، وهذا كل ما يهمّني»، ثم خرج من الباب ومر عبر جماعة من سكان المدينة وأفراد الجيش المتجمّعين عند المدخل. نزل درجات السلم وفي أذنيه أصداء متلاشية من ضحكات السيدة إيزتر والعقيد، ثم سار في ممرات الطابق الأرضي لمقر مجلس المدينة، في الممرات التي تردّد فيها رنين خطواته؛ وعندما بلغ الشارع، انعطف تلقائيًا، واثقًا بغريزته، إلى اليمين في اتجاه شارع آرباد، وكان غارقًا في أفكاره إلى حدٍّ جعله لا يسمع شيئًا عندما حياه تحيّة واهنة واحد من الواقفين عند البوابة (شخص نجح في تجاوز الذعر الذي أصابه لرؤية مباهج المدينة في هذه الحالة من الخراب)، «يومك سعيد، يا سيدي الأستاذ...». كان يقول في نفسه إن لا أهمية لأي شيء؛ وبما أنه لم يخلع معطفه طيلة تلك الاستجوابات في الصالة الدافئة، فمن المحتمل أن يكون هذا ما جعله

يرتجف بردًا عند وصوله إلى منتصف شارع آرباد. لا شيء... تابع قول هذا لنفسه وهو سائر، ثم ظل يقوله حتى بلغ بيته في جادة وينكهايم، حتى بلغه بفضل غريزته العمياء وحسن حظه، لا بفضل أي حساب لمساره. فتح البوابة، ثم أغلقها من خلفه، ووضع يده في جيبه ليُخرج المفتاح؛ لكن الظاهر أن السيدة هارر كانت قد تركت الباب مفتوحًا (تركته عن قصد، من غير شكٍّ، وذلك بعد أن فكَّرت قليلًا في الأمر)، فأعاد المفتاح إلى مكانه في جيبه، ودفع الباب، وسار في الممر بين صفوف خزائن الكتب. لم يخلع معطفه لأنه أراد أن ينتظر ريثما يدفأ جسده قليلًا. جلس على الفراش في غرفة المعيشة. ثم نهض واقفًا، وعاد إلى الممر فتمهّل لحظة أمام واحدة من خزائن الكتب، ومال برأسه حتى ينظر إلى العناوين، ثم دخل المطبخ وأبعد كأسًا عن حافة المغسلة حتى لا يسقطها من غير انتباه. لكنه قرَّر عند ذلك أنه اكتفى من معطفه، فخلعه، ثم تناول فرشاة الملابس فأزال ما علق به من غبار. وبعد أن انتهى من ذلك، عاد إلى غرفة المعيشة حاملًا المعطف، وفتح الخزانة، وتناول علّاقة وعلق المعطف عليها، ثم وضعه في الخزانة. نظر إلى الموقد الذي كانت جمراته لا تزال متوهِّجة، ورمى فيه شيئًا من القطع الخشبية الصغيرة سريعة الاشتعال آملًا أن تلتقطه النار. ولما لم يكن

جائعًا، فإنه لم يعد إلى المطبخ حتى يعدّ لنفسه طعام العشاء، بل قرّر أن ينتظر ويتناول وجبة باردة قائلًا في نفسه إنها ستكون وافية بالغرض. أحب أن يعرف الوقت؛ وبما أنه نسي أن يملأ ساعة يده الليلة الماضية، فقد وجدها متوقِّفة عند الثامنة إلا ربعًا، فما كان منه - حدث هذا له من قبل- إلا أن فعل ما يفعله عادة في هذه الظروف إذ يستعين بالنظر إلى الساعة التي على برج الكنيسة الإنجيلية. لكنه اكتشف، بطبيعة الحال، أن الألواح الخشبية التي وضعها تمنعه من فتح النافذة.
أحضر الفأس وانتزع تلك الألواح عن نافذته، ثم فتحها على اتّساعها وأطل منها على الخارج؛ ثم نظر إلى برج الكنيسة، ونظر إلى ساعة يده وضبطها على الوقت الصحيح، ثم قرن نابضها. وقعت عينه بعد ذلك على البيانو، فقال في نفسه إن ما من شيء يمكن أن يهدّئه غير «القليل من موسيقى يوهان سيباستيان باخ»، فجلس لكي يعزف، لا كما كان يفعل في السنين السابقة، بل «كما كان يمكن أن يعزف يوهان سيباستيان باخ نفسه في زمانه»، لكن البيانو كان غير مضبوط وكان لا بد من إعادة ضبطه بحسب سلّم توافقات فيركمايستر الكامل؛ فرفع غطاء البيانو، ووجد مفتاح الضبط، وأتى بأداة ضبط الصوت من الخزانة، وأبعد حامل النوتات حتى يتمكن من الوصول إلى المفاتيح، ثم وضع أداة

الضبط في حجره وانكبَّ على العمل. فوجئ عندما وجد أن إعادة ضبط البيانو بهذه الطريقة كانت مهمّة أسهل كثيرًا من إعادة ضبطه -منذ بضع سنوات- وفق نظام أرستوكسونس. على الرغم من هذا، استغرق العمل ثلاث ساعات كاملة قبل أن تصير كل نغمة في موضعها الصحيح. غرق في هذا العمل إلى حد جعله نصف منتبه فقط إلى أيّة أصوات خارجيّة؛ لكن صوتًا مرتفعًا حقًّا أتى فجأة من الممرّ فنبهه، وأحس معه تيارًا هوائيًا وأبوابًا تُغلق بعنف، وبدا له أنه يسمع صوت السيدة إيزتر صائحًا: «ضعوا هذا هنا! وضعوا ذاك هناك، في آخر الممر، وسوف أنقله إلى مكانه في وقت لاحق!». لكنه ما عاد مهتمًّا، ففي وسعهم أن يصفقوا الأبواب وأن يصيحوا قدر ما يطيب لهم «إلى أن تزرقَّ وجوههم»: مر بإصبعه سريعًا على مفاتيح الآلة كلّها حتى يتأكّد من ضبط النغمات مرة أخرى، ثم التفت إلى الصفحة اليمنى من النوتة الموسيقية ووضع يديه على لوحة المفاتيح النقية المواسية، وبدأ يعزف أول أنغام الافتتاحية على مقام بي ماجور.

كَلِمَةٌ عِنْدَ القَبْرِ

(خَاتِمَة)

كان الكرز المحفوظ في الروم هو ما فضَّلته على غيره! على أن المحفوظات الأخرى طيِّبة أيضًا! وأما

الآن، بعد مرور أسبوعين كاملين من التحضيرات المتوتّرة، فقد أتى هذا اليوم أخيرًا وصار لديها وقتٌ كافٍ، قبل الحدث كبير الأهمية الذي سيأتي، لكي تنظر في التفاصيل الصغيرة فتقرِّرُ أيَّ نوعٍ من هذه المأكولات المحفوظة الموضوعة في خزانة مكتب السكرتاريا المؤقت، المحفوظات المختارة من بين أنواع كثيرة من اللحوم المجفَّفة وغيرها من أصناف اللحوم الباردة المأخوذة من شقّة السيدة بلوف بموجب قاعدة «الاستخدام الاجتماعي» والمجلوبة إلى قبو مقرّ مجلس المدينة، حيث تقاسمت تلك المأكولات مع هارر، فكانت أميَل إلى تفضيل المحفوظات المناسبة لطعام الإفطار؛ وقد وقع اختيارُها الحاسم على هذا الكرز، لا لأن الدراق والإجاص أقل من الكرز جودة، بل لأنها تذوَّقت ذلك المزيج الذي أعدته، بكل عناية، «السيدة بلوف التي انتهت إلى ذلك المصير المحزن»، الفاكهة المنقوعة في الروم، بما لها من «قساوة هشّة ذات مقاومة خفيّة»، المزيج الذي ذكَّرها بزيارة مسائية صار يبدو لها الآن كأنّها جرت في ماضٍ قديم جدًا، فملأ طعم النصر فمها على الفور، النصر الذي ما كاد يتاح لها وقت لكي تستمتع به؛ إلا أنها صارت الآن قادرةً على التنعّم بما جنته وهي جالسة، مرتاحة تمامًا، خلف مكتبها الضخم، ومازالت الفترة الصباحية كلّها أمامها، لأن ما من شيء

لديها تفعله سوى استخدام ملعقتها الصغيرة وهي منحنية فوق إناء الكرز حتى لا تهدر منه حبة واحدة. كانت ترفع منه حبّة تلو أخرى، وتهشّم قشرتها ـ بهدوء ـ تحت أسنانها، وتغرق كلها مستمتعةً في مكتبها من غير أن يعكر صفوها شيء، وتراجِع في ذهنها الخطوات الحاسمة التي أوصلتها إلى ما هي فيه من هناء. لم تكن ترى أيّة مبالغة في الإشارة إلى الحوادث التي جرت خلال أربعة عشر يومًا مضت باعتبارها «انتقالًا حقيقيًّا للسلطة» كان من شأنه أن دفع «بشخص يستحقّ ذلك» من غرفة بإيجار شهري في هونفيد باساج، ومن «موقّع مهم» في لجنة المرأة -موقع كان بمثابة تنبؤ بما سيأتي بعده- إلى مكتب السكرتاريا في مقرِّ مجلس المدينة؛ ما من مبالغة في هذا القول أبدًا، هذا ما قالته في نفسها وهي تعضُ حبَّة كرز وتقسمها نصفين، وتبصق نواتها في سلة المهملات عند قدميها، وذلك لأن وسام الشرف هذا لم يكن سوى «نتيجة مباشرة للاعتراف بالتفوّق النيّر لعقلها»، وهو تفوّق وضع أقدار المدينة بين يديها، «وضعها بقوة لا سبيل إلى إنكارها»، وضعها الآن وفي المستقبل؛ فهي صاحبة القدرة التامة على ممارسة السلطات الملائمة وعلى أن تفعل بالمدينة كل ما (كادت تقول: «كلّ ما تشاء»)... صار في وسعها، هي السيدة إيزتر، التي كانت قبل أسبوعين فقط مهمَّشة تهميشًا

مشينًا، فصارت الآن سيدةَ كل ما تراه أمامها («... ولنضف أيضًا...»، أضافت هذا محاوِلةً أن تبتسم ابتسامة صغيرة... «أنها حصدت أكالِيل المجد كلّها في جولة واحدة فقط»)... صار في وسعها أن تفعل كل ما تراه في مصلحة المدينة، في الحاضر، وفي المستقبل. ومن الطبيعي ألّا يكون هناك أي شخص يرى أن هذا المنصب قد «سقط في حضنها» من تلقاء نفسه، وذلك لأنها كسبته بعد أن غامرت بكل شيء؛ إلا أنها لا تجد غضاضة في أن يقول الناس إن «صعودها كان صاروخيًا». فهي غير قادرة، عندما تفكِّر في الأمر كلِّه، أن تجد طريقة أفضل لوصف صعودها... لا طريقة أفضل من هذه أبدًا لأن أربعة عشر يومًا كانت كافية لأن «تصير المدينة كلّها عند قدميها»... أربعة عشر يومًا، أو بالأحرى، ليلة واحدة، أو... إذا شئنا مزيدًا من الدقة، بضع ساعات فحسب تقرّر خلالها كل شيء، بما في ذلك «موقع كل شخص، وصاحب السلطة الحقيقيّة». بضع ساعات فقط!... عجبت السيدة إيزتر عندما فكرت في هذا... بضع ساعات هي كلّ ما استغرقه الأمر في تلك الليلة المريعة، أو في بداية فترة ما بعد الظهر (حتى يكون التحديد أكثر دقة)، عندما أخبرتها حاسّتها السادسة بأن مهمتها ليست الحيلولة دون اتخاذ الأمور المجرى الذي كان متوقَّعًا، بل على العكس

من ذلك، كان عليها أن تتركها تجري في ذلك الاتجاه وأن تجعلها تكبر وتتضخَّم؛ وذلك أنها أحسَّت إحساسًا داخليًا عميقًا بأن أولئك الثلاثمئة، أو نحو ذلك، من قطّاع الطرق الأشرار في ساحة السوق، يمكن أن يكون لهم معنى بالنسبة إليها شريطة أن -كان عليها أيضًا أن تقبل وجود هذا الاحتمال- «شريطة ألا يكونوا مجرّد جيش من 'أولاد أمهاتهم' الذين يهربون فرارًا من ظلّهم عندما يجدّ الجدُّ!».

حسنًا، استرخت في مقعدها... لقد كانوا أشخاصًا لا يهابون شيئًا، ولا يتورّعون عن شيء؛ لكنها لم تفقد صوابها أبدًا بعد أن اتّخذت قرارها في ما يخص مجرى تطوُّرات الأمور، بل أدخلت كل احتمال في حسابها؛ وعندما صار عليها أن تتحرّك، تحرّكت بدقّة مطلقة، فسارت «الحوادث» سيرًا ثابتًا في الاتجاه الذي أرادته لها، وبالإيقاع الذي أرادته لها، بحيث صارت تشعر أحيانًا -في وقت متأخرٍ من الليل خاصة- بأنها هي من يخطّط مسارهم ويوجّههم إليه، لا من يستفيد من نتائجه المواتية له. من المؤكد أنها كانت تملك فكرة واضحة كل الوضوح عن قيمتها الذاتية -مالت إلى الأمام ووضعت حبة كرز جديدة في فمها- لكن أحدًا لا يستطيع اتهامها بالغرور أو بالزهور الفارغ، (هذا ما كانت تقوله في نفسها)، على الرغم من «أنهم يجب أن يعترفوا

لها»، الآن على الأقلّ، أي في الظروف الحالية، أثناء جلوسها وحيدة تتلذّذ بحبات الكرز، «بالفضل، لا من أجل عبقريتها في تحديد الجدول الزمني لما جرى من حوادث فحسب، بل أيضًا من أجل اهتمامها بالتفاصيل»، ذلك الاهتمام الذي تكون أعظم الخطط محكومة بالخيبة من غيره. لا... لقد كانت مُقرّة بأن الأمر لم يكن في حاجة إلى ذكاء غير عادي من أجل التحكم بالأعضاء القلائل في اللجنة التي شكّلتها بنفسها في هونفيد باساج، فأدارتهم كلّهم حول إصبعها الصغير في ذلك اليوم المشهود، العمدة خاصّة، العمدة الذي أصابه الذعر بالشلل؛ ولم يقتض الأمر كبير جهد من أجل جعل مدير الشرطة، الذي اقترب من حالة الصحو اقترابًا خطيرًا مع تقدّم ساعات الليل، وكان موشكًا على طلب التعزيزات، يتسلّل من غير علم الآخرين، يتسلّل معها (بذريعة أنه يريد التعرف على المكان) إلى مسكن صاحبة البيت التي لديها «مستودع من الشراب» لا يحرسه أحد، فظلّت تسقيه من نبيذها الفظيع حتى الصباح بحيث يظلّ ثملًا في عالم الأحلام فتأمن جانبه؛ وما كان لديها «أية مشكلة» -كشرت السيدة إيزتر- في إغراء تابعها هارر الذي يطيعها طاعة عمياء بأن يذهب ويعثر على «ذلك المعتوه فالوسكا»، الذي كان يمكن أن يشكّ في شيء ما -بالغريزة- ويتوصّل إلى استنتاج شيء

ما «بعقله الفاسد»، أن يعثر عليه ويسكته عبر إقناعه بمغادرة المدينة في أسرع وقت: لا، لم يكن جرّ هذه الثلة المتميزة من أنفها في حاجة إلى «أي ذكاء خاص»، بل إلى توقيت دقيق للحوادث (دق ي ق! نقرت السكرتيرة بملعقتها الصغيرة على الطاولة تأكيدًا على الدقّة)، فهذا ما كان مهمًا حقًّا! وفي آخر المطاف، فإن نجاحها في ترتيب الأمور بحيث يكون كل جزء من أجزاء الماكينة مزيَّتًا جاهزًا للعمل بكل سلاسة، ونجاحها في «التخطيط على عجل، ثم جعل الخطة تتحقّق» حتى تتمكّن من إزاحة كل عقبة تعترض سبيل حلفائها الذين كانوا في أماكنهم الصحيحة، وهذا كله في لحظة مباركة واحدة!... ثم البناء على تلك اللحظة بعينها بحيث تنشئ لنفسها صيتًا فوريًا، صيتًا من حيث إنها امرأة تملك القوة، فمن شأن هذا الصيت أن يرفعها ويضعها في مرتبة «قيادة المقاومة». وقد أثمر هذا كله، أثمر «الحدث الذي كان في الأصل ذا طبيعة أكثر تواضعًا»، إنجازًا حقيقيًا -أزاحت خصلة شعر تهدّلت فوق جبينها- وكان أمرًا «غير عادي أبدًا»! حسنًا جدًّا، أزاحت بعيدًا أي اعتراض يمكن أن تفكِّر فيه، فما من حاجة إلى توضيح أن عملها على تلك التفاصيل التي تبدو غير مهمّة كثيرًا كان يمكن أن يفضي إلى لا شيء لو لم تكن لديها تلك الرؤية المركزية الواضحة التي حدَّدت إن كان

خططها الخاصة بالمستقبل «ستقف على قدميها أم أنها ستقع». فقد كان واضحًا وضوح ضوء النهار أن الأمر الذي كان مهمًّا حقًّا (بمعزل عن تنسيق التفاصيل كلّها، وحُسن توقيتها) هو توقيت الكلّ؛ بكلمات أخرى، تحديد اللحظة المناسبة، وسبرها، والتقاطها بالحدس، اللحظة التي كان عليها فيها أن ترسل هارر (باسم مدير الشرطة) لإطلاق الشرطيين بسيارة الجيب، لإطلاق الشرطيين اللذين كانا جاهزين ينتظران منذ ساعات خلف مصنع الحليب المجفّف -كانا جاهزين للذهاب من أجل «طلب تعزيزات فورية» من مركز المقاطعة-... فلو وصلت «قوات التحرير» أبكر مما ينبغي، لوجدت «بعض أعمال التخريب الثانوية» فحسب، بضع نوافذ مكسورة، وواجهة متجر أو متجرين، ولكانت الحياة قد عادت إلى مجراها المعتاد في اليوم التالي. ولو وصلت تلك القوات متأخرة عما ينبغي، لكان من الممكن أن يتّسع نطاق النزاع فيجرفها في طريقه. لو حدث هذا، لصار الأمر كلّه عبثًا. صحيح... قالت السيدة إيزتر هذا في نفسها وهي تتذكّر: «الجو المتوتّر في تلك الساعات البطولية»، عندما كان عليها أن تعثر على نقطة الوسط بين هذين الحدّين المتطرّفين. نظرت من حولها إلى مكتب السكرتاريا نظرة انتصار؛ فبفضل خدمات هارر القيِّمة، بصفته مراسلًا، وبفضل التوفّر المستمر

للمعلومات الطازجة، تمكَّنت من العثور على تلك النقطة، على نقطة الوسط، وكان معنى هذا أنها لم تكن مضطرّة إلى فعل أي شيء غير ترك أخبار «تدفّق» الجنود على المدينة تتسرّب خارجة من بابها عن طريق العمدة الذي كان شاحبًا شحوب الموت، وكان شديد التوق للعودة إلى بيته. وبعد ذلك، كان عليها أن تستجمع أفكارها حتى تعرف ما يتعيّن عليها قوله بعد أن عاد الشرطيان إليها برسالة مفادها «هل تتفضل منقذة المدينة بالقدوم إلى مقر المجلس؟». عندما تتذكّر ذلك كلّه، تجد أن لحظتها الكبرى قد حانت عندما وقفت أمام العقيد واستطاعت إخباره بالحقيقة الدقيقة من غير أن تغير كلمة واحدة في حديثها، على الرغم من أن عليها الإقرار بأنها ما كانت قادرة على التصرّف بأي شكل آخر لأن شيئًا في قلبها أخبرها، في لحظة لقائهما، بأن الضابط المسؤول في قوات التحرير «لن يكتفي بتحرير المدينة، بل سيحررها هي أيضًا». كان كلّ شيء في غاية السهولة، حتى عند الوصول إلى تلك النقطة؛ وعلى الرغم من حرصها، في العبارات الأولى التي قالتها، على التعبير عن عدم استحقاقها اللقب الذي أُغدق عليها بكل كرم، فقد كان كل ما عليها فعله أن تقدّم المعلومات بأفضل ترتيب ممكن، وبجمل محدَّدة واضحة بسيطة، حتى تتمكّن من إيصال حقيقة «حزينة» لكن صادقة،

مفادها أن هناك انهيارًا اجتماعيًا ناتجًا عن «قصور التدابير المتّخذة من جانب السلطات»، ولا شيء أكثر من ذلك: لم يكن أكبر ضابط في شرطة المدينة في «المكان المناسب في الوقت المناسب»؛ فلو كان في المكان المناسب، لما تمكّنت مجموعة صغيرة من المخربين السكارى من إيصال جموع الغوغاء إلى نقطة التمرّد على القانون. ثم أضافت عندما أنهت روايتها عمّا حدث، إنها لا تزعم أن حالة الفوضى هذه لا تمثل وضع المدينة الحقيقي، لأن ذلك بالضبط هو وضع المدينة! فالظروف التي سمحت بحدوث هذا التخريب تمتد جذورُها في «الافتقار العام للنظام والانضباط». سوف تصيبها الدهشة (لوّحت بيدها صوب باب غرفة مجلس المدينة في ذلك «الفجر المجيد»)، لو أن العقيد كان لديه الصبر الكافي للاستماع إلى شهادات كل من كان منتظرًا في الخارج من سكان المدينة، فهذا شيء كافٍ لاستنفاد صبر قديس من القديسين؛ وذلك لأنه سرعان ما كان سيدرك بؤس ذلك الجمع من الضعفاء الجبناء الذين ظلّت مضطرة إلى العيش معهم عشرات السنين من أجل القضية النبيلة، «قضية القانون والنظام والتفكير الواضح» آملة أن يكتسبوا شيئًا من الإحساس بالواقع (ارتعشت السكرتيرة سعادة على الرغم من غرقها في خضم تأملاتها)، وأن يبتعدوا عن مستنقع الأوهام البشع

الذي غرقوا فيه، فيعودون إلى عافيتهم ونشاطهم، وأن يحترموا الواقعية التي تقتضي «كنس» كلّ أفراد المجتمع الذين يضلِّلون أنفسهم ويزرعون الأوهام والشلل، ومعهم من يختبئون من المسؤولية لشدّة جبنهم، يختبئون من «المهمات اليومية المتعلّقة بهم»، وكذلك من فشلوا في إدراك حقيقة أن الحياة حرب فيها رابحون وخاسرون، أو من تعمدوا تجاهل هذه الحقيقة تهدهدهم أوهامهم الخيالية التي تقول لهم إن الضعفاء يمكن أن يجدوا ضمانة لهم في مواجهة قدرهم... أولئك الذين يحاولون «إيقاف أي نفحة هواء نقية» ويسدّون كل منفذ للهواء بالوسائد الطرية الصغيرة. بدلًا من العضلات، تزداد دهونهم وتترهّل جلودهم؛ وبدلًا من الأجساد اللائقة المعافاة، فهم ينزعون إلى الهدر والإفراط؛ وبدلًا من النظرات الجريئة الواضحة، يمضون هنا وهناك مضيّقين أعينهم ناظرين إلى أنفسهم فحسب: وبتعبير أوضح، يفضل هؤلاء على الواقع أوهامًا ذات حلاوة كاذبة! ما كانت تريد أن يجرفها هذا التيار، لكنّها اضطرت إلى العيش في جو لا تستطيع وصفه إلا بأنه جوٌّ خانق... هذا ما باحت به السيدة إيزتر -بمرارة- للعقيد، لكنه كان يعرف مثلما تعرف محدّثته ذلك القول السائر من أنك كيفما أمسكت بالسمكة، من رأسها أو من ذيلها، فسوف تفوح بالرائحة نفسها؛ وليس على المحكمة

إلا أن تنظر إلى حالة الشوارع حتى ترى المصير المؤسف الذي جرّته القيادة غير الجديرة على هذه المدينة؛ وما كان لديها أدنى شك في أنها ستستخلص النتائج المناسبة من ذلك... وعندما وصلت إلى هذه النقطة، احمرَّ وجهُها لتذكُّرها أنها كادت تكون غير مدركة ما تقوله لشدة تأثُّرها بسحر العقيد الذي شكر «منقذة المدينة» على تقريرها بإيماءة بسيطة من رأسه قبل أن تجد نفسها في حالة ارتباك تام، ودعاها لحضور الاستجوابات. نعم، لقد وقعت تحت تأثير سحره -سرت موجة احمرار حارة في السكرتيرة- وقد قلبتها تلك الإيماءة من رأس العقيد رأسًا على عقب، لأن «قلبها» قال لها، لا بنبضة واحدة بل بشيء يشبه هزيم الرعد، إن أمامها رجل قادر على «إطلاق تلك الآلية» التي لم يستطع أحد إطلاقها فيها طيلة اثنين وخمسين عامًا! ها هو رجل استطاع أن يجرّها، على الفور، إلى حالة من حضور ساحر، رجل أقامت معه «حوارًا صامتًا» على الفور، رجل يستطيع (لا، بل «استطاع»، صحَّحت الكلمة لنفسها وقد اعتراها الاحمرار من جديد) أن يفعل شيئًا لم تجرؤ أبدًا من قبل على التفكير في أنه يمكن أن يحدث! أمر عجيب أن يكون «هذا الشعور موجودًا حقًّا»؛ ثم إن ما يقال من وقوع الناس في الحب «من النظرة الأولى»، و«عن غير بصيرة»، و«إلى الأبد»،

ليس مجرد كلام رومانسي فارغ؛ هناك حقًّا حالة يقف فيها المرء كأن صاعقة أصابته، ويعذّبه السؤال عما إذا كان لدى الشخص الآخر الشعور نفسه! فمنذ أن بدأ استجواب الناس، ظلّت «واقفة هناك، واقفة فحسب»، ظلت واقفة ساعات طويلة في قاعة مجلس المدينة؛ ومع أنها لم تهمل ضرورة الانتباه الكافي إلى تلك الإجراءات التي كانت تحقّق نتائج إيجابية متزايدة، فإن كيانها الذاهل كان مركّزًا «من حيث الأساس»، من البداية إلى النهاية على العقيد الجالس في خلفية المشهد. أهي بُنيته؟ أهو سلوكه؟ أهو مظهره؟... لقد وجدت التحديد صعبًا عليها، لكنّها انتظرت إلى أن «اتّحد قدراهما»، اتّحدا في السماء حينًا وفي الجحيم حينًا («إنه يفكّر فيّ... لا، بل هو لم يلاحظ وجودي»)؛ ففي اللحظة عينها، نهض واقفًا -نعم، لقد نهض واقفًا- وجاء إليها وأعطاها علامة سرّية كانت تعبيرًا عمليًا عن عاطفته! كان كل شيء نارًا، كان كل شيء لهيبًا في داخلها؛ كانت تعلو إلى قمة شاهقة لحظة ثم تهوي إلى الحضيض لحظة أخرى، إلا أن أحدًا ما كان ليستطيع تخمين ذلك إن نظر إليها، فحتى في ذلك الوقت، في مجرى التعامل مع مسألة فالوسكا، وبفضل حضور ذهنها، نجحا في تخليص نفسيهما من إيزتر (الذي فاته، لحسن الحظ، أن يذكر اسمه)، وذلك بطريقة رائعة جدًا ومن غير أيّة مقدمات

مزعجة؛ ثم تخلصا من هارر أيضًا عن طريق نوع من مؤامرة مشتركة بينهما، وذلك بإرساله حتى يؤدّي عددًا من المهمات، وهكذا، بقيا وحدهما في الصالة آخر الأمر. حتى في ذلك الوقت، كانت قادرة على إبداء قدر معتبر من ضبط النفس في ما يتعلّق بعضلات وجهها، وإن لم تكن قادرة على ضبط مشاعرها التي غطّتها بابتسامة سعيدة عند زاويتي فمها، وذلك لأنه ما عاد هناك شيء يستطيع إيقافها. تناولت حبّة كرز أخرى فجعلتها تنزلق داخل فمها، لكنها لم تعضّها بأسنانها، بل راحت تمتّصها وتعود بتفكيرها إلى القاعة الخالية وإلى الدقائق العشر، أو الخمس عشرة، التي تلت ذلك: كان العقيد قد رجاها أن تصفح عن
فقدانه أعصابه في وقت سابق، فأجابته بأن من المفهوم أن يعجز رجل حقيقي عن ضبط أعصابه في حضور ذلك العدد الكبير من المغفّلين؛ ثم تحدثا قليلًا عن حالة الأمة؛ وفي سياق تعبيرهما الحماسي عن إعجابهما بالأشياء وانتقادهما المعتدل لأشياء أخرى، أدخل العقيد في كلامه جملة عابرة عن مدى روعة هذين «القرطين الصغيرين» اللذين يناسبانها تمامًا. تحدّثا عن مستقبل المدينة، واتفقا على أن «ما يلزمها هو القبضة الحازمة»، وذلك على أن يناقشا التفاصيل الدقيقة لكيفية إنجاز ذلك، ولتوقيت إنجازه، في اليوم التالي وفي ظلّ

شروط أكثر هدوءًا. هذا ما أعلنه العقيد وهو يحدِّق في أعماق عينيها، فقبلت الفكرة بعد لحظة تفكير. وبما أنها اعتادت دائمًا أن تعتبر حياتها الخاصّة خاضعة للمصلحة العامة، فقد قالت إن المكان الأفضل لذلك اللقاء يمكن أن يكون في شقَّتها، الشقة رقم 36 في جادة بيلا وينكهايم، مع فنجان شاي وبعض المعجّنات اللطيفة... هكذا جرى ترتيب كل شيء على أحسن وجه -أومأت السيدة إيزتر برأسها راضية، وسحقت حبّة الكرز بلسانها على سقف حلقها- جرى ترتيب كل شيء على أحسن وجه، فما من شيء آخر يمكن أن يفسر هذا الانجذاب المتبادل وهذا الدفق العنيف من المشاعر و... صارت الآن قادرة على قول هذا... الانفجار الحقيقي الذي مثّله اكتشاف كل منهما الآخر، فإلى جانب ذلك الإحساس المحض بالبهجة، كان الأمر بالنسبة إليها توافقًا واكتشافًا فوريًا لكونهما قد صُنعا أحدهما من أجل الآخر، وتلك السرعة الاستثنائية والقوة الاستثنائية للمد الذي اكتسحهما معًا فكان أروع شيء على الإطلاق؛ ثم إن ذلك لم يكن إحساسها وحدها (هذا ما اتضح سريعًا)، بل إحساسه هو أيضًا... كيف وجدت «الأمور» حلًا لها في لحظة واحدة؟ ما كانت هناك حاجة إلى تلك الدقائق العشر، أو الخمس عشرة ـ لم تمت كلمات العقيد فيها، بل «بنت بضعة جسور بينهما». لم تعرف تردّدًا، ولم تتوقّف لكي

تزن الأمور، فقد استعدت للأمسية مفكّرة بنصف عقلها فقط في المسائل الآنية المتّصلة بالفترة القصيرة -على الأرجح -لما يسمى «خلوّ العرش». فألقت كلمات عند باب مقرها، وواست من فقدوا أحبة لهم، وأدلت بتصريحات من قبيل «سنبدأ غدًا بناء مستقبلنا من جديد». ثم رتّبت مع هارر أمر نقل أمتعتها التي حزمتها على عجل (لم يعد مركزها يسمح لها بأن تخصِّص قدرًا كبيرًا من جهودها لمسائل ثانوية من قبيل تغيير مكان إقامتها!)، فجاء بها نفرٌّ من المتبطلين الذين لا عمل لهم من هونفيد باساج إلى بيتها في جادة وينكهايم. وقد خصَّصت غرفة الخدم الصغيرة إلى جوار المطبخ لإيزتر الذي لم يبد أيّة مقاومة على الإطلاق بعد أن تجاوزته الحوادث من جديد؛ وتخلّصت من قطع الأثاث القديمة المستهلكة، فوضعت مكانها سريرها وكرسيها وطاولتها، واستقرت في غرفة المعيشة.

ارتدت أحسن ملابسها، فستانها المخملي الأسود ذا السحّاب الطويل على الظهر، وأعدّت الماء من أجل الشاي، وصفّت بضع قطع من المعجنات في صينية من الألمنيوم غطّتها بالورق، ثم مشّطت شعرها بعناية وردّته خلف أذنيها. كان هذا كل ما فعلته، فما من حاجة إلى مزيد، ففي شخصيهما -العقيد الذي وصل في

الساعة الثامنة، وهي التي ما عادت قادرة على ضبط مشاعرها- تلاقت عاطفتان كبيرتان جارفتان لا تعرفان حدودًا... عاطفتان لا تبغي كلٌّ منهما شيئًا غير الأخرى، وروحان تحتفلان باجتماعهما الأبدي من خلال ما يوافق ذلك من «اجتماع الجسدين». لقد كان عليها أنٍ تنتظر اثنين وخمسين عامًا، لكن انتظارها لم يكن عبثًا، لأن رجلًا حقيقيًا علمها في تلك الليلة الرائعة أن «الجسد لا قيمة له من غير الروح»، ولأن ذلك اللقاء الذي لا يُنسى، اللقاء الذي استمر حتى الفجر قبل أن يسقطا نائمين، لم يأت بحالة إشباع حسّي فقط، بل بالحب أيضًا (لم تخجل من استخدام كلمة «حب» مع مجيء ذلك الفجر). ما كان يمكن أبدًا أن تعرف أن هذا العالم الرائع موجود حقًا، وما كان لها أن تعرف أنها ستتعلّم الكثير من «المناورات المبهجة في تلك المعركة اللذيذة»؛ وما كان لها أن تعرف أن «طغيان تلك الموجة المتصاعدة» في قلبها يمكن أن يكون مسكرًا إلى هذا الحد، محرِّرًا إلى هذا الحد، لأن مفتاح تلك الزوايا القصيّة الخفيّة المقفلة في كيانها -أغمضت عينيها واحمرّت كلّها من جديد وهي تعترف بهذا لنفسها- كان بين يدي العقيد. ففي شخص عقيدها، الذي صارت الآن، «على نحو طبيعي تمامًا»، بحلول هذا الوقت، تناديه باسمه، بيتر، وبين تلك الذراعين القويتين، عاشت

نشوتها نحو ثماني مرات... العقيد الذي أغلق بيديه وعاء الفاكهة المحفوظة هذا، أغلقه بالسيلوفان وبشريط مطاطي... لقد عثرت على شخص تستطيع أن ترتب معه مستقبل المدينة، وفي الوقت نفسه تستطيع أن تناقش معه الوضع العام. كانا يتساءلان، وهما على اتفاق تام، أي بلد هذا (تذكرت الآن جيدًا... كانت سبع مرات!)، أي بلد هذا الذي يحتاج إلى محكمة عسكرية، وإلى ضابط ذي سلطة مطلقة معه وحدة عسكرية بأسرها، تحت تصرفه، يأتي ويذهب إليها، حتى يحفظ القانون والنظام على المستوى المحلي؟ أي بلد هذا حيث يجري نشر الجنود فيه ليصيروا رجال إطفاء يتجوّلون هنا وهناك ويخمدون ألسنة اللهب التي أشعلها بضعة مخربين منفلتين؟ قال العقيد من جديد، «صدقيني، يا تونده العزيزة، لا أكاد أطيق النظر إلى الدبابة الوحيدة التي رأيتِ في الساحة الرئيسية، فهي تخجلني كثيرًا! لقد جررتها معي مثلما يجر ذلك البربري صاحب السيجار حوته. جعلت الناس يرونها حتى يدبّ الفزع في قلوبهم. فبمعزل عن مرة أو مرتين خلال التدريبات، لا أستطيع تذكر مناسبة واحدة أطلقت فيها ذلك الشيء... لم تكن في ذهني إدارة سيرك عندما انطلقت، بل أردت أن أكون جنديًا؛ وبطبيعة الحال، أحبّ أن أطلق ذلك الشيء». أجابته بنبرة لعوب: «إذًا، اطلقه، يا بيتر»؛

وقد أطلقه، أطلقه سبع مرات، مرة تلو أخرى، فكل اتفاق... وكل أمر يستطيع الانتظار حتى صباح اليوم التالي. الآن: ما كان يهمّها شيء غير اللحظة الحاضرة، غير البهجة التي لا حدود لها، بهجة كونهما معًا في هذا الحب. ثم، في الفجر، ودّعها أمام البيت، ثم تبادلا هاتين الكلمتين وهو يصعد سيارة الجيب التي كانت في انتظاره، هاتين الكلمتين اللتين كانا يريدان قولهما مرات أكثر («توندة!»، «بيتر!»)، ثم صاح ملقيًا إليها بالوعد الذي لم تنسه وهو ينطلق في ضياء الفجر الذي كان لا يزال خافتًا، صاح من نافذة سيارة الجيب المبتعدة: «سأعرّج عليك كلما استطعت!». لا يمكن أن يقول أي شخص يعرفها حقًّا إنها كانت خائرة القوى في يوم من الأيام -نهضت من على طاولة الكتابة- لكن الهمّة والعزم اللذين هجمت بهما على مهمّة التخطيط بعد تلك الليلة الحاسمة، كانا مفاجئين تمامًا، حتى لها؛ ففي غضون أربعة عشر يومًا، لم يقتصر ما فعلته على «كنس القديم وإقامة الجديد محلّه فحسب»، بل اشتمل أيضًا على «هبّات متواصلة من الطاقة» جعلتها تكسب ثناء أهل المدينة ومساندتهم... أهل المدينة الذين أدركوا أخيرًا -هذا ما تشير إليه الأدلّة الواضحة كلّها- أن «احتراق المرء في حمى النشاط أفضل له من انتعال شبشبه المنزلي ودفن رأسه تحت الوسائد»، أهل المدينة

الذين ما عادوا يتعالون عليها بعد أن استطاعت كسب ثقتهم، بل صاروا «ينظرون إليها نظرة احترام».
(سارت إلى النافذة واضعة يديها خلف ظهرها. نظرت في الشارع، نظرت إليه من أوله إلى آخره). الحقيقة أنها وجدت نفسها في وضع جعل كل ما تفعله يلاقى نجاحًا فوريًا؛ وصار كل شيء متيسرًا لها بسهولة، على نحو طبيعي، فما كان «تولّي السلطة» كلّه بأكثر من لعبة طفل: ما كان عليها الآن إلا أن تجني ثمار تعبها وكدِّها. مضى القسم الأكبر من الأسبوع الأول في «التقاط أطراف الخيوط»، أي في المراقبة المتنبِّهة الحذرة لمعرفة ما إذا كانت تقلّبات أقدار أبرز الشهود و«تحليل أعمال التخريب والتحقيق فيها» تجري فعلًا وفقًا للخطة المقررة، أو أنها تسير بحسب عناصر القصّة التي روتها في ذلك اليوم المشهود في قاعة مقر مجلس المدينة؛ وقد بدأت تلاحظ -أدهشها هذا- كيف أنَّ كلَّ شيء يتّخذ مكانه على أكمل وجه، وكيف أن كل قرار - بشري أو سماوي- يقع أثره على أولئك الذين شاركوا يبدو تعزيزًا لموقعها، بل يبدو تعزيزًا لموقعها بطريقة تكاد تبدو خارقة للطبيعة. لقد أدى السيرك عمله الذي كان ذا قيمة كبرى. وإذا كان الأمير ومساعده لا يزالان حرّين طليقين، فإن المدير («البربري العجوز صاحب السيجار»، بحسب تعبير بيتر) جرى ترحيله، وجرى

إبعاد الحوت أيضًا، كما امتلأ السجن بـ«مختلف أنواع المساعدين والمسهّلين والمتواطئين»؛ وحتى لا تؤدّي الحوادث المحلّية إلى إطلاق شرارة أية حوادث أخرى، ولو بسيطة، في المناطق المجاورة، فقد تم (بذكاء) نشر إشاعة مفادها أن الشركة كانت تعمل بموجب تعليمات جهات استخباراتية أجنبية. وأما مدير الشرطة، فقد أرسل حتى يمضي ثلاثة شهور في مؤسسة لمعالجة المدمنين على الكحول في مكان ما في منطقة ريفية بعيدة (على الأقل، إلى أن يتمَّ نقله إلى مقاطعة فايس)، ووُضِع ولداه في مأوى للأطفال. وفي أثناء ذلك، كانت صلاحيات العمدة القديم -على الرغم من تركه محتفظًا بلقبه- قد انتقلت إلى سكرتيرته المعيَّنة حديثًا. ثم هناك فالوسكا أيضًا، فالوسكا الذي لم يبتعد كثيرًا في ذلك الصباح الذي «افتتح عصرًا جديدًا» (بالتأكيد، كان عصرًا جديدًا، بالنسبة إليه أيضًا) لأنه توقَّف في الليل وسأل شرطيًا عن الاتجاهات؛ وقد جرى إيداعه مدى الحياة (لأسباب عملية) في جناح ذي حراسة مشددة في المصحة العقلية في المدينة. وعين هارر ضمن العاملين في مقر مجلس المدينة بصفة مساعد مؤقت للسكرتاريا، وذلك ريثما يتمّ العثور على وظيفة دائمة له؛ وفوق هذا كله، حصلت المدينة على قروض بمبالغ مالية معتبرة من أجل «التطوير». كان هذا كلّه في الأسبوع الأول

وحده -طقطقت السيدة إيزتر بأصابعها خلف ظهرها ثم اكتسب انتقالها إلى فنائها المرتب وبيتها الذي يسوده النظام «زخمًا حقيقيًا» في الأسبوع الثاني؛ وفي غضون خمسة أيام من انتهاء الشغب المخيف، أعادت المتاجر فتح أبوابها وبدأت رفوفها تُظهر علامات على النشاط التجاري. وبدأ السكان كلهم يعودون إلى أعمالهم، ثم واظبوا على فعل ذلك؛ وعادت المؤسسات الحكومية إلى عملها -بكادرها القديم نفسه، هذا صحيح- لكن بروح جديدة؛ كان هنالك تعليم في المدارس، وتحسَّنت الاتصالات الهاتفية، وتوفّر الوقود من جديد، فاستطاعت وسائل النقل العامة أن تعود إلى الحركة، بوتيرة منخفضة لكنها كبيرة القيمة؛ وعادت القطارات تعمل جيدًا ضمن هذه الظروف، وصارت الشوارع منارة كلها في الليل، وصار الحطب والفحم متوفرين بما يكفي لأن تظل المواقد مشتعلة. بكلمات أخرى، كانت عملية الانتقال ناجحة، وعادت المدينة تتنفّس من جديد. حرَّكت رقبتها بلطف حتى تروّح عن نفسها قليلًا ـ وكانت هي من يقف على قمة ذلك التحوّل كلّه. ما كان هناك وقت للتفكير في كيفية سير الأمور بعد ذلك لأن تأمّلاتها التي لم يقاطعها شيء قبل هذه اللحظة توقّفت فجأة بفعل قرع على الباب، فعادت إلى طاولة مكتبها، وخبأت وعاء الكرز، وعدَّلت وضع الكرسي، وتنحنحت قليلًا،

ووضعت ساق فوق ساق. عندها، وبعد أن قالت: «ادخل!» بصوت مرتفع صادح، دخل هارر الغرفة، ثم أغلق الباب من خلفه، وتقدّم خطوة واحدة في اتجاه مكتبها، ثم توقّف في مكانه، ثم تردَّد وعقد يديه معًا، وراح يلتفت التفاتات حادّة هنا وهناك بطريقته المراوغة المعتادة، حتى يرى إن كان قد حدث في الغرفة شيء مهم في الفترة الفاصلة بين قرعه الباب ودعوته إلى الدخول. قال إنه يحمل أنباء «بخصوص الأمر» الذي عهدت به إليه السيدة الطيبة منذ يوم الاثنين الماضي: لقد وجد -أخيرًا- رجلًا قد يكون ممكنًا قبوله، بحسب رأيه، في مستوًى متدنٍ ضمن قوة الشرطة الجديدة، فهو يلبي الشرطين اللازمين كليهما، لأنه من أهل المدينة، من ناحية أولى، ولأنه أظهر «صلاحيته في مناسبة بعينها»، من ناحية أخرى -رفرف هارر بعينيه- فلا يزال هناك وقت طويل باقٍ قبل موعد الجنازة؛ وقد أتى به معه مباشرة من «حانةٍ النيل». ولما كان قد أكّد له أن كل ما قد يقال سيبقى سرًّا مكتومًا، سيبقى خلف أبواب مغلقة، فإن «الشخص المعني» مستعدٌ لوضع نفسه «موضع الاختبار». ومن هنا، فإن هارر يقترح إجراء مقابلة معه الآن، هنا. أجابته السكرتيرة: «الآن، ربما يكون هذا ممكنًا؛ لكن ليس هنا!»؛ وبعد أن فكّرت لحظة، وبّخت هارر توبيخًا حقيقيًا لكونه غير حذر إلى

الحد الكافي؛ وسألته أخيرًا عما كان يفعله في «النيل» في حين ينبغي أن يكون إلى جانبها من الصباح حتى الليل؛ ثم رفضت أعذاره التي حاول عرضها، وشرحت له أن عليه أن يأتي مع الشخص المعني إلى بيتها في جادة وينكهايم بعد نصف ساعة من الآن من غير أن يتأخّرا دقيقة واحدة، ومن غير أن يبكرا دقيقة واحدة. لم يجرؤ هارر على أن ينبس ببنت شفة، بل اكتفى بالإيماء برأسه دلالة على أنه فهم ما قالته له، ثم أومأ إيماءة أخرى ردًا على جملتها الأخيرة، «... ويجب أن تكون سيارة السكرتاريا منتظرة أمام البيت عند الثانية عشرة وربعًا!»، ثم انسلّ خارجًا من الغرفة في حين كانت السيدة إيزتر تذكّر نفسها، وقد ارتسم على وجهها تعبير مهموم، بأن عليها، ويا للأسف، أن توطّن نفسها على حقيقة أن «شخصًا في مثل مركزها لا يستطيع أن يستريح دقيقة واحدة». لكنها لم تعان خوفًا حقيقيًا من أن يفسد مساعدها النشيط، وإن يكن مندفعًا متهورًا («لا بدّ من مراقبته وإلا فسوف يجري مطاردًا فكرة غبية ما...»)، مساعدها الذي لا بد من إبقاء الرَّسَن على عنقه دائمًا، قد أفسد عليها هذا الصباح الواعد بأن يكون صباحًا هادئًا ملؤه الاستمتاع «بالسلطة المكتسبة حديثًا»؛ ففور خروجها من المكتب واجتيازها باب مقرّ مجلس المدينة مرتدية معطفها الجلدي البسيط، حتى

التفت إليها -على الفور- عشرات أو مئات من الأشخاص؛ ثم لم تكد تبلغ شارع آرباد حتى تشكَّل من حولها «حرس شرف حقيقي» من المواطنين أصحاب الضمير الحيِّ الذين يعملون أمام بيوتهم. كان كل منهم منكبًّا على عمله: أجداد وجدّات ورجال ونساء، طوال وقصار، بدينون وناحلون، كانوا منشغلين جميعًا بفؤوسهم ومجارفهم وعرباتهم اليدوية، يزيلون القمامة المتجمِّدة عن الرصيف ومن المناطق المخصصة لهم أمام بواباتهم؛ وكان واضحًا أنهم ماضون في هذا العمل «بحماسة كبرى». كانت كل مجموعة من تلك المجموعات الصغيرة تتوقّف عن العمل لحظة، عندما تصل إليها، فتترك فؤوسها ومجارفها وعرباتها، وتحييها بالعبارات البهيجة المعتادة، «نهارك طيب!»، أو «شيء من الهواء المنعش، أليس كذلك؟»؛ ولما كان سرًّا شائعًا أنها صارت رئيسة «لجنة تقييم الحركة»، فقد كانوا يعودون إلى عملهم بهمة أكبر من ذي قبل... إن كان هذا ممكنًا! ومرة أو مرتين، سمعت أصواتًا آتية من مسافة بعيدة أمامها تعلن «ها هي سكرتيرتنا قادمة!»؛ وما كان لديها أي سبب يحملها على الإحساس بالحرج من أن قلبها كان يخفق معتزًّا وهي سائرة في شارع آرباد؛ واصلت سيرها بخطواتها السريعة وهي تمرّ بهم ملوّحة بيدها هنا، وملوّحة بيدها هناك؛ ومع

تزايد هذا السيل من التحيّات الموجَّهة إليها بمزيد من الحماسة مع اقترابها من آخر الشارع، لم تعد قادرة على منع نفسها من إرخاء أسارير وجهها المعروفة بأنها متّجهمة كالحة، متجهّمة لأنها «تحمل هذا القدر من المسؤوليات والآمال على كتفيها!» ـ بل كادت تبتسم. أَوَلَمْ تكرّر مئات المرات خلال الأسبوعين المنصرمين أن من الأفضل إسدال الستار على ما قد مضى وانقضى «لأننا لن نستطيع الانتقال من المربع الأول إلى المربع الثاني إذا فكّرنا في ما يتعين علينا فعله وفي ما نحن راغبون في إنجازه»، لا... لم تتوقّف أبدًا عن ملء آذانهم «بنداء النفير الداعي إلى العمل»؛ وأما الآن، للمرة الأولى بعد هذا التجلّي المفرح لثقة الناس فيها، فقد بدأت تنظر في أن عليها اتباع هذه النصيحة بنفسها، وتقول: «صحيح، فلنسدل ستارًا على ذلك كله»؛ لكنها انعطفت عند زاوية الجادّة فقالت تُذكِّر نفسها: «من أنا بالنسبة إليكم، ومن أنتم بالنسبة إليَّ»؛ لا تستطيع الجماهير تحقيق شيء من غير قائد؛ لكن القائد يظل غير قادر على فعل شيء من غير ثقة الجماهير -فتحت بوابة البيت- وهذه الجماهير تحديدًا «ليست مادة سيئة على الإطلاق»؛ لكنها أضافت على الفور أنها، هي نفسها، «ليست قائدًا عاديًا»؛ سنكون على خير ما يرام، سيداتي سادتي، فكَّرت في هذه العبارة راضية وهي

تتذكر الناس الذين مرّت بهم في شارع آرباد، وتوصّلت إلى أنه سيكون ممكنًا، في وقتٍ لاحقٍ، بعد أن يتم إحراز بعض التقدم، ألا يظل الرسن شديدًا عليهم، وألا تظلّ السكرتيرة شديدة التطلّب إلى هذا الحد»؛ وذلك لأنه لم يعد لديها، في حقيقة الأمر، مزيدٌ مما تريد تحقيقه، فلديها الآن كل ما أرادته -رنّ وقع خطواتها علي أرض الممر- وقد صار كله الآن لها. لقد استعادت ما أُخذ منها، وكسبت كل ما كانت تأمل في كسبه، فقد صارت السلطة (بل السلطة المطلقة، في حقيقة الأمر، بين يديها)، كما أن «إنجازها الأكبر» كان قد سقط «حرفيًا» في حجرها... قالت هذا لنفسها وهي تدخل غرفة المعيشة وقد تأثّرت مشاعرها تأثّرًا شديدًا. لقد كانت أفكارها تسبقها قليلًا، مثلما حدث في المكتب، أو مثلما هي ميّالة إلى فعله عادة، في الأسبوعين الأخيرين خاصة، في الأسبوعين

اللذين كانت أفكارها تعود خلالهما -مرارًا وتكرارًا- إلى الرجل الذي لم تتوقّف لحظة عن انتظاره، لا في الليل ولا في النهار، ذلك الرجل «الذي لم يعرّج عليها»، لسوء الحظ. كانت تستيقظ من حلمها أحيانًا على صوت سيارة جيب؛ وفي أحيان أخرى، بل في أحيان كثيرة جدًا يكون أكثرها عند وجودها في غرفة المعيشة في البيت، كان يأتيها إحساس مفاجئ... لا يمكن أن يكون هذا

حقيقة! لكن... تجد نفسها مرغمة على الاستدارة والنظر خلفها لأنها تحس بأن هناك أحدًا -إنه هو!- تحسّه واقفًا خلفها؛ لكن هذا لا يعني أنها كانت قلقة لغيابه، وذلك ببساطة لأن «الحياة فارغة من غيره». كان وجود ذلك الإحساس مفهومًا تمامًا لدى شخص «قلبه ممتلئ حبًا»، فكانت تنتظره في الصباح وفي الظهر وفي الليل؛

وكانت تراه بعين خيالها، كما تراه دائمًا، يصدر الأوامر دائمًا، يصدرها جليلًا من غير أن يحرّك عضلة واحدة، ثم يضع على عينيه المنظار المقرّب المعلَّق برقبته و«يمسح الأفق البعيد»... كانت هذه الصورة البطولية هي ما أومض أمامها الآن، لكنها تبدّدت كتبدّد الدخان عندما سمعت أحدًا «يتحرّك» من جديد في الصالة؛ إنه الشخص الذي كانت قد «أسدلت عليه ستار الماضي» بكل تأكيد، الشخص الذي ظلّ، حتى انقضاء تسعة أيام بعد تحديد مصير فالوسكا، يخرج كل يوم في تمام الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، ثم يعود قرابة الثامنة ليلًا بعد أن يقدّم التماسًا من أجله. كان هذا هو الدليل الوحيد لديها على أن إيزتر لا يزال حيًّا، الدليل الوحيد غير صوت تدفّق الماء من وقت لآخر، والصوت البعيد الواهن للبيانو الذي نُقل بدوره إلى غرفة الخدم،

وشذرات من أخبار كانت تصلها عنه أحيانًا؛ وأما غير هذا، فقد كان كأنه غير موجود، وكأن لا علاقة لجحره

الصغير ببقية البيت. لم تره خلال أسبوعين كاملين إلا مرة واحدة، أو مرتين، وذلك في يوم «الاستعادة التاريخية المهمّة للبيت»؛ ولما كانت تدابيرها الأمنية القاضية بتحرّي غرفة الخدم كل مساء تأتي دائمًا بالنتيجة نفسها ـ لوحة النوتات الموسيقية المفتوحة، وأعمال جين أوستن مكوَّمة في عمودين، وساكن الغرفة يقرأ، إن كان موجودًا، («كم هي مضجرة هذه القراءة اللعينة»)، أو يعزف على البيانو («رومانسية لعينة!»)، فقد قررت يوم أمس إنهاء هذه الرقابة والاستغناء عنها. لم تتّخذ هذا القرار لمجرّد أنه لم يعد يشكِّل أي خطر عليها، بل أيضًا لأنها «لم يعد لديها أدنى اهتمام» بما يفعله ولا بوجوده؛ وفي الحالات النادرة، عندما تفكِّر فيه، تجد نفسها مرغمة أن تسأل نفسها: «أهذه هي القوّة التي انتصرتُ عليها؟... على هذا الغبي، هذا المعتوه، هذا الحطام المتهاوي» الذي قلل من شأن نفسه حتى صار مجرّد ظل من خلال ما أظهره من تعلّق بفالوسكا ناقص العقل! لأن... لأن ذلك كل ما كانه، ولأنه «ليس أكثر من ذلك»، هكذا قالت السيدة إيزتر في نفسها وهي تسمعه يتحرّك في الممر... لم يعد أكثر من ظل واهٍ لذاته السابقة، لم يعد إلا شيخًا يثير الشفقة، أرنبًا مذعورًا، «هيكلًا عتيقًا مرتجِفًا تدمع عيناه دائمًا»... فبدلًا من أن ينفض عنه أية ذكرى لفالوسكا، جعل نفسه

غارقًا في مشاعره «الأبوية»، فخسر ذلك الاحترام «غير المفهوم على الإطلاق» الذي كان يتمتّع به بين الناس، الذين صاروا الآن -فجأة- يعتبرونه «موضوعًا للسخرية العامة». من ذلك الصباح الذي تقرّر فيه مصير فالوسكا (تقرّر على نحو يدعو إلى الاطمئنان)، وبدلًا من أن يحبس نفسه مثلما كان يفعل من قبل، صار يسير في البلدة على مرأى من الجميع، مرتين في كل يوم -مرّة عند خروجه عند الساعة الحادية عشرة، ومرة عند عودته في الساعة الثامنة- حتى يجلس في «البيت الأصفر» مع فالوسكا الصامت تمامًا في ثوبه المخطّط (كان واضحًا أنه ما عاد قادرًا حتى على فتح عينيه)؛ وكان، كما يقول الناس، يتحدّث إليه مثلما يفعل مريض عقليّ حقيقي، أو يجلس معه صامتًا. لم تكن هناك أية إشارة على الإطلاق إلى أن «هذا التجسيد الحيّ لأكثر الهزائم إذلالًا» يمكن أن يعود إلى رشده... تنهّدت السيدة إيزتر وهي تسمع الصوت البعيد، صوت إغلاق بوابة البيت... فهذا ما سوف يستمران، من غير شك، في فعله طيلة بقائهما على قيد الحياة؛ وسيظلان تسلية لهذه المدينة الواقفة على عتبة عهد جديد؛ سيظلّان جالسين معًا، صامتين، وقد أمسك كل منهما بيد الآخر. صحيح، هكذا سيكون الأمر على الأرجح. كانت تفكّر في هذا عندما نهضت وبدأت ترتب الغرفة من أجل

المقابلة على الرغم من أن هذه المشكلة لم تكن تهمّها بأيّ حال من الأحوال، فما الضرر الذي يمكن أن تسبّبه تلك اللطخة الصغيرة في ماضيها؟ وما الضرر الذي يمكن أن تلحقه بمركزها الحالي، هنا، (في الذروة)؟ وعلى أيّ حال، فهي قادرة على احتمال «سيره الهادئ الجنائزي» في الممر، مرّتين في اليوم؛ إنها قادرة على احتمال هذا، على الأقل، إلى أن تستطيع العثور «على لحظة مناسبة» لترتيب طلاق سريع طال انتظاره كثيرًا. جرّت الطاولة والكرسي فقرّبتهما من النافذة حتى لا تكون لدى «المرشَّح» أيّة فرصة «للاستناد إلى أي شيء» في الغرفة التي كانت شبه عارية أصلًا؛ وعندما ظهر هارر بعد دقيقة كاملة من ذلك (قالت له السيدة إيزتر عابسة، «لقد تأخّرت») وظهر في أعقابه «الجندي العتيد» فقاده إلى وسط الغرفة؛ كان الرجل قد وصل المكان واثقًا من نفسه، نافخًا صدره، لكنه سرعان ما «صار أكثر طراوة»، بحسب الخطة. رجل قوي كأنه ثور، هذا ما فكَّرت فيه السكرتيرة وهي تنظر إليه من خلف الطاولة، في حين كان هذا «المُرتاد الدائم لحانة النيل» الذي «تفوح منه رائحة الشراب» يتخلّى عن أي مظهر من مظاهر «الثقة بالنفس» بفعل الضغط الشديد الواقع عليه من جانب هارر أولًا، إذ راح يمطره بالأسئلة حتى أحدث في نفسه القدر الكافي من الخوف،

فضلًا عن إحساسه «بالهشاشة» لوقوفه في مركز الغرفة. وعند هذه النقطة، تولَّت المرأة المسيطرة على الموقف مقاليد الأمر وجعلته يدرك «من خلال تحذير صغير» أنه الآن في مكان لا يجوز فيه اللجوء إلى الخداع والألاعيب، فلن يهدرا الوقت على شخص «يعيش في الخمارات»؛ قالت له إن عليه أن يصغي إلى كلامها بكل انتباه لأنها لن تقوله إلا مرة واحدة. وبوجه باردٍ كالجليد، أعلنت أنها لا تريد أن يكون هناك أي سوء فهم. «فالغاية من هذا الاستجواب هي تقرير ما إذا كان علينا أن نرميك إلى السلطات من غير تأخير، أو أننا يمكن أن نستفيد منك»، لكن الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها إقناعهما باعتماد الخيار الثاني هي تقديم رواية تفصيلية، دقيقة كل الدقة، لما جرى في «تلك الليلة» من حوادث. قالت له إن ذلك هو السبيل الوحيد - رفعت إصبعها تأكيدًا على كلامها- وهذا لأن دقة المعلومات ووفرتها هي «البرهان على صدق عزمه»، على أن يكون عضوًا نافعًا في المجتمع، وإلا ففي وسعه أن يمثُل أمام القاضي -وهو ما يعني ذهابه إلى السجن- وفي الحالات التي تشبه حالته، لن يعني هذا أقل من بقائه في السجن طيلة حياته. أجاب الرجل المستنطَق مضطربًا بالقول إنه -بكل تأكيد- ليس راغبًا في الذهاب إلى السجن، وراح ينقل ثقل جسده من قدم إلى أخرى

مضيفًا أن «النسر» -قال هذا مشيرًا إلى هارر- وعده بأنه لن تكون هناك أية مشكلات إن هو «أدلى بكل ما لديه من معلومات». قال إنه لم يأت حتى يسلِّم نفسه، «فهو لم يولد يوم أمس»، وما من حاجة إلى أية تهديدات لأنه جاء بإرادته الحرّة حتى يبوح بكل شيء، وحتى يقصّ عليهم كل ما جرى، سطرًا فسطرًا، لأنه -هكذا قال وهو يحكّ ندبة جرح لا تزال طرية على ذقنه- «يدرك الأمر كله»: إنهم يريدون رجال شرطة، وهو هنا لأنه ضاق ذرعًا بحانة النيل. أجابته السيدة إيزتر بترفُّع شرس قائلة: «سنرى ما نستطيع فعله»، لكنها تريد أولًا أن تعرف إن كان قد ارتكب أية جريمة خطيرة تجعل «الربّ نفسه غير قادر على إنقاذك من بين يدي القانون»، ثم يقول لهما كل شيء «كلمة فكلمة وسطرًا فسطرًا»؛ عندها فقط، ستكون قادرة -هي سكرتيرة المجلس- على تقرير ما إذا كانت قادرة على مساعدته.

نعم، يا سيدتي [تنحنح الرجل قبل مواصلة كلامه]، كانت الرائحة شديدة، وكان في وسعك أن تشمّيها على مسافة ميل. لكننا لم نكن جزءًا من ذلك، ليس قبل أن نسمع في حانة النيل أن هناك بعض الاضطرابات في المدينة؛ وهكذا قلت للآخرين، قلت لغيومرو وفيري

هولجر، هيا يا أصحابي، إن بلدكما في حاجة إليكما، وسوف نذهب لكي نجعلهم يعودون إلى رشدهم. «هذا لأننا معروفون، يا سيدتي [السيدة السكرتيرة، صوّب له هارر طريقة مخاطبتها]، أعني يا سيدتي السكرتيرة، نحن معروفون باسم ‘الجسر الثقيل’، لأننا، ولأكن صادقًا معك، نحن الثلاثة، كيف أعبِّر عن هذا... حسنًا، تعرفين، عندما يصيبنا الضجر، نخرج ونسوّي بعض الأمور فنخيف الناس قليلًا، أعني أنهم يتجنبوننا كأننا وباء، فحيثما نذهب لكي نتناول شرابًا، يصير المكان كلّه هادئًا، إن كنت تفهمين ما أعنيه. لا، لكن هذا لم يكن شيئًا بالمقارنة مع ما كان يجري عندما وصلنا إلى شارع هاي، تمامًا عندما يلتقي بالشارع الرئيسي؛ وقد قلت لغيومرو، هيا يا رجل، تحرّك... وهكذا، لا معنى لإنكار الأمر، فقد شاركنا، نحن أيضًا. وفي تلك اللحظة، رأينا نارًا كبيرة، تمامًا لحظة بدأنا نضرب بعض الأشخاص، وفهمنا أن هذا شيء مختلف تمامًا عما نعرفه، فقد كان أولئك الناس يهاجمون المدنيين، فقلت لفيري هولجر، استراحة يا شباب، فمدَّد اثنين من المرضى على الأرض، بكل رفق، وذهبنا، ومعنا غيومرو أيضًا، ورحنا نفكّر في ما يتعين علينا فعله. لكن حشدًا كبيرًا كان قد اجتمع بحلول ذلك الوقت، أتوا جميعًا من ساحة السوق مثلما يأتي الجيش الروسي، أو

شيء من هذا القبيل؛ فقلت، لا بأس يا أصدقائي، يبدو هذا أشبه بثورة، وقد حان وقت ذهابنا من هذا المكان. لكن غيومرو قال شيئًا عن أنه يتذكر أنهم يفتحون المتاجر في أوقاتٍ من هذا النوع، وأن الفقراء يصيرون قادرين على الاستفادة من ذلك، وقال إن علينا أن نذهب ونرى، لأن هناك ذلك المتجر الصغير للبقالة بالقرب من المكان، متجر فيه مشروبات رائعة... فلنذهب ونرى إن كان مفتوحًا اليوم، وبعدها ننصرف. حسنًا، لقد كان المحل مفتوحًا، لكننا لسنا من حطم أقفاله، يا سيدتي السكرتيرة، فقد وجدنا الباب محطَّمًا شرَّ تحطيم عند وصولنا، فدخلنا المكان لأننا وجدناه مفتوحًا، وحاولنا إنقاذ بعض الزجاجات، لكن الأشخاص الذين كانوا هناك قبلنا حطموا المكان كلَّه، فلم نستطع أن نجد زجاجة واحدة غير مكسورة. أزعجنا هذا قليلًا لأننا لم نجده شيئًا صائبًا، أعني أننا كنا هناك، تلك الحرية اللعينة متاحة للجميع، وكنا نتجوّل في المكان ونحن نشعر بظمأ كبير؛ إنني أقول لك، أقسم بأمّي العزيزة [وضع يده على قلبه] على أننا لم نكن نريد شيئًا، لم نكن نريد أكثر من جرعة أو جرعتين، ثم نذهب إلى بيوتنا، فأنا أحب القتال قليلًا، أفعل ذلك أحيانًا، إن كنت تفهمين ما أعنيه، لكننا لم تكن لنا أية علاقة بما يجري هناك، ثم إنني -بشكل عام- أحبُّ أن تكون الأمور هادئة، وهذا ما يجعلني أظن أنني

صالح لأن أكون شرطيًا جيدًا، وأنت، يا نسر، أطبق فمك [قال هذا لهارر عندما رأى أنه يريد أن يقول شيئًا]، أنت مسؤول عن أشياء كثيرة... على أية حال، ذهبنا ونظرنا إلى النادي -لا شيء؛ ذهبنا إلى البار الذي في شارع هاي- وجدناه محطّمًا أيضًا، فقلنا في أنفسنا إننا لن نحصل على شيء هنا، فلنجرِّب مكانًا آخر يا أصدقاء. ذهبنا إلى، ما اسمه؟ إلى كوهيرد، لكن الحماسة دبَّت في فيري هولجر في تلك اللحظة وقال إنه يعرف مكانًا في شارع فرايرز، واحدًا من مقاهي الصودا هناك، عليّ الآن أن أكون صادقًا، فقد حطَّمنا ذلك الباب، لم نفعل شيئًا، نظرنا في المكان، وبحثنا في الغرفة الخلفية، فوجدنا بضع زجاجات من مشروبات أجنبية، ونظرنا إلى لصاقاتها فبدت لنا جيدة، أعرف، أعرف [أومأ برأسه في اتجاه السيدة إيزتر]، سوف أصل إلى جوهر الأمر، لأن هذا ما فعل بنا ذلك، كما ترين، هذا ما قاد إلى مشكلات حقيقية، فنحن لم نألف ذلك الشراب الأجنبي، يا إلهي، كان إحساسنا غريبًا جدًّا بعد أن شربناه، أقسمت حينها على أنني لن أمسَّ قطرة منه. فبعد ذلك، ظهرت مجموعة أشخاص في أيديهم قضبان حديدية وراحوا يحطِّمون كل شيء، وقلت لشخص منهم، أعطني واحدًا من هذه القضبان، أقصد القول إنني قبلت ذلك، فشاركنا مشاركة غير قليلة أبدًا. لكن، لا

تظنّي أنني أكون هكذا في الأحوال العادية، يا سيدتي السكرتيرة، إنه ذلك الشّراب اللعين الذي أضاع صوابي، وعلى الرغم من ذلك -عندما أعود بذاكرتي لما حدث- فإننا لم نسبب أضرارًا كبيرة، مرآة وبضع كؤوس كانت على البار، لا شيء يستحقّ عقوبة حقيقية... قلت لك أن تطبق فمك، يا نسر [قال هذا فأسكت هارر مرة أخرى]، وسوف أدفع ثمن المرآة، وتلك الأشياء، إذا كان صاحب ذلك المكان اللعين يعتبرها مهمّة. لا أعرف ما الشيء الملعون الذي وضعوه في ذلك الشراب القذر (اسمحي لي بهذا)، لكنّي كنت خارج البيت، ساعات كثيرة، ولم أكن أعرف أين أنا، ولم أكن أميز شيئًا من شيء. وفجأة وجدت نفسي جالسًا على الرصيف أمام فندق كوملو، وكان البرد يقتلني، نظرت من حولي فرأيت السينما تحترق، ورأيت ألسنة اللهب مرتفعة هكذا [أشار بيديه إلى الأعلى] فقلت في نفسي إن الوضع يصير خطيرًا هنا. لا أعرف كيف وصلت إلى ذلك المكان، ولا كيف غادره غيومرو وفيري هولجر، أعني أنني غير قادر على إخبارك بشيء من هذا، حتى تحت التعذيب، لم أفعل غير أنني سرت مع الأشخاص الآخرين، ولم أدرك أبدًا ما كان يجري من حولي [احمرّ المرشح غضبًا]! كان إحساسي فظيعًا، أقول لك هذا، كنت واقفًا هناك، ومعدتي وكبدي يحترقان، والسينما تحترق أمامي،

ولأكن صادقًا، اعتقدت حقًّا، مثلما يعتقد أيّ أحمق معتوه أنني أنا من أشعل النار فيها، لأنني -فليكن الرب في عوني- لم أستطع أن أتذكّر شيئًا، ولم تكن لدي أية فكرة عما فعلته، كنت أنظر إلى ألسنة اللهب وأفكر: أأنا من فعل هذا؟ أم إنني لم أفعله؟ لم تكن لدي أبدًا أية فكرة عما فعلته. ولم أكن قادرًا على الذهاب قبل أن أتأكّد من الأمر، ولم أعرف إن كنت أنا من فعل ذلك أم لا؛ أعني أنني أعرف ذلك الآن، لكنني لم أكن أعرفه عندها.

وأخيرًا قلت في نفسي، هذا يكفي، من الأفضل أن تذهب من هذا المكان... وهكذا سرت عبر الحي الألماني، شوارع كثيرة صغيرة، الرب وحده يعرف ماذا، وحتى لا أصادف أحدًا، غادرت ذلك المكان من جديد، ثم توقّفت لأستريح عند بوابة المقبرة، واستندت إلى قضبان البوابة هكذا [جعلهما يريان كيف استند إلى القضبان]؛ وفجأة كأني سمعت شخصًا يتكلّم من خلفي. حسنًا، اللعنة عليّ، عذرك يا سيدتي، لقد جاؤوا خلفي أيضًا، وأنا لا أهرب عادة مثلما يهرب أرنب مذعور، يمكنك إدراك ذلك إذا نظرت إليَّ، يا سيدتي السكرتيرة، لكني خفت خوفًا شديدًا، شخص يكلمني في ذلك الصمت، يكلمني هكذا. بالطبع، لم يكن إلا واحدًا من الأشخاص الذين كانوا مشاركين في ذلك القتال، لكنه أدرك أن وقت الفرار قد حان. قال لي، دعنا نتبادل معطفينا فأذهبُ في

هذه الجهة من الشارع، وتذهب أنت في الجهة الأخرى، وسوف نضلّلهم بهذه الطريقة، فأقول له، لا بأس، فلنتبادل معطفينا. لكن شيئًا في ذلك الشخص بدأ يقلقني، فقلت له، اسمع! لن يعجبني الأمر إذا كان معطفك سيسبّب مشكلات لي، وأنت تدرك ما أعنيه، لأنني لا أظن ثانية واحدة أنني أريد أن أكون مسؤولًا عما فعلته أنت! لقد كان شخصًا رخيصًا تافهًا، أعني أن المعطف كان معطفًا قماشيًا رمادي اللون، لكن الربّ وحده يعرف ما فعله ذلك الرجل وهو مرتدٍ معطفه، فقلت له إنني غيَّرت رأيي وعليه أن يجد شخصًا آخر لتبادل المعاطف وأن يعتبر الأمر منتهيًا بيننا. لم أر شيئًا، فقد كان سريعًا كالبرق، ذلك اللعين؛ لقد وثقت به وظننت أنه صديق حقًّا. طعنني تحت لوح الكتف، هنا [فك أزرار القميص حتى يريهما مكان الطعنة]. لكنني، تستطيعين المراهنة بحياتك الحلوة، يا سيدتي السكرتيرة، على أنه كان يريد طعني في قلبي. لكنه أصابني، ذلك الوسخ، فسقطت في الشارع، وعندما صحوت، كان الجرح يحرقني كثيرًا، وكان البرد يقتلني من جديد. ليس هذا أمرًا غريبًا أبدًا لأنني كنت من غير معطف، لقد أخذ المعطف بكل ما فيه -بطاقتي الشخصية، والمفاتيح، والنقود- وكان معطفه الرمادي اللعين، على الأرض، إلى جانبي، فماذا أفعل؟ أسألك، بحق الرب، ماذا أستطيع أن أفعل؟

ارتديت ذلك المعطف، ثم دخلت المقبرة بأقصى سرعتي لأنني كنت واثقًا من أن ذلك الشخص قد فعل شيئًا خطيرًا حقًّا، وأنا لست غبيًا حتى أدعهم يلقون القبض عليَّ بسبب معطف، لكنّي كنت في حاجة إلى ارتداء شيء ما وإلا تجمّدت من البرد. قلت في نفسي إن من الأفضل أن أسير في المقبرة، ولم أجرؤ على الذهاب إلى البيت بسبب حريق السينما، ولم يكن قد بقي عندي ذرة من عقل نتيجة ذلك، ثم ماذا عن الجرح، وماذا عن الدم، وماذا عن الألم، أنت تفهمين، لم تعد لدي قوة تمكنني من الخروج من المدينة، وهكذا -بكلمة واحدة- بقيت هنا. وجدت قبرًا مفتوحًا -مع احترامي للموتى، وتلك الأشياء كلها- فجمعت قليلًا من الحطب عند آخر المقبرة، وتمكّنت من إشعال النار، وأوقفت نزيف الدم مستخدمًا قميصي، وانتظرت حلول الليل. كان من الممكن أن أنزف هناك حتى الموت، يا سيدتي السكرتيرة. لكن بنيتي قوية، وهذا ما جعلني قادرًا على الصمود طيلة ذلك الوقت، ثم تسلّلت عائدًا إلى البيت في النهاية، وبما أنني لم أكن أحمل مفتاحًا، فقد كان عليَّ إيقاظ المرأة العجوز حتى تفتح لي الباب. وبعد أن دخلت

وأغلقت الباب من خلفي، ماذا أفعل من غير بطاقة شخصية، ومن دون نقود، ومن غير شيء؟ أحرقت

المعطف الملعون حتى صار رمادًا، ثم طلبت الطبيب بالسرعة القصوى، هناك طبيب بالقرب من البيت، فجعلته يضمّد الجرح، وأعطاني بعض الأقراص، وبقيت بعدها ثلاثة أيام مستلقيًا على ظهري. حسنًا... لا أعرف، يا سيدتي السكرتيرة، فهذا كل ما لدي، لم أغفل شيئًا. هذا كل ما ارتكبته من خطايا، فضلًا عن بضع مشاجرات في الماضي... لا أعرف كيف ترين الأمر، أعني، لا أعرف إن كنت تظنين أنني أصلح لأن أكون شرطيًا، بالنظر إلى سجلّي، لكن، عندما جاءني النسر ليرى إن كنت أحب أن أتطوع شريطة أن أخبرك بكل ما أعرفه، بصدق تام، قلت في نفسي... نعم، سوف أتطوّع... لأنني، أنا، أظن أنني قادر على أن أكون عضوًا نافعًا في المجتمع، لكني لا أعرف رأيك في هذه الأخطاء القليلة التي وقعت فيها، أعني، لا بأس...

... لا بأس، هزت السيدة إيزتر رأسها بضع هزات وهي تهمهم لنفسها وتحدّق في الطاولة بنظرة صارمة. ثم قالت بعد ذلك، نعم، نعم. شدّت على شفتيها، وتابعت الهمهمة لنفسها. ثم، أخيرًا، نقرت بأصابعها على الطاولة كأنها تنقش فيها رسمًا صغيرًا، ونظرت إلى المرشح -كان يبدو موشكًا على الانهيار- نظرت إليه من الأعلى إلى الأسفل، بضع مرات، ثم غمغمت شيئًا على سبيل الختام... كأنها تخاطب نفسها، «أود أن أرى

الرجل الذي يستطيع كنس هذا كله وإخفاءه تحت السجادة»، ثم بدت كأنها مستعدة لأن توجّه إليه «الضربة القاضية». اعترفتْ لهارر، من فوق رأس المرشّح، إن جاز القول، بأن المشكلة أشد خطورة مما كانت تظنّه من قبل، «فعلى الرغم من كل شيء»، كانت تبحث عن رجال ممن لا غبار على شخصياتهم؛ وعلى الرغم من أن المرء يستطيع وصف المرشّح الحالي بأنه مثير للمتاعب، ولص، ومحتال، ومدنِّس للقبور، وبأشياء كثيرة أخرى، فإن أحدًا لن يفكِّر في وصفه -وهنا، ابتسمت ابتسامة سريعة وجهتها لهارر وحده- بأنه شخص لا غبار عليه! ليست لديها أية رغبة، من ناحيتها، في إثارة الشك في صدقه وإخلاصه؛ لكنها - تنهّدت وهي مستمرّة في النظر إلى هارر- لا تزال ترى، في الحقيقة، أن في هذا الرجل «شيئًا صغيرًا ذا قيمة كبيرة» يمكن العمل عليه... وبالتالي، فهي لا تعرف، وبكلّ صدق، إن كانت قادرة على تحمّل مسؤولية ترشيحه؛ لكنها لن تُقدِم على ترشيحه، إن رشّحته، إلا بعد التشاور مع «شخص مناسب من أصحاب الاختصاص»؛ لكنها واثقة كل الثقة، منذ الآن، أن أحسن ما تستطيع عرضه هو «حد أقصى من فترة تجريبية». «فترة تجريبية...؟»، ابتلع رجل الشرطة العتيد ريقه ونظر إلى هارر علّه يظفر منه بتوضيح لما

قد ينطوي عليه ذلك، أو على تعريف قاموسي بسيط لهذا التعبير، على الأقل؛ لكن هارر لم يكن قادرًا على أن يشرح له شيئًا لأن السكرتيرة ألقت نظرة سريعة على ساعة يدها وأشارت بيدها اليمنى إشارة سريعة إلى الرجل الذي هو يدها اليمنى مفادها أن عليه «إخلاء الغرفة» لأن لا بد لها من المغادرة سريعًا جدًّا. جرّ هارر المتطوّع الخائف الحائر عبر الباب (كان ممكنًا سماعه يوبِّخه وهما سائرين في الممر: «ألا تفهم؟ لقد قبِلَتْك، فكفّ عن المقاومة، أيها الغبي»)، في حين نهضت السيدة إيزتر واقفة وقد عقدت يديها على صدرها، ونظرت من النافذة -بحسب عادتها التي اكتسبتها مؤخرًا- حتى «تطّلع على أحوال العالم»؛ كانت تقول في نفسها، «لا بأس، لم تكن هذه أكثر من خطوة أولى»، لكننا «على الأقل، نتحرّك في الاتجاه الصحيح بوجود أغبياء من هذا النوع»؛ كان هذا جزءًا من التخطيط للمستقبل، وكان هذا هو الأساس الذي ستبني عليه، وستنجح؛ فمع حلول الوقت الذي يكون فيه قد تمّ تعيين مدير جديد للشرطة (لوَّحت للسائق الذي معها في السيارة) سيجد في انتظاره قوة شرطة قادرة، متمتعة بكفاءة حقيقية، متخَمة بأشخاص مدينين للسكرتيرة طيلة حياتهم. تلك هي الأشياء التي يتعيّن فعلها، قالت هذا لنفسها متأملة وهي ترتدي معطفها

الجلدي وتدخل أزراره المعدنية في مكانها، واحدًا بعد آخر. لقد كانت هذه احتياطات ضرورية، احتياطات فكّرت فيها بكلّ عناية، وبكل انتباه أيضًا... احتياطات «لا يمكن أن تنهار مثلما ينهار حلم يقظة صغير لطيف لأنها مبنية على حقائق صلبة ملموسة لمس اليد». حقًا، ما الذي يجوز اعتباره مهمًّا غير هذا؟ -تفقّدت حقيبة يدها من جديد- غير «الأهلية للوظيفة»؟ بل إن أهم شيء على الإطلاق هو عدم «الخضوع» أبدًا للأوهام، للأوهام التي هي أفكار من قبيل «إن نوايا الناس حسنة؛ أو، هناك ربٌّ خيّرٌ، أو قوةٌ خيّرةٌ ما، يرعى شؤون بني البشر»، فهذا كلّه ليس أكثر من لغوٍ فارغٍ لا معنى له، ليس أكثر من أكاذيب شديدة الضرر (خرجت إلى الممر)، أكاذيب ليست مستعدة، من ناحيتها، «لأن تبتلعها» أبدًا؛ وأما عن «الجمال»، و«مشاعر الصداقة والزمالة»، و«الخير الموجود في داخلنا»... من فضلكم! كانت تكوِّر خديها وتنفخ ضجرة عند ذكر كل واحد من هذه التعابير؛ فحتى إذا أرادت أن تعبّر بطريقة زائدة الشاعرية، فإن أفضل ما تستطيع قوله هو أن المجتمع (عبرت البوابة في طريقها إلى خارج البيت) ليس إلا «مستنقع عفن من المصالح الشخصية الصغيرة». إنه مستنقع ـ كشرت وهي تجلس على المقعد الخلفي في سيارة الفولغا السوداء: مستنقع تعصف

الريح بالقصب الذي فيه. وفي هذه الحالة، تكون هي الريح المعنية، هي الريح نفسها. انتظرت إلى أن جلس هارر في مقعد السيارة الأمامي، ثم قالت ببساطة -بعد أن جلس- «فلننطلق»، ثم استندت إلى ظهر مقعدها الوثير المغلّف بجلد اصطناعي أصفر اللون وراحت تنظر إلى البيوت التي تمر بها. كانت تنظر إلى البيوت، لكن أكثر الناس القادرين على المشي كانوا، الآن، قد ذهبوا إلى المقبرة، ولم يبق في الشارع إلا بعض المواطنين المُجدّين العاملين أمام بيوتهم؛ وكما يحدث دائمًا عندما تجلس في السيارة، في «مركز القيادة المتحرِّك» هذا، أتاها إحساس سحري لا يضاهى، إحساس بأنها «تمر بكل شيء سابحة». وكانت تستطيع أن ترى بأقصى قدر من الوضوح -كأنها صاحب أطيان يقود سيارته في عزبته- كانت تستطيع أن ترى أن هذا كلّه لها، مقدّر لها، لأن الخطط الرامية إلى جعله لها كانت سائرة على أحسن وجه؛ وإلى ذلك الحين، ابتسمت عبر نافذة سيارة الفولفا، «يمكنكم أن تعملوا قدر ما تحبون، بعرباتكم وبفؤوسكم، لأننا سنبدأ بأرواحكم عمّا قريب...». لم يكن هارر نفسه مدركًا أن «الفناء المرتّب»... كناية تشير إلى المرحلة الأولى فقط من مراحل الحركة، ولم يكن يعلم أن الجزء الخاص بـ«البيت الذي يسوده النظام» -وهنا، انعطفت السيارة

من شارع سان ستيفان ودخلت المقبرة المركزية- كان شيئًا ليس مقرَّرًا له أن يأتي إلا بعد أن تصير الشوارع والحدائق في غاية النظافة والترتيب، وبعد أن يصير، «في وسعك أن تتناول طعام الإفطار على الرصيف»، أي عندما ستقوم «لجنة المسابقة» بجولة شاملة تزور فيها كل بيت، وعندها سوف تقدّم بنفسها، جوائز كثيرة، من عندها، جوائز أكثر بروزًا من الجوائز التي ستقدِّمها «لجنة البيت الذي يسوده النظام»، جوائز من أجل «نمط الحياة الأكثر بساطة وعملية». إلا أن السيدة إيزتر لامت نفسها قائلة إن علينا ألا «نستبق الأمور»، فلا بد لنا الآن من التركيز على ما هو ماثل أمامنا مباشرة -الدفن، على سبيل المثال-. هذا ما كانت تفكر فيه وهي جالسة في سيارة الفولفا، تنظر إلى الحشد العظيم قبالة النعش... فلا يجوز أن تكون هناك أية عقبات تعترض هذه المناسبة ذات المغزى الكبير، ولا بد أن «يسير كل شيء بدقّة الساعة»، لأن هذه هي فرصتها الأولى لمخاطبة الجمهور التوّاق إلى التجديد وإلى لقاء قائدته... فهذا، هذا ما سيكون أول ظهور عام «حقيقي» لها، وأول فرصة تحظى بها لكي تُشيد «باتحادهم». قالت منبِّهة هارر: «سوف نرى الآن إن كنا نستحق ثقة الناس»، ثم ترجَّلت من السيارة وسارت بخطواتها القويّة الحاسمة المعتادة وتقدمت من النعش

مجتازة جمع الناس الذين أفسحوا لها الطريق من فورهم، ثم بلغت النعش فوقفت عند رأسه ونقرت بإصبعها مرتين على المايكروفون حتى تتأكّد من أنه جاهز، وبعدها حركة أخيرة: نظرت إلى المشهد الذي أمامها نظرة صارمة اشتملت عليه كلّه حتى تطمئن إلى أن الرجل الذي هو يدها اليمنى قد أنجز ترتيبات الجنازة على أحسن وجه. كانت الأوامر التي أعطتها قبل ثلاثة أيام من ذلك قد نصّت على أن تكون مراسم الجنازة والدفن تعبيرًا عن روح العهد الجديد، وهذا ما لم يكن معناه منحصرًا في التخلّص من حضور الكنيسة فحسب، بل أيضًا الاستغناء عن «الحواشي الزائفة المعتادة كلها»: ينبغي على هارر أن يرمي بعيدًا «القمامة الزائدة» كلّها، وأن «يضفي على المناسبة كلّها طابعًا اجتماعيًا»؛ وهذا ما فعله حقًّا. أومأت بإشارة تحيّة إلى المنتج صاحب الطموح الكبير، واستعرضت بعينيها التابوت المصنوع من خشب غير مسوّى الذي كان موضوعًا على لوحٍ خشبيٍّ ضخمٍ بسيط، لكنه ملمّع تلميعًا حسنًا، وإلى جانبه صندوقٌ صغير أحمر مفتوح (كان في الصندوق النقش الذي سيوضع في القبر، «من أجل تقدم نَشِط متميز»، لكنه خبيء الآن، بالطبع)، وكانت الغاية منه عرض الوسام «الممنوح بعد الوفاة» الذي يبرز مكانة الفقيدة؛ وبدلًا من الشمعدانات المتشعّبة

المعتادة ـ لعل هذا كان مفاجئًا بعض الشيء، لكنه أحدث تأثيرًا غير قليل ـ وقف اثنان ممن كانوا يساعدون هارر، وقد ارتديا الآن، نظرًا لضيق الوقت، ملابس الفرسان وحملا سيفين عظيمين عريضين من البلاستيك (مستعارَيْن من متجر الملابس التنكرية) في قبضتي يديهما القويتين؛ كانت الغاية من وجودهما أن يكون هناك تذكير مشهدي للجمهور بالسبب الذي جعله يجتمع هنا، ألا وهو دفن تلك الشخصية البطولية التي صارت مثالًا يحتذى. راحت تنظر إلى التابوت الذي يحتوي على جثمان السيدة بلوف في حين هدأت أصوات الجمهور بعد أن أدرك الناس أن الأمر «موشك على البدء»، وتذكّرت زيارتها لها «قبل الثورة» ـ من الممكن الآن استخدام هذا التعبير! كانت تتساءل في نفسها، من عساه كان قادرًا في ذلك الوقت على التفكير في أن أسبوعين بعد ذلك، أسبوعين فقط، سيكونان كافين لجعل هذه «البطلة الصغيرة» -عن طريقها- بطلة نموذجية؟ ومن كان يمكن أن يظنّ، في تلك الليلة عندما خرجت من الشقة الدافئة دفئًا خانقًا، عندما خرجت بذلك المزاج السيئ، أن تلك الفكرة ستخطر في ذهنها بعد ستة عشر يومًا فقط... فكرة وقوفها هنا، إلى جانب التابوت، غير غاضبة على الإطلاق، بل حزينة عليها حقًا -لا معنى لإنكار هذا- حزينة بعض الشيء وهي تتذكَّر شكل

السيدة بلوف وتصرفاتها البلهاء. على أن ما أصابها، مهما يكن ما أصابها -واصلت التأمّل والنظر إلى التابوت- كان ناتجًا عن خطأ منها لأنها لم تستطع احتمال «الخُزي»، مثلما وصفتها جارتها، فخرجت بعد حلول الظلام لكي تجرّ ابنها من أذنه في الشارع، فكان خروجها في ذلك التوقيت -هكذا شاء حظّها، بكل بساطة- هو ما جعلها تصادف مخرّبًا كان يحاول التنكّر، ذلك المخرب الذي -بحسب الشهود الذين كانوا ينظرون مختبئين خلف نوافذ بيوتهم في شارع كاراسوني يانوس- «كرّس» خمس دقائق من وقته الثمين لكي «يسلّي نفسه بها» بأحط طريقة ممكنة قبل أن «يُسكِتها». توصّلت، وبوجه حزين، إلى أن هذه مأساة شخصية على الرغم من أنها وفّرت لها حظًا طيبًا... انعطاف مأساوي حقًّا في مجرى الحوادث عند نهاية «حياة محمية جيدًا»؛ وذلك أنها -بعد كل حساب- كانت آخر من يستحق مصيرًا كهذا المصير، فهي لم تكن مستعدةً له... لكنّها، على الأقل، هذا ما قادتها إليه تأملاتها وهي تودّعها، تحظى الآن بوداع يليق بالأبطال. عند هذه النقطة، فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها نسخة مطبوعة من الكلمة التي ستلقيها، ولما رأت انتباه الجميع مركّزًا عليها، تأهّبت، وأخذت نفسًا عميقًا. لكن، تمامًا عندما أخذت نفسًا عميقًا، ونتيجة خلل في الترتيبات، برز

أربعة «فرسان» جدد من خلفها فتقدّموا، قبل أن تتمكّن من اعتراض سبيلهم، وتناولوا لوحين خشبيين مقطوعين بالطول المناسب فوضعوهما تحت النعش، ثم رفعوه - بحسب التعليمات التي كانت لديهم- وانطلقوا سائرين في اتجاه حشد المشاركين في الجنازة؛ فما كان من أولئك الناس الذين اعتادوا الإجراءات غير المألوفة إلا أن أفسحوا الطريق أمامهم من غير أي سؤال. سددتْ نظرة قاتلة إلى هارر الذي كان قد احمرّ احمرارًا شديدًا، وكان واقفًا كأنه مسمّر في مكانه؛ لكن ذلك لم يكن ليجدي فتيلًا: إن كانت الأمور هكذا، فما من شيء يمكن فعله غير الانطلاق خلف «الفرسان» الأربعة الذين كانوا يشقّون طريقهم عبر الحشد المرتبك متّجهين، بنشاط ظاهر، صوب القبر المعَدّ حديثًا؛ وكان واضحًا عليهم سرورهم الكبير بأنّهم، هم أصحاب البنية الجسدية القوية الذين كانت السيدة بلوف أخف من ريشة بالنسبة إليهم، قد وقع الاختيار عليهم للقيام بهذه المهمّة الجليلة. لم تكن الخطيبة وحدها من وجد نفسه مرغمًا على مواكبتهم، بل المجتمعين كلهم أيضًا ـ إلا من أراد منهم أن يتخلّف عن الآخرين! وفوق هذا، كان على كل شخص -بغية الاحتفاظ بشيء من اعتباره- أن يخفي حقيقة أنه «يجري خلفهم». إلا أن هذه لم تكن أكبر المشكلات، فقد كانت المشكلة الحقيقة مشكلة النعش نفسه لأن

«الفرسان»، على الرغم من همسات وصفرات التحذير المنخفضة الكثيرة، واصلوا سيرهم النشط منتشين طربين، غير منتبهين إلى أن النعش كان يتمايل ويهتز منتشيًا مثلهم، لكن، على نحو أكثر خطورة! بلغوا القبر لاهثين، متقطِّعي الأنفاس، بلغوه على نحو يستحق الثناء في ظل هذه الظروف؛ وليس «من باب المبالغة في شيء» القول إن الجميع شعروا بارتياح شديد عندما رأوا أن النعش لا يزال سليمًا. لقد رسّخت غرابة هذه «الرحلة الأخيرة» المصحوبة بهمس متواصل من غير انقطاع إحساسًا بالزمالة الحقيقية بين «الفرسان الأربعة»، فوقفوا مستعدين لإلقاء تحية الوداع الأخيرة لحظة انصبّ انتباه الجميع على السيدة إيزتر التي تمكّنت أخيرًا من بدء كلمتها وهي تحمل بيدها ورقتين ترفرفان في الهواء.

يعرف المجتمعون هنا أن الحياة تنتهي بالموت. وقد يقول بعضكم الآن في نفسه إن ما من جديد في هذا؛ لكن، كما يقول الشاعر، ما من شيء جديد تحت الشمس! الموت قدرنا؛ وهو نقطة النهاية في آخر السطر، ولا يستطيع أي طفل يولد اليوم أن يأمل في الإفلات منه. ندرك هذا كلنا، لكن الحزن الذي نحسّه ليس هو ما يجمعنا كلنا، حتى في هذه اللحظة، بل هو ذلك التصميم الذي لدينا، تلك الروح المعنوية المرتفعة، لأن تلك

المرأة التي ندفنها اليوم، مواطنتنا العزيزة على قلوبنا، بعيدة كل البعد عن أن تكون شخصية عادية. لست أحب الكلمات الكبيرة والعبارات المنمّقة، وهذا ما يجعلني أقول إننا، اليوم، نودّع كائنًا بشريًا حقيقيًا. نقف هنا إلى جانب القبر، نقف جميعًا، كبيرنا وصغيرنا، شيخنا وصبينا، نقف لأننا راغبون في الوقوف هنا، عند آخر محطّة في حياة هذه الإنسانة، إنسانة نحبها، إنسانة فعلت ما يتعيّن عليها فعله، إنسانة كانت مضرب المثل، إنسانة نحتفي كلنا بحياتها، الآن خاصة، أمام موتها. وعندما نحتفي بحياتها، نحتفي بشجاعتها، نحتفي بالشجاعة التي تجعلنا جميعًا أنتم، وأنا نشعر بالخجل؛ نشعر بالخجل يا أعزائي المواطنين لأن هذه المرأة البسيطة كانت الشخص الوحيد من بيننا الذي تجرأ على مقاومة أولئك الذين لم يقاومهم أحد منا. فهل كانت بطلة؟ إنني أطرح السؤال على نفسي! أجل، بكل تأكيد. تلك الكلمة النبيلة هي الكلمة الصحيحة عندما نتكلم عن السيدة جوزيف بلوف، وأنا أتبنى هذه الكلمة من كل قلبي. لقد خرجت تبحث عن ابنها في تلك الليلة المضطربة؛ خرجت تبحث عن ابنها، ولكن، يا أعزائي المواطنين، أنا أعرف، وأنتم تعرفون، وهي كانت نفسها تعرف، أنها فعلت ذلك نيابة عنا جميعًا، فعلته لكي تجعلنا نرى أن الشجاعة والروح القتالية لم تموتا تمامًا في زماننا الذي اعتدنا فيه أن

نكون محميين. إنها تبين لنا كيف ينبغي أن نعيش؛ وهي تبين لنا معنى الحفاظ على بشريتنا في أحلك الظروف وأبعدها عن أن تكون ظروفًا مواتية لنا؛ وهي تجعلنا نرى، وتجعل الأجيال القادمة كلها ترى، كيف ينبغي لنا التصرف إن كانت قلوبنا في المكان الصحيح. نودِّع اليوم أمًا لها ابن عاق. أرملة ظلّت وفية بعد موت زوجين، امرأة بسيطة كانت تحب الجمال، امرأة ضحّت بحياتها حتى نستمتع بحياتنا ونتمتع بها. إنني أراها الآن، في تلك الليلة المخيفة، أراها تقول لنفسها: هذا أمر لا يطاق أبدًا! أراها ترتدي معطفها، أراها تقاتل في ظل ظروف غير مواتية. يا أعزائي المواطنين؛ كانت تعرف أن فشلها محتمل؛ وكانت تعرف أن أطرافها الضعيفة غير كافية لخوض صراع محتوم مع أولئك الأشرار اليائسين؛ كانت تعرف هذا كلّه، لكنها لم تتراجع أمام الخطر لأنها كانت كائنًا بشريًا، كائنًا بشريًا لا يستسلم أبدًا. لقد غلبتها الكثرة، فماتت؛ لكني أقول لكم إنها من انتصر، وإن قتلتها هم الذين ماتوا وانتهوا؛ هذا لأنها، في وحدتها، كانت قادرة على إنزال الهزيمة بهم من حيثإن الذين اعتدوا عليها صاروا محلًا للمقت والسخرية، لقد أذلّتهم! كيف؟ أذلّتهم بمقاومتها، بعدم استعدادها للاستسلام من غير قتال؛ فهي قد خاضت المعركة وحدها، وهذا ما يجعلني أقول

إن النصر كان لها. اذهبي الآن، اذهبي أيها السيدة جوزيف بلوف، اذهبي إلى مثواك الخالد الذي تستحقين، وارتاحي من معاناتك: روحك وذكراك وقوتك تضرب لنا كلنا مثلًا على البطولة؛ وأنت باقية معنا. أنت باقية معنا لأنك لنا: لم يمت منك إلا الجسد الفاني. ونحن نعيدك الآن إلى الأرض التي أنجبتك، وليس يُبكينا أن عظامك سوف تستحيل ترابًا، ليس يبكينا لأن حضورك الحقيقي لا يزال هنا، معنا، لا يزال هنا إلى الأبد؛ ولن تحظى عوامل الخراب إلا بالتراب الباقي منك.

كانت عوامل الخراب التي أُطلق سراحها تنتظر في حالة سبات ريثما تتوفّر الشروط الضرورية؛ وسوف تظلّ منتظرة إلى أن تتوفّر تلك الشروط. وعندها، سوف تستأنف صراعها الذي توقّف، سوف تستأنف ذلك الهجوم الذي لا يعرف رحمة، الهجوم ذا النتيجة المقرَّرة مسبقًا، فتفكِّك كل ما كان حيًّا، تفكّكه مرة وإلى الأبد، وتحيله إلى أجزاء ضئيلة لا أهمية لها تحت غطاء الموت الأبديّ الصامت. إن الشروط غير المواتية مستمرة منذ أسابيع، بل منذ شهور: إنها الشروط الخارجية، أو بالأحرى، هي درجة الحرارة في الخارج التي كانت أدنى كثيرًا مما ينبغي لها أن تكون؛ ونتيجة ذلك، تجمَّدت تلك العملية التي كان ينبغي لها أن تنتهي

فصارت صلبة كالصخر، وفقد المهاجمون الذين صعقهم البرد قوَّتهم فصاروا عاجزين لأن الجسد المحكوم بالفناء قد تصلَّب في ذلك البرد الشديد فلم يحدث له شيء؛ جمود شامل تام اكتنف الميدان كله فحوَّل الجسد إلى تمثال شمعيّ لا يتغير، وجعله وجودًا من غير محتوى، أو ثغرةً فريدة في الزمن... وتباطأ كل شيء حتى صار توقُّفًا مطلقًا. ومن بعد ذلك تأتي صحوة بطيئة، بل شديدة البطء؛ يتحرَّر الجسد من أسره الجليدي، ويعود الهجوم إلى التقدّم بضراوة متزايدة تزايدًا متواصلًا. يتركز الهجوم الآن على مادة العضلات الألبومينية، فيصير تبادلًا خفيًّا للمواد، تبادلًا وحيد الجانب لا سبيل إلى مقاومته؛ وتواصل إنزيمات الأدينوزين ثلاثي الفوسفات هجومها على القلعة المركزية لمستوى الطاقة العام، أي على الأدينوزين ثلاثي الفوسفات؛ مما يؤدّي إلى جعل طاقة الأنسجة الخلوية الممزقة التي انتهت إلى وضع لا يمكن الدفاع عنه مرتبطة بتفكك الأبتوميوسين المرتبط بالأدينوزين ثلاثي الفوسفات، مما يؤدي، لا محالة، إلى تقلّص العضلات. وفي الوقت نفسه، يصير التفكّك المستمر والتقلص الطبيعي للأدينوزين ثلاثي الفوسفات غير قابل للتعويض من خلال مصدر للأوكسجين، ولا من خلال التحلل؛ ونتيجة الانعدام الكامل لعملية إعادة التركيب، يبدأ تراجع الجهاز كلّه، بحيث إنّ تقلّص

العضلات يعقبه، في النهاية، تيبّس الموت، وذلك بمواكبة متواصلة من جانب حمض اللبن الذي يزداد تراكمه. ويكون هذا بدوره خاضعًا لقانون الجاذبية الأرضية، فيتعرض الدم المتجمِّع في أعمق نقاط ذلك النظام العجيب الذي يكون الهدف الأول للهجوم -حتى الهزيمة النهائية المفنية، على الأقل- واقعًا تحت هجمة ذات شعبتين تستهدف محتواه من الفيبرين. وذلك أن مولّد الفيبرين الذي كان، في مراحل الهجوم الأولى، بل حتى قبل وقف إطلاق النار، يدور بصورته السائلة ضمن الجهاز القلبي الوعائي، يفقد الآن زوجين من الببتيدات من الترومبين النشط الذي فيه، وتتجمَّع جزيئات الفيبرين التي تشكَّلت نتيجة ذلك في كل مكان فتصير مادة معلّقة مكونة من سلاسل متّصلة تتمتّع بمقاومة عالية. إلا أن شيئًا من هذا لا يدوم طويلًا لأن مولِّدات البلازمين، التي تفعّلت فتحوّلت إلى بلازمين عقب حالة نقص الأوكسجين الناجمة عن الموت، تُفكِّك سلاسل الفيبرين إلى ببتيدات عديدة، وهذا ما يجعل الصراع الذي يقلب العملية التي تسمح للدم بالجريان (العملية التي صارت الآن تدعم الهجوم من الاتجاه الآخر من خلال كميات كبيرة من الأدرينالين الذي يتميَّز بقدرته على حل الفيبرين وتفكيكه) ذا نتيجة محسومة؛ وهذا ما يضمن، في الوقت نفسه، نجاحًا مدويًا للوحدات

المكلفة بمواجهة تخثر الدم. تكون المعركة التي تخاض في مواجهة تلك الحالة المعلّقة محفوفة بصعوبات أكبر، ومن المؤكد أنها يمكن أن تستغرق وقتًا أطول، لولا طبيعة الوسط السائل التي تبسّط المهمة بعض التبسيط، وذلك بحيث تصير المرحلة التالية -مرحلة إزالة خلايا الدم الحمراء- وشيكة الحدوث. ومع ما يصاحب ذلك من تقلُّصٍ يطرأ على قدرة النسج على مقاومة السائل، فإن المادَّة بين الخلايا تتجمَّع في الروابط ضعيفة التماسك من حول الأوعية الدموية الكبرى، وهذا ما يؤدِّي إلى جعل أغشية الخلايا الدموية نَفوذةً فيبدأ تسرب الهيموغلوبين منها. تفقد خلايا الدم الحمراء العناصر التي تلوِّنها، فتختلط تلك العناصر بالسائل الذي لا يقاوَم، وتلوّنه، ثم تتسرب عبر الأنسجة فتضمن تحقّق نصر كبير آخر لقوى الخراب التي لا يقف شيء في وجهها. ومن خلف خطوط هذا الهجوم المنّسق تنسيقًا حسنًا، في لحظة الموت نفسها، يتمرّد الأعداء الداخليون للعضوية العاجزة التي كانت عجائبية القوة في ما مضى، وتطلق هجومًا متزامنًا على العضلات والدم معًا، فتتغلب على كل عقبة تعترض تقدّمها، تتغلب على الكاربوهيدرات والشحوم، وخاصة على آلية الألبومين التي كانت، في ما مضى، آلية لا مثيل لها، وذلك على نحو شديد الشبه بـ«ثورة القصر». تتألف الكتيبة مما يدعى «الأنسجة

الخلوية المتخمِّرة»، وتكون المناورة من النوع المعروف بـ«الهضم الذاتي التالي للموت»، لكنها لا تترك أي مجال للشك في أن هذا الاختيار للأهداف، الموضوعي في ظاهره، يخفي الحالة المؤسفة للوضع، لأن من الأكثر صحة اعتبار ذلك «تمرّدًا تحت السلم». إنهم الخدم الخونة، أولئك الذين يخضعون لرقابة دائمة عندما تكون العضوية ضاجّة بالحياة، رقابة يمليها عليهم نظام بأسره من الحاصِرات، يمليها على نشاطاتهم التي ينبغي أن تظل منحصرة ضمن مهمة تفكيك المواد وتحضيرها في مخازن الإمبراطورية كلّها؛ لكنها تتجاوز الآن حدود المهمة الموكلة إليها، وقد تبدأ مهاجمة العضوية نفسها التي كان مفترضًا أن تخدمها، وهذا ما كان يقتضي يقظة شديدة دائمة من جانب الحاصرات حتى تبقيها تحت السيطرة. يكفي أن نأخذ مثالًا واحدًا على هذا: الإنزيم الحال للبروتين، إنزيم البروتياز، الذي تكون مهمته الأصلية القيام بدور الوسيط من أجل حلمهة الكريات البيضاء من خلال تفكيك الروابط الببتيدية، والذي كان الموسين، بعمله القوي، يمنعه من القضاء على المادة الألبومينية بمعونة من حمض كلور الماء في المعدة. نرى الأمر نفسه في حالة الكاربوهيدرات والدُّسم حيث يكون الفوسفات ثنائي نيكوليوتيد النيكوتين وتميم الأنزيم آ، من ناحية أولى،

والليباز والأحماض الدسمة منزوعة الهدروجين، من ناحية أخرى، مجبرة على البقاء في عهدة فصيل من الحاصرات التي لا يمكن من دونها منع الفرار المشترك للأنزيمات المختزِلة. وأما الآن، فما من شيء يستطيع إبطاء تقدّمها لأن ما من مقاومة تواجهها؛ بالتالي، فإن «ثورة القصر» تكون قد اندلعت مع بدء زيادة الحرارة ووصولها إلى درجات مواتية، أو يمكن القول إن تلك الثورة تُستأنف، ويبدأ الدم الموجود في عروق الغشاء المخاطي للمعدة تفكيك أجزاء من جدار المعدة بعد أن تحوَّل إلى لمعة دموية حامضية؛ وهكذا فإن الفوج المؤلف أساسًا من الببتين وحمض كلور الماء يصير قادرًا على إطلاق هجومه ضد بقية الحلفاء في التجويف البطني. ونتيجة مساعي الوحدة الأنزيمية المستعبدة، يتفكك الغليسوجين في الكبد إلى عناصره البسيطة، ويلي ذلك تحلّل ذاتي للبنكرياس؛ إن مصطلح «التحلل الذاتي» هذا يلقي ضوءًا كاشفًا على الحقيقة التي يخفيها، ألا وهي أن كل عضوية حيّة تحمل في داخلها، منذ لحظة ولادتها بذور فنائها نفسه. على أن الجزء الأكبر من العمل لا يمكن أن يستمر إلا ببطء، وما من شك في أن السبب في ذلك البطء هو النقص النسبي للأوكسجين، في حين تسير عملية الفساد والتعفّن على قدم وساق؛ ويمكن القول إن المركّبات النتروجينية، بما فيها

العضويات المجهرية الموكلة إليها عمليات تفكيك الألبومين، تواصل أداء مهمتها؛ ولا تلبث تلك العضويات المجهرية أن تتعزّز بفعل مقاتلي الخط الأمامي فتبدأ معهم عملها بين الأمعاء التي تحتوي على أعداد هائلة منها؛ ومن هناك، تصير قادرة على توسيع نطاق سيطرتها حتى يشمل الميدان كله. وبمعزل عن عدد من الجراثيم اللاهوائية، فإن المكوّن الأول لبطارية المدفعية هو، عوامل الفساد اللاهوائية، على أن ذكر الوحدات الكثيرة التي تتألّف منها هذه القوات يكاد يكون شبه مستحيل، فإلى جانب الأنواع الكثيرة من البكتيريا (منها المتقلّبة الاعتيادية، والمساريقية الرقيقة، والروزنية الصفراء البايوسينية، والعِقدية المُقيِّحة)، هناك كميات كبيرة من العضويات المجهرية الأخرى التي تقوم بدورها في تلك المعركة الحاسمة التي تحدث اشتباكاتها الأولى في الأوعية الدموية تحت الجلد، ثم في جدران المعدة والمنطقة الإربية، ثم بين الأضلاع وفي القنوات الواقعة فوق عظم الترقوة وتحته، حيث يعمل سلفيد الهيدروجين الناتج عن عملية التعفّن، بالمشاركة مع الهيموغلوبين الموجود في الدم، على إنتاج الفيردوغلوبين الذي يتعاون بدوره مع الحديد الموجود في صباغ الدم (أي في سلفات الحديد) على غزو العضلات والأحشاء الداخلية. ومن جديد، بفضل قوى

المقاومة، تواصل سوائل الجسم التي تحتوي على صباغ الدم اختراق الأنسجة التي يسير تفكّكها بخطوات ثابتة، وتتواصل الهجرة الجماعية لمواد البناء الأساسية إلى أن تبلغ سطح الجلد حيث تبدأ تدفّقها خارجة إلى الأعماق. وعلى نسق موازٍ لهذا الانحلال التغايري الجاري، يجري نشاط عضويات مجهرية لا هوائية تدعى «الحاطِمة المِطثية» كلوستريديوم بيرفرنجنز) التي هي بكتيريا شديدة الفعالية تتكاثر في الأمعاء بسرعة كبيرة، فتبدأ العمليات الخارجية في المعدة والأوعية الدموية، ثم تنتشر هذه العملية سريعًا عبر الدم كله فتسبّب نفطات في حجرات القلب وتحت الرئتين، وتساهم مساهمة كبرى في التشكّل الأولي للنفطات على الجلد المتفسِّخ الذي ينتهي به الأمر إلى التقشر. وأما مملكة البروتينات التي كانت منيعة في وقت من الأوقات، تلك المملكة التي تبدو للوهلة الأولى شديدة التعقيد لكنها منطقية العمل، فإن انهيارها الهادئ يبدأ الآن: تنهار ببتونات الألبوموس أولًا، وتليها مجموعة الأميدات، والمواد الأروماتية النتروجينية وغير النتروجينية، وأخيرًا تتفكَّك الأحماض العضوية الدسمة: تتشكَّل من هذه الأحماض الدسمة أحماض متنوعة من بينها حمض النمل، وحمض الخل، وحمض الزبدة، والحمض الفاليري، وحمض البالميتيك، وحمض الستياريك، وبعض المنتجات النهائية غير

العضوية التي من بينها الهيدروجين والنتروجين والماء. وبعون من النتريتات والبكتيريا النتريتية، تزحف الأمونيا الموجودة في التربة على صورة أملاح، بعد أن تأكسدت فتحوّلت إلى حمض النتريت، فتصعد عبر الدروب الضيقة في النباتات حتى تعود إلى العالم الذي جاءت منه. وهناك بعض الكاربوهيدرات المتحللة التي تذوب في الهواء، كثاني أكسيد الكربون مثلًا، التي يمكن -نظريًا، على الأقل- ولو مرة في حياتها، أن تشارك في عملية التركيب الضوئي. وهكذا، فعبر قنوات دقيقة كثيرة، تلتقي تلك المواد عضويةً متفوقة تتولى توزيعها، بدقّة، إلى أشكال وجود عضوية وأشكال وجود غير عضوية؛ وعندما تتخلّى، بعد مقاومة طويلة صلبة، الأنسجةُ الباقية، والغضاريف، وأخيرًا العظام، عن الصراع الميؤوس منه، لا يبقى شيء منها، ولكن أية ذرة لا تضيع أبدًا. فكل ما كان هناك يظل هناك، وكل ما في الأمر أن ما من محاسبٍ قادرٍ على إجراء جرد لتلك المكوّنات كلها؛ لكن تلك المملكةً التي وُجدت مرة، مرة واحدة فقط، تكون قد اختفت إلى الأبد وسُحقت فصارت أجزاء متناهية الصغر نتيجة اندفاعة العماء والفوضى التي تتمكّن بلورات الانتظام فيها من البقاء حية... إنها الفوضى المتشكِّلة من حركة تبادل بين الأشياء، حركة لا مبالية لا يمكن إيقافها. إنها تطحن الإمبراطورية كلها

إلى كربون وهيدروجين ونتروجين وكبريت؛ وهي تأخذ أليافها الدقيقة وتفكك عراها كلها إلى أن تتفرّق أشتاتًا وتكف عن الوجود لأن قوةَ قضاءٍ مرسومٍ بعيد لا سبيل إلى فهمه قد التهمتها؛ تلك القوة التي لا بدّ أن تلتهم هذا الكتاب أيضًا، هنا، الآن، عند نقطة النهاية بعد الكلمة الأخيرة.